دار اليقظة العربيّة للتأليف والترجمة والنشر بسوريّة



نيقولاس جوجول

النفوس الميتة

ترجمـة

انطون حمصي   يوسف بنـا

سلسلة عيون الأدب العالمي

١٧

المقدمة

لا ريب في ان نيقولاس جوجول لم يلق من الدارسين والمعربين الحظوة التي لاقاها كبار الكتاب الروس امثال تولستوي ودستويفسكي وتورجنيف وجوركي وسواهم . ومع ذلك فان مؤلف « النفوس الميتة » و« تاراس بوليا» و « المفتش العام » يستوي على قمة وحده في الادب الروسي الكلاسيكي .

وجوجول دون منازع سيد في فن رسم الطبائع البشرية ، في فضائلها ونقائصها ، واعجابنا يجب ان يكون شديداً بالفكر المتفهم الساخر الذي قضى ثلاثة واربعين عاماً مقتنعاً ان مهمته – كما قال – هي دراسة الحياة ، في مدها وجزرها . من خلال البسمة التي يراها الناس والدموع التي لا يرونها .

لقد درس جوجول في مؤلفاته المجتمع الروسي، وكان بين الكتاب الروس اكثرهم واقعية وابتعاداً عن الصوفية الهوائيـــة ولد نيقولاس جوجول في التاسع عشر من شهر آذار عام ١٨٠٩ في قرية سوروتشنك الواقعـــه على حدود حكومتي بولتوفا وميرغورود . وقد خلد فيما بعد اسم ميرغورود في قصص اشهرها تاراس بوليا . واجداد جوجول ينتمون الى اسرة روسية صغيرة وقد كان احدهم تلميذا في دير كييف ولمحة سريعة عن ماضي او كرانيا تسمح

لنا باكتشاف أصول بعض مظاهر طبيعة جوجول من مزايا عنصره .

ففي القرن الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر ، بينما كانت روسيا الداخلية ترزح تحت العبء الثقيل الذي خلفه غزو التتر ، كانت روسيا الغربية تتابع ، في احسن الظروف ، تقدمها العقلي . وفي الوقت الذي كانت فيه موسكو غارقة في ظلمات الجهالة ، كانت مطابع اوكرانيا تخرج اول الكتب . واخيراً اقامت اكاديمية كييف التي قدمت فيما بعد الى اكاديمية موسكو اساتذة عمت شهرتهم اوربا .

كانت اوكرانيا - وهي تهمنا بشكل خاص لأن جوجول ابنها - خلال مدة طويلة ، ميدان نزاع بين موسكو فيما الارثوذكسية وبولونيا الكاثوليكية وقد انتصرت فيها الديانة الارثوذكسية نهائياً . ولكن تأثير اليسوعيين ، الذين كانوا منتشرين في بولونيا ، لم يتوار قط .

ولاشك ان انانية اليسوعيين ورغبتهم في السيطرة التي وصلتهم الى الحروب الدينية كانت اشياء تتنكر لها الانسانية . ولكنهم في نفس الوقت كانوا يملكون ثقافة سيكولوجية لم يكن الروس يعرفون شيئاً عنها . فقد كانوا يدركون اسرار النفس البشرية ودوافعها فاستطاعوا ان يعلموا اسكان غربي روسيا اشياء كثيرة عن تحليل النفس الانسانية . وقد انشئت اول مـــدارس اوكرانيا واكاديمية كييف على غرار المؤسسات المدرسية الكاثوليكية في بولونيا . وكانت برامج الدراسات مأخوذه من البرامج اللاتينية . ولا شك ان جد جوجول عندما دخل الدير تمثل احسن ما في الطبيعة اللاتينية نعني المرونة والخفة وحسن التلاؤم مع الاحداث وروح الواقعية والسخرية؛ وهي صفات اصبحت فيما بعد من خصائص عبقرية نيقولاس جوجول .

وهذه الصفات الاساسية تميز جوجول عن عملاقي الادب الروسي : تولستوي ودستويفسكي . فقد كتب مؤلف الحرب والسلم ومؤلف «الاخوة كرامازوف» بدماء قلبيهما ودموع عيونهما عن فضائل العرق السلافي ونقائصه وعاشا هـــذه

الصفات ولم يتحررا منها حتى الموت ارغم اهتمام تولستوي بالتسامي على نفسه ورغم صيحات دستويفسكي المتألمة التي عاشت الآلام الروسية .

اما جوجول فقد كان اكثر وضوحاً في تفهمه للامور وأبعد عن الانفعالية. ومن حسن حظ آثاره الادبية ان الازمة الصوفية واختلال توازنه النفسي لم يصيباه الا في أواخر حياته . فعندما كتب القسم الاول من « النفوس الميتة » و « المفتش العام » كانت نظرته الساخرة تحوم فوق المخلوقات وأسلوبه البارع يكشف الجرح ، ويسخر من معاصريه بخفة فائقة يجمع اليها قوة ملاحظة غريبة . وهو في فنه اكثر واقعية من دستويفسكي اذ انه كان يعرف كيف يفصل ذاته عن أبطاله فلم يكن يعاني ما يعانيه دستويفسكي من ألم لانه يريد أبطاله على صورة احسن مما هم عليه

ولم تكن افكاره لتصل الى الجريمة حيث تنكشف القدرة على الندم ودفع الثمن واصلاح ما افسد . فابطاله يعيشون كما هم في الطبقات الوسطى من المجتمع ويظهرون في صدق واضح فتتمشى معهم الحياة الروسية أخاذة في وانيتها.

وأبطال جوجول خالدون لانهم روس في جسدهم وروحهم ، في تصرفاتهم وكلامهم ، وهم ابناء المدن وابناء الريف، هم الملاكون والعبيد والموظفون، انهم الحياة الروسية التي تبدو غير منظمة ولكنها بامكانياتها الكامنة التي تستيقظ وتنهض بتمهل وتعبر عن قسم من قوتها .

لقد وصف جوجول روسيا ، في ماضيها الذي بعثه حياً وحاضرها الذي يصفه ومستقبلها الذي يستشفه من خلال ضباب الحاضر الكثيف .

ولو لم يكتب جوجول غير « النفوس الميتة » لكفاه ان يترك اثراً صنع كي يتحدى الزمن. وقد شبه ناقد كبير هذا الكتاب بقصة سرفانتس الشهيرة « دون كيشوت » .

فالكاتب الاسباني لم يبعث الى الحياة مائة مليون من ابناء القرون الوسطى الحالمين فحسب ، بل احيا ايضاً النفس الانسانية التي تندفع في شباب أبدي نحو الحلم فيفجؤها الواقع وتترك عنان « روسينانت » وتتجه الى حمار « سانشو بانسا » الاقل خطراً وهي متأهبة لأن تعاود - قبل مرور جيل - مبارزة الطاحونة الهوائية .

اما النفوس الميتة فهي نفس مائتي مليون من ابناء روسيا البسطاء الاتقياء الكرماء المتحمسين ، بل هي نفس الانسانية العاملة بقوة على تكوين ذاتها ، المندفعة نحو الحياة تتلقى منها دروساً قاسية ! ومع ذلك فهي مهيئة لان تعاود كل يوم نفس الاخطار التي سرعان ما تنساها .

ان اسم بافل ايفا نوفتش تشتشيكوف سيظل طويلا يمثل في الادب الروسي ما يمثله دون كيشوت في الادب الاسباني رغم اختلاف النموذجين . ولكن هناك الى جانب تشتشيكوف في النفوس الميتة العديد من الشخصيات التي تفصل بينها آلاف الكيلومترات والتي ترمز الى النفس الروسية باسم مانيلوف وسوبا كيفتش وكوروبتشكا ونوزدريني وبليوشكين وبترشكا تنتيتيكوف وكونستانجوغلو وموزاروف وسواهم من الريفيين والريفيات .

والآن ، وبعد ان احطنا بعض الشيء باطار جوجول الواقعي ، نرى ان نعطي بعض التواريخ التي تحدد المراحل الزمنية لتطور جوجول العميق قبل ان نعالج الازمة الصوفية التي ادت الى موت الكاتب .

بين عام ١٨٢٩ وعام ١٨٣٢ كتب جوجول مجموعتين قصصيتين تحت اسم «سهرات على شاطيء الديكانيكا» ورغم معرفته بالحياة الاكرانية فقد طلب الى امه طالباً منها ان توافيه بما تعرف من الاساطير والقصص الاكرانية . وفي عام ١٨٣٥ نشر جوجول «ميرغورود» وهي مجموعة تحتوي على اربع قصص منها «تاراس بولبا» و« مذكرات مجنون » ، ذلك كله ولم يتجاوز بعد السادسة والعشرين من العمر .

وفي عام ١٨٣٤ بدأ بمسرحية « المفتش العام » التي مثلت في بطرسبورج عام ١٨٣٦ . ومن الجدير بالذكر ان بوشكين هو الذي اعطاه الفكرة . وقد هتف

القيصر الذي كان يحضر العرض الاول : « الجميع ملومون وانا اولهم » وسافر جوجول الى الخارج عام ١٨٣١ ، فذهب الى المانيا وزار ضفاف الرين ووصل سويسرا . وفي فيفي بدأ بكتابة النفوس الميتة التى تابع كتابتها في باريس . وكان بوشكين ايضا هو الذي اعطاه الفكرة . وغادر باريس الى روما وكتب فيما بعد « اني اعبد ايطاليا فهي وطني الثاني » ومكث في روما اربع سنوات انهى خلالها القسم الاول من النفوس الميتة . وعاد الى روسيا عام ١٨٤١ ، وفي هذه الفترة ، وكان قد بلغ الثانية والثلاثين من عمره ، حيث بدأت ماساة حياتـــه الداخلية والدينية .

وكانت الفترة بين عامي ١٨٣٠ — ١٨٤٠ اقصى فترات حياته ، فقد اصيب بالبرداء في روما ، وما كاد يشفى منها حتى فقد احد اقرب اصدقائه اليه الذي مات مسلولا . وقد سهر على المريض واساءت قلة النوم الى صحته . ولأول مرة بدأ يتحدث في رسائله عن العالم الباطل وقدر الانسان القاسي .

ومراسلاته في تلك الآونة مليئة بالتأملات الدينية والفلسفية والصوفية . فقد كان تحول بطيء خفي يعمل في اعماق جوجول ، وجاءت الازمة المالية التي تخبط فيها فزادت الضغث ابالة .

وعاد الى روسيا حزيناً . وكان قد انهى القسم الاول من النفوس الميتة ، ولكنه اعلن عدم رضاه عن عمله . وتهيأ لكتابة القسم الثاني ، حيث قرر ان يدل قراءه على طريق الكمال بعد ان يتسامى هو على ذاته بالقدر الذي يسمح له بتعليم سواه ، وصلى الى الله كي يمنحه القوة على اتمام هذه المهمة المقدسة .

وفي عام ١٨٤٢ عاد الي الخارج ، فاقام على التوالي في جريفنبرغ وأيس ونيس واوستند ، وقضى شتاء ١٨٤٥ — ١٨٤٦ في روما .

ولم يعد يكتب ابدا تقريبا . ولم يتقدم شيئا في كتابة القسم الثاني من النفوس الميتة . ذلك انه انصرف الى تحويل نفسه .

ا

ومن مراسلاته يتضح تطوره . فقد كتب الى صديقته مدام سميرنوفا :

« ليس لدينا الحق في الكلام عن الاشياء المقدسة قبل ان نطهر ذواتنا . وستفتقر كلماتنا الى الشرف والقوة ان لم نطهر شفاهنا » .

وبالتدريج نمت في نفس جوجول الرغبة في الذهاب الى القدس « ليفتش عن القوة والعون » امام قبر المسيح . ونشر قبل ذهابه مذكراته . وفي عام ١٨٤٨ ذهب الى فلسطين وعاد منها ، وقد تغير الى حد لم يعد يعرفه معه اقرب الناس اليه ، واصبح متديناً . وفي عام ١٨٥٢ ، اي في السنة التي مات فيها ، كان يكتب تأملات عن « خدمة القداس الآلهي » .

وكان القسم الثاني من النفوس الميتة قد انتهى ولكن جوجول لم يكن راضياً عنه فقد تغير فهمه للامور واصبحت فلسفته للحوادث مختلفة ، وتجاوز جوجول المفكر الفيلسوف جوجول الفنان الملاحظ . ولم يعبر الكتاب عن الفكرة التي ارادها الفيلسوف ، والمرة الثانية القى مسودة كتابه في النار قبل موته بأيام ولم يعثر بين اوراقه الا على مسودة غير كاملة وكان قد احرق المسودة للمرة الاولى عام ١٨٤٧ .

ومات نيقولاس جوجول فى ١٢ شباط عام ١٨٥٢ في الثالثة والاربعين من العمر .

ومأساة جوجول الداخلية ليست فريدة في نوعها فنحن نجدها في تولستوي الذي يغادر عائلته معتقداً انه بهذه الصورة يقوم بعمل رمزي ليعيد المدي ولعل هذه الظاهرة ميزات السلافيين .

لقد كتب جوجول عام ١٨٤٧ :

« ان الله خلقني ولم يخف عني سر الحياة . اني لم اولد من اجل عصر ادبي معين فمهمتي ابسط واقرب ، وهي المهمة التي تقع على عاتق كل انسان وليس على عاتقي فقط ، ان هذه المهمة في روحي وفي قيادة حياتي بجزم »

ولكن جوجول لم يتم هذه المهمة ، وبعد ان احرق عام ١٨٥٢ مسودة كتابه دخل الى غرفته واستلقى على سريره وبكى .

لقد بكى لانه لم تستطع ان يكون الداعي الى كلمة الله ولأنه لم يستطع في صفحاته الاخيرة ان يعبر عن شرارة الحقيقة الخالدة، ولم يدل الانسان على الطريق المقدسة المؤدية الى السمو الروحي .

لقد بكى لانه غاص في المادة واخذ منها مادة انتاجه ولم يؤلف « كتاب الروح » .

لقد حقق جوجول مالم يكن يعتقد انه مهمته ... لقد خلق عصراً في تاريخ الادب ولكنه لم يتسع لديه الوقت ليكون كما اراد فيلسوفاً بل رسولاً .

لقد كان جوجول وما زال سيداً للواقعية الروسية . لقد وصف تولستوي ودستويفسكي وتورجنيف وجوركي ظلمات النفس البشرية كما رأوها من خلال النفس الروسية وبينوا قابلية نهوضها وتطورها . اما جوجول فقد سبقهم الى ذلك فرسائله هي صيحة يأس والم واساطيره الاوكرانية ترفع الستار عن حياه مجهولة . اما نفوسه الميتة فهي نداء الى النفوس الحية العاملة في سبيل مستقبل مجيد للروسيا .

واخيراً فلعل القاريء العربي لايجد نفسه غريباً في جو النفوس الميتة. ولربما كان يعرف في محيطه ألف بافل ايفانوفتش تشتشيكوف وألف مانيلوف وبيتوخ وآلاف النماذج التي يعج بها المجتمع الاقطاعي الروسي .

ولعلنا في تعريبنا هذه التحفة الخالدة قد قمنا ببعض ماعلينا . من واجب نحو ادبنا وثقافتنا بنقل آثار الشوامخ فأن وفقنا كان ذلك بعض مانريد وان جانبنا التوفيق – بعضه أو كله - فأن شفيعنا الجهد الذي لم ندخره والسلام .

يوسف البنا　　　**انطون حمصي**

دمشق في ١٨ شباط ١٩٥٤

القسم الأول

الفَصلُ الأوّل

في ذلك اليوم وقفت عربة على نصيب لابأس به من الاناقة امام أحـــد الفنادق في مدينة (ن) الواقعة في احدى المقاطعـات الروسية . وكانت هذه العربة ذات نوابض لايملك مثلها الا العذاب من رتبة عقيد متقاعد أو رئيس او ملاك في حوزته حوالي مائة من العبيد وعلى العموم لايكاد يملكها الا من ينتمي الى الطبقة المعروفة باسم « نبلاء الطابق الاوسط »

لم يكن المسافر جميلا ولا قبيحاً ، بديناً ولا نحيلا ، ولم يكن مسناً غيرانه مع ذلك ليس شابا . ولم يلحظ قدوم هذا المسافر الى المدينة الا فـلاحان كان تعليقهما على العربة دون المسافر .

ــ مااجمل هذه العربة .. كم تدفع ثمناً لها ؟ايمكن الوصول بها الى موسكو؟

ــ بلا ريب ! ولكنها لاتستطيع الوصول الى قازان

ــ آه .. بالطبع لاتستطيع .

ثم سكتا .

وعندما وصلت العربة الى جـانب الفندق كان ثمة شاب يمر ، وكان يرتدي سروالا ابيض قصيراً ضيقاً ، وقميصاً مغلقاً ، فالتفت نحو العربة وامسك بيده قبعته التي كادت الريح ان تقتلعها ثم تابع سيره .

ودخلت العربة باحة الفندق فاستقبل المسافر خادم تشيط لدرجة لا يستطيع المرء ان يتأكد من حقيقة تعبير وجهه . كان هذا الخادم طويلا نحيلا يرتدي معطفاً قطنياً فضفاضاً ، وكان ظهره مقوساً بشكل لاتبين فيه نقرته ، واسرع ذلك الخادم حاملا منشفته بيده الاولى ، اما الثانية فقد كان يحاول بها ان يملس شعره ويرده الى الخلف ، ولم يلبث ان قاد الضيف الى غرفته ، وجو هـذه الغرفة كان نموذجاً للجو الخاص بهذا الفندق وبجميع فنادق الريف اطلاقاً ،حيث يتمكن المسافر بروبلين فقط ان يحصل على غرفة هادئة تعج بصنوف الحشرات ذات باب مسدود بقطعة من الاثاث يؤدي الى غرفة اخرى مجاورة يقطنها جار ابكم هادىء ولكنه فضولي الى درجة قصوى ، لايطلب اكثر من معرفة جميع تفاصيل حياة القادم الجديد .

وكان مظهر الفندق من الخارج منسجما مع مظهره من الداخل ؛ كانت له واجهة من طابقين : الاول مبني من الآجر الاحمر القاني قذر مسود من تأثير تقلبات الجو ، اما الثاني فقد كان مطليا باللون الاصفر ، وكان الدور الارضي مقسما الى دكاكين ومتاجر عرضت فيها لجم الخيول والحبال والسياط ، وكان ثمة غـلام يجلس بالقرب من نافذة المتجر الواقع في الزاوية وكان وجهه المحمار يحاكي حمرة السماور النحاسي الموجود الى جانبه يصفر ويخرج منه البخار ، ومن الممكن ان يتوهم المرء هذا الغلام سماور آخر لولا لحيته السوداء التي تحكي الهباب .

وبينما كان المسافر يقلب طرفه في انحاء غرفته جاءته حقائبه ، واولها حقيبة مهترئة من الجلد الابيض مما يدل على ان سفرته ليست السفرة الاولى ، وكان يحمل هذه الحقيبة الحوذي سليفان وهو رجل قصير القامة يرتدي بذلة من الصوف وكان يعينه في حملها الخادم بتروشكا وهو رجل في العقد الثالث من عمره يرتدي ملابس مهترئة يبدو عليها انها كانت تخص سيدة سابقاً ، ثم حمل صندوقاً صغيراً من الخشب الاحمر ودجاجة مشوية ملفوفة بقطعة من الورق الازرق .

وعندما اصبح كل شيء في مكانه ذهب سليفان الى الاسطبل ليعتني بخيوله

اما بتروشكا فقد اقام في غرفة بهو الفندق وهو عبارة عن كوخ مظلم . وكان معطفه وكيس حوائجه يجران على الارض وكانت رائحة قوية مزعجة تنبعث منهما معاً . يحوي هذا الحجر الكئيب على سرير ذي ثلاث قوائم ألصقه بتروشكا بالجدار ووضع فوقه شيئاً قذراً اشبه بالفراش استطاع الحصول عليه من صاحب الفندق . وبينما كان الخدم يتراكضون لترتيب الغرفة هبط السيد الى المائدة الكبيرة المشتركة .

ان كل من تنقل في الريف مسافراً لا بد من ان يعرف هذا النوع من الأبهاء . كان بهو ذلك الفندق ذا جدران مطلية بعدة طبقات من الالوان القبيحة المتسخة ، ففي قسمها الاعلى كان هباب المدفأة يغطيها واما القسم الاسفل فقد كان يحتفظ بآثار ظهور المسافرين وتجار المنطقة الذين كانوا يتناولون الشاي داخل الفندق في ايام المواسم . واما السقف فقد اسود بالمصباح المدخن الذي فيه وكان لهذا البهو نفس الثريا الشاحبة التي كانت تتراقص شموعها كلما ركض الخادم فوق السجادة الممزقة وهو يحمل طبقاً مليئاً بالاكواب الكثيرة . وهناك الى جانب ذلك لوحات زيتية تغطي الجدران برمتها ، والخلاصة كان يوجد كل ما يمكن مصادفته في اي مكان آخر خلا لوحة كبيرة تمثل حورية يتحدى ثدياها الخيال بضخامتهما . ان هذا التشويه في الطبيعة يمكن مصادفته في لوحات تاريخية عديدة لا يعلم أحد من أمر بشرائها من الخارج وجلبها الى الروسيا ومتى كان ذلك . ومع ذلك فان عدداً كبيراً منها اشتراه بعض نبلائنا الذين يتذوقون الفن من ايطاليا .

خلع السيد قبعته وشاله الصوفي وهو من الشالات ذوات الالوان المتعددة التي تزود بها النساء عادة ازواجهن مع الف نصيحة لتجنب أذى البرد . أما العزاب فان الله وحده يعلم من أهداهم تلك الشالات ... وأما بالنسبة لي فاني لم استعمل شالاً قط . وطلب المسافر عشاء فقدمت له وجبة الفنادق العادية : حساء الملفوف ولحم مبرد يحتفظ به الطهاة اسابيع طويلة للمسافرين ومقانق بالملفوف وخيار مملح وقطعة من الحلوى .

وبينما كان المسافر يتناول وجبته طلب من الخادم ان يقص عليه جميع ما يدور حول الفندق من قصص وأحاديث وان يروي له اخبار صاحب الفندق القديم ويدلي برأيه في المعلم الجديد . وهتف الخادم مجيباً على السؤال الاخير : « انه وغد كبير ياسيدي » . كان التحدث الى الخدم وممازحتهم عادة جارية في الروسيا كما هو الشأن في اوربا . ولكن اسئلة المسافر في هذه المرة لم تكن دون معنى ، ذلك انه استطرد الى السؤال عن حاكم المدينة ورئيس المحكمة والمدعي العام ، ولم ينس موظفا مهماً دون ان يسأل عنه . ثم اخذ يستعلم بدقة متناهية عن ملاكي الاراضي وعدد ما يملكون من العبيد واين يسكنون وهل يترددون كثيراً على المدينة وما هو مزاجهم . ثم سأل عن حالة المنطقة وهل تفشت فيها الاوبئة السارية والحميات القاتلة وغير ذلك ، فهذه الاسئلة الدقيقة المحكمة لم تكن نتاج الفضول وحده .

وكانت حركات السيد تلفت الانظار ولا أدري ماذا كان يفعل ليخرج من أنفه ذلك الصوت الذي يشبه النفير كلما وضع عليه منديله .

أحدثت هذه المظاهر اثرها البليغ عند خادم الفندق فكان كلما تحرك السيد انتصب هذا قائماً ورفع شعره إلى الخلف بسرعة وسأله: «أتحتاج شيئاً ياسيدي» .

وتناول السيد كوبا من القهوة بعد العشاء وجلس على الاريكة واتكأ على وسادة كانت ، حسب التقاليد الروسية في الفنادق الريفية ، اقرب الى القرميد والحجارة منها الى وسادة عادية . وعندما أخذ بالتثاؤب عاد الى غرفته ونام ساعتين فيها . وبعد أن ارتاح أخذ باملاء الورقة المعتادة لاعلام البوليس عن وصوله إلى المدينة . وهذا ما استطاع الخادم أن يتهجاه بعد صعوبة كبيرة عند اجتياز كل حرف :

«بافل ايفانوفيتش تشتشيكوف ـ ملاك ، مستشار دائرة انتخابية . سبب السفر : قضاء أعمال . »

وخرج بافل ايفانوفيتش تشتشيكوف لزيارة المدينة التي وجدها جميلة جداً لا تقل في شيء عن بقية مدن الريف . كان لون المنازل الحجرية الاصفر فيها يكاد يطغي على لون منازلها الخشبية الرمادي . كان أغلب هذه المنازل يتألف

من طابق أو طابقين وكان بعضها مخفياً في بعض الاحياء في طريق يشبه الحقول داخل عدد كبير من السياجات . وكان المار يلمح هنالك وهنا كعكة أو حذاء معلقاً فوق أحد المتاجر إلى جانب لوحة محت كتابتها الامطار . وعلى أحد الحوانيت علقت صورة سراويل زرقاء كتب تحتها «فاسيلي فيدوروف... اجنبي» وبالقرب من ذلك الحانوت متجر تعلوه لوحة تمثل طاولة بلياد ولاعبين أنيقين كتب تحتها : «تمتعوا بمشاهدة المحل» واصطفت طاولات مثقلة بثمار الجوز أو الصابون أو الحلوى التي تشبه الصابون في بعض الطرقات . وهنا تلمح دكانا قذرة على بابها صورت سمكة اخترقتها شوكة ، وهنالك تلمح أيضاً محلاً كتب عليه «كباريه» فوق شارة قديمة تمثل الشعار الامبراطوري . واجتاز تشتشيكوف حديقة المدينة حيث غرست فيها أشجار نحيلة سامقة سموق شجر الصفصاف ، ولم يستطع ذلك أن يمنع عدداً من الصحف عن ان تكتب بمناسبة أحد الأعياد : «بفضل رئيس بلديتنا ازدانت مدينتنا بحديقة تظلل أشجارها الباسقة الكثيفة الميدان المحيط بها وتلطف من حرارة الجو في الأيام القائظة .»

وأضاف الصحافي ايضاً ان سكان المدينة قد بكوا امتنانا لصنيع حاكمهم.

وانحدر تشتشيكوف مع النهر الذي يسير نحو وسط المدينة بعد أن استعلم من شرطي عن أقرب طريق يؤدي إلى الكنيسة . وأثناء الطريق انتزع اعلانا كان ملصقاً على الحائط كي يتلوه بعد ذلك بهدوء في الفندق ، وأمعن النظر في حسناء كانت تجتاز الطريق يتبعها شاب بملابس عسكرية يتأبط رزمة صغيرة . وتفحص جميع الامكنة بدقة كما لو أنه يريد أن ينقشها في ذاكرته . ثم عاد إلى فندقه وصعد غرفته الخاصة رأساً بصحبة الخادم . وهناك تناول الشاي ثم طلب شمعة وأخذ يقرأ الاعلان وهو يغمز بعينيه . لم يكن فيه ما يثير الاهتمام فهو اعلان عن تمثيلية لكوتزبو وكانت بوبلفكين تمثل دور رولا وزابلوفا دور كورا ، أما بقية الشخصيات فأدوارها ثانوية . ومع ذلك لم يهمل تشتشيكوف شيئاً حتى انه قرأ الاسعار ولاحظ ان الاعلان مطبوع في مطبعة الحكومة الرسمية . ثم قلب الاعلان على وجهه الآخر ولما لم ير عليه شيئاً طواه باعتناء ووضعه داخل صندوق كان يودع فيه كل ما يقع تحت يديه . واني لأعتقد ان

النهار قد انتهى بعشاء مؤلف من لحم بقر مبرد وشراب حامض مثلج ورقاد عميق .

وأما اليوم الثاني فقد خصصه تشتشيكوف للزيارات ، فقام بزيارة جميع كبار موظفي المدينة وبدأ بالحاكم الذي لم يكن هو الآخر ضخما ولا نحيلاً وكان يزين صدره بصليب القرية آن . وكانت له طيبة يضرب بها المثل ويعرف الجميع براعته الفائقة في التطريز على الاقمشة . وتتالت زياراته فزار نائب الحاكم والمدعي العام ورئيس المحكمة ومدير البوليس ورئيس الخزينة وأنا شخصياً لا أذكر جميع الشخصيات الهامة غير اني أعلم ان تشتشيكوف لم يهمل منها أحداً ، فزار مفتش الصحة ومهندس المدينة وعندما عاد الى عربته بعد ذلك أخذ يفكر فيما إذا نسي أحداً ولكنه وجد انه لم ينس أي موظف .

كان كثير المهارة أثناء زياراته في التملق الى محدثيه فقال للحاكم مثلاً ان الغريب ليدخل مدينته كما يدخل الجنان وان عجلات العربات تسير فوق الطرقات وكانها تسير فوق المخمل وان الوزراء الذين ينصبون أمثاله خليقون حقاً بالثناء .

وفي أثناء حديثه مع مدير البوليس دس بعض ألفاظ المديح تتعلق بحسن تنظيم شرطة المدينة ، وأما في حديثه مع نائب الحاكم ورئيس المحكمة فانه تعمد ان يتظاهر بالخطأ عندما دعا كلاً منهما مرتين بلقب « صاحب السعادة » الأمر الذي أدخل السرور على قلبيهما .

ونتيجة لهذه الدبلوماسية اللبقة انهالت عليه الدعوات . فدعاه الحاكم في عشية ذلك اليوم نفسه الى سهرة عائلية كما رجاه باقي الموظفين بالحاح أن يتفضل بقبول دعوتهم إلى مأدبة او إلى تناول الشاي أو إلى الاشتراك معهم في لعب الورق . ولم يكن تشتشيكوف ليتحدث عن نفسه إلا بقدر ، وإذا حدث وتكلم عن نفسه فبصورة عرضية وتواضع واضح ، وعند ذلك فانه يستعمل تعابير راقية فهو مثلاً ليس إلا دودة أرض مسكينة لا يستأهل الاهتمام وانه ناضل في سبيل الحقيقة الامر الذي خلق له أعداء يرغبون في القضاء عليه ، وهو لا يطمع الآن إلى أكثر من ان يجد مدينة يستطيع أن يعيش فيها بدعة واطمئنان ولهذا فقد رأى انه من الواجب أن يسارع فور وصوله إلى تقديم

فروض الاحترام لهم جميعاً .

هذا جميع ما عرف عن القادم الجديد الذي لم يتخلف عن سهرة الحاكم ولقد قضى صاحبنا ساعتين يتهيء لها ولم يغفل دقيقة واحدة من دقائق هندمته فنام قليلا من الوقت بعد الطعام ثم استيقظ وطلب ماءاً حاراً اخذ يدلك به خديه طويلا وينفخ فيهما ليسهل عملية الدلك ثم اخذ المنشفة من على كاهل الخادم الذي كان يتأمله بدهشة واستغراب ومسح وجهه بشدة وعطس مرتين في وجه خادمه . ووقف بعد ذلك امام المرآة وبدل قميصه ونزع شعرتين صغيرتين من عنقه وارتدى معطفاً احمر اللون وهبط الى عربته التي لم تلبث ان سارت تطوي الطرقات العريضة المضاءة بانوار ضعيفة تشع من النوافذ .

كان منزل الحاكم مزداناً بالانوار وكان يقف امام بابه عدد كبير من العربات ودركيان ، وكانت تصل اصوات الجوذية من بعيد والخلاصة ليس ثمة شيء ينقص تلك السهرة .

وعندما دخل الصيادلة وقف برهه مبهوراً ببريق الشموع والمصابيح والزينة النسائية ... كانت الانوار تسيل من جميع الجهات ... والمعاطف السوداء تهتز فتشبه في حركاتها سرباً من الذباب دفعه الحر الى المطبخ فأخذ افراده بالرواح والمجيء ، يغمسون قوائمهم الامامية بالسكر ويفركون اجنحتهم بقوائمهم الخلفية ثم يطيرون .

وما كاد تشتشيكوف يجد وقتاً يتنفس فيه حتى انقض عليه الحاكم وعرفه بزوجه ، وهنا كان بافل ايفانوفتش منسجما مع الموقف الجديد ، فأثنى على السيدة بتعابير تليق بطبقتها الاجتماعية . وعندما جلس الحضور في اقصى الصالة ليفسحوا المجال للراقصين وقف تشتشيكوف واضعاً يديه خلف ظهره يتأمل فيهم . كانت هناك سيدات أنيقات جداً اخترن ملابسهن من احدث الازياء وبجانبهن اخريات اكتفين بالازياء المتواضعة الرائجة في مدينتهن الصغيرة .

واما الرجال فكانوا صنفين كالعادة بعضهم نحل يحوم غالبه حول النساء والبعض الآخر كان لا يفترق في شيء عن رجال الطبقة الراقية في بطرسبرج ، ذلك انه كان لكل منهم نفس السالفين المنسقين ونفس الوجوه الحليقة ونفس

اللامبالاة بالنساء اللواتي كن يضحكن منهم وهم يحدثونهن بالفرنسية كما لو كانوا حقيقة في بطرسبرج .

واما الصنف الثاني فكان ينتسب اليه الرجال الضخام من اصحاب الكروش وكان هؤلاء يحتقرون النساء وينتظرون بصبر فارغ الساعة التي يعد فيها الخادم المائدة الخضراء ليلعبوا الويست . كانت وجوههم مستديرة ممتلئة وكان على وجه هذا ندب قديم وعلى وجه ذاك اثر بسيط للجدري واما شعورهم فمرتبة على طريقة الفرشاة او الطرة او طريقة « لتحملني الأبالسة » كما يقول الفرنسيون .

ان اصحاب الكروش لأعظم الموظفين قدراً فهم - ويا للأسف - اقدر على تصريف امورهم من النحلاء ، اذ انه لايستخدم احد نحيلاً الا اذا اعياه التفتيش عن بطين . ولذلك فان النحيل يغير مركزه بسهولة اذ ان وجوده هوائي غير مركز بعكس البطناء الذين لايحبون التبديل ، فاذا وضعوا اقدامهم في مكان ما بقوا فيه أقوياء مفعمين بالامل وسواء أثبت مركزهم ام تداعى فانهم لايقعون ابداً ، ثم انهم الى جانب ذلك لايحبون الفخامة كالهزيلين فملابسهم اقل اناقة من الآخرين ولكن محافظهم تنعم بغزارة الهبة .

وفي اقل من ثلاث سنوات لايبقى ثمة شيء للنحيل غير رهنه في حين ان البطين ، دون بذل اي جهد ، يصبح مالكا لبيت صغير في نهاية المدينة يشتريه باسم زوجته ثم . . ثم . . والخلاصة فانه يصبح شيئاً بعد شيء مالكا لقرية ، واخيراً وبعد ان يخدم البطناء الله والقيصر محوطين بالاجلال والاحترام يغادرون وظائفهم وقد صاروا ملاكين من طبقة النبلاء الروس المضيافين ، ووفاءاً منهم للتقاليد الروسية الفنية يصبح ورثاؤهم هزيلين يبددون ماورثوه من الآباء .

بذلك كان يفكر تشتشيكوف وهو يراقب الراقصين . ثم تابع البطناء بانظاره فلاحظ بينهم بعض وجوه الاصدقاء ، فلقد رأى المدعي العام بحواجبه الكثيفة السوداء وهو رجل رزين صموت يغمز بعينه اليسرى على الدوام كما لو كان يقول لجاره : « تعال هنا ياصديقي لدي نكات اود ان اقصها عليك »

كما شاهد ايضا مدير البريد وهو قصير ظريف فيلسوف ورأى رئيس المحكمة

اللطيف الحكيم ، وقام الجميع بتحية بطلنا كصديق قديم فرد عليهم بتحية لطيفة ثم قدم لملاك لطيف ودود يدعى مانيلوف ولآخر يدعى سوبا كيفيتش الذي سرعان ماداس على قدمه ثم هتف « عذراً ؟ وناوله الاصدقاء ورقاً ليشاركهم لعبة الويست فاخذها وحياهم بادب جم .

جلس الجميع حول المائدة ولم يغادروها الا عندما حان موعد العشاء وانقطعت الاحاديث كالعادة عندما ينشط المرء للقيام بعمل هام .

ورغم ان مدير البريد كان رجلا ثرثاراً فان وجهه اتخذ طابع التفكير فعض على شفته السفلى وظل محافظا على وضعه هذا طيلة مدة اللعب .

كان يضرب الطاولة بشدة عندما يرمي بالورقة ويصرخ قائلا : « اذهبي ايتها البوبادبا (زوجة الكاهن) وذلك اذا كانت الورقة ملكة ، واما اذا كانت ملكا فانه يصرخ « اذهب يافلاح تامبوف » وكان رئيس المحكمة يجيبه لدى كل صرخة كأنه صداه الامين : « سأجده » او سأجدها » من شاربيه « وتتعالى اصوات اخرى : « نعم .. لا .. تابع .. الدينـــاري .. الكوبا .. بيكنتسيا ، بيكنتراس ، بتشوروبش ، بتشورا » وهي اسماء اطلقها اللاعبون على الورق البستونى و وكالعادة كانت تتعالى المناقشات بعد اللعب وكان تشتشيكوف كثير الحرص في تعابيره فكان يقول لرفاقه « لي الشرف ان اقطع ورقة الاثنين التي رميتموها » او « تفضلوا بالقطع » ولم يكن ليسمح لنفسه قط ان يقول بجفاء « اقطع » وقدم للجميع علبة لفائفه الفضية المعطرة ، وقد اثار اهتمامه بشكل خاص الملاكان مانيلوف وسوباكيفيتش فاستعلم عـــلى الفور عنهما من رئيس المحكمة ومدير الـــبريد وكانت اسئلته تنم عن رجل يعرف ماذا يريد واين يذهب ، وسأل عن اسميهما ولقبيهما وكم يملكان من العبيد وماهو وضع املاكهما .

وهكذا كان سلوك تشتشيكوف لبقاً بشكل أصبح معه في بضعة أيام صديقاً للجميع . وقد جن به حباً : الملاك مانيلوف وعندما افترقا في ذلك المساء ضغط على يده بحرارة ورجاه بالحاف أن يشرفه بزيارته وقال ان أراضيه لا تبعد عن المدينة اكثر من خمسة عشر فرستاً (مقياس روسي يعادل ١٠٦٧ متراً) فابتسم تشتشيكوف وأجاب وهو يحني رأسه قليلاً انه يعتبر ذلك واجباً مقدساً . وقال

له سوبأليفيتش وهو يفحص الارض بقدمه الهائلة « تعـال عندي أيضاً » . وفي اليوم التالي صادف ، أثنـاء مأدبة غداء عند مدير البوليس ، ملاكاً يدعى نوزدريف ، وكان رجلاً حيويا في الثلاثين من عمره ما لبث أن رفع الكلفة سريعاً مع تشتشيكوف ، وكان يتحدث دون كلفة مع المدعي العام ومدير البوليس الذي كان يراقب حركاته أثناء الطعام واللعب رغم مظاهر الصداقة التي بينهما . وزار في اليوم الثاني رئيس المحكمة فاستقبله هذا بثوب مليء ببقع الدهن وحضر بعـد ذلك سلسلة من المآدب عند نائب الحـاكم والمدعي العام ورئيس البلدية . ولم يكن تشتشيكوف ليبقى ساعة واحدة في فندقه ولم يكن ليعود إلى غرفته الا لينام وهو يعرف كيف يلبس لكل حالة لبوسها ويسلك سلوك الرجل المهذب . وكان يحسن الحديث في كل موضوع سواء أكان الحديث عن الجياد أو الملاحقات القضائية أو لعب البليارد أو الطهي أو الجمـارك فانه كان يدلي برأي متزن حكيم كما كانت عيناه بعض الاحـايين يترقرق منها الدموع أثناء الحديث .

اتفق الجميع على الثناء عليه فقال الحاكم : « انه انسان شريف » وقـال المدعي العام « انه لرجل قدير » وتحدث عنه قائد الدرك فقال انه عـالم . واما رئيس المحكمة فقال « هو رجل محترم مثقف » وأدلى مدير البوليس «انه محترم ومحبب » وقـالت زوجة المدير : « هو رجل وفي ومحبب كثيراً » . بل حتى سوبأليفيتش نفسه الذي قلمـا يذكر الناس بخير قـال لزوجته فجأة وهو يرقد بجانبها بعد السهرة التي قضاها عند الحاكم « لقد تعرفت هذا المساء على رجـل يدعى بافل ايفانوفيتش تشتشيكوف .. وهو انسان لطيف جـدا ! ايا روحي الصغيرة » .

فهتفت زوجته : « آه !» ثم لكزته برجلها .

ودام هذا الرأي الحسن في بطلنا حتى ذلك اليوم الذي طلـع فيه بمشروع اثار الاستغراب العام في المدينة .

الفَصْلُ الثّاني

وها قد مر اسبوع على قدوم تشتشيكوف المدينة ، وها هي ذي الأمسيات تتسارع والليالي تتتابع دون توقف عندما قطع المسافر زياراته خارج المقاطعة . انه يريد الان ان يذهب ليرى املاك مانيلوف وسوباكيفتش وفاء بعهده . ترى كم من البواعث تدفع به لهذه التنقلات المتتابعة ؟ أهي مشاغل جدية ام عاطفية ام ماذا ؟ ولعل القارىء بلا ريب قد ساءل ساعته اذا كان لديها الصبر الكافي لانتظار تطور هذه النفس !

وفي صباح اليوم التالي استطاع الحوذي سليفان ان ينظم بسرعة كل شيء ، بينما ظل بيتروشكا في الفندق للحراسة ، ولن يضيع القارىء شيئا كي يعرف عبدي بطلنا جيداً ، فهذه الشخصيات ليست مهمة بالطبع ، بل هي شخصيات ثانوية وقلما تأتي في قصتنا ، غير ان الكاتب ليعشق الدقة في كل شيء مع العلم ان مثل هذه الخاصة يمتاز بها الالمان اكثر من الروس ، او ليس ذلك صحيحاً ؟ كل هذا بصرف النظر عن انها صنعت بسرعة ، وقد عرف القارىء الآن كساء بيتروشكا الفضفاض وانفه الضخم وشفاهه الغليظة ، فهو اقل من ثرثار على اية حال ويتنفس على غرار الاشراف المثقفين ، اريد ان اقول بانه يحب المطالعة كثيراً ويهتم بتكامل نفسه في حوادث الحب والابجدية ، وكتب الصلوات ، انه

يلتهم جميع هذه الاشياء بانتباه واحد ، والجهد الذي يبذله ، هو نفسه فيما لو عالج موضوعا في الكيمياء ، لقد اخذ هـذا الرجل ليس بما يقرأ بل بالقراءة نفسها : « هاهي ذي الرسائل وتلك هي الفاظها التي لايعرف غـير ابليس ماذا تريدان تقول ! » وهذه الكتب لها مكانها في السرير في ذلك الفراش الذي يبدو ان التمارين قد ردته كالباستيل ، ان كل هذا الميل الى القراءة ياتي من جهة وهناك من جهة ثانية خاصية اخرى لبيتروشكا وهي النوم دون نض الثياب الامر الذي ينيله فائدة جديدة ، الا وهي نقل رائحته الخاصة مع جوه الخاص اينما اتجه وسار وهكذا فمنذ ان يجلس في غرفة عارية فانها حالاً تبدأ بتنفس هـذا « المتضمن » للقطع التي عيش عليها منذ شهور .

كان تشتشيكوف سريع الغم احياناً ، وفي احيان اخرى كان يتبع اهواءه ونزواته بشدة ، ففي كل صباح يندس انفه باحثاً بين ذرات الهواء النقي ، ويعبس بحاجبيه ، وكان الى جانب ذلك يهز برأسه ويصرخ « ان الشيطان قـد اتى بك ياصديقي ، ماهذا العرق المتفصد منك ، اذهب حالا الى الحمام . »

ولا يرد بيتروشكا على ذلك مطلقاً غير انه كان يبحث بحماس شديد عن عمل يشغل به نفسه فينظف رداء سيده او يرتب ماتقع يده عليه ، ترى ماذا تكون انطباعاته عندما يصمت هكذا ؟ ان الله وحده هو الذي يعرف مايدور في خلد عبد وبخه سيده ! وهو بلامراء سيقول « انه لديك من الجرأة مايجعلك تكرر لي اربعين مرة نفس الاشياء » ذلكم هو مانضيفه هذه المرة لبيتروشكا .

واما السائق سليفان فشخص آخر .. غير انني لأخجل من نفسي حقاً اذ اضيع على القارىء وقته لاجـل اشخاص دون ومن طبقة وضيعة ، ذلك ان مايختص بمثل هذه التفاهات لايهمنا في شيء الا نادراً ، ولكن الرجـل الروسي هكذا تم تكوينه ، انه ليعشق الانفصـال عن كل ماهو دونه مرتبة اجتماعية ، ولا يكون الا في محل ارفع منه ، ويفخر ايضا بانه يحافظ على علاقاته الاجتماعية

بهز قبعة بسيطة لكونت اوبرانس ، ولذلك فان الكاتب ليس بمطمئن لاجل بطلنا بنصيحة مدرسية ساذجة ، وقد يمكن لمثل نصائح البلاط ان تتنازل للمعرفة ولكن هؤلاء الذين وصلوا الى مرتبته العامة بقوة الدسائس ، ليس من نصيبهم بالطبع الا نظرة احتقار من القارئ او ماهو أردأ من ذلك ، اعني السيرقريباً منه دون اي اختلاف عن مشية القاتل ، اجل كل هذا محزن جداً ، ولكن فلندعه ولنعد الى تشتشيكوف !

فانه بعد ان اعطى تعليماته الضرورية لم يلبث ان راوده النعاس فنام ثم استيقظ في الصباح الباكر ، واخذ يغتسل من اخمصيه حتى ذؤابة رأسه ، وهو العمل الذي لايقوم به الايام الآحاد ، وهذا يعنى ان اليوم يوم احد بطبيعة الحال ثم حلق ذقنه بعد ذلك جيداً ولمع عذاريه حتى اشبها قماش الساتان الاطلس وارتدى رداء من الفرو ومعطفاً احمر اللون وهبط درجات الفندق، واندرجت العربة فوق بلاط باحة الفندق محدثة دوياً ضاجاً ، وشاهد صاحباً قساً في الطريق فنزع له قبعته ، ومد بعض الاشقياء القذرين ايديهم صائحين « احسن لليتامى » وتعلق احدهم بالعربة من الخلف ، فساط الحوذي الجياد فانطلقت عجلاتها الخفيفة اللينة بسرعة قافزة فوق الحجارة .

لاحظ تشتشيكوف بسرور الحاجز الاخير الذي يشير الى ان المسافرين قد خرجوا نهائياً من المنطقة ، لقد تحمل بشجاعة امتع المزعجات الاخيرة التي آلمت رأسه ، وانتهى اخيراً الطريق الوعر كمصير بقية الاشياء . لقد غادر تلك المدينة بعد لأي وعناء وبدا الحقل أمامه في ثوبه الاعتيادي ، تلاع من الارض واشجار من الصنوبر ، حشائش مخطوطة صغيرة ونباتات وجذوع اشجار ، وقرية بعيدة هناك تبدو بأسطحة منازلها الرمادية ككتل من الخشب المصفوف بدقة . وشاهد بعض الفلاحين يتثاءبون بكسل وقد جلسوا قرب ابواب دكاكينهم ، بينما بدا على النوافذ ظل الفلاحين بأحزمتهم المربوطة على

بطونهم . ولقد كان جميع هؤلاء ، قرب المنزل الخشبي ، و كان ثمة عجل يتلفت وخنزير يهز بوزه بشراهة .

كان تشتشيكوف قد قطع (الفرست) الخامس عشر عندما فكر بان مدينة مانيلوف يجب ان تكون في ذلك المكان . غير ان العربة كانت تسير حثيثاً دون انقطاع وها هو ذا (الفرست) السادس عشر و ... ليس ثمة مدينة . واخيراً استطاع تشتشيكوف ان يسأل اثنين من الفلاحين كانا يمران بالقرب منه :

.. مدينة زامانيلوفكا أهي بعيدة عن هنا ؟

وخلع الفلاحان قبعتيهما واجاب احدهما و كانت له ذقن تفيد انه الاذكى :

– اني اعرف مانيلوفكا ولا اعرف زامانيلوفكا !

– هذا حسن واين توجد هذه الـ (مانيلوفكا) .

– على مسيرة (فرست) واحد من هنا ويحسن ان تنعطف نحو الجهة اليمنى . أكرر عليك باني اعرف مانيلوفكا لازامانيلوفكا . وعلى القلة هناك تجد بيتاً مبنياً من الحجارة له واجهتان ويقطنه السيد ، هل فهمت ؟

واذابت العربة من جديد (فرستاً) آخر باحثة عن مانيلوفكا . وبعد مضي (فرست) ثان انعطف الطريق واخذ وجهة جديدة مستوعرة ... وانتهى (فرست) فاثنان فثلاثة وما من شيء يدل على وجود مانيلوفكا . كل هذا جعل تشتشيكوف يحكم بانه عندما يؤكد صديق لصديقه بانه يقطن على مبعده خمسة عشر (فرستاً) فيمكنه ان يضاعف هذا الرقم بكل بساطة .

لم يكن في مدينة مانيلوفكا ثمة شيء بارز ، و كان منزل السيد مبنياً فوق مرتفع من الارض تمر به الرياح من شتى الجهات . و كانت الارض قرب ذلك المنزل معشوشبة وقد ارتفع فوقها زهر الزنزلخت الابيض والطلح الاصفر وبعض اشجار السندر ، وعرائش متشابكة ألفت سقفاً اخضر فوق الاعمدة الرفيعة التي تساعدها على التعريش فبدت « كهيكل منعزل للتأملات » وامتد

غدير في المنحدر اخضوضرت ضفتاه وانتظمت حوله الحقول المزينة التي تخص الملاك الروسيين . وفي اسفل هذا المرتفع وفي نفس تلك الحقول رصعت منازل خشبية اللون كانت دوماً مثاراً للفضول الراقي عند بطلنا ! انها لتجاوز المائتين عداً وليس بينها من شجرة او عشبة او اي كتلة او لوح او جسر .

وكان يبعث الحياة في ذلك المنظر اثنتان من النساء شمرا تنورتيها وهما منحنيتان وقد وصل الماء حتى ركبتيها وأمسكتا مجهدتين حبلاً صغيراً ممزقاً ربطتا به سرطعانين وسمكة . وقد تشاجرتا مع بعضهما وأخذت الاولى بالصياح خلف الثانية . وارتسم في البعيد حرش غامض ذو لون اخضر . كان الوقت قد اكمد وكاب حتى أشبه فرقة من الخفراء التابعين لجنود الامن والسلامة الذين لا يثملون الا في كل أحد. ويجدر بنا الا ننسى الديك ايضاً لان صياحه الرفيع يشير دوماً إلى تبدل الزمان وتراخيه ، وبالرغم من توزع الساعات على نسب واحدة فانه يصرخ اكثر من المعتاد ويضرب بجناحيه في عنف شديد .

وشاهد تشتشيكوف اخيراً سيد المنزل فوق الافريز بردائه الاخضر ،وقد فرش يده فوق جبهته ليرى العربة القادمة ، وبينما كان تشتشيكوف يقترب كانت عينا مانيلوف تلمعان وابتسامته تزداد عرضاً . وهتف أخيراً : « بافل ايفانوفيتش انك ما زلت تذكرنا ! » والتحم الصديقان في عناق قوي ثم قاد مانيلوف ضيفه إلى قاعة الاستقبال مجتازاً الدهليز وغرفة الطعام .

ولننتهز الآن بعض هذه اللحظات لنتحدث قليلا عن سيد المنزل . وان الكاتب ليعلم بان هذا ليس من السهولة بمكان ، بل انه لاسهل علينا ان نرمي بألوان عديدة على قطعة من نسيج قشر القنب بكل سخاء . كانت عيناه السوداوتان تشعان باللهب وأما حاجباه فقد لزا إلى بعضهما بينما كانت الغضون تحفر جبهته . وارتاح رداؤه الاحمر بتراخ فوق كاهليه ، وكل هذا الذي تقدم انما هو مجرد مدخل لوصفه. غير ان الذين يشبهون مانيلوف كثيرون بل يستحيل

عدهم . ولكن فلنركز انتباهنـــا ولنوضح الخطوط الاكثر تعمية وغموضاً ولنحدد علومنـا بالمشاهدة . ان الله هو وحـده الذي يستطيـع وصف أخلاق مانيلوف . ان من الاشخاص مالا يشبه لا هـذا ولا ذلك ، انهم لبسوا مثل « بوغدان في المدينة أو مثل سيليفان في القرية » كما يقول الروسيون . ومانيلوف إنما ينتمي الى هذا الجنس من النـاس . ان وجه هذا الرجل لا ينقصه الهوى ، هو أشقر الشعر بعينين زرقاوتين ، وسحره في حلاوة العسل ، وان كل حركة من حركاته تنضح بالجمال الشهي ، وأما ضحكته فكلها اغواء . كان عندما يراه المشاهد لاول وهلة يقول في الحال « يا للرجل الجميل اللطيف ! » وبعـد دقيقة واحدة فقط لا يكاد يقول شيئاً على الاطلاق ، ولكنه بعد الدقيقة الثـــالثة يصرخ بملء قوته : « انما الشيطان وحده يعلم كم يساوي هذا الانسان ! » ذلك ان حزنا ـ قاتلا يعتريك إذا مكثت بجانبه . انه لايقوى على التفوه بتعبير يدل على الحياة كما يستطيـع الاحيـاء وحدهم أن يفعلوا ذلك ، ثم انه لكل هواه : فهذا يحب صيد الارانب وذاك يخـال نفسه يتعشق الموسيقى ويفهمهـا بعمق وهناك آخرون يحبون الغذاء الشهي ويرغبون في الظهور قبل كل شيء أو يحلمون بالتنزه والى جانبهم ضابط مساعد أمام انظار الاصدقاء المعروفين والمجهولين ، أوتلهبهم رغبة الربح في الميسر أو يأملون في ان يصبحوا مفتشين في سكك الحديد أو سائقين ... بلى لكل هواه . غير ان مانيلوف ليس له هوى بالذات . ففي منزله يتحدثون قليلا ويفكرون ويتأملون كثيراً ، ولكن بمـاذا ؟... هذا مالا يستطيع مخلوق ان يجيب عليه . فهو لا يهتم بأعماله ولا يذهب الى حقوله ، وكانت أملاكه مع ذلك تتقلب بين الربح والخسارة . وكان عندمـا يقول له وكيله : « أيها السيد اننا بحاجة الى كيت وكيت » يجيب بارتخاء : « حسناً ... لابأس » ويتابع تدخين غليونه كضابط متواضع لطيف مثقف ويردد من جديد : « حسناً ... لا بأس » وعندما يأتيه أحـد فلاحيه ليقول له وهو يحك برأسه : « أيها السيد امنحني يوم عطلة كي اسعى لربح بعض المال إذ ان الضرائب ثقيلة »

كان يجيبه وهو يدخن على عادته : « فلتذهب ... » ولم يكن ليخطر بباله قط ان عبده القن قد ذهب ليسكر . كان يتأمل احيانا في المستنقع ويفكر في الفائدة التي يجنيها من بناء جسر حجري تقام على جانبيه الحوانيت لبيع حوائج الفلاحين الضرورية ... وعند ذلك تغوص عيناه برضى وحبور فيبدو و كأنه يعاني آخر سكرات الموت ، وبطبيعة الحال فان هذه المشاريع تظل في رأسه مجرد مشاريع .

وفي غرفة عمله يوجد كتاب مشار فيه دوماً الى أن صاحبه قد وصل حتى الصفحة الرابعة عشر التي قرأها منذ اكثر من سنتين . أما داخل البيت فثمة شيء ينقصه ، إذ ان مقاعد الصالة المتسعة قد نجدت بحرير قديم جميل ولكن الخطأ ليس هنا بل هو في وجود مقعدين بلا تنجيد ، فكان الى جانب ذلك يخاطب ضيوفه منذ عدة سنين بهذه العبارة « لا تجلسوا هناك فالمقعدان لم ينجدا بعد » وهناك ايضاً بعض الغرف غير مؤثثة اطلاقاً ؛ هذا وفي الاسابيع التي تلت زفافه كانت هذه العبارة دوماً تتكرر بالذات : « ياروحي الصغيرة غداً يجب أن نشتري ما نؤثث به هذه الغرف ». وهناك شمعدان باذخ بثلاث شمعات كبيرة الجرم ، وترس يبهر الانظار بتعاريقه اللمعة كان يزين مائدة غرفة الطعام، ولكن بالقرب منه لم يلحظ لا مانيلوف ولا زوجه ولا خدمه وجود شمعدان آخر كسيح مقعد . وأما زوجة مانيلوف فقد كانت ... ولكن لا ، لا يجب ان نلح هنا على وصفها ، فلقد كان الزوجان سعيدين جداً . وبالرغم من مرور سنوات ثمان على زفافهما فقد كانا يقدمان لبعضهما الهدايا مثل شيء من الاطعمة « يا روحي الصغيرة ، افتحي فمك واطبقي عينيك » هكذا ، وبمثل هذه العبارة كان يقول واحدهما للآخر بصوت ممطوط . وحينئذ يفغر الفم بوساعة مخيفة ليحظى بقطعة من التفاح أو من الفواكه الاخرى . واما أيام الآحاد فهي خصبة بالمفاجئات ؛ مثال ذلك انه يقدم فيها غلاف للسواك مزين بلؤلؤة دقيقة .

وفي الغالب ، عندما يجلسان في الصالة ، وفي نفس اللحظة يترك الاول غليونه والثاني حياكته ، وتتحد شفتاهما في قبلة طويلة ، طويلة جداً لدرجة انالسيكار الصغير يجد في بعض الاحايين متسعاً من الوقت لاثارة الحريق. ويوجد ،بطبيعة الحال ، في ذلك المنزل ، شيء آخر للعمل غير العناق وتقديم الهدايا الصغيرة ، وإلا فلم هذه الضجة وهذا الهرج في المطبخ ؟ ولماذا تكون حافظة المأكولات دوماً فارغة ؟ ولماذا تسرق الخادم معلميها بكل هدوء وبساطة ؟ لماذا .... غير انها أسئلة كثيرة الغرابة لاجل النخبة الممتازة من الذوات .النخبة ؟ولذلك كان يستدعى اولئك الذين تعلموا الفرنسية بالمعاش ، وهي اللغة الضرورية للحظ السعيد والبيانو الذي يجعل الساعات تمر سعيدة مع الزوج الجديد ، وكانا يتسليان بزرد كيس النقود أو باشياء اخرى ، كهدايا عيد رأس السنة .غير ان المنهاج قد اختلف في الآونة الاخيرة لانه يكلف كثيراً من الجهود والوقت لمعرفة ادارة الدخل .

ولنعد الآن الى تشتشيكوف ، فانه منذ لحظات قليلة اخذ بالتجادل مع مانيلوف أمام الباب في من سيمر منه قبل الآخر . قال تشتشيكوف :

– عفوك ، سأمر خلفك إذا تفضلت فسمحت . فأجابه مانيلوف وهو يشير الى الباب .

– محال يا بافل ايفانوفيتش .

– ولكن ارجوك ، ادخل ولا تزعج نفسك .

– آه ! لا ! ألف معذرة ، ان ذلك ليتعذر علي مع رجل له مثل مرتبتك وقيمتك .

– انت ، عن اي قيمة تتحدث ؟ ارجوك تفضل بالمرور .

– تفضل قبلي اذن ...

– لماذا ؟... فأجاب مانيلوف بضحكة حبيبة :

– هكذا ...

ومر الصديقان اخيراً معا اولهما بجانب الثاني .

– اسمح لي ان اقـدم لك زوجتي ... ياروحي الصغيرة ، هو ذا بافل ايفانوفيتش .

كانت مانيلوفا جميلة تقريباً في ثوبهـــا المنزلي المصنوع من الحرير و كان صوتها الباهت منسجما مع لون وجهها . و كانت ترمي بيدهـا الدقيقة بتمهل بعض الاشياء فوق المائدة ، ثم نهضت وهي تقبض بيدهـــا على منديل جميل التطريز . فتناول تشتشيكوف تلك اليد بشيء من السرور في حين قالت له بلثغة خفيفة انه مامن يوم يمر دون ان يحدثها زوجها عن بافل ايفانوفيتش وهنا قال مانيلوف :

– هذا شيء طبيعي ، ولقـــد كانت زوجتي تسألني كل يوم : متى يحضر صديقك العزيز فكنت أجيبها بالحـــال . صبراً صبراً يا روحي الصغيرة ، حتى تفضلت فشرفتنا بزيارتك اخيراً . انها لسعادة حقيقية لكلينا ، وانه ليوم عيد حقيقي ... وان قلبنا ليفيض ...

وسرعان ما قاطعه تشتشيكوف وهو يستمع الى انه السبب في هـــذا « الفيضان القلبي » بتلك العبارة المتواضعة :

– أصدقك القول باني رجل بسيط جداً ، وانه ما من لقب لي ...

وقاطعه مانيلوف بدوره وقد ارتسمت على ثغره ابتسامة كالسكر .

– انت واهم ، فانك تحوي على جميع الخصال بل انك لتحوي على مايزيد على جميع الخصال . وهنا سألت مانيلوفا :

– هل اعجبتك مدينتنا وهل قضيت فيها وقتاً طيباً ؟

فأجاب تشتشيكوف :

– انها لمدينة مذهلة حقاً ، لقد كنت مأخوذاً بها طيلة إقامتي فيها ، و كان جميع من فيها ، من الناس طيبين معي !

فسألت مانيلوفا :

– وكيف وجدت الحاكم فأضاف مانيلوف :

– انه رجل جليل القدر كثير المؤانسة . فرد تشتشيكوف :

– اني من رأيكم ، فهو رجل كله إجلال ، وهو الوحيد الذي يملأ مركزه مما يدعو الى ان يتمنى المرء وجود كثيرين من أمثاله .

قال مانيلوف ايضاً وهو يغلق عينيه بلذة واسترخاء حتى بدا كقطة عركت أذناها بنعومة :

– كما انه يعرف كيف يستقبل الجميع ويرضيهم . فرد تشتشيكوف :

– انه لا مثيل له ، وهو الى جانب ذلك فنان في التطريز ، فقد أراني كيس نقوده الذي طرزه بيده ... حقاً ان المرأة المتضلعة لا تستطيع ان تصنع كيساً أجمل منه .

وسأل مانيلوف وهو يغلق عينيه بالتذاذ من جديد :

– ونائب الحاكم ألا ترى أنه رجل محبباً للنفس ؟

فأجاب تشتشيكوف :

– انه ذو قدر عظيم .

– ومدير البوليس ؟ رجل لطيف ، اليس كذلك ؟

فهتف تشتشيكوف :

– اوه ! اوه ! رجل عالي الهمة واسع العلم . لقد اضعت في لعبة الويست مع النائب العام ورئيس القضاة كل شيء ، وقد دام اللعب طيلة الليل واستمر حتى زمن صياح الديك فسألت مانيلوفا :

– ماذا تقول في زوجة مدير البوليس . فاجابها تشتشيكوف

– انها امرأة ملحوظة . ثم انتقل بافل ايفانوفيتش الى السؤال :

– وانت انقطن دوماً في المزرعة فرد مانيلوف :

– اجل اننا هنا دائماً تقريباً . ولكننا في بعض الاحيان نذهب الى المدينة

لرؤية بعض اصحاب الشأن المهمين من الناس ؛ ذلك اننا لو بقينا هنا دوماً منطوين على انفسنا لاصبحنا متوحشين .

فتمتم تشتشيكوف

ـ هذا صحيح ، هذا صحيح . وتابع مانيلوف :

ـ انما المهم في الامر ان نوجد صديقاً ... رجلا بواسطته نستطيع ... بطريقة ما ... الكلام عن اللطافة ، والثقافة ... او متابعة عالم في ابحاثه العلمية واخيراً نستطيع ان نحيي فيه روحه ونسير به نحو عليين .

اراد مانيلوف ايضاً ان يعبر عن فكرة عميقة ، ولكنه خاف المبالغة دون ريب ، فقام بحركة مبهمة ثم تابع :

ـ اذن ، وفي هذا الشأن ، فان الخلوة والمزرعة تجعلاننا كثيري اللطافة ... فنحن من وقت لآخر نقرأ (ابن الوطن) وهذا يكفينا .

وحبذ بافل ايفانوفتش هذا الرأي واضاف بانه مامن شيء يعادل الخلوة اذا استطاع الانسان ان يتمتع بالطبيعة ويقرأ الكتب الجيدة .

فهتف مانيلوف :

ـ اوه ، واذا لم يكن له صديق ، فلمن ينفس عما يعتلج في صدره ...

فاجاب تشتشيكوف مقاطعا :

ـ صحيح ، صحيح جداً . ان جميع كنوز الارض لاتعادل مثل هذا الصديق والحكمة تقول : « ماذا يهمك المال اذا ماامتلكت الاصدقاء »

وكرر مانيلوف بتعبير نظيف اعذب من دواء ركبه طبيب بارع كي يحظى باعجاب زبونه :

ـ انت تعلم ياباڤل ايفانوفتش ان الصديق ضروري ، اي صديق كان ، لاجل المتعة الروحية ... وهكذا اليوم ، فان الصدفة بلقائك تجعلنا نحظى بالسعادة ويمكن ان نقول ان هذا الصديق نادر يصعب الحصول عليه ... كالتمتع بصحبتك العظيمة الفائدة . فقاطعه تشتشيكوف :

ـ ولماذا صحبته عظيمة فانا رجل خال من اي قيمة .
ـ اوه ، بافل ايفانوفتش ، اسمح لي ان اصدقك القول اني لاتنـازل بكل سرور عن نصف ثروتي على ان يكون لي بعض اخلاقك .
ـ على العكس تماماً ، انا الذي يعتبر صداقتك الرائعة شرفاً له .
واكاد اجهل الى اي حد ستنتهي مناجاة صديقينا لو لم ينقذهما منها الخادم الذي جاء ليعلن ان الطعام قد اعد . وهنا قال مانيلوف :
ـ هيا الى غرفة الطعام ! واضافت زوجته :
ـ يجب ان تعذرنا على هذا الطعام البسيط ، فانه لايضـاهي ذاك الذي في العاصمة ، ذلك ان كل شيء بسيط في الريف .
ومن جديد تنازع الصديقان حول من يجب ان يمر قبل الآخر من خلال الباب ، ودخل تشتشيكوف اخيراً وهو يتظاهر بالتواضع . كان هناك صبيان يجلسان على المائدة وكان سنهما يسمح لهما بالجلوس على مائدة الاسرة وقد جلسا على كراسي مرتفعة . وكان المربي بالقرب منهما يحيي القادمين بلطف وهو يبتسم . جلست ربة البيت قبل الجميع ثم جلس بافل ايفانوفتش بينها وبين زوجهـا وجاء الخادم فعقد فوطتين حول عنقي الصبيين . فقال تشتشيكوف :
ـ ان طفليك لساحران ، كم يبلغ عمرها ؟ فاجاب مانيلوف :
ـ اما البكر فهو في الثامنة من سنيه واما الثاني فعمره ست سنوات . ثم نطق باسم تيميستوكليوس وتابع الحديث وهو يشير الى ان الاول هو صاحب ذلك الاسم ، وكان هذا جالساً يحاول ان يرخي من عقدة فوطته التي شدهـا الخادم كثيراً حول عنقه .
ـ تيميستوف كليوس ، أجب ماهي اجمل مدينة في العالم ؟ وهنا القى المربي على تلميذه نظرة وحشية وبدا كأنه يريد ان يقفز عليه ليفقـأ له عينيه ، غير انه سرعان ماهدأ عندما اجاب تيميستوكليوس بقوله : « باريس » فسأل الوالد :

ـ وعندنا ماهي اجمل مدينة ، وجمد المربي الصبي من جديدفاجاب الاخير :

ـ بطرسبورج

ـ والثانية ؟

ـ موسكو فهتف تشتشيكوف متحمساً :

ـ كم هو ذكي ، ذلك الطفل ، ان ذكاءه ليبعث على الحيرة بالنسبة لصغر منه ، سيكون بلا ريب شيئاً عظيما ، فأجابه الاب :

ـ اوه ، انت لم تعرفه تماماً ، فهو خارق .. ولكن الثاني ، آلسيدليست له ذاكرة قوية ، غير ان تيميستوكليوس منذ ان يرى رجلا فاضـــلًا او يرى حشرة ما ، فان عينيه حينئذ تقدحـان بالشرر ويتركز جميع انتباهه حولها ، سأجعل منه سياسياً . ياتيميستوكليوس الا تريد ان تكون سفيراً ؟

ـ بلى اريد : اجاب الطفل بدلك وهو يمضغ قطعة من الخـبز ويدير رأسه بحركة لولبية ذات الشمال وذات اليمين ، وفي تلك اللحظة مخط المربي هـــذه العبارة : ان من يريد ان يكون سفيراً في المستقبل يجب عليه الا يدع الحساء يتساقط على فوطته وهو يحتسيه .

وتحدثوا بعد ذلك عن مسرات الحياة الهادئة وسط الحقول ، وعن التياترو والمدينة والفنانات ، واجاب المربي على جميع الاسئلة التي وجهها اليه والدا تلميذيه ضاحكا بثقة واعتزاز عندما لاحظ انهما يحبان المبالغة في شتى الامور فهو لم يكن جاحداً بل اراد ان يحظى بحسن التفات ماينلوف اليه ، ولكن وجهه اخذفجأة تعبيراً جـافاً قاسياً وضرب الطاولة بيده وهو ينظر الى الاطفال ! الا ان تيميستوكليوس سارع الى عرك اذن اخيه الذي كانت عيناه مغلقتين وفمه فاغراً فجعل الطفل يبكي ، ولكن الخوف من ان يفقد حصته من الفاكهة جعله يبتلع دموعه بسرعة ويتابع الاكل وقد التمع عذاراه لما علق بهما من الدهن .

وكانتماينلوفا قد سألت تشيتشيكوف ان يعذرها لهـذا الطعام البسيط مما جعله يجيب بلا تردد :

– اني لم اشعر بالجوع ابداً ، ذلك ان السرور بمحادثتكم قد الهاني عن كل شيء.

واخيراً ارتفعت المـائدة وكان ماينلوف كثير السعادة ، فربت على ظهر صديقه واراد ان يقوده الى الصـــالة ، ولكن بافل ايفانوفيتش افصح عن نيته بالانفراد به لعمل ضروري .

– فلنذهب اذن الى غرفتي الخاصة ! قال ذلك ماينلوف وهو يقوده الى غرفة انعكس النور من نافذتها على قطعة صغيرة من الخشب فاخـذت شكل ضباب ازرق ، وقال تشيتشيكوف معجباً .

– يالها من غرفة صغيرة جميلة .

كانت الغرفة باديء الامر مغطاة كلها بورق رمادي ضارب للزرقـة ، تضم اربعة كراسي ومقعداً كبيراً ، وطاولة عليها الكتاب العتيد المشار فيه الى الصفحة الرابعة عشر ، وبعض الاوراق الملطخة بالحبر ، غير ان التنباك كان يسود الغرفة فهو مبعثر في كل مـكان علباً واكداساً ، وعلى النافذتين اصطفت كتل من الرماد خانت هوى سيد المنزل .

قال مانيلوف :

– خذ المقعد الكبير ، ارجوك ، فهو احسن لك .

– لا سأكتفي بالكرسي ، فقال ماينلوف مبتسما .

– اسمح لي بالالحاح عليك ، فان هذا المقعد معد خصيصاً للرجال العظام ، فيجب ان تجلس عليه اذن شئت أم ابيت .

وجلس اخيراً تشتشيكوف .

– أتسمح لي ان اعرض عليك هذا الغليون لتدخنه ؟

فاجاب بافل ايفانوفتش بتمهل وبشيء من الاسف :

ـ ولكنى لا ادخن ! فسأل مانيلوف بنفس التمهل والاسف :

ـ ولكن لماذا ؟

ـ ذلك اني ارذل هذه العادة ، ثم ان الفليون مؤذ .

ـ هذا حكم اعتباري بحث ، أؤكد لك ذلك ، ثم ان التدخين بالغليون أسلم من استنشاق السعوط . اني اعرف صديقاً لي في سرية الجنود برتبة ملازم وهو رجل طيب المعشر بالاضافة الى انه عالم ومثقف ، لايكتفي فقط بألا يدع غليونه على الطاولة ، ولكنه .. وعذراً .. يحمله معه في كل مكان !

وقد جاوز هذا الرجل الآن الاربعين من عمره واستطيع ان أؤكد لك انه في صحة جيدة . فأجاب تشتشيكوف بان هـذا محتمل وممكن ، إذ ان للطبيعة من الحوادث مايصعب ادراكه ، فهي غامضة حتى على كبار المتعلمين!

ـ ولكن اسمح لي اني اعتذر عن تدخينه . . . ثم تابع تشتشيكوف بتعبير غريب وحازم وبحركة مبهمة ، جعلت مانيلوف يقوم بهـا نفسها دون ان يعرف لماذا :

ـ منذ متى أرسلت للحكومة قائمتك بعدد عبيدك ؟

ـ منذ زمن بعيد . . ولكني لا أذكر متى كان ذلك بالضبط .

ـ ومنذ ذلك الحين كم فقدت من هؤلاء العبيد ؟

ـ لست ادري ، أنا لا اعلم اي شيء عن هـذا ، ولذلك يمكن ان نرسل بطلب مدير املاكي فهو بذلك ادرى . ثم نادى مانيلوف الخادم وقال له :

ـ إيتني بالوكيل ، يجب ان يحضر الى هنا اليوم .

وبعد فترة من الوقت دخل الوكيل وكان رجلاً في العقد الرابع من عمره مبسط الشعر يتمتع بالبرود اللمفاوي وقد دل وجهه المصفر انه لديه بعض الفرش الجيدة والوسائد اللينة . وقد كانت حياة هذا الرجل تشبه الى حد بعيد حياة جميع رفاقه ، وقد شب وتثقف في المنزل فتزوج منذ زمن غير بعيد

من (اغاشكا) الخازنة العزيزة على سيد المنزل ، واصبح بدوره خازناً بعد حين ثم لم يلبث ان اضحى وكيلاً لأرزاق السيد . واخذت حياته شكلا جديداً اذ اصبح يتملق اغنياء المدينة ويعرض عن الفقراء . واصبح يستيقظ صباحا في التاسعة وينتظر اعداد السماور ليتناول الشاي .

ـ اسمع يا صديقي ، كم فقدنا من الفلاحين منذ الاحصاء الاخير حتى الآن؟

ـ ماذا ... كم ؟.. يوجد كثير من الموتى . فهتف مانيلوف :

ـ هذا ماظننت ، وقد كان ظني صحيحاً .. اجل لقد فقدنا الكثيرين .. واتجه نحو تشتشيكوف مكرراً :

ـ الكثيرين ... فقال هذا الاخير :

ـ ولكني اريد رقماً . اريد شيئاً ثابتاً . فعقب مانيلوف موافقاً :

ـ بالطبع ، لابد لنا من رقم ... فأجاب الوكيل :

ـ وكيف يتسنى لي ذلك ... فما من انسان يحصى الموتى . فقال تشتشيكوف آمراً :

ـ حسناً احصهم ، واعمل لي قائمة بجميع اسمائهم .

فأجاب الوكيل :

ـ امرك مطاع ياسيدي وخرج ، فسأل مانيلوف :

ـ ولكن لماذا تحتاج الى هذا الاحصاء ؟

وبدا ان السؤال قد اربك بافل ايفانوفتش الذي احمار وجهه قليلا واتخذ طابع الانقباض كما لو انه يفتش عن اجابة .

تسألني لماذا .. هاك اذن : لاني اريد ان اشتري منك عبيداً ..

ـ اسمح لي بمقاطعتك .. فانت ترغب بشراء الفلاحين .. مع الارض ام بدونها ؟

لم اعن هذا .. اريد .. اريد الميتين منهم ..

– ماذا ؟ عفواً .. اني اثقيل السمع قليلا .. واحسب اني سمعتك تتلفظ بكلمة .. غريبة .

فأجاب بافل ايفانوفيتش :

– اريد أن اقتني الموتى الذين مازالوا معتبرين احياء في الاحصاء الحكومي الاخير .

ووقع غليون مانيلوف فوق الارض . وفغر فاه باتساع عظيم وظل هكذا جامداً على هذا الشكل . وبقي اولئك الصديقان اللذان أخذا يفيضان في ذكر حسنات الصداقة دون حراك وجمدت انظارهما كما لو ان المصورة التقطتهما الاول من وجهه والثاني من سائر جهاته اليابسة . ولم مانيلوف آخر الامر غليونه وانعكست نظرته على تشتشيكوف آملا ان يكشف في تعبير صديقه ريح الدعابة . ولكنه اصطدم بوجهه الجامد الذي ازداد صلابة ويبوساً . وتضرع مانيلوف الى ربه الا يكون ضيفه العظيم قد اعتراه خبل الجنون فأخذ ينظر اليه بذعر ، بينما ظلت عيون بافل ايفانوفيتش صافية هادئة فاقدة كل التهاب يلتمع عادة في نظرة المجنون .

وعبثاً تساءل مانيلوف ،انه لا يعرف على الاطلاق بماذا يفكر وماذايقول أو يفعل ولم يبق امامه الا ان يقذف بالدخان القليل الذي كان في فمه بشكل حلزوني ناعم وقال تشتشيكوف مكرراً :

– اريد ان أعرف نيتك في هذا الشأن : أتتخلى لي عن هؤلاء الموتى .. الذين هم احياء في نظر الحكومة ؟.

واضطرب مانيلوف واحتار ، واخذ ينظر الى ضيفه دون ان ينبس ببنت شفة . فعلق بافل ايفانوفيتش :

– يظهر لي انك حائر .

– مطلقاً ... ليس الامر بذاك ... ولكن ... لم استطع ان افهم

قصدك ... اعذرني ... فان الثقافة المتواضعة التي احملها لا تتسع للدرجة التي افهم فيها كلًا من حر كاتك ... ذلك اني لا املك فن الأداء... ولعل كلامك يستر شيئاً ما ... فأنت بلا ريب تريد ان تضلني ببلاغتك ... فأجاب تشتشيكوف :

ـ لا سأعيد كلامي على مسمعيك ... انا لا ارغب الا بالموتى من عبيدك.

واعترى مانيلوف الدوار . وشعر انه يريد ان يتكلم شيئاً ما ، أن يطرح سؤالا ... ولكن ماذا يطلب ? ولعل الشيطان وحده يعرف ذلك ، وقذف للمرة الثانية بالدخان من أنفه بنفس الشكل الحلزوني الرهيف .

ـ إذن ، سنرتب صك المبيع باذن الله .

ـ صك بشراء الموتى ?

ـ مطلقاً ، سنكتب أسماء الاحياء الموجودين في قائمة الاحصاء، فأنا لا اريد ان اخالف القانون ، ثم ان هذا العمل سيكلفني غالياً ، ولتعذرني فالواجب شيء مقدس بالنسبة لي ، واني لأتضاءل كثيراً أمام القانون .

ورضي مانيلوف بهذه الألفاظ المعسولة ، ولكن شيئاً غامضاً ما زال يكتنف الموضوع ، ولكنه لم يدر بماذا يجيب ، فحشا بنشاط كبير ذلك الغليون الذي اخذ يصفر كالزوبعة ، ثم مكث يتأمل غليونه كما لو أنه ينتظر منه كلاماً ينقذه من هذه الطريقة الثقيلة ، ولكن الغليون ظل يتابع صفيره غير مبال بما يحدث . وهنا سأله بافل ايفانوفيتش :

ـ ألديك ثمة شكوك أو شبه ?

ـ لا ابداً ... فاني لم اطلق حكماً على نيتك مطلقاً ، غير ان هذه التجارة او هذا المشروع الا يخالف القاعدة المتبعة في الروسيا والقضاء المتبع في بلادنا ?

وقام مانيلوف بعد ما انهى كلامه بهزة من رأسه واطلق نظرة ذات مغزى غير ان التعبير الذي ارتسم على وجه صاحبه والشفاه المزمومة المفصحة عن الارادة القوية التي طالعته ، كل هذا جعل مانيلوف يحسب نفسه امام وزير او شخصية

كبيرة مستغرقة في تأمل عميق . وكان هذا حينما اخذ باغل ايفانوفتش يجيب بان هذه التجارة ليست على الاطلاق مخالفة للنظم السائدة في الروسيا ، اذ ان الخزينة العامة ستجد ارباحاً في هذا العمل ، وستكون الضرائب باهظة .

ـ اذن فانت تظن ؟ ...

ـ اجل اظن بان هذا يمكن ان يجري ... فقال مانيلوف :

ـ ليس لدي اذن اي اعتراض .

ـ فلنتفق على الثمن اذن ...

ـ ماذا ! عن اي ثمن تتحدث ؟ اتظن باني آخذ منك مالا ثمناً للنفوس الميتة التي ... بطريقة ما ، نستنتج القول ، بانه يمكن وجودها ؟ واذا كانت هذي رغبتك ... ماذا اريد ان اقول ... فاني من جهتي ... سوف اتخلى لك عن هذه النفوس ، واتكفل فوق ذلك بنفقات صك المبيع .

لم يهمل كاتب هذه السطور شيئا على الاطلاق فيما يتعلق بالمحادثات الجارية ، وسيضيف الى ماتقدم صفة الحبور اللامتناهي الذي انسرح في تضاعيف وجه تشتشيكوف . ورغم تظاهره بانه سيد نفسه ضابط لاعصابه ، فقد اخذ يقفز فوق المقعد فاضحاً نوبة الفرح الحادة التي عرته . ونظر اليه مانيلوف مشدوهاً لقد كان خجلا محمر الوجه ثم هز رأسه باحتجاج على عبارات صديقه الشاكرة . واتضح له اخيرا ان كل ماتقدم ليس بشيء ذي قيمة « انه بلا ريب يريد ان يبين بقلبه الخافق ونفسه المتمغنطة ، ان تلك النفوس الميتة لاتساوي في ذاتها شيئاً ذا بال »

ـ لاتساوي شيئاً ذا بال ! ... صاح بذلك تشتشيكوف وهو يشد على يد مانيلوف بحرارة ويتنفس الصعداء . ثم ، وفي فيض من الحماس ، صرح بقوله : لو كنت تعلم مقدار الخدمة التي اديتها لي ! كم من الجهود الاليمة التي ألمت بي في الحياة ، لقد كنت كالقارب الصغير وسط المحيط الهائج ، ولكم عانيت من الملالة والاضطهاد ؛ لاجل خدمة الحق والمحافظة على نقاوة الضمير وحمل المساعدة

للأيم والنجدة لليتيم ! وانهمر الدمع من مآقي بافل ايفانوفتش فتأثر مانيلوف كثيراً وانهد كيانه فألقى بنفسه بين ذراعي صديقه واتحدا معاً في عناق حار طويل . واخذت عيونهما تغرورقان بسخين الدموع .

ولم يرغب مانيلوف ان يطلق يده من يد بطل قصتنا ، غير ان هذا الاخير، استطاع ان يحرر منه يده بلطف ثم اوصى صديقه بتهيئة صك الشراء وتناول قبعته يريد الانصراف .

ـ وكيف تذهب الآن ؟ قال ذلك مـــانيلوفا بشدة وهو يستعيد الى ذاكرته حقيقة ماوقع .

وفي تلك اللحظة دخلت مانيلوفا فقال لها زوجها بخضوع وحزن :

ـ ليسينكا ، سيتركنا بافل ايفانوفتش . فقالت :

ـ اجل ! هذا لان بيتنا لاتسره . فقال تشتشيكوف محتجاً :

ـ سيدتي العظيمة ، هنا (واشار بطرف اصبعه نحو قلبه) تخلد اجمل ذكرى للساعات التي قضيتها بجانبكم . ويجب ان تعتقدوا بانه ليس من سرور يضاهي السرور الذي اشعر به اذا عشت معكم ... ان لم يكن في نفس المنزل ففي منزل مجاور على اقل تقدير .

وهتف مانيلوف مفتتناً بهذه الفكرة :

ـ ولكن ، سيكون العيش باهراً هكذا على وتيرة واحدة ... بلى لسوف نتفلسف تحت ظلال الدردار ولسوف نتبحر في اهم المسائل الكبرى... فاجاب تشتشيكوف :

ـ انها لحياة فردوسية ، ثم اضاف وهو يقترب من مانيلوفا ، الى اللقـــاء ياسيدتي ، وانت ايها الصديق العزيز وداعـــاً ولا تنسيا ان تصليا من اجلي !

فاجاب مانيلوف :

ـ كن مطمئناً لسوف نفعل ذلك !

وهبط الثلاثة قاعة الطعام .

ـ وانتما الى اللقاء أياطفلي العزيزين : قال ذلك بافل ايفانوفتش وهو يرنو الى آلسيد وتيمستوكليوس وهما مشغولان باللعب بتمثال خشبي بلا أنف ولا يد. الى اللقـاء ايا مهري الصغيرين ولتعذراني لخلو يدي من الهدايا لكما ... فانا في الحق غير عالم بوجودكما . ثم التفت الى تيميستوكليوس وقال : سآتيك في المرة القادمة بسيف ، أتريد سيفاً ؟... فأجاب الطفل .

ـ اوه ، نعم !

ـ وانت انك تريد طبلاً أليس كذلك ؟ فتمتم آلسيد وهو يهز رأسه :

ـ اوه ، أجل !

ـ هو ذاك ، وسآتيك به ، انه يفعـــل هكذا ... توررورت تتتورر ورتاتاتا . الى اللقاء يا صغيري الى اللقاء .

وضم اليه الطفلين والتفت نحو والديهما اللذين قابلاه بابتسامة لطيفة . وعندما وصل الجميع الى الدرجات الاخيرة قال مانيلوف :

ـ ابق معنا ياپافل ايفانوفيتش ، فهـاهي ذي الغيوم المتلبدة ، لا تشير الى صفاء الطقس .

فأجاب تشتشيكوف :

ـ اوه ، انها ليست سيئة .

ـ ولكن أتعرف الطريق الموصلة الى سوباكيفتش .

ـ لقد كنت موشكا ان أسألك عنها .

ـ سأشرح ذلك لحوذيك إذا سمحت ...

واستدار مانيلوف نحو هذا الاخير ، واقترب منه متحبباً ثم أخذ يخـاطبه خطأ بصيغة الجمع قائلاً بانه عليه أن يسير باستقامة حتى المنحنى الثالث فقال الحوذي.

ـ لسوف نفعل ذلك يا صاحب السعادة .

وسار تشتشيكوف ، على حين وقف مانيلوف وزوجته يلوحان بمنديليهما مودعين . وبقي مانيلوف يتابع العربة بعينيه وهي تبتعد شيئاً بعد شيء إلى ان اختفت في الافق البعيد ، ومع ذلك فقد ظل واقفاً يدخن غليونه . ثم عـــاد آخر الامر إلى داخل المنزل وجلس على كرسيه واستغرق في تفكير عميق لانهاية لغوره ، مسروراً من نفسه لانه استطاع ان يشيع الغبطة في قلب ضيفه العظيم. وأخذت افكاره تتجه به في مناح عديدة دون أن يشعر ، افكار لا يعلم بها غير باريها . لقد أخذ يفكر بالفرح الالهي الذي تورثه الصداقة في النفوس ، وشعر بانه يجب أن يحيا مع صديق ما على ضفاف نهر بعيد ... يبني فوقه جسراً ... ويشيد عليه منزلاً كبيراً متسعاً يطل على مئات ومئات من الامكنة المختلفة حتى يصل إلى موسكو ... يتناول الشاي ويتحدث في المواضيع الريقة ... يقضي الايام مع تشتشيكوف وصفوة المجتمع، يخطب وده وود بافل ايفانوفيتش الحاكم نفسه ويتكرم عليهما بلقب جنرال ... وأخيراً ... فان جميع الاتجاهات التي قاده اليها تفكيره ظلت مجردات لأحلام لا شكل لها .

غير ان طلب تشتشيكوف الغريب ما زال يقض مضجعه ويعترض مسير تأملاته ، فهذا الطلب غير مدرك الكنه عنده ، وذهبت جميع الجهود التي بذلها لفهم هذا الطلب الغريب عبثاً . ومع ذلك فقد حاول أن يجتهد ويجهد لتوضيح هذا الغموض الشنيع ، ولكن ... لقد أنهكه التعب ... فأخذ يدخن ويدخن ويدخن حتى حان موعد طعامه .

الفَصلُ الثّالِثُ

وعندما استقر تشتشيكوف في عربته التي اخذت تطوي الطريق كان اكثر مرحاً منه في أي وقت مضى ، ولن يستغرب القارىء الذي عرف طبيعة مشاغل بطلنا كون هذه المشاغل تستغرقه كلياً ، كانت الحسابات والفرضيات تتيه في جبهته وتضفي على وجهه ظلّاً من الرضى بينما كانت الابتسامة الخفيفة تتراقص على ثغره ، ولم يكن ليلقي بالاً على الحوذي الذي أبهجته حفاوة خدم مانيلوف به وكان لاينى في غمرة سروره ، عن إبداء الملاحظات المناسبة للجواد الايمن ، ولقد كان هذا الحيوان المحتال يتظاهر بجر العربة بينما هو في حقيقة الحال ،يترك العبء على الجوادين الآخرين ، الاشهب والقاضي الذي سمي كذلك لأن تشتشيكوف كان قد اشتراه من احد القضاة ، كان العبء اذن يقع على عاتق هذين الحيوانين الطيبين اللذين كانت عيونهما تشع بالرضى رغم مانالهما من الاعياء : وكان الحوذي يصرخ : « تحايل ، كن خبيثاً ياصديقي كما تشاء فاني سأكون أقوى منك » ثم يلهب الجواد الكسول بالسوط ويعود من ثم الى الصياح : متى ستتعلم مهنتك ايها البغل الالماني، ان رفيقك الاشهب ليقوم بواجبه وكذلك

القاضي فانه جواد طيب .. لتسمع ما سأقوله لك .. انك لجاهل فعليك ان تستفيد من كلامي » ويلهب سليفان الجواد من جـــديد بسياطه وهو يهتف : « ايها المتوحش الملعون .. انت تعتقد انه بمقدورك ، متسلحاً بحيلتك ، ان تخفي سلوكك اذا شئت ان تكون محترماً فانه يتحتم عليك ان تعيش مستقيما فانني لا أسر بمحادثة غير الشرفاء ، انك ترى الى معلمنا فهو يقوم دوماً بواجبه وهاهو الآن مستشار لدائرة انتخابية » واستطرد سليفان على هذا المنوال متنقلاً من فكرة الى اخرى بحيث لو سمعه تشتشيكوف لعرف رأي حوذيه فيه ، غـير انه كان مأخوذاً بالتفكير ولم يستيقظ من سبحاته الا على صوت رعـد هائل جعله يقفز من على مقعده ويرغم عـلى النظر فيما حوله ، كانت السماء ملبدة بالغيوم وكانت قطرات كبيرة من المطر تنهال على الطريق الاغـــبر ، واشتد قصف الرعود واشتدت باشتداده الامطار غزارة وراحت قطرات منها تنهال على يمين العربة ثم على يسارها ثم جاءت من الامام فاخذت تلسع وجـه المسافر ، وعند ذلك سحب بافل ايفانوفتش الستارين الصغيرين وأمر سليفان بالاسراع في سيره وفهم الحوذي انه يتوجب عليه عدم التماهل فقطع خطابه وارتدى معطفاً رمادياً ولسع ظهور الجياد لم يستطع سليفان ان يتذكر الطريق ولكنه بعد جهد استطاع ان ان يتذكر ان المنعطف الثالث الذي كان عليه ان يعبر فيه قد اجتازه منذ فترة طويلة ، وبما ان الروسي لا يرتبك في الاوقات الحرجة فقد تبع سليفان دون اي تردد اول منعطف صادفه دون ان يهتم بما قد يحدث .

وكانت الامطار ماتزال تنهمر ، وامتلأت الطرق بالوحل وازداد ارهـاق الحيوانات المسكينة من جر هذه العربة .

وبدأ تشتشيكوف يقلق وقد يئس من الوصول الى قرية سوباكيفتش إذ عليه ان يصل اليها حسب تقديراته منذ مدة طويلة وعبثاً حاول اختراق ظلمة الطريق بانظاره ، فهتف آخر الامر :

- سليفان أترى القرية ؟
- كلا ياسيدي اني لا ألمحها البتة.

ثم ألهب ظهور الجياد بسوطه وبدأ في اغنية طويلة لاتنتهي .. لقد كان يغني فيها الأمل والشقاء والسرور والألم وكل مايغنى في الروسيا باجمعها ، وكجميع الحوذية كان سليفان يتوجه الى جيـــاده بحماس ويصرخ « الى امـام .. هيا يا أعزائي الصغار . »

ولاحظ تشتشيكوف ان العربة بدأت بالتمايل كثيراً ، واخذت ترمي به من اليمين الى اليسار وبالعكس ففهم ان العربة خرجت عن الطريق العـــام وانهـــا تتقدم بمشقة وسط الحقول المحروثـة ولاحظ سليفان هـــذا الامر بدوره فصمت .

وزمجر بافل ايفانوفتش :

- ايها الوغد اي طريق اتبعت ؟
- لم يكن في مقدوري أن أتبع غيره وسط هذه الظلمة فاني لا اكاد ارى سوطي.

وكان سليفان يترنح فوق كرسيه وهو يتفوه بهـذه الكلمات حتى ان العربة كادت ان تقع ، فتمسك تشتشيكوف بها بجمع يديه كي يحمي نفسه من السقوط . وهنا فقط لاحظ أن حوذيه قد سكر .

هتف تشتشيكوف :

- حذار ... حذار ... فعربتنا توشك ان تقع .
- لا ياسيدي .. اني لا افهم لماذا تنقلب عربتنا .. انه ليس من المستحسن ان تقع ... وانا لا اقلب عربة قط .

واراد الحوذي ان يدير العربـة ليغير اتجاهه ، فدار ثم دار ... وانقلبت اخيراً العربة .

وتدحرج بافل ايفانوفتش فوق الوحول فاوقف سليفان جياده وهبط من

مقعده ووقف مبهوتاً دون حراك بجانب العربة . وأخذ تشتشيكوف يتخبط في الوحل وهو يحاول النهوض ثم هتف آخر الامر :

ـ أترى ايها الغبي لقد انقلبت اخيراً بنا ... انك سكران كحذاء ..

ـ لا ياسيدي .. سكران ... ولماذا اصبح سكراناً ؟

إني لأعلم ان السكر سيء . لقد تحدثت منذ قليل الى بعض الاصدقاء ، انهم جماعة طيبون ... فتناولت معهم العشاء ... العشاء ، وهـذا ليس بالامر السيء ... ويمكن للانسان بلا ريب ان يتناول العشاء مع رجل طيب .

ـ أتذكر ايهـا الغبي ماذا قلت لك آخر مرة سكرت فيهـا ؟ أجب هل نسيت ؟

ـ ولماذا أنسى ياصاحب السعادة ؟ اني اعرف مهنتي .

ان السكرين قوم قبيحون جداً .. ولقد حادثت منذ قليل رجلاً طيباً .

ـ سأوجعك ضرباً بالعصى كي تتعلم معنى الحديث مع رجل طيب .

ـ امر سعادتك ... أتضربني ؟ ان ضميري غير مثقل باي عمل سيء .. ولكن اذا كان ضربي ضرورياً فلم لا ؟ ... وهذا يتعلق بارادتك ياسيدي ..

يجب على الفلاح ان يعاقب عندما يسكر ، ويجب على النظام ان يحترم .

وجرد هذا الجوب بافل ايفانوفتش من كل سلاح . وفي هذه اللحظة بالذات اشفق الحظ عليه فسمع نبـاح كلاب من بعيـد فجلس في عربته وأمر سليفان بالاسراع .

ومهما اعمت الظروف بصر الفلاح الروسي فانه يحافظ على حدسه دوماً ويصل الى شاطيء الامان . وهكذا فان سليفان كان يقود جياده وسط الظلام الحالك الى امام ولم يوقفها الا عندما اصطدمت العربة بحاجز لم تستطع تجاوزه . وخيل الى بافل ايفانوفتش انه يرى شبح منزل فارسل سليفان ليستجلي له الحقيقة وكان من الممكن ان يطول به الانتظار بلا طائل لولا ان الكلاب الذكية لحسن حظ الروسيا تقوم بوظيفة البواب .

كانت هذه الكلاب تنبح بشدة حتى لقد اضطر الى سد اذنيه وهو يتبع سليفان . وكان ثمة نور باهت يشع من احدى النوافذ وبفضله استطاع المسافران ان يشقا طريقهما ، وطرق سليفان الباب فشاهد رأساً ملفوفاً بشال يطل من النافذة ثم علا صوت صدي، يسأل :

ـ من هنا . . . من استطاع الوصول وسط هذا الجوالشيطاني؟ .

فأجاب تشتشيكوف :

نحن مسافران ياماتوشكا (لفظ يطلق على النساء المسنات في الريف الروسي) سمحي لنا ان نقضي الليل هنا .

ـ لقد تقمص الشيطان نفسه جسديكما . . . ولكن هذا البيت خاص ،وهو ليس بفندق .

ـ وما العمل ياماتوشكا لقد ضللنا الطريق ولا نستطيع قضـــاء ليلتنا في الطريق وسط هذه العاصفة .

واكد سليفان :

ـ آه . . . بلى ان الجو رديء جداً .

فقاطعه تشتشيكوف :

ـ اصمت ياغبي .

وتابعت العجوز :

ـ ولكن من انت ؟

ـ من طبقة النبلاء ياماتوشكا

وارغمت هذه الكلمة المرأة على التفكير ثم قالت :

ـ انتظر قليلا سأخطر السيدة بالامر .

وبعد مرور دقيقتين عادت ومعها مصباح ففتحت الباب ، وشع نور من نافذة اخرى .

وادخل سليفان العربة الى الباحة ووقف قرب بيت صغير لا يكاد يرى وسط الظلام . وكانت الامطـــار تنهمر بشدة فوق السقف الخشبي ثم تسيل بصوت مسموع في الباحة ؛ وكانت الكلاب لما تزل تنبح ، وكان اولها يزمجر بشدة حتى ليكاد ان يبح ، اما الثاني فكان نباحه سريعاً متقطعاً مثل الفاظ (القندلفت) في ان الثالث كان صغيراً يبعث بصرخات قصيرة تشبه رنين الجرس ، وهكذا كانت الجوقة مكتملة .

كان بطلنا مبللا ولم يكن ليطمح الى اكثر من ان ينام في سرير مريح ، وقفز من العربة منهوك القوى حتى انه اوشك ان يقع على الارض وظهرت امرأة اصغر من الاولى وقادته الى الغرفة فألقى تشتشيكوف نظرة سريعة عليها . كانت الجدران مغطاة باوراق ملونة قديمة شاحبة وكانت تزين هذه الجدران لوحات صغيرة تمثل طيوراً ، وشاهد بين النوافذ مرايا قديمة محاطة بأطر سود وخلف كل مرآة كان يوجد ورق لعب او جوارب او رســـائل . ولاحظ تشتشيكوف ساعة كبيرة رسمت على اطارهـا زهور ولم يستطع ان يثبت عينيه اكثر من ذلك فقد اغلقتا من الاعياء بالرغم عنه . وكانت صاحبة المنزل تتبعه وقد لبست على رأسها طاقية فوقها شال يحيط بعنقها . وكانت هذه المرأة من نوع الماتوشكا صغار الملاكين الذين يبكون كلما ساء الموسم وينتحبون كلما خسروا مالا في الوقت الذي يكدسون فيه اكياس الذهب داخل الدروج . ويحوي احد هذه الاكياس على الروبلات بينما يحوى الكيس الآخر على قطع من ذوات الخمسين كوبيكا ، واما الكيس الثالث فيحوى على القطع الصغيرة من فئة الخمسة والعشرين كوبيكا . وتضم الخزائن الثياب وبعض ملفات الخيطان والمعاطف القديمة التي يمكن ان تقلب الى ثياب جديدة اذا لم تأكلها الفيران او تهترىء من تلقاء ذاتها . فأما النار فلا يمكنها ان تحرق شيئاً واما الاهتراء فان العجوز دقيقة في عنايتها وهكذا فانه بامكانها ان تورث خرقها لحفيداتها .

واعتذر تشتشيكوف عن مجيئه في مثل هذا الوقت غير ان العجوز قالت :
ـ ان هذا لايزعجني البتة . لقد جئت في جو رديء ويجب ان نتناول شيئاً، غير ان الوقت متأخر وليس عندي شيء معد .

وكان فحيح غريب يتخلل كلام العجوز حتى ان بافل ايفانوفيتش خاف أن يهاجمه جيش من الافاعي فأخذ ينظر فيما حوله ولكنه سرعـــان ما هدأ عندما لاحظ ان الساعة تكاد تـدق وبالفعل فان ذلك الصفير ما لبث أن تبعه رنين ، ودقت الساعة دقتين بصوت يحاكي تحطيم الزجاج .

وأسرع تشتشيكوف يجيب على ربة المنزل وطلب منها ألا تهتم بشيء وانه لا يطلب إلا سريراً وانه لا ريب سيكون سعيداً لو عرف أين قـاده الحظ ثم سألها :

ـ أيسكن سوباكيفيتش بعيداً من هنا ؟

غير ان العجوز لم تكن لتعرف هذا الاسم .

فأردف بافل ايفانوفيتش :

ـ ولكنك تعرفين مالينوف ؟

ـ ومن هو مالينوف هذا ؟

ـ من تعرفين إذن من الملاكين ؟.

ـ بوبرون وسفنين وكونوباتيف وشاريكين وتريباكين وبليسكانوف .

ـ أأغنياء هم أم لا ؟

ـ لا ياباتيوشكا (مذكر ماتوشكا) فإن واحدهم لا يملك اكثر من عشرين نفساً وثانيهم ثلاثين ولا يوجد بينهم من يملك المائة .

وفهم تشتشيكوف عندئذ انه في بقعة ضائعة فسأل :

ـ هل تبعد المدينة من هنا كثيراً .

ـ حوالي ستين (فرستاً) ... اني آسفة لعدم تمكني من تقديم الطعـام . هل لك في كوب من الشاي ؟

ـ شكراً ياماتوشكا فأنا لا اريد منك إلا السرير .

ـ اني بعد هذه السن الطويلة أفهم ذلك... ارقد إذن على هذه الاريكة... ايه يافيتينا هاتي الاغطية والوسائد ... ياله من جو فظيع ... لقد ذابت الشمعة أمام ايقونات القديسين ... ولكن ماذا بك ياباتيوشكا ... انك لتبدو كالخنزير الصغير ، فظهرك وجبتك مليئان بالوحول ... أين علقت بك هذه الاقذار بحق الشيطان ؟

ـ لحسن الحظ اني سلمت لانظف ثيابي ، لقد كان من المعقول أن تدق عنقي.

ـ بالقديسي السماء ... ألا تريد ان أدلك لك ظهرك ؟

ـ شكراً ... شكراً مري خادمتك فقط بتجفيف ثيابي وتنظيفها .

فقالت العجوز لخادمتها :

ـ أسمعت يا فيتينا ؟

وكانت هذه الاخيرة تحمل لحافاً كبيراً تضرب عليه بشدة حتى ان الريش كان يتطاير منه في جميع أرجاء الغرفة .

وتابعت العجوز :

ـ اليك هذه الملابس ، نظفيها كما لو انها للمرحوم زوجي .

فوضعت فيتينا اللحاف على الاريكة وقالت وهي تقوم بترتيب الوسائد :

ـ كما تأمرين يا سيدتي .

ـ هو ذا سريرك مهيأ الى اللقاء ياباتيوشكا ... أتمنى لك ليلة سعيدة. ولكن أحقاً انك لست بحاجة الى شيء ؟ قد تكون معتاداً على تدليك رجليك قبل النوم فزوجي المسكين لم يكن ليستطيع النوم دون تدليكهما .

غير ان بافل ايفانوفيتش لم يشأ الاستفادة من هذا العرض السخي . وعندما أصبح صديقنا وحده تأمل سريره بسرور وكان هذا يصل في ارتفاعه حتى السقف فاضطر بافل ايفانوفيتش الى الصعود على كرسي ليدخل في الفراش . وما

إن استلقى على السرير حتى أخذ يهبط رويداً رويداً الى أن وصل الى الارض، وأخذ الريش يتراقص حوله فأطفأ الشمعة ونام .

واستيقظ تشتشيكوف في الصباح في وقت متأخر و كانت شعاعات الشمس تسقط على عينيه مباشرة ، واما الذباب الذي كان يرقد بهدوء على الجدران ليلا فكان يحوم فوق رأسه ويقف على اذنيه وشفتيه وعينيه ، وغامرت ذبابة متهورة بدخول أنفه فعطس تشتشيكوف بشدة أخرجتها . وألقى نظرة على الغرفة فشاهد لوحة تمثل الجنرال كوتوزوف واخرى لرجل في ثياب عسكرية من عهد الامبراطور بول وفي هذه اللحظة صفرت الساعة ودقت ست دقات فانفرج الباب قليلا وأطل من خلاله رأس امرأة سرعان ما توارى لان تشتشيكوف كان متجرداً من ثيابه تماماً لينام براحة . وتذكر بعد جهد ان هذا الوجه يخص ربة المنزل فارتدى بسرعة ملابسه التي كانت موضوعة على الكرسي نظيفة ومكوية واقترب من المرآة ليهندم نفسه،وهنا ايضاً اخذ يتمخط بصوت هائل حتى ان ديكاً اقترب من النافذة وأجابه على لغته الغامضة فصاح به تشتشيكوف : « ايها الحقير »

و كانت النافذة منخفضة فاقترب منها بافل ايفانوفتش فرأى في باحة البيت عدداً كبيراً من الطيور والحيوانات الأليفة وشاهد دجاجات وديكة تختال في مشيتها كما شاهد خنزيراً يمر بصحبة أسرته مالبث ان سحق بقدمه فرخاً دون ان ينتبه اليه ثم استقر في زاوية وأخذ يمضغ قشور الاشجار . و كانت الباحة محاطة بحاجز تتراءى خلفه الحقول المزروعة بالملفوف والبصل والبطاطس والشوندر وغير ذلك من الخضار . و كان هناك ايضاً عدد كبير من الاشجار المثمرة المغطاة بالشباك لحمايتها من الطيور التي كانت تحوم فوقها .

وكانت اشباح من القش موضوعة لاخافة العصافير في كل مكان ، و كان احدهما يعتمر طاقية ربة المنزل وشاهد اخيراً تشتشيكوف وراء الحقول

اكواخاً منتشرة تدل على رخاء الفلاحين كما لاحظ ان جميع السقوف كانت جديدة وان الأبواب متينة ، وكان في كل رواق عربة اوعربتان . ففكر تشتشيكوف : « انها قرية مهمة .. سأتحدث الى صاحبتها » ونظر من ثقب الباب فشاهد مضيفته تتناول الشاي فخرج اليهـا متسلحاً بابتسامة تعلو شفتيه فوقفت له وقالت :

- صباح الخير ياباتيوشكا ، هل ارتحت في نومك ؟
- اني قضيت ليلة مريحة وانت ياماتوشكا ؟
- لقد كانت ليلتي رديئة.
- وكيف ذلك ؟
- اني شعرت بآلام في كليتي وساقي والعظم الواقع فوق عجزي .
- هذا أمر عارض فلا تهتمي له .
- اسأل الله ان يجعله كذلك .. اني ادلك جسدي دائماً بالحناء .. ماذاتريد ان تتناول مع الشاي .. اليك هذه الزجاجة من الكحول .
- حسناً .. حسناً ياماتوشكا سأشرب منها .

ولا بد للقارىء ان يلاحظ ان تشتشيكوف على عدم خروجه عن تلطفه كان يحدث العجوز بحرية ضارباً صفحاً عن التحفظ الذي كان يبديه امام مانيلوف ، ويجب ان نذكر باننا اذا كنا متأخرين في الروسيا عن الاجانب فقد سبقناهم كثيراً في سلوكنا مع اشباهنا ولسوف يحيا الفرنسيون والالمان قروناً قبل ان يدركوا خصائصنا وميزاتنا فهم سواء تحدثوا مع مليونير أم مع بائع سجائر ، يتخذون نفس الوضع ولو تملقوا الاول وجثوا على اقدامه ، اما نحن الروسيين فلسنا كذلك اذ اننا نعرف كيف نعدل من تعابيرنا حسب البيئة التي نكون فيها فحديثنا مع ملاك في حوزته مائتا عبد غيره مع من يملك ثلاثمائة أو خمسمائة أو مليون ، لنلق نظرة على مايجري في دوائرنا ولنأخذ رئيساً قدم حديثاً فانه

يلقي اوامره على مرؤوسيه فيلبي هؤلاء تلك الاوامر بخوف وفزع .. واذا تفحصنا وجهه فاننـــا سنقرأ النبل والزهو مرتسمين عليه بل ان المرء ليخاله بروميثوس بمشيته الموزونة كالملك ، ولكن لنتتبع هذا الملك بعد ان يخرج من مكتبه ليذهب الى مكتب رئيسه فاننا نجده يطير طيراناً كأنه العصفور وقد تأبط منشفة الخادم ، اما في السهرات فان هذا الآله يظل آلهاً ، حتى اذا ما وصل موظف أعلى منه مرتبة حدث في بطلنا بروميثوس تحول غريب ، فانه يصبح ذبابة صغيرة بل اقل من ذبابة .. انه يصبح كذرة الملح فيتساءل الناس :

« ولكن اين ايفان بتروفتش ؟ » ان ايفان بتروفتش شخصية طاغية امـا هذا فانه لايكاد يفتح فمه الا ليثرثر هامساً ومـع ذلك فلو ان المرء اقترب منه لوجده ايفان بتروفتش بذاته .

ولنعد الآن الى بطلنا .

اخذ تشتشيكوف ، وقدقرر رفع الكلفة ، كوب الشاي وبدأ بالحديث :

ـ ان قريتك كبيرة ياماتوشكا .. كم يبلغ عدد سكانها فأجابت ربة المنزل :

ـ حوالي الثمانين ياباتيوشكا .. لقد كان الموسم الماضي رديئاً للغاية .

ـ ومع ذلك فان فلاحيك يبدون في حـــالة جيدة .. اسمحي لي بالسؤال عن اسم عائلتك .

ـ كوروبتشكا ، سكرتير دائرة انتخابية .. لقد كان زوجي سكرتيراً لهذه الدائرة .

ـ شكراً ، لم استطع ان اسألك عن ذلك عند وصولي البارحة في الليل .. ثم ماهو اسمك .

ـ نتازيا بتروفنا .

وسألته العجوز بدورها .

ـ وانت ماسمك ؟ انك حتما من كبار الموظفين .

ـ لاياماتوشكا اني لست كذلك ... فانا مسافر لقضاء اعمال .

ـ آه ... انك رجل اعمال ? لكم انا آسفة لأني بعت عسلي رخيصاً لهؤلاء التجار ، إذ انه من الممكن ان تشتريه مني يا باتيوشكا .

ـ عسل ? من المؤكد إني ما كنت لأشتريه منك .

ـ إذن فلا بد أن تشتري أشياء اخرى ... أتشتري ألياف القنب ... أنا لا أملك منه الكثير .

ـ لا ياماتوشكا فاني أرغب ببضاعة اخرى ... كم فقدت من الفلاحين في الآونة الاخيرة .

ـ اوه ... لقد فقدت منهم الكثير يا باتيوشكا ... ثمانية عشر رجلًا من أحسن العمال وقد ولد بعضهم أطفـــال غير انهم لا يساوون الشيء الكثير . وأخيراً علي ان أدفع الضريبـة عن كل نفس ... انهم أموات ومع ذلك يجب ان أدفع عنهم كما أدفع عن الاحياء . وفي الاسبوع الماضي مات حدادي محترقاً وقد كان في نفس الوقت صانع اقفال ماهر .

ـ هل حصل عندك حريق ياماتوشكا ?

ـ نجانا الله من هذه المصيبة ، ان الحريق لشيء فظيع ... لا . لقد سكر ذلك الحداد وأشعل النـــار بنفسه فيما حوله فاحترق ... انه حداد ماهر ولن أقوى على السفر بعد الآن لانه لا يوجد من يحذي الخيل .

فقال تشتشيكوف وهو يتنهد :

ـ تلك إرادة الله يا ماتوشكا ... ان حكمته لنـــافذة ... اعطني اياهم يانستازيا بتروفنا .

ـ من ?

ـ جميع من مات .

ـ وكيف يكون ذلك ?

ـ ذلك أمر بسيط بيعيني اياهم وسأدفع لك عنهم نقوداً .

ـ أعترف باني لا أفهم ، أتريد ان تنبش قبورهم وتخرجهم منها .

وأدرك بافل ايفانوفيتش ان العجوز قد تقيم العقبات في وجه الصفقة فتدخل في التفاصيل وأوضح لها في كلمات ان البيع سيتم على الورق فحسب وان الاموات سيسجلون في العقد أحياء . (١)

فهتفت نتازيا بتروفنا وهي تحملق فيه دهشة :

ـ ولكن ماذا تفيد من النفوس الميتة ؟

ـ ان ذلك يتعلق بي وحدي .

ـ ولكنها نفوس ميتة .

ـ لم أقل انها حية ، ثم ان هذا الشراء يجنبك الخسارة ... فأنت تدفعين الضرائب عن الموتى وأنـــا اريحك من ذلك وأدفع لك علاوة على ذلك خمسة عشر روبلا .

فأجابت بعد تفكير :

ـ لا ... لست أدري فأنا لم أبع قط نفوساً ميتة .

ـ لو بعت منها لكانت معجزة أتعتقدين ان هذه النفوس تفيدك في شيء .

ـ لا ... لا أعتقد ذلك ولهذا فانا مترددة ... انها نفوس ميتة . وفكر تشتشيكوف : « انها لصعبة الاقناع » ثم قال بصوت مرتفع :

ـ اصغي الي ياماتوشكا . انك تبذرين مالك بدفع الضرائب عن الموتى .

---

(١) قبل تحرير العبيد في الروسيا كان الملاكون يدفعون عن كل عبد حي ضريبة ما . ولكن احصاء العبيد كان يجري مرة كل عشر سنوات ولذلك كان يحدث ان يدفع الملاك ضريبة عن الموتى من العبيد على اعتبار انهم أحياء . وكان تشتشيكوف بشرائه النفوس الميتة يأخذ على عاتقه دفع الضرائب عنها ويستطيع بابراز سندات البيع ، قبل انقضاء هذه السنوات العشر ، أن يحصل على قروض من المصارف .

ـ هذا مخيف بالفعل . لقد دفعت في الاسبوع الماضي فحسب مائةوخمسين روبلاً بعد أن لاطفت الموظف كثيراً .

ـ اذن فانت ترين ياماتوشكا ... انت ترين ذلك بنفسك ... لن تحتاجي بعد الآن الى ملاطفة الموظف ، سآخذ على عاتقي جميع النفقات وسأدفع كل شيء حتى نفقات نقل الملكية .

اخذت العجوز بالتفكير ، ان الصفقة لتبدو رابحه ولكنها غريبة الى حد تخشى معه ان يخدعها هذا الرجل الذي يعلم الله وحده من اين أتى في الليل .

ـ ماذا ياماتوشكا ؟ اقررت البيع ؟

ـ في الحق ياباتيوشكا اني لم أبع في حياتي امواتاً ... لقد بعت عبيداً أحياء لبروبوف منذ ثلاث سنوات ... لقد بعته فتاتين صغيرتين بمائة روبل عن كل فتاة ، وقد شكرني كثيراً لانهما كانتا تحسنان التطريز

ـ ولكني لست اتكلم عن الاحياء ، باركهم الله ... اني في مجال الحديث عن الاموات .

ـ الواقع اني خائفة من الاستعجال في البيع ... انا اخشى الخسارة ... ومن الممكن انك تريد خداعي ياباتيوشكا اذ ربما كانت النفوس الميتة تساوي اكثر من المقدار الذي ستدفعه لي .

ـ ياللشيطان ... ماهذا الطبع ياماتوشكا ... ان نفوسك الميتة ليست الا هباء ... هباء لا اكثر اتفهمين ذلك ؟ خذي اي شيء ... خذي خرقة بالية ، فانها تصلح لصنع الورق ، اما نفوسك الميتة فانها لاتصلح لشيء ..وهل تستطيعين إخباري عن فائدتها .

ـ انه لاقيمة لها بالفعل ، وهذا هوعين السبب الذي يجعلني مترددة ...انها نفوس ميتة .

وفكر تشتشيكوف : « ليذهب الشيطان بهذه الدابة اللعينة ... يبدوان التفاهم معها مستحيل ... رباه لقد اختنقت من كثرة الحر » واخرج منديله من

جيبه ثم اخذ يجفف العرق الذي بدأ يتلألأ على جبهته . وكان يغتاظ دون مبرر لان كل انسان سواء أكان رجل دولة ام تاجر بسيطاً يقف نفس موقف نتازيا بتروفنا في هذه الظروف . لا شيء يتمكن من ازالة الفكرة الثابتة حتى الادلة المنطقية نفسها فانها تصطدم بالعناد وترتد اشبه ماتكون بكرة المطاط ، ومع ذلك فقد بذل بافل ايفانوفتش مجهوداً اخيراً وقال :

ـ انك لاتودين فهم كلامي ياماتوشكا كانما تتكلمين لتحركي لسانك فحسب اني اعطيك نقوداً ... خمسة عشر روبلا نقداً وعداً ، وهو مبلغ كبير لا يمكنك ايجاده في الطريق ... اجيبي بكم بعت العسل ؟

ـ بعت البود (وحدة وزن روسية تعادل ١٦ كغ)باثني عشر روبلا.

ـ لا انك لم تبيعيه بهذا المبلغ .

ـ اقسم لك على ذلك .

ـ حسناً فليكن ... ولكن هذا عسل ... ولقد تعبت كثيراً كي تحصلي عليه ... انك ربيت النحل ... اما النفوس الميتة فهي بضاعة ليست من هذا العالم وهي لاتكلف مجهوداً ، ولقد غادرت هذه النفوس الارض بارادة الله ، هناك تربحين اثني عشر روبلًا لقاء عمل قمت به وهنا تأخذين مالاً مقابل لا شيء خمسة عشر روبلًا جديدة .

وظن تشتشيكوف انه افحمها ولكنها اجابت :

ـ بالحق نطقت ولكني ارملة غير مجربة ، لذلك افضل الانتظار قليلًا إذ ربما جاء تجار آخرون فآخذ منهم فكرة صحيحة عن الاسعار

... ولكن هذا مخجل ... مخجل ... مخجل ياماتوشكا، فكري في نفسك ماذا تقولين ، من الذي يشتري منك نفوساً ميتة ولأي شيء تصلح

ـ يمكن ان تتهيأ الفرصة دوماً في الاعمال

فهتف تشتشيكوف :

وفي اية اعمال تفيد النفوس الميتة؟ انك تبالغين ياماتوشكا فهل تستخدمين تلك النفوس الميتة لأجل ترويع الشحارير في حقولك ليلاً

كانت العجوز تستمع اليه وجلة ثم رسمت اشارة الصليب واجابت :

ـ انت تجدف

فأردف تشتشيكوف

ـ ولكن اين تريدين وضعها ؟ ان الجثث والقبور تظل ملكا لك والبيع يحصل على الاوراق فقط .. فماذا قررت ؟... اجيبي ! ولكن العجوز مازالت تفكر

ـ بماذا تفكرين يانتازيا بتروفنا

ـ في الحق لا افهم شيئاً ... اني افضل ان ابيعك الياف القنب

ـ لست بحاجة اليها .. اني اطلب منك شيئاً آخر ، وانك لتتعبينني بقنبك فالقنب شيء والنفوس الميتة شيء آخر ... ماذا اذن يانتازيا بتروفنا

ـ الحق ان الصفقة غريبة وخارجة عن المألوف

وفقد تشتشيكوف صبره فنهض بسرعة ثم رفع الكرسي عالياً وضرب به الارض وهو يقسم بالابالسة ، فأفزع ذكر الشياطين العجوز فهتفت وقد شحب لونها من الهلع

ـ اوه ... لا تتكلم عن الشيطان ... لقد مضت ثلاثة ايام على حلمي بهذا المخلوق اللعين وبعد ان راجعت ورق اللعب وصليت ادركت ان الله قد ارسل لي هذا الحلم ليعاقبني على خطيئة ارتكبتها

ـ اني لأستغرب اذا علمت بان هـذه الاحلام لا تزورك غالباً ... واني لأتصرف مدفوعاً بعامل الشفقة المسيحية ... اني ارى ارملة مسكينة محتاجة يقتلها التعب ... ألا فلتحل اللعنة على هذه القرية برمتها

فنظرت اليه العجوز بفزع وقالت :

انك تجدف ببساطة مابعدها بساطة

ـ انت ترغمينني على التفوه بهذه الكلمات دونما رغبة مني في اهـــانتك ... وتتصرفين كخادمة مزرعـة وقفت فوق كومة قش كبيرة الى حد لاتدري ماذا تفعل بها ولا تريد ان تدعها لأنسان ... اني أريد ان اشتري منك اشياء اخرى لاني اشتغل بالتجارة

وكان يكذب غير أن هذه العبارة التي القاها تشتشيكوف عرضاً نجحت نجاحاً عظيما إذ ان الحديث عن التجـــارة سرعان ما غير من موقف العجوز فأجابت بصوت فيه رنة رجاء :

ـ ولكن فيم الغضب ؟ لولا غضبك لتصرفت حسب رغبتك .

ـ أغضب . . . ولكن لماذا ؟ ان الصفقة كلها لا تساوي بيضة فاسدة .

ـ حسناً فليكن لقد بعتك بخمسة عشر روبلًا . . . ولكن تذكرني عندما تريد أن تشتري شيئاً ياباتيوشكا . . . كدقيق الشعير والقمح الاسود والحيوانات . . . وإياك أن تخون العهد .

ـ لا تخشي أية خيانة ياماتوشكا .

وجفف تشتشيكوف عرقه وسأل العجوز عما إذا كانت تعرف أحداً في المدينة لينهي معه الصفقة فأجابت نتازيا بتروفنا :

ـ أجل اني أعرف الارشمندريت والاب سيريل وابنه عضو المحكمة .

ورجاها تشتشيكوف أن تكتب اليه خيفة مصاعب جديدة وحرر الرسالة بنفسه . وكانت العجوز أثنـــاء ذلك تفكر : « يجب ان أبيعه دقيقاً وبعض الحيوانات » وكي تغريه بالشراء قالت :

ـ لقد بقي عندنا شيء من العجين البارحة ، وأنا خارجة لآمر فيتينيا بصنع بعض الحلوى بالبيض ولن يطول انتظارنا .

وخرجت لتلقي اوامرها وخرج بافل ايفانوفتش ايضاً ليجلب اوراقـــاً فذهب الى الغرفة التي نام فيها فوجد كل شيء منظماً فتناول اوراقه وجلس لينال شيئاً من الراحة ذلك ان حديثه مع العجوز قد أرهقه « لقد أنهكتني

هذه العجوز اللعينة » وفتح حقيبة سفره ، ولعل القارىء سيهتم بمعرفة محتوياتها فلماذا اذن لا أرضي فضول القارىء ؟ كان هذا الجراب يحوي على قطعة صابون داخل خمسة او ستة جيوب معدة لأمواس الحلاقة وهناك جيوب اخرى للمحابر والريش وقطع الشمع لختم الاوراق و كان ثمة جيب يحوي على مختلف انواع البطاقات ٠ بطاقات للزيارة واخرى للتعزية وثالثة للمسرح وهي ذكريات قديمة يحتفظ بها ٠ ويلتقي تشتشيكوف بريشته فيأخذ بالكتابة في نفس اللحظة التي تدفع فيها ربة المنزل الباب وتهتف :

ـ ماهذه الحقيبة الجميلة ياباتيوشكا ، لاريب انك اشتريتها من موسكو ٠

فأجاب تشتشيكوف وهو يتابع الكتابة :

ـ اجل اشتريتها من موسكو ٠

ـ كنت اعرف ذلك ففي موسكو يصنعون جيداً فقد اشترت شقيقتي احذية لأولادها منذ ثلاث سنين وما زال الاولاد يلبسونها حتى الآن لمتانتها ٠

ونظرت الى الحقيبة و كان فيها عدد كبير من الاوراق قد ألصقت عليه الطوابع فقالت :

ـ آه ماهذه الاوراق اتريد ان تعطيني واحدة اذ ليس عندي ورق اذا شئت ان أقدم طلباً للمحكمة ٠

فأوضح لها بافل ايفانوفتش ان هذه الاوراق معدة لشراء العبيد ومع ذلك فقد اعطاها ورقة عليها طابع بقيمة روبل وأنهى رسالته فوقعتها العجوز ثم طلب منها قائمة باسماء العبيد ٠

ولم يكن لدى نتازيا بتروفنا قائمة ولكنها كانت تحفظ عن ظهر قلب اسماء جميع فلاحيها ٠ فطلب منها تشتشيكوف ان تمليها عليه وكانت بعض الالقاب تدهش بافل ايفانوفتش ولم يستطع ان يخفي استغرابه بينما كانت العجوز تعدد الاسماء وتلت :

ـ بيوت سافيليف الملاك هنا ٠

فهتف تشتشيكوف :

ـ ياالهي

وتوالت الالقاب (آجر البقرة) ثم لقب آخر أب (ايفان الدولاب) . وعندما انتهى بافل ايفانوفتش من الكتابة امتلأت خياشيمه برائحة الزبدة فقالت له مضيفته .

ـ اتريد تناول الطعام

فنظر تشتشيكوف الى المائدة فرأى فطائر وحليباً وحلوى واشياء كثيرة اخرى فتناول الطعام ثم طلب من نتازيا بتروفنا تهيئة عربته فارسلت هذه فيتينيا لتنقل الامر الى سليفان وامرتها ان تحضر بعض الحلوى ، فقال تشتشيكوف وقد عاد الى الاكل :

ـ ان هذه الحلوى فاخرة ياماتوشكا .

فاجابت :

ـ اجل ان الطاهية تجيد صنعها ، ولكن الموسم لسوء الحظ رديء ودقيق هذه الحلوى ليس جيداً .

وشاهدت تشتشيكوف يتناول قبعته فأضافت :

ـ لكم انت متلهف الى الذهاب ... ان عربتك لم تعد بعد .

ـ انهم يعدونها وسليفان نشيط جداً .

ـ أفلن تنسى وعدك اذن ؟

فاجاب بافل ايفانوفيتش

ـ لن انسى هذا الوعد فانا افكر فيه .

ـ هل ستشتري مني ايضاً شحم الخنازير

ـ بالتأكيد ولكن فيما بعد

ـ سيكون في حوزتي منه في عيد الميلاد القادم

ـ لن أنسى ذلك .

ـ ربما كنت بحاجة الى ريش الطيور فسيكون لدي منه ايضاً .

ـ حسنا ... حسنا .

وعندما وصلا الدرج قالت :

ـ انك ترى ان عربتك لم تعد بعد .

ـ ستعد في الحال ... اجيبيني أين يقع الطريق العام؟

ـ هذا صعب جداً فهناك منعطفات كثيرة ... سأرسل معك فتاة صغيرة ... أهناك مكان بجانب السائق .

ـ طبعاً .

ـ انها تعرف الطريق ولكن لا تأخذها معك .. لقد سرق التجار مني مثلها ، فطمأنها تشتشيكوف ؛ وفي هذه الاثناء كانت نتازيا بتروفنا ترقب جميع ما يجري في الباحة .

ولكن لماذا نهتم بنتازيا كاروبتشكا ؟ وما الفرق بين مانيلوفا وكاروبتشكا أو بين الحياة الفردية والحياة الراقية ؛ انما يجب التمسك بالحياة السعيدة خشية أن تتحول الى شقاء .

وربما تساءل القارىء : أتكون كاروبتشكا منحطة جداً في سلم الكمال الانساني ، وهل هناك هوة سحيقة تفصل بينها وبين شقيقتها القاطنة في منزل أرستقراطي مؤثث بالرياش المصنوع من خشب الاكاجو والسجاد المترف . تلك السيدة الارستقراطية التي تتثاءب فوق كتاب لم ينته تنتظر زيارة تهيء لها فرصة لتبرز فيها مواهبها وتعبر عن أفكار حفظتها عن ظهر قلب تشغل بهـــا المدينة اسبوعاً كاملاً ،وهذه الافكار لا تتعلق مطلقاً بتدبير المنزل أو الاملاك التي تتوزعها وانما هي تتعلق بانقلاب سياسي قد يحدث في فرنسا أو في الكاثوليكية .

لنضرب صفحاً عن كل هذا ولننس الاحزان ولنتابع الضحك فان مخلوقات اخرى سوف تمر أثناء هذه القصة وعندئذ سوف تشرق في وجوهنا الابتسامة .

وشاهد تشتشيكوف العربة تقترب فهتف :

- تلك هي العربة ... ولكن لماذا تأخرت ايهـــا الغبي؟ أرى ان سكر البارحة لم تزل تماماً

فصمت سليفان

- الى اللقاء ياماتوشكا ولكن أين الفتاة الصغيرة

فصاحت نتازيا بتروفنا بفتاة صغيرة كانت تسير حافية قرب الدرج

- بيلاجيا اذهبي دلي السيد على الطريق

كانت اقدام هذه الطفلة مكسوة بالوحل حتى ليخال المرء قدميها من بعيد حذائين ، وقد وضعت رجليها فوق درجة العربة فاتسخت عندما اخـــذ سليفان يساعدها لتجلس بقربه ، وصعد تشتشيكوف العربة بعدهاوقال:

- كل شيء على مايرام وداعاً يانتازيا بتروفنا

واندفعت الجياد وكان سليفان حزيناً طيلة المسافة مما جعله يهتم بعمله اكثر من اي وقت مضى ، وكانت تنتابه هذه الحالة النفسية عقيب كل سكرة أو حماقة يرتكبها ، واما حيواناته فكانت نظيفة بشكل مدهش

وكان سليفان يلهب ظهور جياده صامتاً دون ان يلقي عليها محاضرة فلسفية قد لا يرضى عنها الفنان. ويبدو ان الجوادين كانا غير مسرورين لعدم سماعهما النعوت الطيبة التي اعتادا سماعها ، غير ان الجواد الثالث كان يتلقى الضربات متلاحقة على المناطق الحساسة من جسمه ، وكان يفكر وقد انتصبت اذناه : « ان المعلم غاضب اليوم وهو يعرف تماماً اين يضرب ، انه لا يجلد ظهري ابداً ولكنه يختار النقاط الحساسة من اذني وبطني . »

واشار سليفان بسوطه الى طريق وسط الحقول كسته الامطار بخضرة جميلة وسأل الصبية بجفاء:

- هل ادور يميناً ؟

- لا . . . لاسأدلك

وعندما اقتربت العربة من الطريق عاد سليفان الى السؤال :

ولكن أين .. أين ؟

فمدت الطفلة يدها فهتف سليفان

ولكن هذه الجهة هي اليمنى ألا تعرفين شمالك من يمينك ؟

وكان الجو جميلاً ولكن الارض الموحلة كانت تعيق سير العجلات وهكذا قضت العربة وقتاً طويلاً لتقطع الطرقات الصغيرة المؤدية الى الطريق العـــام وكان من المستحيل على سليفـان معرفتها لولا وجود الطفلة ذلك ان العاصفة افقدتها معالمها ، وبعد قليل أشارت الصغيرة الى منزل أسود بعيدوقالت :

ـ هذا هو الطريق العام.

ـ وتلك البناية ؟

فندق .

ـ حسناً اذهبي يمكننا هنا ان نتابع السير وحدنا .

وأوقف العربة وساعد الصغيرة على النزول وهو يتمتم :

« تلك هي الطفلة ذات الساقين السوداوين ».

وناول تشتشيكوف الطفلة قطعة نقود فعادت هذه مسرورة من نزهتها في العربة .

الفصل الرابع

أمر تشتشيكوف سليفان بالوقوف قرب باب الفندق ، وكان السبب في ذلك ان الخيول كانت متعبة وانه كان يشعر بالحاجة الى تناول وجبة طعام دسمة . ويعترف المؤلف بانه يحسد شهية أمثال بافل ايفانوفتش التي تسخر تماماً من أفراد الطبقة العليا في مجتمع بطرسبرج أو موسكو لأن أفراد المجتمع الراقي لا يفكرون إلا بتنوع وجبات الطعام واحتوائها على ألوان شهية قبل ان يذهبوا إلى القوقاز للعناية بمعدهم . أما امثال بطلنا الذين يأكلون متى شاؤوا وكيفما اتفق فان السماء قد حبتهم معدة قوية يتمنى أن يحصل عليها كثير من الاغنياء مضحين في ذلك بنصف عبيدهم واملاكهم المرهونة وغير المرهونة . ولكن هذا العضو لسوء الحظ لا يباع ولا يشرى .

واستقبل الفندق القروي تشتشيكوف تحت سقفه المضياف وكان مبنياً فوق أعمدة تذكر بشموع الكنائس . وصعد بافل ايفانوفتش درجاً ضيقاً واجتاز رواقاً عريضاً فشاهد بابا لا يفتح دون صرير وكانت هناك عجوز ترتدي ثوبا صافياً فتمتمت : « أرجوك من هنا » وشاهد بافل ايفانوفتش أشياء كان يألفها في الفنادق الريفية ... شاهد السماور والمائدة الصغيرة المثلثة المثقلة باواني الشاي

والاكواب وشاهد بيضـــات صغيرة من الخزف معلقة باشرطة زرقاء وحمراء قرب الايقونات وهرة ومرآة تشوه الوجوه وتضخمهـا ، كما شاهد زهوراً جافة لا يقوى المرء على استنشاقها دون أن يعطس .

وتوجه تشتشيكوف الى العجوز مسائلا :

–هل عندكم لحم خنزير ؟

– أجل عندنا .

– بالريفور والقشدة ؟

– تماماً .

– اذن أعدي لي منه شيئاً .

وذهبت العجوز لتهيء الطعام ثم عادت تحمل صحوناً ومنشفة أشبه بقشور الاشجار ، وملحة قد كسرت احدى قوائمها واخيراً شوكة عجوزاً لم يبق من اسنانهـــا غير اثنين . واخذ بافل ايفانوفيتش كعادته بالحديث مع العجوز ، فسألها اذا كانت وحدها صاحبة الفندق او هل هناك معلم وهل تربح كثيراً كما استعلم ايضاً عن اسرة المعلم ... اهو متزوج أم اعزب وهل هو سعيد بالبائنة التي قدمتها زوجة ابنه له وبالاجمـــال لم ينس تفصيلاً واحداً . واهتم كذلك بطبيعة الحال بعدد الملاكين في الانحاء المجاورة واجابت العجوز على سؤاله عن أسماء الملاكين :

– بلوشـين ، ايوتشياتيف ، ملينوف ، الكولونيـــل تشيراكوف وسوباكيفتش .

– آه أتعرفين سوباكيفتش ؟

فأجابت العجوز انها لاتعرف سوباكيفتش فحسب بل ومانيلوف ايضاً . وكانت تفضل الاول كثيراً لانهـا تجده ألطف من الثاني ، وفي الواقع فانه عندما يحصل ان يحضر الاثنان معاً الى الفندق فان سوباكيفتش يأمر على الفور باعداد دجاجة ويطلب شيئاً من لحم البقر وكل ما لدى العجوز من اصناف

جيدة ، أما مانيلوف فكان لايطلب الا صحنا واحداً ولا يدفع اكثر من السعر العادي حتى ولو حصل أن طلب زيادة .

وفي هذه الاثناء بينما كان بافل ايفانوفتش يبتلع آخر قطعة من لحم الخنزير سمع فجأه صوت عربة فنظر من النافذة فشاهد عربة يجرها ثلاثة جياد . وهبط من تلك العربة رجلان : الاول أشقر طويل القامة والثاني اقصر منه ويميل الى السمرة . و كان الاشقر يرتدي سترة زرقـــاء غامضة بينما كان يرتدي الاسمر معطفاً طويلا . ثم وصلت عربة ثانية يجرها اربعة جياد و كان مظهرها حقيراً.

صعد الرجل الاشقر الى الفندق في حين تأخر الثاني عنه ليحضر شيئاً ما من العربة وهو يشير نحو العربة الثانية ويصيح بالحوذي ، ولم يكن صوته غريباً على تشتشيكوف . وفي ذلك الحين دخل الاشقر و كان طويل القامة نحيل الوجه ذا شاربين أشهبين فحيا تشتشيكوف بادب . و كان على وجهه بعض الهباب .. هباب التبغ طبعاً لاهباب البارود . و كان من الممكن ان تجري محادثة بينه وبين بافل ايفانوفتش لان كلا منهما كان فرصاً لخلاصه من المطر وغبار الطريق لولا ان دخل الاسمر القاعة فخلع قبعته وامر بيده فوق شعره . كان رجلًا متوسط القامة متورد الخدين ابيض الاسنان اسود الشعر ، يشعر المرء بقربه بتفجر الحيوية والعافيـــة والقوة ، وهتف فجأة عندمـــا رأى تشتشيكوف :

ـ با ..با..با.. انها لصدفة سعيدة .

وعرف تشتشيكوف فيه نوزدريف له الشخص الذي قابله عند المدعي العام والذي رفع الكلفة معه بعد دقائق من تعرفه به دون أي سبب .

وقال نوزدريف .

ـ الى أين انت ذاهب ؟

واضاف دون ان ينتظر منه جواباً :

ـ أما أنا فعائد من السوق .. انظر في أية عربة جئت .. انظر اليها من النافذة ثم انقض على رأس تشتشيكوف ولواه نحو النافذة بعنف آلمه .

ـ أية عربة صغيرة هذه العربة .. لقد انتقلت الى عربة رفيقي .

واشار نوزدريف الى رفيقه وقال :

ـ أو لم تتعارفا بعد .. اقدم لك صهري ميجويف .. لقد كنت اتحدث عنك طيلة الصباح وكنت اقول له لسوف ترى تشتشيكوف .. آه يا اخي لو تعرف كم خسرت .. لم يبق لي شيء .. لا الساعة ولا سلسالها .

ونظر تشتشيكوف في محدثه فرأى انه لا يحمل الساعة ولا سلسالها بالفعل وبدا لتشتشيكوف ان احدى سالفيه ايضاً ارق من الاخرى .

وتابع نوزدريف :

ـ لو كان معي عشرون روبلاً فحسب لربحت كل شيء .. عشرون روبلاً فقط لو وجدت معي اذن .. لربحت ثلاثين الفاً .

فتدخل ميجويف وقال :

ـ لقد اعطيتك خمسين روبلاً فخسرتها .

ـ اقسم لك اني ما كنت لأخسرها لولا هذه الحماقة .

لولا هذه السبعة الملعونة لربحت كل شيء.

فرد الآخر :

ـ ومع ذلك لم تربح ثمة شيء.

ـ هذا بسبب سوء الحظ .. أتعتقد ان طبيبك يحسن اللعب .

ـ ان كان يحسنه اولا يحسنه سيان ؛ انما المهم انه ربح منك .

فصاح نوزدريف :

ـ هذا كلام .. لسوف أهزمه أنا الآخر واربح منه اضعافاً مضاعفة وسترى أي لاعب هو .. وبالمقابل يا اخي لكم لهونا .. لقد بعت جميع ما أتيت به باسعار

جيدة .. ولقد افتقدناك كثيراً ... تأمل انه على مبعدة ثلاثة (فرستات) من هناك كانت فرقة من الجيش ... وقد شرب جميع ضباطها وعددهم اربعون ، والكابتن بوستلويف ... ان له شاربين مدهشين ... وهو يسمي نبيذ البوردو « بوردوشكا » واما الملازم كوفشينكوف فهو الطيبة المجسمة ... اية خمرة شربناها عند بوتوماريف ... ان بوتوماريف نذل بطبيعة الحال ، ذلك انه ليست عنده خمرة جيدة ، لقد ملأ زجاجاته بحثالة الخمور ولكنه اخفى الخمور الجيدة في غرفة كتب عليها «خاص» ولن اقول لك بان هذه الغرفه هي الفردوس ... ان شمبانيا الحاكم لتتضاءل امام ماشربنا ، ولقد وصل بعدنا اميروفتش فبحث عن زجاجة من الشمبانيا في جميع المحال ولكننا شربنا كل شيء ... لقد شربت وحدي اثناء العشاء سبع عشرة زجاجة ...

فقاطعه صهره :

- انت لم تشرب سبع عشرة زجاجة .

- بشرف كل انسان نبيل اني شربتها .

- انك لتستطيع ان تقول ماتشاء ولكنك لن تقوى على شرب عشر زجاجات

- اراهنك اني استطيع .

- وعلى أي شيء تراهن .

- على بندقيتك التي اشتريتها حديثاً .

- لا اريد

- جرب إذن

- لا اريد

- أنت تخاف ان تفقد بندقيتك .

وتابع نوزدريف متوجهاً إلى تشتشيكوف :

- لكم أسفت لأنك لم تكن هناك ... لو كنت لما أمكنك الانفصال عن

الملازم كوفشينكوف ولاصبحت صديقا له . ان الفرق كبير جداً بينه وبين المدعي العام وبخلاء المدينة الآخرين الذين يرتجفون لدى انفاق كوبيك واحد... أجبني بصراحة يا تشتشيكوف ما الذي منعك عن الحضور ...

ما أنت الا غبي ... وخنزير ... عـانقني أياروحي الصغيرة فسأحبك حتى الموت ...ميجويف قل شيئاً ما أفلا ترى ان الاقدار قدجمعتنا مع تشتشيكوف؟ الله أعلم من اين اتى ، وأما انا فاني احيا هنا دائماً ... كم من عربة وحديث في السوق ... اني أروي لك كل هذا باختصار دون اي تفصيل ... أتعلم؟لقد لعبت البارحة وربحت علبتين من مربى التفاح وكوبا من الخزف وقيثارة ثم جربت حظي كرة اخرى فخسرت ... ياله من رجل فاتن هذا الملازم كوفشينكوف . لقد ذهبنا معاً إلى جميع الحفلات الراقصة وكانت هنـاك امرأة عارية تماماً ... لايعلم غير الشيطان ماذا كانت ترتدي... وقد جلس ذلك الحيوان كوفشينكوف بجانبها والقى في أذنها بعض كلمات المديح باللغة الفرنسية ... انه يحصل على جميع النساء . وهناك اشترينـا بعض السمك ... لحسن الحظ اني اشتريت قليلًا منه قبل ان أخسر نقودي ... وأنت اين تذهب الآن ؟

فأجاب تشتشيكوف :

ـ سأزور احدهم

ـ ليذهب (احدهم) هذا إلى الشيطان ... تعال عندي .

ـ مستحيل عندي عمل .

ـ عمل ؟ أي تلفيق ... ايها الخبيث .

ـ انه عمل عاجل ... اقسم لك على ذلك .

ـ اني أراهن على انك تكذب ... وإلى عند من أنت ذاهب ؟

ـ إلى سوباكيفتش .

فانفجر نوزدريف ضحكا وكشف عن أسنـانه البيضاء كالسكر وهز رأسه

الاسم الكبير . وكانت ضحكته تنم عن رجل ثري يستطيع ان يوقظ من النوم جاراً له تفصله عنه ثلاث غرف فيهتف هذا الاخير .. لعنة الله عليه هـــاهو يضحك كرة ثانية .

فأجاب تشتشيكوف وقد بدا عليه الحنق :

ـ اني لا أجد في ذلك شيئاً مضحكا .

غير ان نوزدريف تابع ضحكه وهو يهتف : الرحمـة ... الرحمة اني اموت ضحكا ...

وتابع تشتشيكوف :

ـ ليس من شيء يضحك في ذلك ... ولقد وعدته ...

فقال نوزدريف اخيراً .

ـ ستلعن حظك حين تصبح عنـده ... لا يوجد بخيلان في العـــالم مثل سوباكيفتش . اني اعرفك جيداً فانت تخدع نفسك كثيراً ان ظننت انك واجد هناك خمراً ولعباً ... اسمع يا أخي ليذهب سوباكيفتش إلى الشيطـان ... اني ادعوك الى بيتي فعندي سمك لا تجد مثيلًا له ... ولقد قال لي بونوماريف هذا الحيوان الذي باعني هذا السمك : « تستطيع ان تتجول في المدينة كلها فلن تجد له مثيلًا » اني أتناول طعـام الغذاء عنده دوماً مع كوفشينكوف ... آه لقد نسيت ان اقول لك يا اخي انك لن تفـارقنا ... سأريك شيئاً لن أبيعك اياه بألفي روبل ... وصاح من النافذة بخادمه الذي كان يحمل في يده سكيناً وفي الاخرى قطعة من الخبز والسمك :

ـ ايه بورفيري اعطني كلبي الصغير .

ثم قال متوجهاً بحديثه إلى تشتشيكوف :

ـ انه حيوان جميل ولقد وعدت صاحبه ان أعطيه مقـــابلا له الفرس التي استبدلتها عند شفوستريف ... أتذكر ذلك ؟

وبالطبع فان بافل ايفانوفتش لم يسمع في حياته اسم شفوستريف ... وفي تلك اللحظة سألت صاحبة الفندق نوزدريف :

ـ ألا تريد ان اقدم لك شيئاً يا سيدي ؟

ـ لا شيء ... سأحلم بالليلة التي قضيتهامع كوفشينكوف ... ولكن أعطني كوبا من الفودكا ... اي نوع من الفودكا عندك ؟

ـ فودكا مع اليانسون .

ـ اعطني منها ... لقد كانت مغنية تنشد على المسرح كانها الملاك ، وكان الوغد كوفشينكوف يردد طيلة الوقت : « هذه فرصة للاستمتاع بالكرزة الصغيرة يا صديقي » . وجاءت العجوز في تلك اللحظة تحمل الفودكا فأخذ نوزدريف الكأس من يدها فانحنت له ، فهتف وهو ينظر الى بورفيري يأتي بصحبة الكلب :

ـ هيه ... هاته هنا .

وكان الخادم يرتدي معطفاً طويلاً كمعلمه إلا انه اكثر اتساخاً .

ـ ضعه على الارض .

فوضع الخادم الحيوان على الارض فأخذ الكلب يشم الارض فرحاً باستعادة حريته ؛ وهتف نوزدريف وهو يرفعه اليه في حين أرسل المسكين عواءحزيناً :

ـ هل هو جميل

ثم تابع متوجهاً إلى بورفيري .

ـ انك لم تقم بما أمرتك به فأنت لم تنظفه .

ـ لقد فعلت

فنظر توزدريف الى بطن الحيوان الصغير بامعان وقال :

ـ ليس ما تقول صحيحاً .

ـ لقد نظفته .

ـ إذن من اين أتت هذه البراغيث .

ـ ربما كانت في العربة .

ـ أنت تكذب ... أنت اكذب وانا واثق ايهـــا الغبي من انك وضعت البراغيث في جسده منك ٠ انظر ياتشتشيكوف هاتين الاذنين وتلك القوائم .

فقال تشتشيكوف .

ـ اوه ... أرى انه حيوان أصيل .

ـ ولكن انظر اليه ... المس أذنيه ٠

ولمس تشتشيكوف أذني الكلب ليرضي نوزدريف وغمغم « لسوف يكون كلباً جميلاً »

ـ انظر هذا الفم .

ولم يشأ تشتشيكوف إغضابه فربت بيده على فم الكلب وقال : « ان حاسة الشم عنده قوية » .

ـ هذا يكفي احمله يابورفيري .

فأخذ الخادم الكلب وذهب به .

ـ اسمع ياتشتشيكوف يجب ان تأتي معي مهما كلف الامر فبيتي لايبعد كثر من خمسة (فرستات) من هنا ، ثم تذهب من هناك الى سوباكيفتش ، وحدث تشتشيكوف نفسه « وأخيراً ماذا .. يمكنني الذهاب معه .. ثم بماذا هو أسوأ من الآخرين ؟.. انه رجل خسر كل شيء وربما هذا يساعدني على ان انال منه ماأرغب بسهولة » ثم قال متوجهاً بالحديث الى نوزدريف .

ـ فليكن .. سأذهب معك ولكن لاتأخرني كثيراً فالوقت عندي ثمين

فهتف نوزدريف

ـ اذن هكذا أيا روحي الصغيرة ؟ انتظر فسأقبلك لهذه الكلمة الطيبة .

واعتنق الرجلان .

ـ عظيم لنذهب ثلاثتنا .

فقال الصهر :

ـ ! دعني فسأذهب الى بيتي .

ـ هذه حماقة .. ستأتي معنا .

ـ في الحق ان زوجتي ستغضب علي .. ويمكنك ان تذهب بعربةهذاالسيد

فقال نوزدريف ملحاً .

لافائدةمن الكلام .

كان ميجويف من الاشخاص الذين يبدون لأول وهلة مصرين على آرائهم متمسكين بها ،ثم ، ودون ان ينتظر أحد يتحولون الى قبول مارفضوه ويجدون معقولاً ما كانوا قد نعتوه بالجنون وأخيراً « يرقصون على ايقاع قيثارة غريبة عنهم » وبتعبير آخر انه يبدو من الاشخاص الذين يبدأون عقلاء وينتهون مجانين .

وهتف نوزدريف وهو يأخذ قبعة صهره ثم يعيدها الى رأسه :

واقتنع ميجويف وتهيأ الاصدقاء الثلاثة للذهاب فقالت العجوز :

ـ انك لم تدفع لي ثمن الفودكا ايها السيد .

ـ حسناً ياماتوشكا ، ادفع عني ايها الصهر الصغير العزيز إذ لاأحمل كوبيكا واحداً .

فسأل الصهر العزيز العجوز قائلًا :

ـ ماذا تريدين ؟

ـ جريفينان ونصف ياباتيوشكا .

فصاح نوزدريف :

ـ انك تكذبين ... انك تكذبين اعطها نصف ماطلبت فهو يكفيها .

ـ ولكنه قليل جداً ياسيدي .

ومع ذلك فانها لم تكتفي بأخذ ماأعطاها وشكره ، بل أسرعت الى الباب تفتحه للمسافرين : ذلك انها طلبت اربعة اضعاف ثمن الفودكا .

وهبط الاصدقاء الثلاثة وأخذوا محلاتهم داخـــل العربتين ، وكانت عربة تشتشيكوف تسير بحـذاء عربة ميجويف بحيث كان يمكن للثـلاثة ان يتحدثوا معـــاً .

وكانت عربة نوزدريف الصغيرة تتبعهم ببطء ، تجرها خيول ضعيفة ، وكان بورفيري يقودها وقد وضع الكلب في حجره .

أما الحديث الذي جرى بين الثلاثة فانه لا يهم القاريء في قليل ولا في كثير؛ لذلك فانه من الافضل ان نزيد معلوماتنا عن نوزدريف الذي يلعب دوراً ليس بالثانوي في قصتنا هذه .

ان طبع نوزدريف بات معروفاً بعض الشيء لدى القارىء . والناس الذين من طرازه يوجدون في كل مكان تقريباً وهم من العنصر المدعو «بحسن التخلص» فاذا كانوا في المدرسة فانهم يعتبرون من الاصدقاء المخلصين ولكن ذلك لا يمنع من أن يضربهم رفاقهم في اغلب الاحايين . ووجوه هؤلاء الاصدقـاء مشبعة بالصراحة والجرأة ، فهم يعقدون الصداقات بسرعة بشكل لا يمكن فيه للمرء ان يقول (بانه) قبل ان يرفعوا الكلفة معه . وصداقتهم هذه تبـــدو للوهلة الاولى خالدة ، ولكن غالباً مايحدث ان يقتتل الصديقان في مساء اليوم نفسه. وهم بالاضافة إلى ذلك من الاشخاص الثرثارين العربيدين الذين لا تزيـــد سنهم العقلية في الخامسة والثلاثين عن سن الثامنة عشر . ولم يستطع الزواج ان يغير من نوزدريف الذي ترمل بسرعة بعد ان جـاءته زوجه بولدين لا يعرف ماذا يفعل لهما ، ولكن لحسن حظ الصغيرين انه كانت لهما مربية قديرة . ولم يكن نوزدريف ليبقى يوماً واحداً في منزله ، فقد كانت له موهبة خاصة في شم رائحة الحفلات الراقصة وأسواق المواسم والاجتماعـات من بعيد . فكان يذهب اليها

بسرعة البرق ليصيح ويناقش ويسبب الضجة والفوضى في المنصة الخضراء لانه كان يتعشق الميسر . وكان يغش في اللعب كلما استطاع إلى ذلك سبيلا. ولهذا كان اللعب ينتهي غالباً بمعركة يشترك فيها الجميع . وكانوا يتبادلون ضرب الاحذية وينتفون سالفي نوزدريف ، ولهذا فغالباً ما كان يعود نوزدريف إلى منزله وأحد الفيه اكثف من الآخر ، غير ان حيوية خديه كانت عظيمة لدرجة ان لحيته كانت تنمو بسرعة فتعود اجمل مما كانت عليه .

والاغرب من ذلك – وهذا لا يكاد يحدث الا في الروسيا – ان هؤلاء الاصدقاء بعد ان يدمي بعضهم بعضاً ، يلتقون بعد ذلك وتعود المياه إلى مجاريها فيما بينهم وكأن شيئاً ما لم يحدث إذ لا قيمة للماضي عندهم .

وهكذا عاد نوزدريف شخصية تاريخية ، فما من مجتمع يوجد فيه الا ويحصل فيه شيء ما ، كأن يطرده رجال الدرك من القاعة أو يطرده اصدقاؤه بانفسهم . وفي كل يوم تحدث له قصة غريبة لا تكاد تحدث لغيره ،فاما ان يسكر ويضحك كخوار الحيوان ، واما ان يكذب بشكل يخجل له هو بنفسه .وكان يكذب دون فائدة يجنيها من ذلك ، فيدعي مثلا ان في حوزته جواداً وردي اللون او أزرقه ويروي اشياء غير معقولة تجعل المستمعين اليه يتعبون من كذبه فيقولون : « انك تبالغ قليلًا ... لا تسخر منا إلى هذا الحد . » ان هناك رجالا يسرون من اهانة الآخرين وهكذا فان رجلًا من طبقة عالية تربى في البلاد الاجنبية ويحمل فوق صدره وساماً رفيعاً يلتقي بك فيصافحك ويحدثك عن نفسه باشياء خليقة بالتأمل والتفكير ثم ... ثم ما يلبث ان يهينك ويشتمك كأبسط فلاح لا كنبيل يحمل وساماً رفيعاً . وكانت لنوزدريف هذه الهواية الغريبة وكان يؤلم في الغالب اقرب المقربين اليه ، ومن الصعب على انسان آخر غيره ان يفتن في ابتداع الحماقات التي يرتكبها ، فكان يمنع زواجاً ويعطل صفقة تجارية هامة ولا يعتبر نفسه من أجل ذلك عدواً لك ، بل على العكس ، إذ انه

إذا جمعتك به الصدفة مرة اخرى اقترب منك بتودد وإخاء وخاطبك بلطف :
« انك لست لطيفاً ... لانك انقطعت عن زيارتي . »

وكان نوزدريف الى جانب كل ذلك يدعو اصدقاءه للذهـــاب الى اقصى المعمورة ويناقش صفقـة تجارية ويقايض باي شيء : بنادق او خيول او اي شيء آخر ، وليس كل هذا حباً منه بالمقايضة بل لارضاء طبيعته القلقة . وكان اذا ما نجح في السوق بخداع أحد البسطاء ، يندفع في شراء جميع مايقع عليه بصره في حوانيت المدينة من أعنة خيل الى العنب المجفف الى المناديل وأدوات الزينة والتبغ بشكل ينفق معه جميع ما ربحه . ولكنه نادراً ما كان يعود بهذه الاشياء الى البيت ، اذ أنه يخسرها في المقامرة مع لاعب أشد منه خبثاً ، وكان عليه فوق ذلك ان يراهن على حوائجه الشخصية فكان كثيراً ما يخسر عربتـه وجياده والجوذي ، فيعود إذ ذاك الى بيته بمعطف قصير وعربة معـــارة من صديق رؤوف . ذلك هو نوزدريف ، وربما يقول بعضهم ان هذا النوع من البشر لم يعد موجوداً في عصرنا ، ولكن من يعتقد بذلك يكن لسوء الحظ واهماً لان نوزدريف سيحيا دوماً بين ظهرانينا ، ولكنه لن يرتدي نفس الحلة دائماً فلا يعرفه الناس لضعف ملاحظتهم .

ووصلت العربات الثلاث اخيراً الى بيت نوزدريف ولم يكن شيء معداً لاستقبال المسافرين . وكان داخل غرفة الطعام فلاحان فوق كرسيين يطليان الجدران وهما يدمدمان اغنية طويلة . وكانت الارض متسخة بالطلاء الابيض وألقى نوزدريف بالفلاحين مع كرسيهما الى الشيطان وذهب لالقـــاء بعض الاوامر . وسمعه الضيفان يأمر باعداد العشاء فاستاء تشتشيكوف لذلك لان العشاء لايجب ان يقدم قبل الساعة الخامسة في حين كان هو نفسه جائعاً جداً .
وعندما عاد نوزرديف دعا صديقيه لزيارة املاكـه ، وفي خلال ساعتين اطلعهما على كل شيء حتى على اصغر الدقائق .

بدأ قبل كل شيء بالاصطبلات و كان فيها مهران: الاول رمادي و الآخر أشقر كما كان هناك حصان اسمر اللون قال عنه نوزدريف إنه اشتراه بعشرة آلاف روبل في حين قال له صهره :

– انت لم تدفع عشرة آلاف روبل ثمناً لهذا الجواد فانه لايساوي ألف روبل .

– اقسم لك اني دفعت عشرة آلاف .

– اوه ... انك تستطيع ان تقسم الايامين بالقدر الذي تريد .

– فلنراهن على ذلك ... هل تريد ؟

ولكن ميجويف رفض الرهان .

ثم توجه الاصدقاء الثلاثة الى الاصطبلات الفارغة التي كانت حافلة في يوم ما بالجياد الجميلة ، و كان هناك وعل ، لان الاساطير القديمة تعتبر وجود الوعل بالقرب من الجياد فألاً حسناً . ثم فاجأ نوزدريف ضيفيه بمشاهدة ذئب صغير وقال :

– اني أغذيه باللحم النيء عمداً لاني اريد ان يصبح حيواناً ضارياً .

ثم جاء دور المستنقع وقد اعلن نوزدريف ان فيه أسماكا بلغت من الضخامة حداً يقتضي جهد رجلين معاً ليستطيعا حمل سمكة واحدة وقد اعلن ميجويف بدوره شكه في هذا الامر . فقال نوزدريف :

– والآن سأريك ياتشتشيكوف كلاباً مدهشة .. لكم هي جميلة وقوية الشم تلك الكلاب ، وما من أحد من الجيران يملك مثيلاً لها .

و كانت هذه الحيوانات موضوعة في باحة مسيجة من شتى نواحيها ، وعندما دخلها الاصدقاء الثلاثة شاهدوا فيها كلابا من شتى الاجناس و الألوان و الاشكال تقفز وتنبح وتركض هنالك وهنا وتزمجر رافعة باذيالها الى الأعلى او خافضتها الى الاسفل او جاعلتها بصورة افقية . و كانت اسماؤها : ستريلاي واويروجاي

وناجراد وبوجار بما يتفق مع صفاتها الاساسية : سرعة ، اهانة ، تاج، حريق .
وجاءت الكلاب كعادتهـــا تحيي سيدها بنباحهـا الفرح ووضع عشرة منها قوائمهـا على كتفي نوزدريف ثم عبرت عن نفس الاحترام لتشنتشيكوف اذ وقفت على قوائمهـــا الخلفية واخذت تلعق وجه بافل ايفانوفتش . ثم اخـذ الاصدقاء يتحدثون عن قوة هذه الكلاب فقالوا :

ـ انها لكلاب جميلة .

ثم زار الاصدقاء كلبة عمياء وقال عنهـــا نوزدريف انها لن تعيش طويلًا ولكنها تؤدي له خدمات عظيمة منذ سنتين .

ثم ذهبوا بعد ذلك الى الطاحون و كانت تقع بالقرب من مجرى مائي قوي ولكن هذه الطاحون ينقصها الكثير من القطع . وهتف نوزدريف :

ـ والآن الى معمل الحدادة .

ومشوا خطوات فشاهدوا معملًا للحدادة وبعد ان زاروه قال نوزدريف :

ـ أتريان هذا الحقل .. انه مليء بالارانب لدرجة انه لايمكن معه رؤية الارض ، وقد امسكت بنفسي احد هذه الارانب من قائمتيه الخلفيتين :

فقال ميجويف :

ـ منذ متى وأنت تملك هذه الغابة ؟ هل اشتريتهاحديثاً ؟ انها لم تكن ملكا لك من قبل .

ـ أجل لقداشتريتها منذ أمد قصير

ـ ومتى كان ذلك ؟

ـ منذ ثلاثة ايام وقد دفعت ثمنها غالياً .

ـ ولكنك كنت في السوق خلال هذه المدة .

ـ ألا يمكن للانسان اذا كان في السوق ان يشتري ارضاً ؟

ـ لقد اشتراها وكيلي اثناء وجودي في السوق .

فهز ميجويف برأسه مشككا ثم قال :

ـ آه .. وكيالك ؟

وعاد الاصدقاء الثلاثة بعد ذلك الى البيت عن نفس الطريق وقادنوزدريف ضيفيه الى غرفة عمله ولم يكن لهذه الغرفة من شكل الغرف غير الاسم ، فليس فيها كتب ولا اوراق بل كل ما كانت تحوية انما يقتصر على بضعة اسياف وبندقيتين تساوي احداهما ثلاثمائة روبل والثانية ثمانمائة على ذمة نوزدريف ، وبالطبع فان ميجويف ابدى شكه بالسعر بعد ان فحصهما ، ثم ان نوزدريف أراهما خناجر قال انها من تركيا ولكن لسوء الحظ كان احدها مكتوباً عليه اسم صنف روسي « سافيلي سيبيرياكوف » كما اراهما ايضاً ارغناً بربرياً عزف عليه قطعة موسيقية .. ثم ماذا حصل بعد ذلك ؟ كان يجب ان تنتهي القطعة باغنية « مالبوروف ذاهب الى الحرب » ، ولكن هذه الاغنية انقلبت فجأة الى فالس ، ثم انتقل الاصدقاء الى رؤية الغلايين وكانت هذه من جميع الاجناس منها ماصنع من الطين ومنها ماصنع من الخشب .

وتناول بعد ذلك الجميع المقبلات وباشروا العشاء ، ولم يكن ليبدو على نوردريف الاهتمام بالطعام إذ ان المأكولات لم تكن مهيئة باعتناء فكان لون من الطعام يصل محترقاً بينما يصل اللون الآخر قبل ان ينضج ، وكان الطاهي يتصرف حسب هواه فاذا وجد بهاراً وضعه في الطعام واذا وجد ملفوفاً وضعه وكذلك إن وجد الحليب او اللحم ، وتختلط جميع هذه الاصناف بغير نظام ولكن شريطة ان تكون ساخنة لان الطاهي يرى ان هذا يبعث على الشهية .

واستعاض نوزدريف بالخمر عن الطعام فتناول الاصدقاء قدحاً كبيراً من البورتو قبل الحساء ثم شربوا النبيذ الابيض الفاخر وقدمت بعد ذلك أفخر انواع المادير وكان طعمه يروق للفم ، وتجار الخمور الذين يعرفون ذوق الملاكين كانوا

يضيفون مقادير كبيرة من الروم والفودكا الى المـــادير ، ثم امر بعد ذلك نوزدريف بتقديم زجاجة خاصة ادعى انها مزيج من خمر البورتو والشمبانيا وكان يملأ كاسي صهره وتشتشيكوف دون اي ملل ، ولاحظ بافل ايفانوفتش ان نوزدريف يشرب هو الآخر بسخاء فاستفاد من عدم انتباه مضيفه ليصب كأسه في صحنه ، ثم قدم نوع آخر من الخمر قال عن طعمه نوزدريف بانه يشبه الخوخ غير ان ضيفيه لاحظا ان طعم الكحول في هذا الخمر قوي جداً ، وقدم اخير نوع آخر من الخمر اطلق عليه نوزدريف كعادته اسماً غير اسمه الحقيقي .

وانتهى العشاء وما زال الاصدقاء الثلاثة يشربون . ولم يكن تشتشيكوف يريد ان يفاتح نوزدريف بالقضية التي تشغل باله امـام ميجويف . غير ان هذا الاخير ليس منه اي خطر إذ انه اكثر من الشرب حتى بدأ رأسه يترنح بشكل يدعو إلى الاشفاق وكان أنفه يغوص داخل صحنه . وقـد لاحظ هو حالته تلك فاعلن بصوت متردد عن رغبته بالذهاب فصاح به نوزدريف :

ــ ولكن لن أدعك تغادرنا هكذا .

ــ لاتضايقني ... اني ذاهب ... في الحق انك تضايقني يا أخي .

ــ هذه حماقة ... هذه حماقة ... اننا سوف نلعب .

ــ افعل ماتريد فلن امكث لان زوجتي ستغضب ويجب ان أروي لهـــا ما فعلته في السوق .

ــ لتذهب زوجتك إلى الشيطان ، ثم انه ليس لديكما امر هام للبحث .

ــ كلا يا اخي انها طيبة وأمينة ... انهـا زوجة مثالية وهي تؤدي لي من الخدمات مالا نستطيع ان تتصوره ، بل اني لأبكي حين اتذكرها ... كلا ... لا تؤخرني ، اني اقول الحق .

فهمس تشتشيكوف في إذن نوزدريف :

ــ فليذهب إذن فانه لن يفيدنا في شيء .

فأجاب نوزدريف

– هذا صحيح ثم اني لا احب النفوس الخوارة .

وأضاف بصوت عال :

– حسناً لتحملك الابالسة ... اذهب لمناجاة زوجتك ايها الدجاجة المبللة.

– انك واهم يا أخي فانا مدين لزوجتي بحياتي ، انها طيبة ... وفاتنة .وان ملاطفتها لي لتبعث في عيني الدموع . لسوف تسألني عما فعلته في السوق،فيجب ان أقول لها كل شيء ... آه كم هي لطيفة معي .

– اذهب اليها وقص عليها اكاذيبك ... وخذ هذه قبعتك .

– انك لمخطىء يا اخي في نكران فضائلها ... انك لتهينها إذا لم تقدرها حق قدرها ، فهي طيبة جداً .

– حسناً عجل الآن بالانصراف .

– سأنصرف يا أخي ... عذراً لاضطراري على مغادرتكما فقد كان البقاء يسرني .

وبقي ميجويف يردد هذا الاعتذار دون ان يلحظ انه اصبح وحـــده في عربته التي كانت تجتاز الطرقات المقفرة . اما زوجته فان جميع ما لدينا يجعلنا نعتقد جازمين انها لن تعلم شيئاً عما فعله زوجها في السوق .

وقال نوزدريف وهو ينظر إلى العربة تبتعد :

– ياله من حيوان قذر ... لقد ذهب اخيراً .

وأضاف :

– ان في حوزته جواداً قويا احسده عليه ، ولكن لا يمكن التفاهم معه ... انه دجاجة مبللة ... دجاجة مبللة بالفعل .

ثم انتقل الصديقـــان بعد ذلك الى غرفـة نوزدريف فحمل بورفيري اليهما الشموع . ولاحظ تشتشيكوف على حين غرة ان بين يـدي نوزدريف ورقاً للعب ولم يدر من أين جاء به . قال نوزدريف :

ـ لنلعب كي نقضي الوقت ... ولتكن الضربة الواحدة بثلاثمائة روبل .
فتظاهر تشتشيكوف بانه لم يسمع شيئاً وهتف كأنه تذكر شيئاً هاماً فجأة:
ـ آه ... كدت انسى ... اني اسألك شيئاً .
ـ ماهو؟
ـ اقسم اولاً انك ستلبيني .
ـ ليكن .
ـ اتقسم بشرفك ؟
ـ اقسم لك بشرفي .
ـ إذن اليك هذا الامر : انه لديك عبيد موتى لم تحذف اسماءهم من قائمتك منذ الاحصاء الاخير .
ـ أجل ولماذا ؟
ـ سجلهم باسمي .
ـ لماذا ؟
ـ اني احتاجهم ... وهذا يتعلق بي ... والخلاصة اني اريدهم لي .
ـ ان وراء هذا الامر غاية ... ماهي ، هيا اعترف !
ـ ولماذا تكون هناك غاية ؟ ثم انه لا توجد اية فائدة من هذا الامر فماذا تريد ان اضمر .
ـ إذن لماذا أنت محتاج إلى العبيد الموتى ؟
ـ ياله من فضول ... انه يريد ان ينبش الاقذار باصبعه ثم يشمها .
ـ ولكن لماذا ؟ ألا تريد ان تقول لاي سبب انت تريدهم ؟
ـ انك لن تفيد شيئاً من معرفة السبب فهذا امر خاص بي .
ـ هكذا اذن ؟ حسناً لن افعل شيئاً مادمت معتصما بصمتك .
ـ ولكنك اقسمت بشرفك .

– لا يهمني ذلك اذ لن افعل شيئا دون ان اعرف السبب .

وفكر تشتشيكوف : « ماذا اقول له » وبعـد ان فكر دقيقة قال إنه بحاجة الى النفوس الميتة ليرفع من قيمته في نظر الناس ذلك انه لايملك مساحة كبيرة من الاراضي .

فهتف نوزدريف مقاطعاً :

– انك تكذب .. انك تكذب يا اخي .

واعترف تشتشيكوف بينه وبين نفسه ان التعليل غير معقول فقال :

– حسناً سأحدثك بصراحة .. اني اريد الزواج واسرة خطيبتي كثيرة المطاليب ... اني اجتاز امتحاناً وهذا أمر مزعج .. ان اسرة خطيبتي تريدمني ان املك ثلاثمائة عبد وبما انه ينقصني مائة وخمسون .

فصاح نوزدريف مقاطعاً ايضاً :

– انت تكذب .. انت تكذب .

فأجاب بافل ايفانوفتش وهو يقوم باشارة من اصبعه .

– لا .. لا .. لم أكذب الآن .

– اراهن على ضرب عنقي بانك تكذب .

– انك تهينني ... ولماذا تريدني ان اكذب .

– اني اعرفك ... فانت محتال ... اسمح لي ان اقول لك هـــذا بكل حب وإخاء .. ولو اني كنت رئيساً لك ، اذن لشنقتك على اول شجرة أصادفها .

وأثارت هذه العبارة تشتشيكوف ، إذ ان المساس بكرامته يزعجه فلم يكن ليسمح لأحد ان يمسه الا إذا كان من طبقة عالية ولذا لم يستطع اخفاء غضبه ، وردد نوزدريف :

– اقسم لك باني كنت اشنقك ... واني لأقول لك هـذا بكل اخلاص لا لأهينك ولكني أقوله بيننا فقط وبكل محبة وإخاء .

فأجاب تشتشيكوف برزانة :

ـ انه لكل شيء حدود ... وإذا شئت استعمال هذه الالفاظ فاذهب الى ثكنات الجيش ... ثم اضاف بعد لحظة صمت :

ـ إذا لم تشأ ان تهديني نفوسك الميتة فبعني اياها .

ـ أبيعها ؟... اني اعلم بانك وغد وانك لن تعطيني كثيراً ثمن أمواتي .

ـ اوه ... تخابث كما يطيب لك ، انك تعلم ان نفوسك الميتة لاتساوي جواهر ثمينة .

فقال نوزدريف :

ـ أرأيت ؟ اني اعرفك جيداً .

فهتف تشتشيكوف :

ـ ان لك تفكير اليهودي ... كان يجب عليك ان تهبني اياها دون مقابل .

ـ حسناً فليكن سأهبك هذه النفوس لأبرهن لك على لطفي ولكنك ستشتري مني جوادي :

فأجاب تشتشيكوف وقد أذهله هذا الاقتراح :

ـ ولكن ماذا تريد ان افعل بحصانك بحق الشيطان ؟

ـ ولكن كيف ذلك ؟ لقد اشتريته بعشرة آلاف روبل وسأبيعك اياه باربعة آلاف .

ـ لست بحاجة الى الحصان لانه ليس لدي اصطبل .

ـ انك لاتفهمني جيداً .. سأخذ منك اليوم ثلاثة آلاف روبل وأما الالف الباقي فتدفعه لي فيما بعد .

ـ ليذهب الشيطان بحصانك ، اني لست بحاجة له .

ـ اذن فستشتري مهري الاشقر .

ـ لااريد مهراً .

ـ اسمع، خذ المهر والجواد الرمادي الذي شاهدته بالفي روبل فقط .

ـ لست بحاجة الى جياد .

انه باستطاعتك ان تبيعها في اول سوق تصل اليه وسيدفعون لك ثلاثة اضعاف هذا المبلغ .

فقال تشتشيكوف :

ـ بعها بنفسك طالما انك على ثقة من ربح ثلاثة اضعاف ماتطلبه منى .

ـ اني استطيع ان اربح هذا القدر بكل تأكيد ولكني اريد ان شركك بالفائدة .

فشكر تشتشيكوف صديقه على كرمه ولكنه رفض جميع عروضه رفضاً قاطعاً.

فقال نوزدريف :

ـ اذن ستشتري مني كلابا ... سأبيعك زوجاً يحوز على اعجابك ، انهما كلبان أصيلان قويان رشيقان بحيث يمران في كل مكان دون ان يتركا اثراً على الاطلاق .

ـ لست احتاج الكلاب لاني لاأصيد .

ـ ولكني اريد ان يكون لديك كلاب ... ومع ذلك اذا لم تشأ ان تشتري منى الكلاب فستشتري الارغن البربري وانت تعلم انه وحيد في نوعه .. لقد كلفني الف وخمسمائة روبل وسأبيعك اياه بتسعمائة فقط.

ـ لست بحتاج الى ارغن ... كما اني لست المانياً لاجول الدنيا مستجديا .

ـ ولكنه ليس ارغناً من النوع الذى يحمله الالمان .. انه من خشب الا كاجو وسأريك اياه كرة اخرى .

وامسك نوزدريف بيد تشتشيكوف وأرغمه دون ان يلقي بالاً الى مقاومته على الاستماع الى انشودة « ماليوروف ذاهب الى الحرب »

ـ اسمع .. اذا لم تشأ ان تدفع نقداً فاني سأعطيك الارغن ونفوسي الميتة فتعطيني مقابلها عربتك وثلاثمائة روبل .

ـ لاينقصني الا هذا ! وكيف أعود ؟

ـ سأعطيك عربة اخرى .. تعال الى الاصطبل لأريك اياها وماعليك إلا ان تعيد طلاءها فتصبح جديدة .

وفكر تشتشيكوف : « من اى جنس شيطاني هذا الانسان »وقرررفض جميع عروض نوزدريف ، فقال الاخير :

ـ وهكذا تأخذ الارغن والنفوس الميتة والعربة .

فأجاب تشتشيكوف :

ـ لااريد شيئاً .

ـ ولماذا ؟

ـ لاني لااريد شيئاً ، ولا فائدة من الالحاح .

فقال نوزدريف :

ـ ان طبعك غريب .. انه لايمكن التفاهم معك كالآخرين .. ماأنت الا منافق .

ـ آه ! ولكنك تظنني مغفلا ... احكم بنفسك : لماذا آخذ شيئاًلايفيدني .

ـ يمكنك السكوت ... اني اعرفك الآن ... لست إلا نذلاً ... اسمع سنلعب الآن بالورق ، وسأراهن على الارواح الميتة والارغن .

ـ اللعب بالورق معناه الاستسلام للمجهول .

والقى تشتشيكوف نظرة خفية على الورق الذي يحمله صديقه فبدا له ان بعض الاوراق فيها رسوم مشوهة . وأردف نوزدريف :

ـ ولماذا المجهول ؟ ان المجهول معدوم ، فاذا ابتسم لك الحظ تمكنت من ان تربح ما تريد ، واضاف وهو يعبث بالورق ليثير رغبة صديقه .

ـ تلك هي السعادة ... هاهما الشابان الديناريان ، وتلك هي التسعة اللعينة التي جعلتني اخسر في المرة الماضية . لقد كنت اعلم باني خسرت ولكني تابعت اللعب رغم ذلك وأنا اقول في نفسي : « ليذهب بك الشيطان ايتها التسعة اللعينة أنت تودين خرابي » .

وفي هذه الاثناء قدم الخادم يورفيري يحمل زجاجة غير ان تشتشيكوف رفض رفضاً باتاً ان يشرب ويلعب ، فعاد نوزدريف إلى السؤال :

ـ ولكن لماذا لا تريد أن تلعب ؟

ـ ذلك لأني لا ارغب بذلك اولاً ولأني لست مغامراً بالدرجة الثانية .

ـ وكيف يمكن للانسان ألا يحب اللعب ؟

فرفع تشتشيكوف كتفيه وتمتم : « أنا لا احب اللعب » .

ـ ايها الحيوان القذر .

ـ لا فائدة ... فقد خلقني الله هكذا .

ـ في الحق انك حيوان ... لقد اعتقدتك انسانا شريفاً ، ولكن لا فائدة من الكلام معك إذ ليس لك قلب ... انت حيوان مثل سوباكيفيتش .

ـ ولماذا الاهانة ... اني لا ارغب بالمقـــامرة ولست في هذا مجرماً ، اما نفوسك الميتة فبعني اياها طالما انك تريد الافادة مما لم يعد من هذا العالم .

ـ بحق الشيطان هذا ما سأعطيكه ... لقد كنت ارد ان اقدم لك نفوسي الميتة دون مقابل اما الآن فيمكنك التأكد باني لن أعطيك شيئاً . انك تستطيع ان تعرض علي ثلاث ممالك ولكنك لن تحصل على شيء ... آه يالك من وغد ... يالك من كلب ... لست اريد التعامل معك .

ثم توجه نوزدريف إلى يورفيري وقال له :

ـ اذهب الى الاصطبل وقل لهم ألا يقدموا علفاً للجياد فعلفها يكفيها .

ولم يكن تشتشيكوف ينتظر ان ينتهي الحديث هكذا ، واضاف نوزدريف :

ـ كان افضل لك ان تبقى حيث كنت .

ومع كل ذلك فقد تناول الصديقان العشاء معاً غير ان نوزدريف لم يقدم خمراً. وقاداخيراً رب المنزل ضيفه الى غرفة كانت معدة لاستقبال الضيوف وقال له:

ـ هاهو سريرك ولكني بكل تأكيد لا أتمنى لك ليلاً سعيداً .

وظل تشتشيكوف وحده بعد ذهاب نوزدريف وكان حانقاً على نفسه لانه قبل دعوة نوزدريف فضيع وقتاً ثميناً . والاخطر من ذلك انه وثق برجل كنوزدريف في مقدوره ان يكذب ويضخم الامور ويخترع ويقيم ضجة كبيرة حوله . وكان بطلنا يقول في نفسه « لست إلا مغفلاً » . وقضى ليلة سيئة للغاية وكانت الحشرات تلذعه طيلة ليله فكاد يخاطب هذه الحشرات مردداً دوماً : « فلتذهب الابالسة بك انت ونوزدريف » .

واستيقظ في الصباح الباكر فمضى حالاً إلى الاصطبل وأمر سليفان باعداد العربة على الفور وفيما هو يعود إلى المنزل صادف نوزدريف يتنزه وغليونه في فمه ، فحياه هذا وسأله عن ليلته فرد تشتشيكوف بجفاء :

ـ لم تكن ليلة سعيدة .

فقال نوزدريف :

ـ اما أنا يا اخي فلن اضجرك بالحديث عن هذه الحشرات الخبيثة التي كانت تنهشني طيلة الليل . تصور اني قد حلمت بان هناك من يجلدني ... ولكن من الذي يفعل ذلك ؛ انك لن تعرف هذا ابداً ... انه كان بوتسلويف وكوفشينكوف .

فقال تشتشيكوف في نفسه : « انك تستأهل ان تسلخ حياً »

وتابع نوزدريف :

ـ لقد تألمت ... وأصابني القلق ... لقد كنت بالفعل متألماً إذ ان هذه

البراغيث القذرة كانت تنهشني . اذهب وارتـد ملابسك الآن وسألحق بك في الحال ولكن يجب ان أذهب إلى المزرعة قبل وكيلي الوغد .

وصعد تشتشيكوف إلى غرفته وارتدى ملابسه وعنـدما ذهب إلى غرفة الطعام وجد الشاي معداً مع زجاجة من الروم ، وبقايا الغذاء والعشاء . ويبدو ان المكنسة لم تكن لتصلح لشيء في هذا المنزل ففتات الخبز والرماد واعقـاب السجائر ،كل ذلك كان يملأ أرض الغرفة . ولم يتأخر نوزدريف عن المجيء ولكنه لم يكن يرتدي شيئاً تحت ثوبه المنزلي فكان صدره عاريا ويحمل بيده غليوناشرقياً طويلًا فيقدم بذلك نموذجاً حياً جيداً للرسامين الذين يكرهون الوجوه الموردة المصففة الشعر المشابهة للوجوه المعروضة في واجهات الحلاقين .

وسأل نوزدريف :

ـ أتريد ان تراهن على نفوسي الميتة أم لا .

ـ لقد قلت باني لا اقامر .. لذا سأشتريها منك .

ـ انا لا أبيعها فلا تجارة بين الاصدقاء ولا اريد ان اجني ارباحاً في بضاعة كهذه .. اما في اللعب فالامر يختلف .. هيا بنا اقطع :

ـ اني ارفض .

ـ ولن تغير رأيك ابداً ؟

ـ ابداً .

ـ حسناً فلنلعب (بالضاما) . واذا ربحت فأرواحي الميتة لك .. يابورفيري اعطني لوحة الضاما .

ـ لا فائدة من ذلك فلن العب .

ولكننا لن نلعب بالورق .. فليس هنا حظ ولا خداع ؛ فاما ان يجيد الانسان اللعب او لا يجيده ، وبعد فانا من الذين لا يجيدون اللعب ولذلك سأطلب منك ان تعطيني بعض الاحجار سلفاً .

وفكر تشتشيكوف: « سألاعبه ، اني لست ضعيفاً في هذه اللعبة ومن الصعب جداً ان يغشني » ثم قال بصوت مرتفع:

ـ حسناً فلنلعب .

ـ اذن فنفوسي الميتة مقابل مائة روبل .

ـ ولماذا المائة .. ان خمسين روبلا تكفي .

ـ انت تمزح .. خمسون .. اريد مائة روبل ، امانفوسي الميتة فاني سأزيد عليها كلباً كبيراً وهذا الخاتم الذهبي .

ـ حسناً قبلت

ـ وكم نقطة ستعطيني سلفاً .

ـ لاشيء.

ـ اعطني نقطتين على الاقل .. دعني العب مرتين بادىء الامر عوضاً عن المرة الواحدة .

ـ ولماذا فانا ايضاً لااجيد اللعب .

فقال نوزدريف وهو يرفع حجراً الى الامام .

ـ آه ان هذه الاحجار الملعونة لاتجيد اللعب .

فأجاب تشتشيكوف وهو يدفع حجراً بدوره :

ـ لقد مضى علي زمن طويل ولم العب .

وفي تلك اللحظة كان نوزدريف يحرك حجراً ويدفع آخر بطرف كمه.

وتمتم تشتشيكوف .

بلى زمن طويل ثم اضاف :

ـ ولكن هل تسمح بان تعيد الحجر الى مكانه؟.

ـ اي حجر؟.

ـ هذا .

وفي نفس اللحظة لاحظ بافل ايفانوفتش ان حجراً ثالثاً كان يتقدم مسرعاً اكثر بما يجب ليصبح ضاما، ولكن من أين جاء ؟ ان الله وحده هو العليم بذلك .

فهتف :

– كلا من المستحيل ان يلاعبك المرء ، فاني لم اشاهد في حياتي لاعباً يحرك ثلاثة احجار دفعة واحدة .

– ولماذا ثلاثة ؟ هذا خطأ ... سأعيد هذا الحجر الى مكانه .

– والآخر .

أي آخر ؟

– هذا الذي اصبح ضاما .

– كانك لاتعرف ان هذا مكانه الحقيقي .

– كلا يا صديقي فأنا اتذكر سير اللعب جيداً ... هو ذا مكان هذا الحجر الحقيقي .

فهتف نوزدريف وقل احمار وجهه :

– كلا هذا غير صحيح .. ولكنك تحسن الكذب .

– انما الكاذب انت يا اخي .. انك لن تخدعني .

– ولكن من تظنني ؟ انك تعتقد بأني اغش في اللعب .

– انا لا أظنك شيئاً .. ولكني لن أتابع اللعب .

فصاح نوزدريف بغضب :

– لقد ابتدأ اللعب ولا حق لك بالانسحاب .

– هذا من حقي لانك لاتلعب كانسان شريف .

– انت تكذب ... انت تكذب .

– بل انت الذي لاتقول الحق .

– انا لم أغش وستتابع اللعب .

فأجاب تشتشيكوف ببرود :

ـ لن تستطيع ارغامي على ذلك .

وبحركة فجائية ، نثر الاحجار ، فثار نوزدريف وقفز نحو بافل ايفانوفتش فأخر هذا مقعده قليلاً .

سأرغمك على اللعب معي .. اني اذكر موضع الاحجار جيداً وسأعيدها الى مكانها .

ـ لافائدة من ذلك فلن اعود الى اللعب .

اذن فانت لاتريد ان تلعب ؟

ـ انك تعرف جيداً بانه لايمكن اللعب معك .

فكرر نوزدريف وهو يزداد اقتراباً من تشتشيكوف :

ـ اجب أتريد اللعب أم لا ؟

فاجاب هذا وهو يرفع يديه كانه يريد حماية وجهه .

ـ اني ارفض .

وكانت حركة تشتشيكوف ضرورية إذ ان نوزدريف قام بحركة عنيفة كان من شأنها ان تهين شرف خدي بطلنا ، ولكنه تجنب الضربة وامسك بيدي نوزدريف معاً وشده بعنف :

فزمجر نوزدريف وهو يحاول التخلص .

ـ بورفيري .. بافلوشكا .. الي ..

وعند هذه الصرخة لم يشأ تشتشيكوف ان يشهد الخدم هذا المنظر المغري فاعاد الى نوزدريف حريته ، ودخل في تلك اللحظة بورخيري وبافلوشكا وكان هذا الاخير عملاقاً يدفع من يفكر بالاشتباك معه الى التأني والتأمل .

وردد نوزدريف غاضباً .

ـ اذن فانت لاتريد ان تتابع اللعب ؟

ـ لقد كنت اتابعه لو انك تلعب كانسان شريف .

ـ انت لاتريد ان تلعب ايها الشقي لانك كنت خاسراً .

ثم هتف بالخادمين .

اضرباه .

وتسلح هو بغليونه الطويل .

وهنا شحب لون تشتشيكوف فاراد ان ينطق بشيء غير ان شفتيه ارتعشتا قبل ان يتلفظ بكلمة ، وهتف نوزدريف وقد خرج عن وعيه .

ـ اضرباه ،اضرباه.

وكان في شكله هذا اشبه بملازم يهاجم قلعة وهو يرى امامه شبح الجنرال سوفوروف فيصيح بجنوده : « الى الامام ايهـــا الرفاق » ولكن إن كان نوزدريف يشابه هذا الملازم فان خصمه كان اضعف من التشبه بالقلعة المنيعة ؛ ذلك ان روح تشتشيكوف سرعان ماهربت من جسمه لتختبيء تحت قدميه ؛ وأما الكرسي الذي كان يحتمي به فقد اصبح في حيازة العدو ، وفيما كان ينتظر وهو اقرب الى الموت منه الى الحياة ، ان تنهال عليه الضربات رن جرس في الخارج وعلت ضجة وقوف عربة امام المنزل وتسرب صوت ترجيع نفس الجياد الى الداخل ، وبحركة غريزية اتجهت انظار الجميع نحو النافذة ، وترجل من العربة رجل بشاربين كبيرين يرتدي ملابس نصف عسكرية ونصف مدنية ، وبعد أن استفهم من الرواق عما يريد دخل الغرفة بينما كان تشتشيكوف الذي لم يستعد شجاعته بعد يشبه المحكوم عليه بالاعدام .

وتظر المجهول كالمشدوه الى رب البيت الذي كان يرفع غليونه عالياً كأنما يريد ان يضرب به احداً وسأله ؟

ـ من منكم السيد نوزدريف؟

ثم اخذ يتأمل في تشتشيكوف الذي بدأ يعود اليه وعيه شيئا بعد شيء وقال:

ـ الى من أتشرف بالحديث.؟

فأجاب نوزدريف وهو يقترب منه :

ـ حبذا لو تفضلت بالاجابة عن نفس السؤال اولاً .

ـ اني الكابتين رئيس بوليس المنطقة .

ـ وماذا تريد ؟

ـ جئت أعلمك اني تلقيت امراً بتوقيفك حتى ينظر القضاء في الدعوى المقامة عليك حديثاً .

فهتف نوزدريف :

ـ اية دعوى هذه ؟ وما هذه الحماقة !

ـ انك ضربت الملاك ماكسيوف وانت ثمل بقضيب حـــديدي والتحقيق مازال جارياً في هذا الموضوع .

ـ انت كاذب ، فانا لم اصادف في حياتي رجلاً بهذا الاسم .

ـ اسمح لي ياسيدي ان الفت نظرك الى اني ضابط بوليس ، وهذه الطريقة في الحديث يمكنك ان تستعملها من خدمك لا معي .

واما تشتشيكوف فقد انقض على قبعته دون ان ينتظر رد نوزدريف وتسلل من وراء الضابط ثم قفز الى عربته وامر سليفان ان يطلق لجياده العنان .

الفصل الرابع

حقاً ان بطلنا قد قاسى من الخوف ما يورث الجنون ، ومع ان العربة انحدرت بكل سرعة ممكنة ، ومع ان قرية نوزدريف اصبحت منذ زمن غير قليل بعيدة عن الانظار ، مختبئة وسط الحقول الخضراء وخبايا الارض والتلاع ، مع كل ذلك فقد ظل بافل ايفانوفيتش يتلفت خلفه بين الحين والحين وهو يظن انه مطارد . لقد كان يتنفس بصعوبة كبيرة ، وكان يشعر بقلبه يخفق وينتفض عندما يضع عليه يده كعصفور سيء الحظ مسجون في قفص . أخذ يفكر : « آه ! يالها من سورة حنق اخذت علي السبيل » ثم جعل يصب آلاف اللعنات بصوت خافت فوق رأس نوزدريف . وهذا طبيعي ، فهو روسي وفوق ذلك في حالة غضب شديد ! وقال ايضاً في نفسه : « المهم هو انه لولا هذا الضابط لما ظللت حياً ارزق في هذا العالم ، لولاه لاختفيت كفقاعة هواء داخل الماء ، دون ان اترك اي أثر او وارث او وصية للاولاد المقبلين او أرث او اسم عاطر » . وهكذا راودته فكرة النسل فاهتم بها اهتماما كبيراً .

وأخذ سيليفان من جهته يفكر ايضاً « يالهذا المعلم البائس ! لم أر في حياتي مايشبهه ، ولقد بصقت في صفحة وجهه وانا جد مسرور لو استطعت ، لقد اتبع هذا اللعين نظاماً هو ألا يطعمني شيئاً كما ان علف الخيول قد نفد ... »

وحتى الخيول ، الخيول نفسها لم يكن رأيها حسناً بنوزدريف ، فمزاج هذه البهائم الثلاث كان سيئاً للغاية ، ولم يكن لدى سيليفان مايقدمه لها الا الشوفان الرديء ، مما جعلها تضطرب كثيراً وتطلق صرخات متوحشة مخيفة ، ولكنها اخيراً ، وبعد ان يئست من وجود علف أجود ، أكلت من ذلك الشوفان بينما العكس يجري عند نوزدريف .

وبرزت مفاجأة عنيفة في سير القصة وضعت حداً لهذا الوضع السيء المسيطر على الجو ، مفاجأة قوية وغير منتظرة . كانت صدمة قوية جبارة جعلت الجميع حتى الحوذي ايضاً يرتدون الى الخلف بعنف عندما اصطدمت بهم عربة تجرها ستة جياد اصطداماً مروعاً ،وعلت بالقرب منهم ضجة الوعيد مختلطة باصوات نسائية انسابت الى أذني سيليفان وارتاحت فيها . ثم نبح حوذي العربة الجديدة قائلاً : « ايه ! يالك من حيوان قذر ، لقد طلبت منك ان تتجه الى يمين الطريق ، فما فعلت ، أأنت ثمل ! واستفاق سيليفان من أثر الصدمة ،وكان كجميع الروس لايعترف بخطئه إذا وقع فيه امام الغرباء ، فأجاب صارخاً بصوت أعلى :

ـ حسناً ! وأنت ؟ انك لتسوق ببلاهة وحمق دون ان تنظر أيان تذهب ! لقد اضعت بلا ريب عينيك في قعر زجاجة داخل الحانة !

وحاول سيليفان ، وقد اختلطت العربة الاولى بالثانية مع جميع الخيول ، ان يستخلص عربته بالتقهقر بجياده بعض الخطوات الى الخلف ،ولكن كل شيء كان متشابكا ببعضه بشكل مخيف، واستشم الجواد المتنمر فرحاً رائحة اصدقائه الجدد فارتاح اليها .

اما فيما يتعلق بالسيدتين الموجودتين داخل العربة الاخرى فان آية الرعب قد ارتسمت على وجهيها . كانت الاولى عجوزاً كبيرة السن والثانية شابة في السادسة عشر من عمرها ، وقد تأطر وجهها اللطيف بشعر جميل مسترسل حتى لكأن الوجه في شكله اشبه بالبيضة في بياضه وشفوفه ، اما الاذنان فكانتا

دقيقتين شفافتين وقد تخللتهما حرارة منبعثة من لونهما الضارب للزهر . وكانت شفاهها المنفرجة قليلا تجسم الذعر الذي انتابها . اما عيناها فقد كانتا مغرورقتين بالدموع . وكان كل مافيها يفصح عن جاذبية عظيمة جعلت بطل قصتنا يسر قليلا مع العلم انه كان جد غريب عن كل ما حدث .

وصرخ الحوذي الغريب بما يشبه العواء :

ـ حسناً ! ومتى تريد ان تذهب عني ، ايها الغراب العجوز ؟

وجذب سيليفان الأعنة اليه وفعل الآخر فعله ، فتراجعت الجياد الى الخلف ثم تقدمت من جديد ، لتتشابك تلك الجياد والاعنة من جديد بصندوقي العربة .

وكأنما اصاب هذا الحادث هوى في نفس الجواد المتنمر الهائج فرفض تنفيذ أوامر سيده ووضع مخطمه فوق رأس صديقه الجديد ، ليزجي له ، بلا ريب ، عواطفه الحارة .

بينما أخذ الاخير يحرك أذنيه علامة السرور . وعلى اصوات هذه الضجة الكبيرة جاء فلاحو القرية المجاورة مسارعين . ان مثل هذه الانماط من المشاهد تخلف في نفس الفلاح الروسي السرور نفسه الذي تخلفه نوادي السمر في الالمان وتجمع غمر عظيم من هؤلاء الفلاحين حول هذه الكتلة المتلاحمة من الجياد والركاب والحوذية ، ولم يبق في القرية غير الشيوخ المقعدين وصغار الاطفال واستطاع القوم ان يعروا اخيراً صندوقي العربتين ، واخذوا يكيلون اللطمات المتتابعة للفرس الهائج حتى أجبروه على التراجع ، وفي لحظات قليلة كانت العربتان منفصلتين . وكأنما أثار الجياد غضب شديد من جراء ذلك ، او انها أرادت البرهان على عنادها الشديد ، فظلت على الارض جامدة مسمرة بالرغم من اللطمات الهائلة التي كالها الحوذيان لها . فازدادت حماسة الفلاحين حرارة ، فأخذ كل بدوره يقدم رأيا : « حسناً لا بأس ، وانت يا آندريوشكا اجبر هذا الذي في اليمين على التقدم ، وانت ، ايها العم ميتيا لتصعد فوق الجواد الاوسط »

وتسلق العم ميتيا ، وهو كهل نحيل ، ظهر الحيوان بلحيته الروسية وقد حمل خشبة طويلة كانت تستعمل لحمل العديد من أسطل الماء المنضوح من البئر، فكان في وقفته تلك اشبه بقبة ناقوس القرية . وساط الحوذي الحيوانات من جديد ، ولكن عبثاً فعل ، فقد ذهبت جهوده أدراج الرياح وظلت الخيول محافظة على جمودها وكذلك العم ميتيا فانه ايضاً لم يتوصل الى اي شيء . وصاح الفلاحون:

ـ صبراً ، صبراً ، لتذهب إلى اليمين ، وانت ايها العم ميتيا فان العم مينياي سيأتي ليأخذ مكانك.

والعم مينياي ، فلاح عريض الكاهلين بلحية سوداء كالفحم ، وبطن منتفخ يتدحرج أمامه عندما يسير ، وقد اخذ هذا الانسان مكانا له فوق ظهر الفرس الذي مالبث ان ناء تحت ضغط ثقله . وصاح فلاحون معاً :

ـ والآن اضربه ، اضربه ، ولا تشفق على هذا الملعون الذي يأبى إلا المعاندة وعدم التحرك .

ولما لم يصلوا الى اي طائل،جلس الاثنان على الفرس الايمن واخذ آندرو شكا مكان مينياي . غير ان الحوذي فقد صبره فطرد الفلاحين ، وحسناً فعل ، لأن الحيوانات البائسة اخذ العرق يتصبب منها بغزارة كما لو انها ركضت آلاف (الفرستات) فتركها برهة لتأخذ قسطاً من الراحة ،ثم سارت من تلقاء نفسها .

وفي اثناء هذا المشهد العجيب ، لم ينقطع بافل ايفانوفيتش عن التملي من محاسن الشابة الغريبة ، ولقد حاول في كثير من المرات ان يدخل معها في مناقشة بسيطة ، ولكن المناسبة كانت دائماً تعوزه . وبينما كانت العربة تسير كانت الشابة الصغيرة ، بتقاطيعها المنمنمة وخصرها النحيل ، قد أخذت في الاختفاء والتقلص كأنها الحلم ... وبدأ الطريق من جديد ، فهذه عربة وتلك زحافة ، كما اخذت الاصوات تنسجم مع سكون الحقول التي تجتازها العربة .

في جميع معالم هذه الحياة، في الطبقات القميئة، المتعفنة ، القذرة من المجتمع، تلك الطبقات المتلفعة بالبؤس ، والفظاظة ، وفي الطبقات الراقية ، الجامدة على التقاليد وعدم المبالاة ، في كل شيء من مظاهر الحياة ، يحدث في لحظة ما ، ان يبرز الجمال فيوقظ عند المرء احساساً حياً دائماً ومنذ اللحظة الاولى . في كل شيء ، وبالرغم من الاحزان الذي يمتليء به وجودنا ، تنبجس لمع من الافراح . فالغني ببطانته المترفة وعدة جياده الذهبية ، وخدمه الملمعين كالمرايا ؛ هذا الغني عندما يجتاز قرية فقيرة صغيرة تكاد تكون مجهولة ، لم ير فيها فلاحوها غير الفاقة والمرض ، فانهم بلا ريب ، سيظلون مشدوهين ، وقبعاتهم بايديهم ، ينظرون من بعيد الى تلك العربة السماوية. مثل هذا الظهور الجمالي اللطيف الذي برز فجأة في قصتنا وعلى غير انتظار سرعان ماتلاشى بالسرعة نفسها التي ظهر فيها . وبطبيعة الحال لو كان في العربة عوضاً عن تشتشيكوف شاب في العقد الثاني من عمره ، كمرشح ضابط مثلا أو طالب او معتمد جديد ؟ فما هي الاحاسيس، يا ترى ، التي لا تستوفز وتنتفض لتفضح دخيلته ؟ يا إلهي : انه بلا ريب سيجلس طويلًا في مكانه دون حراك ، وسيثبت عينيه في المدى الغامض البعيد ، ناسياً رحلته واتجاهه ، ثم يتقرب من جيرانه قدر الامكان متحدثا عن التوبيخات المحتملة بسبب تأخره ، وعن عطلته والعالم وكل شيء .

ولكن بطلنا غير ذلك ، انه انسان نضج سنه فأصبح ذا مزاج بارد يميل الى التفكير ، فطبيعي ان يحلم ويتأمل ، ولكن بشيء من الاناة ، ولذلك كانت افكاره متزنة وايجابية : « ياللمرأة الصغيرة العذبة » ، قال ذلك وهو يفتح علبة سعوطه ليأخذ منها مايحشو به انفه : ولكن ماهو الشيء الذي يجعلني مسروراً؟ انها شابة ، وقد خرجت من مؤسسة تربوية حديثاً او انها تخرجت من المدرسة الداخلية ، فهي لم تصبح بعد امرأه ، بمعنى ان مايكره عادة في المرأة لم يدخل في تكوينها بعد ، انها كالطفلة ، كلها بساطة وسذاجة ، تقول مايدور بخلدها

وتضحك عندما تفرح ، مثل هذه الفتاة يمكننا ان نجعل منها مايدهش ، ومع ذلك فمن المحتمل ان تصبح مملة ، وأخشى ماأخشاه ألا تنجو من الحواجز التي ستعترضها في هذا الطريق ، من الواجب حتما على امها وعمتها ان يشغلا نفسيهما بتأديبها وتربيتها ، فانها في ظرف سنة واحدة ستكتسب خلقاً جديداً ، جديداً في كل شيء لدرجة ان والدها نفسه لن يستطيع التعرف عليهـــا ، وستختفي بلا ريب جميع حركاتهـــا الطبيعية بعد ان تتعلم النفاق والمراء ، وعند ذلك لن تكن صالحة على الاطلاق .

اخذ تشتشيكوف يتأمل قليلاً ثم تابع حديثه مع نفسه ، لقد كان فضوليـاً عندما حاول ان يعرف عائلتها ، ومن يكون ابوها ؟ أهو ملاك غني أم رجل ساذج يتنعم برأسمال جيد جمعه من عمله ؟ واذا كانت هذه الفتاة تملك مائتي الف روبل كمهر لها ، عند ذلك .. يالها من قطعة صالحة للاقتناء ! وان أي رجل فاضل يستطيع ان يكون راضياً بها !

واختلطت المائتا الف روبل بقوة في خيال بافل ايفـانوفيتش ، وانتهى من تأمله بان اعترف بينه وبين نفسه ان ماينقصه انما هو السلوك الجيد ، وقد وجد نفسه انه سيء الصورة امام الحوذي الذي استفهم بطبيعةالحـــال عن المسافرين وعرف عنهم كل شيء ، وبدأت منازل قرية سوباكييفتش التي ظهرت في الافق تقترب من المسافرين ، ولحسن الحظ ان هذا الامر وجه افكار بافل وجهات اخرى واعاده لتذكر الغرض الذي جاء من اجله .

بدت اخيراً القرية امام ناظريه متسعة ، وكان يحيط بها غابتان من السندر والصنوبر من الجهتين كجناحي طائر .

وفي وسط تلك البلدة نهض منزل خشبي فيه فتحة شباك صغير ، سطحه احمر اللون وجدرانه رمادية ، واتخذ بذلك شكل عمارة بنيت خصيصاً لأجل المهاجرين

من الجنود أو العناصر البروسية ، والناظر اليه يدرك حالاً ان مهندسه ما اكثر ما كان يدخل في شجار مع سيد المنزل واهوائه .

ذلك ان مهندسه هذا رجل متصلب الرأي متغطرس يأبى الا ان يجعل المنزل خاضعاً لما يسمى بالتناظر . بينما سيد المنزل يريد ابداً الرفاهية والراحة فيحاول مضطراً ان يثقب كوة في الجدار لاجل الاستعمال . ثم ان مقدمة المنزل لاتنسجم مع الواجهة النصفية بالرغم من جميع المجهودات التي بذلها مهندسنا الفنان ، ولكن الامر بسيط اذ يجب هدم احد العواميد الاربعة الثابتة فيها وكانت الساحة التي حول ذلك البناء مؤطرة بحواجز كبيرة صلبة تبعث على الاستغراب والدهشة . ولكن يجب ان نفهم من ذلك ان صاحب المنزل يعنى بالمتانة في كل شيء .

كانت هناك جسور ثقيلة عظيمة تستعمل لاجل بناءالاسطبلات والسقوف والمطابخ فتبدو كأنما تريد مقاومة الزمان . ثم ان اكواخ الفلاحين كانت مبنية بنفس الطريقة وقد حفرت لأجلها الاساسات القوية والعميقة . حتى البئر نفسه جهز بصخور قاسية مستديرة ، تصلح لأن تستعمل كابراج للمقاطعة او أرحية للمطاحن . كان بافل ايفانوفيتش اينما ارسل انظاره يجد كل شيء مغلقاً بنظام فيه شيء من الغلظة وعدم الانسجام .

وعندما اقترب من درجات المنزل لمح رأسين في احدى النوافذ يرقبانه : الاول وجه امرأة على رأسها قبعة مستطيلة اشبه بالقثاء ، والثاني وجه رجل ضخم مستدير كاليقطين المولدافي . ولم يلبث الوجهان ان اختفيا باسرع مما ظهرا . وبدا الخدم على رأس الدوج بكسائه الرمادي وعنقه المستقيم ، وفي نفس الوقت جاء صاحب المنزل وادخل تشيتشيكوف متسلحاً بعبارته الدائمة (ارجوك) الى الصالة .

ورمى تشيتشيكوف سوباكيفيتش بنظرة سريعة ؛ كان هذا الاخير اشبه بدب متوسط الحجم ، وكانت ملابسه التي تستر جسده تساعد كثيراً في

تشكيل هذه المشابهة ، وكان كذلك رداؤه الخارجي له لون الدببة ، امـــا اكمامه فطويلة فضفاضة وكذلك سرواله فقد كان عظيم الاتساع . كان سوباكيفيتش يمشي وهو يدندن وكثيراً ، بل غالبـــاً مايدوس فوق اقدام اصدقائه برجليه الغليظتين الثقيلتين . وكان وجهه مشبعاً بالحمرة . انه في العالم كثير من الوجوه التي يبدو ان الطبيعة صنعتها على عجل دون جهد او مراعاة التناسق باستعمال الازميل او المبرد او المثقب او بقية الادوات التي تصلح لهذا العمل . واما فيما يتعلق بسوباكيفيتش فيبدو ان الطبيعة قد اقتطعت مادته بضربات الفؤوس ؛ وخصت انفه بضربتين وفمه ضربة واحدة ، واستعملت المثقب لحفر عينيه ، واكتفت الطبيعة بهذه الضربات العاجلة دون تنقيح او تمليس واخرجت صوتها المجلجل : « فليحيا » .

وهكذا فان تركيب رأس سوباكيفيتش طبيعي ايضاً لذلك تراه منحنياً دائماً تقريباً ليرى الارض لا ليرى السماء . كما ان سوباكيفيتش بالاضافة الى ذلك يحتفظ برأسه دوماً في حالة الاستقامة ، وبعنقه دون حركة . لذلك فانه نادراً ماينظر الى مخاطبه ، ولكنه لايكاد ينقطع عن تثبيت انظاره في زاوية الباب او في المدفأة . وفي اللحظة التي دلف فيها الى غرفة الاستقبال القى بافل ايفانوفيتش آخر نظرة عليه : « انه دب ، دب لاينقصه شيء » هكذا قـــال لنفسه . وثمة هناك مشابهة اخرى بينهما ، فقد كان يدعى ميخائيل سيميونوفيتش « وهو اسم يطلق على الدب بالروسية » وبما انه كان معروفاً بخصلته الدائمة ، وهي انه يدوس فوق اقدام من يسير معهم ، فان تشيتشيكوف لم يتقدم معه الا بحذر لا بل تركه يسير امامه .

وكان سوباكيفيتش يعرف هذا الخطأ عن نفسه لذلك كان يسأله بين الفينة والفينة عما اذا سبب له ألماً . وأكد له بافل ايفانوفيتش بان كل شيء على مايرام حتى الآن بعدما اطلعه على انه يعرف فيه هذه الطبيعة .

وعندما دخلا الصالة قاده سوباكيفيتش الى مقعد هناك وكرر على مسمعه

نفس اللفظة « ارجوك » ؛ وبينما كان سوباكيفيتش يأخذ لنفسه مكاناً كان بافل يتلهى بالنظر الى الحائط المزدان بلوحات تمثل اشهر ابطال اليونان بالحجم الطبيعي : فهذا مافروكورداتو بسرواله الاحمر وذاك مياولي وكوناري . وكان لهؤلاء الابطال افخاذ متينة وشوارب طويلة ، لايرتجف احد خوفاً منها الا اذا شاهدها على اللوحة .

وبين هؤلاء القواد اليونانيين ، شاهد تشيتشيكوف البرنس باغراسيون دون ان يعرف سبباً لوجوده بين هؤلاء الشجعان ، وكان هذا البرنس حقيراً ضئيلا براياته الصغيرة ومدافعه القميئة . ويأتي بعد ذلك تمثـــال البطل اليوناني بوبيلينا وكان فخذه وحده يملأ حجماً اكبر من اجساد هؤلاء الرجال الصغار الذين يملأون صالاتنـــا اليوم مجتمعين . وبالقرب من بوبيلينا يوجد قفص فيه شحرور مبرقش بالاسود والابيض يشبه الي حـــد كبير صاحب المنزل سوباكيفيتش.

بقي الصديقان جامدين مدة دقيقتين تقريباً ، ثم ظهرت سيدة المنزل وكانت امرأة نحيفة على رأسها قبعة عتيقة جربة اعادت فيما مضى صبغ اشرطتهـا ، وكان رأسها هذا فارعاً مستقيما كالشجرة السامقة . وهنا افتتح الحديث سوباكيفيتش قـــائلا :

– تلك حسنائي الصغيرة فيودوليا ايفانوفا .

وتقدم بافل ايفانوفيتش من سيدة المنزل وتناول يدها ليصعد بها نحو شفتيه بحركة جافة خشنة . وشعرت تلك اليد المسكينة عند أطراف شفتيه بآثار القثاء القذر بحيث يتوجب على صاحبتها غسلها .

– ايتها الحسناء الصغيرة ، اني اقدم لك بافل ايفانوفيتش تشتشيكوف الذي حصل لي شرف التعرف عليه لدى الحاكم ومدير البريد .

وطلبت فيودوليا ايفانوفا من تشتشيكوف ان يجلس . ثم تابعت كلامها

مستعملة اللفظة نفسها التي يكررها زوجها « ارجوك » مضيفة اليها هزة خفيفة من رأسها كانها تريد ان تمثل دور الملكة . واخذت بدورهـــا مقعداً لتجلس عليه ثم سحبت شالها المصنوع من صوف الخروف ومكثت هكذا جامدة لا تنبس بحرف كالتمثال المنحوت .

وارتفعت انظار تشتشيكوف من جديد تتأمل في ساقي كوناري بوبيلينا وشاربيه الطويلين ، ثم في ذلك الشحرور النائم وسط قفصه . وساد السكون من جديد ودام مدة خمس دقائق لا يعكره الا ضربات منقاد عصفور هناك يلتقط فتات الخبز . والقى بافل ايفانوفيتش آخر نظرة على الحيطان ؛ حقاً لقد كان كل شيء ضخما غليظاً يشبه سيد المنزل شبهاً عظيما . وهناك في زاوية الصالة شاهد مكتباً ضخما له اربعة قوائم كأنها قوائم الدب . أجل كل شيء تنقصه الخفة او الروح اللطيفة ، فالمقاعد والكراسي والطاولة كلها غليظة سمجة ، بل كان كل شيء في الغرفة يبدو في منظره كأنما يقول « وأنا ايضاً سوباكيفيتش ... اني اشبهه تماماً » .

- لقد تحدثنا عنك لدى الرئيس ايفان كريجوريفيتش . قال ذلك اخيراً قاطعاً حبل الصمت المخيم ولما رأى ان احداً لم يقاطعه تابع : ولقد كان ذلك نهار الخميس السابق ، وقد قضيت عنده ساعة جميلة ، فرد سوباكيبفيتش .

ـ لم اذهب اليه في ذلك اليوم .

ـ انه لمحبوب ، فسأل سوباكيبفيتش وهو ينظر الى المدفأة .

من هذا ؟

الرئيس بالطبع !

ـ اوه ! ان احساسك بالاشياء سيء ، انه لحقير الى اقصى درجات الحقارة ، وشده تشتشيكوف عندما سمع منه حكمه ، ولكنه تابع :

- انه بطبيعة الحال لكل انسان اخطاء .. اما الحاكم .. فياله من رجل ممتاز .

ـ الحاكم ؟..

ـ اجل.

ـ احقر لص التقيت به حياتي ..

ـ الحاكم .. لص! صرخ بذلك تشتشيكوف وهو يكدذهنه ليفهم العدالة في هذا الحكم، ولكنه تابع: اقر لك باني مافكرت بهذا الامر بعد؛ ولكن هناك اعتراض ولتسمح لى به، ان الطريقة التي يعامل بها الناس هذا الحاكم تخالف زعمك.. بل اني اجده على العكس، اجده رجلا نظيفاً جداً.

واخذ تشتشيكوف يتحدث عن كيس النقود الذي طرزه الحاكم بيده الماهرة وانهى كلامه بالحديث عن اللطافة التي ترتسم على وجهه، فهتف سوباكيفيتش.

ـ انه وجه لص! اعطه سكيناً واتركه وحيداً في عرض طريق عام، فانه بلاريب سوف يقتل ويسلب الناس لأجل كوبيك واحد.. ومساعده طبعاً على غراره.

وخاطب بافل ايفانوفيتش نفسه:

« انهما ولاريب على خلاف، إذن فلأحدثه عن مدير البوليس، ولا اظن الا انهما صديقان.. » ثم تابع حديثه بصوت مرتفع:

ـ كل هذا لا يهمني، ولكني سأقول لك ان مدير البوليس رجل مثالي دون أدنى ارتياب... اخلاقه جيدة وقلبه نقي. فأجابه سوباكيفيتش ببرود:

ـ انه سافل منحط، يبيعك فيغشك، ثم لا يتورع عن قبول العشاء معك. اني أعرف الكل، وان سكان المدن جميعهم يتألفون من السفالة والانحطاط ويمكن استثناء واحد من جميع هؤلاء، اخلاقه حسنة وهو النائب، ولكنه مع ذلك فصعل.

وقضيا بعد ذلك وقتاً في تصفح رجالات المدينة الممتازين؛ وادرك

تشتشيكوف اثناء ذلك ان صاحبه يستحيل عليه ان يتكلم عن الآخرين دون ثلبهم .

ـ أرجوك

وهكذ اعاد سوبا كيبفيتش تلك اللفظة الخالدة وهو يشير الى الطاولة . واقترب بافل مع صديقه منها وكانت تحوي على كثير من انواع المقبلات ، حيث تناولا قدحين مترعين من الفودكا واخذا يكيلان لبعضها الالفاظ اللطيفة ترافقها الخدمات الخفيفة التي يستدعيها جو المائدة ، كما هو الشأن تماماً في جميع المدن والقرى الروسية على العموم . وعادا بعد ذلك الى غرفة المائدة . فافتتحت فيودوليا ايفانوفا الحديث واندست في حلقة المجلس كالاوزة .

وقرب المائدة الصغيرة لغرفة الطعام كان يوجد اربعة امكنة للجلوس ، وكان رابع الامكنة مشغولاً بامرأة ، ويمكننا تمييز هـــذه المرأة ، ولكن بصعوبة : انها فتاة او امرأة صغيرة ، من ارباب المنزل او من اصدقائها ، رأسها عار من كل شيء ، تبلغ الثلاثين تقريباً ، وثوبها ذو لون غريب يلفت النظر . يوجد في الكون اشخاص لا يعدون كبقية الاشياء المعروفة ، بل يبدون كأنهم عثرات ، فيشغلون نفس المكان ويحركون رؤوسهم دوماً حركات معينة . قد يرغب بهم من يرغب كقطعة من الاثاث في المنزل ، فهم دوماً ساكتون هينون ، ولكن لو تبعتهم الى مخادع الفتيات ، والدوائر ... فانك بلا ريب ستجد لهم لساناً

ـ هذه الشوربة . شوربة الملفوف ممتازة اليوم ايا روحي الصغيرة . قال ذلك سوباكيبفيتش وهو يتناول الـ (نيانيا) وهي الوقعة المعروفة بمرافقتها الدائمة للشوربة على المائدة وتصنع من أضلاع الخروف وقوائم العجل والمخ مع قليل من الحنطة . تابع سوباكيبفيتش كلامه بعد ذلك وهو يلتفت نحو تشتشيكوف : انك لن تجد (نيانيا) كهذه في المدينة ان الشيطان وحده يعلم ماذا يعطونك هناك ، فأجاب بافل :

- لقد ظهرت لي المائدة جيدة عند الحاكم .

- أتعلم كيف يطبخون هناك ... لو أعلمتك بذلك فانك لن تقوى على الطعام مطلقاً .

- انا أجهل بالطبع كيف يطبخون ... ولكن أضلاع الخنزير التي قدمت لي عندهم والسمكات مما يشتهى كثيراً .

- إنها لتبدو لك حسنة ... ولكن أنا الذي يعلم ماذا يشترون وكيف يطبخون . ان طباخهم السافل الذي تعلم مهنته من الفرنسيين يذبح القطة ويقدمها لك على انها أرنبة . وهنا قاطع سيد المنزل زوجته .

- اسكتي ياللخجل ..

- لماذا ، اني لاقول الواقع .. وتلك ليست غلطتي ... ان جميع مايرمي به اكولكا ، ولتسمح لي ان اقول هذا ، في البئر من الاوساخ ، يجد طريقه حالاً الى داخل الحساء ... ذلكم هو الحساء الذي يقدم هناك ، وعلق سوباكيفيتش :

- انك .. انك لاتتحدثين على المائدة الا عن هذا ... ثم كرر .

- ولكن ايتها الروح الجميلة ، فكري لو صنعت مثل هذا فاني لن آكل ابداً والآن ضمي السكر على الضفادع ، فاني لما المسها بعد .. وانت يابافل ايفانوفيتش تناول من هذا الخروف فهو لذيذ جداً مع الكاشا ، انه ليس بذلك اللحم المرعب الذي يبدو كما لو انه صنع في مطابخهم القذرة الغنية بالاغنام التي انقضى عليها اربعة ايام فوق مفرش المسالخ ... ولا ضير في هذا فان الاطباء الالمان والفرنسيين هم الذين اخترعوا هذه الطريقة ... ان هذه الاغنام لتموت جوعاً طيلة هذا الوقت قبل ان تذبح وتغلى على النار ، ان الامعدة الالمانية تناسبها هذه الطريقة ولكن أمعدتنا الروسية قاسية جداً فانها لاتسر بمثل هذه الطريقة ولا ترضى عن هذا (الريجيم) الذي يجريه هؤلاء النعس على تلك الحيوانات ... ان

مثل هذه الطرق لاتصلح لي ... وهنا قام سوباكيفيتش بحركة عنيفة وتابع ، كل هذا يسمونه : التهذيب والثقافة : اما انا فعندما يكون لدي خنزير ،فيجب ان آكله بأجمعه وقس الامر نفسه بالنسبة للخروف أو الاوزة أو ماأشبه ،وعندما آكل صحنين فيجب ان آكلهما بشهية حسنة.

ووضع سوباكيفيتش هذا المبدأ موضع التنفيذ فأهال فوق شوكته نصف مافي صحنه وقذفه في فمه الواسع، وسرعان ماذاب اللحم داخل ذلك الفم العريض ولم يبق فيه غير العظام . وفكر تشتشيكوف .

- ان معدة هذا الرجل حقاً جيدة .

وتابع سوباكيفيتش وهو يمسح يديه بفوطة السفرة .

- وعندي هنا لا يحدث كما يحدث عادة عند بليوشكين . فهذا الرجل يملك ثمانمائة نفس ويأكل مع ذلك اقل مما يأكل اصغر ابناء ملتزمي الاراضي التي ملكها .

وسأل بافل :

- ومن يكون بليوشكين هذا ؟

- لص بخيل ، يكاد لا يراه الناس الا لماماً : اما فلاحوه فانهم يموتون من الجوع .

- أحقاً ؟ وبدا الاهتمام على تشتشيكوف : وتقول ان هؤلاء العبيد يموتون بعدد وفير ؟ فأجاب سوباكيوفيتش :

- انهم يموتون كالحشرات وبالجملة .

- كالحشرات ... وهل هو يقطن بعيداً من هنا ...

- على مبعدة خمسة فرستات فقط .

- فقط ؟ ولكن قل لي ، عندما أغادرك كيف استطيع الوصول اليه ، أمن جهة اليمين أم الشمال ؟

ـ لا أنصحك بالذهاب إلى مثل هذا الكاب الحقير ، وانه لأحسن لكلينا ان نذهب إلى منزل سيء السمعة مشبوه من أن ندنس أقدامنا بمنزل بليوشكين.

وقال بافل ايفانوفيتش :

- اوه ! سأدرس هذا ... وسأهتم بكل شيء .

وبعد الانتهاء من صدر الخروف جاء دور الجبن بالكريما وقد طفح بها الوعاء ، ثم بعد ذلك جاء دور الديك الهندي الضخم وقد خلط به البيض والأرز وجميع المنتجات الحيوانية ، وكان هذا هو الطبق الاخير . ولم ينهضوا من الطاولة إلا عندما شعر تشتشيكوف بانه أصبح أرزن مما كان بكثير .

وسار الجميع إلى الصالة حيث كان على الطاولة وعاء مليء بالحلويات المختلفة ، ولما لم تجد ربة البيت غير صحفة واحدة خرجت لتأتي بعدة صحاف اخرى . واستغل تشتشيكوف فرصة غيابها وقال لسوباكيفيتش :

ـ هناك عمل اريد ان أحادثك في شأنه . وكان سوباكيفيتش آنذاك قد استرخى فوق مقعده الوثير وأخذ يشخر من انفه بضجة مزعجة حاول ان يخفف من حدتها بوضع يده على فمه .

هاهي الحلوى . قالت ذلك سيدة البيت وهي تدلف إلى الصالة في تلك اللحظة ، أن هذه الحلوى مصنوعة من الفجل والعسل . فأجابها سوباكيفيتش .

ـ سنأكل بعد حين . اذهبي الى غرفتك الآن ، لأننـــا سنخلع ملابسنا ونتمدد قليلاً .

وأرادت فيودوليا ان تأتي ببعض الوسائد للاستناد ولكن زوجها اوضح لها ان الامر لايحتاج الى هذا وانهما سيكتفيان بالتمدد على المقاعد ، فخرجت آخر الأمر دون ان تبدي أي اعتراض .

وأرخى سوباكيفيتش رأسه منصتــاً الى صديقه ، واستعد تشتشيكوف لدخول الموضوع بصورة غير مباشرة . فتحدث عن الروسيا ومدح عظمتهـــا

وذكر ان الامبراطورية الرومانية نفسها لاتضاهيها عظمة... حتى ان الاوروبيين وغير الاوروبيين من الاجانب يندهشون لعظمتها ... » وكان سوباكيبفيتش أثناء ذلك ينصت وهو منحني الرأس » وتحدث عن القوانين الراقية التي لا يوجد مثلها في بقية الدول ، وتحدث عن العبيد الذين يتابعون وجودهم على الأرض في قائمة الاحصاء بعد ان يموتوا إلى ان يحل الاحصاء الجديد «وكان سوباكيبفيتش اثناء ذلك ينصت وهو منحني الرأس » وهذه بطبيعة الحال ثقيلة على الملاكين لأن عليهم أن يدفعوا الضرائب عن النّفوس الميتة كما لو كانت حية . ثم ان تشتشيكوف بالنتيجة اكراماً لصديقه العزيز سوباكيبفيتش وإعزازاً له سيحاول أن يتحمل عنه بعض هذه الضرائب .

حقاً ان بافل ايفانوفيتش قد تكلم بكثير من التبصر والاناة فيما يتعلق بالغرض الاساسي الذي جاء من اجله ، والدليل على ذلك انه شمل في حديثه جميع النفوس المفقودة لاالميتة فحسب .

كل هذا وسوباكيوفيتش ينصت منحني الرأس دون ان يتحرك أو يغير من تعبير وجهه ، فظهر وكأنما غادرت روحه جسده ؛ وسأل تشتشيكوف :

– والآن ماذا تقول ؟ وظل صامتاً ينتظر الرد باضطراب .

– أأنت تحتاج الى نفوس ميتة؟ كانت هذه العبارة الصادرة من سوباكيبفيتش مصحوبة بنبرة طبيعية جداً كأنما الحديث يتعلق بشراء الحنطة وأجاب بافل.

– أجل : ثم رقق من عبارته :« نفوس غير موجودة »فقال تشتشيكوف:

– سنوجدها .. ولم لا ؟

– في هذه الحالة سيكون سرورك عظيما بلا ريب اذا تخلصت منها .

– اني على استعداد تام لبيعك تلك النفوس : قال ذلك سوباكيبفيتش وهو يرفع رأسه قليلاً الى الاعلى إشارة الى انه يتربص بالشاري حذر أن يدفع بعملية الشراء لصالحه الخاص .

وقال تشتشيكوف نفسه .

– باللتوفيق الرائع ، انه مستعد للجميع دون ان يطلب أي تفسير أو تعليل، وأضاف بعد ذلك بصوت مرتفع : ماهو السعر الذي يناسبك في هـذه البضاعة الغريبة .. فأجاب سوباكيفيتش .

– لست مبالغاً أبداً اذا طلبت منك مائة روبل بدلاً عن كل نفس ميتة ، فزعق تشتشيكوف وقد صعق دهشة .

– مائة روبل ! وثبت عينيه في وجه صديقه آملًا بينه وبين نفسه ان يكون سمعه قد خانه ، أو ان لسان سوباكيفيتش تعجل بذكر رقم دون رقم .

– يبدو ان السعر لايناسبك ، إذن ماهو الثمن الذي ترتأيه ؟

– ماذا ! الثمن الذي ارتأيه ؟ اعتقد ان هناك سوء تفاهم كبير بلاريب .. لعلنا لم نفهم بل اننا نسينا مادة الشراء .. أقول لك صادقاً ان ثمانية (كريفين) سعر مرتفع جداً في نظري .

– ماذا تريدني ان اعمل بثمانية (كريفين) .

– اني بعد تفكير عميق في الامر اقول انه لايمكن ان اضيف عليها شيئاً .

– واني لست ببائع احذية .

– عفواً .. انا لااساومك على النفوس الحية .

– اذن جد الاحمق الذي يقبل ان نبيعك بثمانية كريفين نفساً مسجلة في لائحة الاحصاء والمراقبة .

– ولكن هذه النفوس لاعلاقة لها بالاحصاء .. انها ماتت منذ زمن بعيد، ولاتعترف بوجودها الا دائرة جباية الضرائب التي عليك ان تدفع لها .. هـذا وليس لدي مااريد سوى ان اقبل بدفع روبل ونصف الروبل فقط .

– افلا خجلت من عرض مثل هذا الرقم ، قـل انك لاتريد الشراء .. أو حدد ثمناً مواتياً .

– تستحيل علي الزيادة ، لا استطيع .

ولكنه مالبث ان اضاف خمسين كوبيكا عندما لاح له ان صيغ الاستحالة التي تكرم بها لم تنفعه شيئاً ، وقال سوباكيوفيتش .

– ولكن لم انت بخيل الى هذا الحد ؟ حقاً ان السعر الذي اطلبه ليس مرتفعاً انه لو وجد آخر غيري وأراد ان يبيعك من مثل هذه البضاعة فانه سيغشك بلا ريب ويعطيك أخس القاذورات بدلاً من النفوس .. ان بضاعتي نسيج وحده وعندما لايكون البائع حازماً فيجب ان تكون لديه بضائع اخرى من نفس النوع !.. ولتنظر ذلك بنفسك ان صانع العجلات ميشيف ..يعمل العجلات كابرع صناع بل ان الروسيا كلها لاتحوي رجلاً في مثل حذقه وسرعته ..فانه في ظرف اربع وعشرين ساعة ينهي عمله .. لالا !.. انها لقساوة !.. ويضاف الى ذلك انه يطلي العربات بنفسه ويزخرفها .

واراد تشتشيكوف ان يقاطعه ليوضح له ان ميشيف هذا قد مات ومر على موته زمان ليس بالقصير ، ولكن ما من شيء يمكنه ايقاف سوباكيفيتش الذي اصبح ثرثاراً تنساب من فيه الكلمات دون توقف ..

– وثم النجار وكاستيبان ، اني لأقدم رأسي للقطع إذا ماوجدت فلاحاً من قيمته ، ياله من بطل ! لو كان حذراً فقط ، إذن فالله وحده يعرف الحد الذي سيصل اليه في بطرسبرج . ان طوله يبلغ مترين وثلاثة عشر سنتمتراً .

وأراد تشتشيكوف ان يقول ايضاً ان بروكا هذا ايضاً من عداد الاموات ولكن سوباكيفيتش كان في حالة فيض فلا شيء يمكن ايقافه عند حده فكل ما يمكنه العمل هو الانصات اليه .

– وفلاحي ميلوشكين ! العامل الذي يعرف صناعة المدافيء !.. وصانع الاحذية ماكسيم تيليانيكوف ياله من صناع ماهر ويالها من جلود وأحذية ! وهو رجل صالح لم يشرب الفودكا قط ! ولنتكلم ايضاً عن ايرمي سوروكوبليوشين ،

فهذا رجل عجيب يعرف كل شيء ويجيد اي عمل . وقد عاد من موسكو مرة وفي خرجه خمسمائة روبل قدمها لسيده ... انهم رجال ! وليسوا رجالاً اولئك الذين يبيعكهم بليوشكين .

ـ ولكن اسمح لي ، علق بهذه العبارة تشتشيكوف الذي أتعبه جداً هذا السيل المتواصل من الكلام الذي بدا له ان لا نهاية له .. لماذا تعدد لي صفاتهم؟ فهم لن يصلحوا لشيء طالما انهم في عداد الاموات !

ـ طبعاً ... لقد ماتوا ... أجاب بذلك سوباكيفيتش وقد تذكر تلك الحقيقة المرة واظهر أسفه الشديد لمفارقتهم ... ثم تابع : ولكني اقول لك ان هؤلاء الاحياء الباقين ... هؤلاء الذين يحسبون أحياء ... انهم حشرات ... انهم ليسوا رجالاً .

ـ ولكنهم على الاقل يعيشون ... بينما الآخرون ليسوا سوى أحلام

ـ ابداً ابداً ... ميشييف لامثيل له ! أهو حلم ؟ ان في كاهليه من القوة مالا يملك الحصان مثلها ... جد لي إذن حلمـــاً من هذا الطراز . وعاجله تشتشيكوف بقوله :

ـ لن أعطيك اكثر من روبلين .

ـ ايها العزيز ، يجب الا اتهم باني طلبت منك ثمناً فاحشاً وباني ماتصرفت معك كصديق صدوق ، لذلك أرى لزاماً علي ان أتنازل لك عن النفوس لقاء مئتين روبلاً عن كل نفس ، وهذا التساهل الذي قد يدهشك انما هو من قبيل الصداقة فقط .

ـ أتحسبني ابلهاً إلى هذا الحد ، قال ذلك تشتشيكوف ثم أردف بصوت أجش : حقاً ان هذا غريب ويبدو لي اننا نقوم بتمثيلية هزلية . انت امرؤ ذكي أريب نشيط ، ولكن لننظر ... فانك لاتبدو هنا الا تاجراً خيالياً ... ماذا تساوي هذه النفوس ؟ انه مامن انسان بحاجة اليها .

– عفواً ، انت تريد شراءها ، فانت إذن تحتاجها !

وعض بافل ايفانوفيتش على شفتيه بحنق ، ولم يدر بمـــاذا يجيب . ثم أخذ يتحدث عن ظروفه العائلية ومشاغله الحاضرة التي تملأ جميع اوقاته . غير ان سوباكيفيتش أجاب بكل بساطة :

– لست اهتم بمعرفة مشاغلك الحاضرة وظروفك العائلية ،فهي لاتهم سواك ولا تدخل إلا تحت تمحيصك . ان ما أفهمه فحسب هو انك تريد ان تقتني نفوساً ، وانا أبيعك اياها .. أتريد ان تعتذر عن شرائها ... فأجاب تشتشيكوف :

– روبلان

– ألا تريد ان تخرج عن روبليك هذين ، هيا واطرح رقماً آخر .

وفكر تشتشيكوف : ليأخذه الشيطان . سأضيف له خمسين كوبيكا. وقال بصوت مرتفع .

– لا بأس ، ليكن الثمن روبلين ونصف .

– اما من جهتي فان السعر الاخير الذي اعرضه عليك سيكون خمسين روبلا . فأنا الذي يضيع على نفسه ... انك لن تجد ابداً بضـــاعة جيدة بهذا السعر البخس .

– « باللفظاظة » قال ذلك بافل لنفسه ثم اضاف بشيء من الغضب :

– انني اشتري وكأنما في الامر ما يهم ... الا تعلم باني آخذ هذه النفوس للاشيء ... ان الجميع سيكونون سعداء بالتخلص منها ... حقاً يجب ان اكون من الحيوانات كي احتفظ بهم وادفع الضرائب عنهم .

– فأنت إذن لا تعلم بتحظير مثل هذه المشتريات ـ اني اقول ذلك فيما بيننا وعلى سبيل الصداقة ـ واني ، سواء أتحدثت انا بها او تحدث بها شخص آخر . فان الرجل الذي يشتغل بها يفقد كل ثقة عند التجار ؟ فلا يعقدون معه اي اتفاق ، كما انه يخسر عمله التجاري .

وفكر بافل ايفانوفيتش :

– ايه : لقد قبض على زمام الامر ، هذا الماكر اللعين . ثم قال ببرود :

– كما تشاء ، ولكني لم ارغب بشراء النفوس لاني اجد ذلك ضروريا ، كما ظننت ، بل لتحقيق بعض الافكار . افلا تريد روبلين ونصف ، اذن الى اللقاء .

– وفكر سوباكيفيتش : لايمكن ان نعمل معه شيئاً .

– هيا سأدعها لك بثلاثين روبلًا عن كل نفس ، خذها ولا تدع هـذه الفرصة تفوتك .

– مستحيل ، ارى انك لا تود بيعها ، استودعك الله .

– اسمح اسمح لي ، زعق بذلك سوباكيفيتش وهو يجذب تشيتشيكوف من يده ويدوس في نفس اللحظة على قدمه . وتشاء الصدفة ألا يحترس بطلنا للامر فدهست قدمه واطلق صرخة حـادة ثم جعل يقفز على قدم واحدة بألم واضح .

– سألتك الصفح ياعزيزي ... هل سببت لك ألماً حقاً ؟ ارجوك خذ مكاناً هناك ... ارجوك .

واجلسه بحذر شديد ولطافة متناهية كدب متأدب علموه كيف يعمل الحسنى ويجيب بطريقة عملية على امثال هذه الاسئلة « أرنا ياميشا كيف تغتسل النساء في الحمام ؟ – ميشا ، ماذا يعمل الاشقياء عند سرقة الحمص ؟ »

وقال تشيتشيكوف :

– لقد اضعت وقتاً ثميناً يجب ان أذهب .

– دقيقة واحدة ... سأقول لك شيئاً لطيفاً ، واقترب سوباكيفيتش من صديقه وهمس في اذنه : ايعجبك ان تدفع ورقة صغيرة عليها صورة البطة ثمناً لكل نفس ؟

ـ خمسة وعشرون روبلا ... اني لارفض ربع هـذه الورقة الصغيرة ... ولن أزيد كوبيكاً واحداً على ما دفعت .

وخمد سوباكيفيتش وظل تشيتشيكوف ساكناً ينتظر ، ومرت دقيقتان وقال بعد ذلك سوباكيفيتش :

ـ وما هو السعر الاخير الذي ستدفعه ؟

ـ روبلان ونصف .

ـ ألا تساوي نفس الانسان عندك اكثر من ذلك ؟ ليكن ثلاثة روبلات

ـ مستحيل .

ـ لايمكن عمل شيء معك .. ليكن لك ذلك ! لا ريب في اني اخسر .. ولكن لي ميزة كلب . ولا استطيـع الا ان أسر صديقي .. ولكي يكون كل شيء قانونياً فاننا نحتاج الى عقد للمبيع .

ـ طبعاً .

ـ ان هذا مضجر ... إذ علي ان أذهب الى المدينة .

وهكذا انتهى الجدل واتفق الصديقان على اللقاء في المدينة صباح الغد عند مسجل العقود للختم على انتقال ملكية تلك النفوس . وطالب بافل بقائمة اسماء العبيد فسار سوباكيفيتش الى مكتبه ليكتب اسماء تلك النفوس الميتة وصفاتها جميعاً . واخذ تشيتشيكوف اثناء ذلك يتأمل في عرض كتفي سوباكيفيتش و كان لظهر هذا الاخير ضخامة ارداف الجياد ، أما ساقاه فيشبهان اوتاد التخوم الغليظة التي توضع على الارصفة . ولم يقو بافل على كتم ماهتفت به نفسه « حقاً ان العناية الالهية من صفك .. هل ولدت دباً ام انك أصحبته بالعيش في جوف هذه الولاية ، مع حقول قمحك وفلاحيك حيث اعادتك المؤالفة امرءاً غليظاً ؟ لا ! انك دب منذ الوقت الذي نشأت فيـه على طراز بطرسبرج ورشقت في هذه الحياة الدنيا لتلك العاصمة رشقاً . ولكن الفرق هو انك هنا تبتلع طبقاً

مليئاً بالكاشا مع صدر خروف بعد تناول المقبلات ، امــا هناك فطعامك شطائر من الكمأة . انك هنــا سيد عدد من العبيد وعلاقتك بهم جيدة ولا تستطيع الا ان تعاملهم بالحسنى وإلا رموا بك على قمة رأسك بطريقة من الطرق . اما في بطرسبرج فانك ستكون تحت الاقدام تطيع جميع الاوامر الملقاة اليك وتسعى لارضاء مرؤوسيك بأية وسيلة . ان الرجل الغليظ لن يعرف السرور الى قلبه سبيلاً هناك ، ويحسن به ان يكون جاهلا ، لانه اذا ماتثقف وتعرف على علم من العلوم واراد ان يكون حاذقاً فيه ، فان التعاسة سيجدها تنخر في اعماقه .

قال سوباكيفيتش وهو يلتفت خلفه :

لقد انهيت القائمة .

ــ حسناً ، اعطنيها .

وتصفحها بافل ايفانوفيتش معجباً بنقاوتها من كل شائبة ؛ مامن شيء ينقصها فقد ذكرت المهنة والاسم والعمر والوضع العائلي ، حتى المحافظة على القانون وحسن السيرة قد ذكر عــلى هامش خاص باخلاق الفلاحــين ، وقال سوباكيفيتش .

ــ ستعطيني سلفة مقدماً .

ــ ولماذا ؟ سأعطيك كامل المبلغ عندما تمهر العقد غداً .

ــ ولكن العادة في المعاملات هنا تجري هكذا .

ــ لست احمل دراهم كثيرة .. اليك هذه الروبلات العشر .

ــ عشر روبلات ! يجب ان تدفع لي خمسين على اقل تقدير .

واراد بافل ان يتمنع ولكن سوباكيفيتش عاجله بقوله :

ــ معك بطبيعة الحال الكفاية فمن العبث ان ترفض ، فقال تشتشيكوف اخــيراً :

– هاقد وجــــدت لك خمسه عشر روبلا آخر فيصبح مجموع مامعك خمسة وعشرين روبلا ، اعطني بها وصلا .

– ماذا تفعل ؟

– ان الايام اتتعاقب على غير تشابه .. ولا احد يدري مايمكن ان يحدث في الغد .

– ليكن ذلك ، اعطني الدراهم مقدماً .

– ولماذا ؟ هاهي ذي معي وعندما استلم الوصل سأعطيك المبلغ .

– كيف تريدني ان اكتب لك وصـــلا باستلامي خمسة وعشرين روبلا دون ان أراها ؟

ورمى تشتشيكوف بالمبلغ فوضعه هذا فوق مكتبه ووضع فوقه يده الغليظة وحرر بعد ذلك وصلا بانه استلم مبلغ خمسة وعشرين روبلا كدفعة على الحساب ثمناً لمبيع النفوس الميتة .

وبعد ان مهر الوصل بامضائه اخذ ينظر في الاوراق المالية متفحصاً ثم قال وهو يقترب من النافذة :

– ان هذه الورقة المالية مكتهلة قليلا ويمكن ان تتمزق بسهولة ، ولكن ليس لهذا اهمية بين الاصدقاء ، وقال تشتشيكوف في نفسه ·

– ياله من رجل غليظ وحيوان قذر .

– الا تريد نساء .

– لا وشكراً .

لن اطلب بها غالياً . يكفي روبل واحد عن كل امرأة .

– لاارغب بهذا الجنس .

– فلنوقف الكلام في هذا اذن ، ثم ان الواحدة كما يقول المثل تحب الكاهن بينما تحب الثانية زوجها ·

وقال تشتشيكوف وهو يخرج .

ـ اريد منك طلباً اخيراً ، وهو ان يظل هذا الامر سراً بيننا فقط.

ـ يستحيل ، بالطبع ، ان يعلم به ثالث ، ثم اني لا اريد مايفرق بين صديقين حميمين ، الى اللقاء وشكراً لزيارتك اللطيفة ، ولا تنس اخيراً ان تأتي للغذاء عندنا عندما تجد في وقتك متسعاً ، صدق اننا سنسر كثيراً .. كما يمكننا ان نقدم لبعضنا بعض الخدمات .

« طبعاً طبعاً .. قال ذلك تشتشيكوف نفسه وهو يمتطي العربة ، ان هذا اللص هذا الحيوان القذر ، قد أخذ مني مبلغ روبلين ونصف ثمناً للنفس الميتة».

انه يقصد سوباكيفيتش بكلامه هذا بطبيعة الحال ، وهو مع ذلك يجب ان يعتبره صديقاً له ، لانه التقى به عند الحاكم وعند مدير البوليس ، ولكن هذا الصديق عامله معاملة الغرباء .. لقد اخذ منه المال ثمناً لجيف منتنة !وعندما اجتازت العربة ساحة الدار التفت بافل الى الخلف فلمح سوباكيفيتش واقفاً على الدرج كما تركه وبدا كأنما يريد ان يعرف وجهته ، ولم يستطع إلا ان يخرج من بين اسنانه هذه الكلمات « هذا السافل المنحط مازال هناك » وسلم مقاليد السير لسيليفان الذي انحدر نحو اكواخ الفلاحين كي لا تقع انظار سيد المنزل على وجهة العربة في تسيارها الجديد . انه يريد ان يعود الى بليوشكين حيث يموت عنده العبيد كالحشرات وبالجملة. ولكنه مع هذا لا يرغب في ان يراه سوباكيفيتش . وعندما وصلت العربة الى اول القرية دعا احد الفلاحين وكان يحمل على كاهليه جسراً غليظاً .

ـ ايه انت ، ياصاحب اللحية الغليظة كيف نتمكن من الذهاب الى منزل بليوشكين دون ان نمر بمنزل ذلك المعلم وتوقف الفلاح وبدا كأنه لا يعرف كيف يجيب .

– الا تعرف ؟

– لا ... لا اعرف المعلم .

– وشعرك مع ذلك اشيب ! أو لا تعرف بليوشكين البخيـــل ... انه لا يأكل رجاله إذن .

– آه ! رجل الخرق البالية، ذلك (المرقع) . ثم اضاف الفلاح كلمة يستحيل علينا التصريح بها .

ويستطيع القارىء بلا ريب ان يتنبأ بقيمة جمـال تلك الكلمة . ولكن تشتشيكوف ظل داخل العربة طويلاً وقد ارتسمت على شفـاهه ظل ابتسامة . حقاً ان الشعب الروسي يملك تعابير قاسية . ولقد كان ذلك الفلاح من اصحـاب النية الحسنة ، وكانت نيته تلك ترافقه ابداً اينما سار ، في الجندية او في بطرسبرج او في المنفى . ان الكلام الذي يصيب الهدف انما هو كالكتابة الخالدة ، وهذا وحده هو مايجعل الروسيا بارزة واضحة ، الروح الروسية الحقيقية الحية والقوية ، وهذه الروح بتلك الميزات تبرز اكثر من الروح الالمـانية تلك الروح الطوعية التي تضمر كل شيء ... أجل يستحيل ان نضيف اي صفـــة او خط الى هذه الصورة ، فقد ارتسم الرجل الروسي فيها من قنة رأسه حتى اخمص قدميه .

ان القديسين والنبلاء في روسيـــا يملكون عدداً من الكنائس والاديرة والصلبان والقباب والاجراس يكاد لايحصى ، ويملكون الى جانبه عدداً محترماً من الانسال والشعوب والعروق يموجون كلهم فوق هذه البسيطة . ويحمل كل من هذه الشعوب امكانيات خالقة ، ويعتز بشخصيته ، وبتلك المعطيات الآلهية التي يملكها وهو يثري العالم بطرائقه الطريفة في القول الذي يوضح ميزاته . ان الانكليزي يبرز ثقافته المتوازنة مع الحياة ، والفرنسي يظهر حماسه الفني الطافر ، والالماني يتأمل في علومه طويلاً وبعمق بعيد الغور ، ولكن ما من شعب يملك هذه الصرخة الصادرة من القلب ، العريضة الواسعة ، الحية المدوية ، واعني بها تلك الكلمات الانيقة التي تميز الشعب الروسي .

الفصل السادس

منذ زمن بعيد عندما كنت صغيراً اذكر اني أثناء سني طفولتي التي مرت علي نهائياً كان كياني كله يتوثب فرحاً عندما أصل إلى بلد جديد لا اعرفه ، مدينة كانت أو قرية فقيرة ، او ضيعة او اي شيء آخر . وكانت نظراتي الفضولية الباحثة لا تكاد تنقطع عن التطلع والاستكشاف ، لقد كان كل بناء في نظري بل كل شيء على الاطلاق يحمل في طياته ميزات خاصة ، مؤثرة ، وكل هذا كان يؤثر في ويدهشني. فالعمارة الحجرية بنوافذها المعوجة وعزلتها الحزينة بين المنازل البورجوازية وبقبتها المستديرة السامقة الثابتة ، وكذلك الكنيسة الجديدة البيضاء كالثلج وسوق القرية الانيق الذي يضيع في المدينة ، كل هذا وغيره لا يستطيع ان يفلت من انتباهي الدقيق المركز . حتى شكل الثوب الجديد الحديث التفصيل كنت اتأمل فيه ملياً . وكذلك الشأن في الصناديق الخشبية المليئة بالمسامير والكبريت والكافور والعنب الحديث القطوف والصابون وغير ذلك من الاشياء المخفية كلها وراء واجهة التوابل قرب قطرميزات البونبون المستوردة من موسكو . كما اني لم أغادر بانظاري اي موظف جاء حديثاً ، وكم كنت اقول لنفسي عندما اشاهد بائعاً يختفي في عربته بسرعة : أين سيذهب؟ إلى اخيه ام إلى مكان يقضي فيه السهرة ؟ ام انه سيذهب إلى بيته حيث يجلس

قراءة النصف ساعة على الدرج حتى يبين الغسق ، ثم يقوم ليتناول وجبة طعامه المسائية مع أمه وزوجته واخته الحسناء وبقية أفراد عائلته ؟ وبماذا ، ترى ، سيتكلم الجميع عندما تلبس الخدم قلادتها الزجاجية او حين يظهر ابن متعهد الارض بقميصه الفضفاض يحمل بعد تناول الحساء شمعة مثبتة فوق شمعدان دبت في أوصاله الشيخوخة لكثرة الاجيال التي مرت عليه .

وعندما أصل امام ضيعة صغيرة لأحد الملاكين آخذ بالتأمل في القبة الخشبية العالية حيث تقوم الكنيسة القديمة ، المتسعة ، ذات الخشب القاتم. وكنت أرى في البعيد وسط النباتات الكثيفة المتشابكة أعمدة السقوف الحمراء والمداخن البيض الخاصة بمنزل السيد ، كل هذا كان يجلب مني النظر ، وكنت ازاء هذه الرؤى انتظر بصبر نافذ ان تنبسط الحقول من الجانبين لتسمح لي برؤية القصر بقضه وقضيضه حيث يبدو الكل في وحدة جميلة وتعود من جديد نفس الاسئلة للخطور : من يكون هذا السيد أهو كبير ، وهل له اولاد ذكور وحوالي نصف دزينة بنات ، يضجون بضحكهم وألعابهم ، وهل اصغرهم جميل حقاً وهل للجميع عيون سوداء جميلة ، وثم ... والدهم نفسه ، أهو رجل بشوش ام عابس مقيت كأواخر ايام ايلول ، وهل أنفه مدسوس ابداً خلف روزنامته يسئم الصغار باحاديثه التافهة عن العلف والقمح والشعير ؟؟

اما اليوم .. عندما كبرت فاني لم أعد اهتم لشيء في رحلاتي امام مدينة حديثة بل اني انظر اليها دون أي اعتناء ، حقاً ان نظراتي تجلدت وقد كدت أنسى كيف ابتسم ، وهذا الذي كان يثير في وجهي قديماً امارات الارتعاد والرجفان ، كضحكة سارة وخطابات واشارات لانهاية لها ، اصبح الآن مرذولاً عندي فأبقى واقفاً أمامه صامتاً باكتئاب ، فآه .. ياللطفولة ويالغضارتها .

لقد كان تشتشيكوف إذن داخل عربته يفكر مبتسما في هذا اللقب الذي

اضفاه الفلاح على بليوشكين ، ولم يلحظ ابداً انه وصل بعربته الى قلب قرية متسعة فيها كثير من الطرقات والاكواخ ، و كانت صدمة قوية قاسية أعادت تشتشيكوف الى معرفة هذه الحقيقة ، ذلك ان تشتشيكوف بينما كان يمد رأسه من النافذة اذا بالعربة تتقلقل ثم ترتفع وتنخفض بسرعة أثناء سيرها فكانت تلك اللطمة التي حطت فوق جبهته بقوة جعلته يقضم لسانه الممدود باسنانه دون ان يكون لارادته دخل في هذا الموضوع ، وهنا شاهد تشتشيكوف نفس الجو القديم المهيمن على اكواخ تلك القرية ، فأخشاب هذه الاكواخ مثلاً قاتمة عفنة وكثير من ركائز السقوف مثقوبة بوساعة لكثرة مانغل فيها السوس وكان بعضها لايحمل غير العوارض الداخلية كما كانت بعض الوصلات الخشبية مسندة برداءة الى مساند غير صالحة لمثل هذا ، وبدا الامر وكأنما فيه للفلاحين ارادة إذ الظاهر ان هؤلاء الفلاحين بدوا كأنما خلعوا بانفسهم تلك الالواح من على السطوح حاسبين ، وهذا صحيح ، بان اكواخهم لم تعد تستطيع الصمود امام الامطار .

كانت نوافذ تلك الاكواخ خالية من الزجاج ، و كان بعضها مسدوداً بقطعة من القماش او من الحصير . وقد شيدت بعض الشرفات على الاكواخ لسبب ما لايكاد يعلم به احد ، و كانت كلها معوجة يسيطر عليها سواد حزين . و كانت صفوف من الطواحين خلف هذه الاكواخ مهملة منذ زمن بعيد بلا ريب ، و كانت اكداس القمح مصفوفة بلونها القرميدي وقد تخللها العفن ، وقد نمت الاعشاب تحت هذه الاكداس فاقلقتها من مكانها قليلا ، ان هذا القمح ملك لسيد القرية بلا ريب ، وخلف هذا المكان كانت توجد اكداس اخرى من القمح وبعض الركائز التالفة و كنيستان منتصبتان نحو السماء برأسيهما المتناظرين و كان تشيتشيكوف يراهما في عربته السائرة تارة من جهة اليمين واخرى من اليسار حسب دوران العربة ، وهاتان الكنيستان كانتا فارغتين

والاولى منها مبنية من الخشب اما الثانية فبناؤها من الحجارة وحيطانها صفراء قذرة . ثم بدت جهة من منزل سيد القرية وبعد ذلك ظهر البيت برمته خلف صفين من الاكواخ وبستان محاط بسور منخفض مهدم من جميع اركانه كان هذا القصر الغريب يشبه البائس الكسيح بطابقه الوحيد وسقفه المظلم ، وقد شيدت عليه شرفتان باخ لونها . وكانت حيطان هذا المنزل تسمح برؤية الصفائح الخشبية التي زينت في عهدها الغابر بالرسوم . وهناك نافذتان فقط ظلتا مفتوحتين اما النوافذ الاخرى فقد ظلت مرتجة المصاريع وكان بعضها يثير الاشمئزاز بالواحه العفنة المسمرة على الجدار . اما احدى النافذتين اللتين يستعملها صاحب المنزل فقد كانت تسمح للمرء بان يلاحظ آثار الزجاج الذي كان فيها قديماً ، اما اليوم فقد الصقت مكان الزجاج قطعة من الورق المقوى بشكل مثلث وكان خلف ذلك القصر بستان واسع جداً يمتد الى ما وراء القرية ويتيه بعد ذلك في حقل كبير منعزل ، غير انه باعشابه النامية يهب شيئاً من الحياة لتلك القرية الكبيرة ذات المنظر الاليم المؤثر بعزلته المحزنة . وكان يشاهد من بعيد قباب غير منتظمة واوراق اشجار خضراء مرتعشة ، وكان ثمة جذع ضخم من شجر السندرقد احترق رأسه برمية صاعقة ، ينهض وراء ذلك المشهد الملون بالخضرة ويبدو كان الرخام مادته . اما ذروته المحطمة فتشبه عصفوراً اسود يقف فوق كومة من الثلج الابيض . وكانت حشائش الدينار هي الغالبة وسط ادغال البندق وتلتوي حول لوحة ذلك المشهد كالافعوان وتبلغ في علوها منتصف اشجار السندر الغليظة ، ثم تنحني فوق ذرى بقية الاشجار او تمكث وحدها في الجو متهادية بخفة مع رفيف الهواء . وكانت هناك اكوام مبعثرة من الاوراق الخضراء تظهر في كل مكان وتلتمع تحت اشعة الشمس وتظهر في بعض الزوايا التي لا يصلها النور كابية معتمة . وفي وسط هذه الظلمة الداكنة يمكننا اذا ما سرحنا النظر ان نشاهد طريقاً مستقيماً وحواجز خربة ونقوشاً نخرها السوس كما نشاهد الطلح واشجار السوق بالغصون يتخلل كل

ذلك بعض العروق اليابسة واوراق يغمرها النور بعض الشيء فتلتمع اما في الجهة الجانبية بالقرب من هذه الحديقة فكان هناك طائفة جبارة من شجر الحور السامقة مليئة باعشاش الغربان المشيدة في اعاليها . وكانت اغصان بعض هذه الاشجار محطمة بفعل الرياح الشديدة فبدت اوراقها جافة يابسة .

كان كل شيء جميلاً ، جميلاً من ذلك الجمال الذي لاتبدعه الطبيعة أو الفن ولكنه يصبح كاملاً تام الكمال عندما تتوحد جهود الطبيعة وعمل الانسان الابداعي ، أو عندما تتمم الطبيعة ذلك العمل الانساني الفقير للبشر : انها لتخفف من غلظ الاجساد وتخرب الترتيب المبتسر ، وتبطل مفعول جميع تأثيرات الاخطاء المحزنة التي تفضح الرسومات الفقيرة ، وتهب الحرارة لكل اولئك الذين يؤلفون داخل اذهانهم الجامدة المعادلات الدقيقة .

وبعد دورة أو دورتين وجد بطلنا نفسه امام منزل المعلم الذي بدا له إذ ذاك في حالة أبأس مما شاهد عندما كان بعيداً عنه . كانت هناك عدة ابنية صغيرة : كوخ مسقوف شيد خصيصاً للعجلات ، وبعض دكاكين ، وعدة اكواخ تملأ فناء البيت ، وعلى الجهتين اليمنى واليسرى كانت هناك بعض الابواب المقفلة المؤدية الى أفنية اخرى . كان كل شيء ينير الظلمات امام عودة الماضي حيث يأخذ الجميع مشهداً حزيناً . وليس ثمة ما يبعث في هذه لهب الحياة . كانت هذه الابواب تبدو للناظر انها مقفلة منذ سنين ، ولم يكن يظهر إذ ذاك اي وجه انساني ، بل كان كل شيء يزفر هجراناً تاماً لأية فاعلية . كان الباب الرئيسي هو الوحيد المفتوح من بين جميع تلك الابواب ، وكان ذلك بسبب قدوم فلاح يحمل الحصر ، ولقد دخل ذلك الفلاح كأنما يريد ان يشبع الحياة في هذا المكان الميت . اما في الاحوال الثانية فان هذا الباب ايضاً يظل كغيره مغلقاً على الدوام والشاهد على صحة هذا القول ذلك القفل الثقيل المعلق ابداً في الرتاج الحديدي .

لاحظ تشتشيكوف بسرعة ان ثمة شخص ما قرب الاكواخ آخذ بالصراخ في وجه ذلك الفلاح ، فتوقف زمناً ليس بالقصير دون ان يقدر على استنباط اي شيء يقوده إلى معرفته . فالرداء الذي يلبسه فضفاض اشبه برداء النساء ، وكان يزين رأسه بقلنسوة سيد القرية . اما صوته فقد تبين لتشتشيكوف لدى سماعه انه من الممكن ان يكون لامرأة . « انه لسيد شجاع » قال ذلك في نفسه واضاف « ولكن ذلك مستحيل ... لا ! .. ولو كان حقاً سيداً » كان يفكر في هذا وهو يحاول ان يتثبت اكثر فاكثر من هذا الصراخ الغريب . واما الاخير فانه اخذ ينظر بحذر نحو ذلك القادم الجديد . حقاً ان ظهور هذا الرجل الغريب بدا له امراً مدهشاً . لقد أخذ يتأمل بفضول عظيم ليس فقط تشتشيكوف بل سيليفان ايضاً والحيوانات التي اخذت كذلك تترصد بجسدها كله ابتداء من ذيلها حتى ذروة رأسها .

وشاهد تشتشيكوف المفاتيح معلقة في زنار تلك السيدة العجيبة فعرف انها خازنة بليوشكين .

– اسمعي ياماتوشكا ، قال ذلك وهو يهبط من عربته ، أين يوجد المعلم .

– لقد خرج اجابت بذلك المرأة ثم تابعت ، ولماذا ؟

– إني بحاجة اليه .

– لتدخل إذن ! وادارت له بعد ذلك ظهرها فشاهد ثوبها القذر الملوث بالطحين والمتمزق برمته تقريباً من جهته السفلى .

ودخل تشتشيكوف في ممر رحب مظلم ، حيث تسود فيه برودة الاقبية الجليدية . ثم دلف إلى غرفة مظلمة ايضاً لا يبدد بعض ظلمتها الا ذلك الخط من الشعاع المتسرب من أسفل الباب . ثم فتح الباب فامتلأت الغرفة بالنور ووجد تشتشيكوف نفسه عندئذ امام الفوضى التي عاينها سابقاً . قيل له ان الخدم باشروا بغسل سقوف الغرف الاخرى فكدسوا جميع الاثاث في هذه الغرفة الوحيدة !

كان هناك كرسي مكسور فوق الطاولة ، وكانت هذه الطاولة مع حماها قرب الساعة التي يغطي العنكبوت نواسها ؛ وثمة مرآة اسندت برداءة بالغة إلى الحائط وعليها بعض الادوات الفضية العتيقة وبعض القناني والاواني الصينية .

وعلى منضدة مزينة بنقوش الموزاييك اللامع كان يوجد عدد من الاشياء المليئة بالغبار ، وكتاب احمر مغطى بالجلد ، وليمون مجفف تضاءل حجمه حتى غدا كثمرة الجوز ، وبعض أذرع للمقاعد المحطمة ، وإناء فيه بقية قديمة من الكحول دلفت اليه ثلاث ذبابات للاغتسال وقطعة من الشمع جعلت لها سدادة، وبعض الخرق البالية وفرشاة ومسواك مصفر كان بليوشكين يستعمله قبل سقوط موسكو بيد الفرنسيين .

وكانت هناك ايضاً بعض اللوحات المرتبطة إلى بعضها والمعلقة على جدران الغرفة ؛ وعليها نقوش مليئة بتلك البقاع الصفراء الغرائبة تؤلف موقعة حربية وكانت مليئة بالطبول العديدة والجنود فوق جيادهم يصرخون وهم يقطعون النهر سابحين ، وهناك لوحة ضخمة تكاد تملأ نصف الحائط ، فيها ثمار وزهور ، وثمرة قطلب وبطة محنية الرأس كثيراً . وقد تدلت من سقف هذه الغرفة ثريا ملئت بالتراب المتراكم . وكان هناك ثمة أشياء اخرى تكدست في ركن الغرفة، ويكاد يستحيل احصاء ما تتألف منه لكثرة اختلاطها ،واليد التي تخاطر بالبحث فيها فانها ستخرج سوداء قذرة ، ولكن المتأمل يستطيع ان يلحظ بين هذه الكتلة رفشاً ونعلاً أكل الدهر عليه وشرب . ولا يستطيع انسان ان يحكم بان مثل هذا الحذاء كان يلبسه انسان ما . وكان على الطاولة قلنسوة عتيقة مستعملة ولكنها نظيفة .

وبينما كان تشتشيكوف يمعن في تفحص ما تضمه الغرفة إذا بباب جانبي يفتح وتدخل منه الخازنة التي شاهدها سابقاً ، فأخذ يفكر : « ان هذا الانسان لا يمكن ان يكون خازنة » والدليل ان المرأة لا تحلق بينما هذا تبدو عليه آثار

الحلاقة ، ذلك انه لاحظ بعض الشعرات القـــاسية بارزة في أسفل ذقنه وهي لقساوتهـا تشبه افرجون الحديدي الذي يستعمل عادة في الاسطبل لتنظيف الدواب . واخذ تشتشيكوف يتفحص الرجل بنظرة يفهم منها ان صبره قدنفذ او كاد ؛ اما الخازن فانه كان من جهته ينتظر من الغريب ان يبدأ بالكلام . واخيراً قال بافل ايفانوفيتش بعد ان اندهش لعادة هذا الخازن في الصمت :

– ايه حسناً ! هل المعلم موجود ؟ فأجاب الرجل .

– انه هنا .

– وأين .

– ايه باتيوشكا ! انك بلاريب لست أعمى ، انني انا المعلم .

وتراجع تشتشيكوف بالرغم عنه وثبت نظرته في مخاطبه ، لقد شاهـــد كثيراً من الناس و كثيراً من النفوس التي يجهلها الكاتب كما يجهلها القارىء ولكنه لم يلتق قط برجل يشبه بليوشكين .

كان ذا وجه نحيل متجعد يشبه وجوه جميع الكهول النحيلين ولا ينفرد عنهم بشيء خاص ، وكانت ذقنه فقط بارزة قليلاً تؤمن له الا يبصق خارجها ، ولذلك كان عليه ان يضع دوماً منديله على فمه بلا انقطاع ، وكانت عيناه الصغيرتان تلمعان تحت حاجبيه الغليظين بنظرة فيها حيوية وثبات ، وكانت البسمات الخفيفة تنبعث من اماكنها المعتمة وهو يفتل شاربيه ، كما كانت اذنه الرهيفة تتحسس الجو لتستشعر بوجود قط أو طفل لعين .

وكانت بزته التي يرتديها هي الميزة التي يمتاز بها ذلك انه من المحال ان تعلم من أي قماش صنعت ، أما اكمامه وثنايا ثوبه الخلفية فقد كانت مليئة بالشحوم اللامعة التي تشبه الى حد بعيد تلك المادة التي يحتاجها الناس لتلميع الاحذية ، وكان رداؤه ذا شقين يؤلفـــان اربع قطع منفرجة حيث تختفي بطانة الثوب المحشاة ، وكان عنقه محاطاً بربطة من نوع خاص أشبه بالشيال أو الزنار ولكنها

بطبيعة الحال لاتشبه على الاطلاق ربطة العنق ولو ان تشتشيكوف شاهد هذا الانسان على باب كنيسة اذاً لرمى في يده قطعة نقدية من فئة الكوبيك ، ذلك ان بطل قصتنا يملك قلباً شفوقاً فاضلاً ولايستطيع ان يمر بالقرب من متسول دون ان ينفحه بصدقة ، غير ان هذا الرجل الذي امامه لم يكن فقيراً ، بل هو سيد يملك اكثر من الف نفس كما يملك كمية محترمة من القمح والطحين وبعض مستودعات للعجلات والاقمشة والاصواف والاسماك والخضار ، وفي المركز الرئيسي لأملاكه يمكننا ان نرى كثيراً من ذخائر الخشب والامتعة من جميع الالوان لدرجة يمكن الاعتقاد فيها بان في موسكو تجارة للنجارة عالية ، حيث يتبع صاحبنا دائماً زوج الأب وبنت الزوج وخدمهما لاجل ايجاد خشب مفتول وآخر مستدير وثالث مجدول: وعلب ودنان واجرنة وسطول وطبول وسلال وقفاف من جميع الانواع ، وغير ذلك من شتى الاصناف والاشياء التي تحتاجها روسيا الغنية والتعيسة على السواء .

وماذا ترى بليوشكين يفعل بهذا الغنى المتراكم ؟ انه يملك تقريباً مايعادل ملكين مجتمعين لاقطاعيين بل مايفوقهما ، وكان الى جانب ذلك يسير كل يوم في جميع طرقات قريته ليراقب ماتحت الجسور ومابين اكداس القمامات ، فيجلب بعضها معه ليرمي بهـــا في تلك الزوايا القذرة من الغرفة المعدة للتخلص من الاشياء التي لايرغب فيها : كالنعال البالية والخرق الممزقة ، والمسامير وبعض القطع الجلدية الصغيرة وكل مايقع في متناول اليد ، وكان الفلاحون عندمايرونه يفتش بين اوضار القمامات يقولون : « هاهوذا الصياد يصيد » وكانت الطرقات عقب قيامه بمثل هذه النزهات ، تخلو من كل شيء يرمى به على الارض ، وحدث مرة لضابط ان اضاع ياقته فالتقطها بليوشكين ، ونسي مرة اخرى فلاح دلوه قرب البئر ، فلم يجده عندما عاد ليتفقده ، ذلك ان بليوشكين التقطه واخفاه ، ولكن هذا الرجل كان اذا ماشاهده فلاح يلتقط شيئاً يخصه وينبهه الى ذلك ،

فانه عند ذلك يعيد له مايخصه في الحال دون اي جدال ، غير ان هذا الشيء اذا اخذ طريقه نحو مستودع القمامات في منزله ، فما من شيء عندئذ يستطيع ان يجبره على اعـــادته ، ذلك ان بليوشكين كان يعتقد ان أي شيء يخصه أما لانه اشتراه في يوم كذا من مكان كذا ، وأما لانه عاد اليه من تركة والده ، ففي منزله كان يلتقط بأناة وحذر كل مايقع على الارض ، حتى تلك القطعة الضئيلة المتبقية من الشمعة والقصاصة الصغـــيرة من الورقة والريشة ويضع الجميع فوق مكتبه أو على حافة نافذته .

وكان هذا الرجل الى جانب ذلك من الملاكين الكبار في السابق كما كان كثير الاقتصاد في نفقاته وينظر دائماً في عاقبـــة جميع الامور ، متزوجاً وله عائلة ، وكان يستقبل بكثير من التردد الاصدقاء الذين يأتونه في الاماكن القصية ليحلوا في ضيافته ويسألوه ان يرشدهم عن كيفية ادارة الاملاك . وكان الجميع يحبون ان يعملوا بنظام ونجاح ، سواء كان ذلك في المطاحن او في المصانع ومعامل الاقمشة والورشات والمصابغ . ففي كل مكان كان سير العمل نشيطاً تحت انظار المعلم الخالية من كل إشفاق ، ولم يكن لتبدو عليه الا الفطنة والحذر ، امـــا حديثه فانك واجد فيه الكثير من أثر الاختبار ومعرفة الناس . وكان كل واحد يسر لحديثه والاصغاء اليه ، أما سيدة المنزل فكانت امرأة مضيافة تثرثر بكل شيء يجري لها او تعرفه ، وهناك فتاتان جميلتان غضتان كالزهور تزينان هذه الاسرة ، وكان الأخ الصغير يركض وهو لطيف مرح ، ليرتمي على عنق اي كان مقبلاً هذا او ذاك دون ان يفكر فيما اذا كانت هـذه البادرة تطيب للناس وتلقى قبولاً حسناً . وكانت جميع النوافذ مفتوحة آنذاك الحين امـا الطابق العلوي فقد كان يشغله المربي الفرنسي ، وهو رجل مغرم بالصيد جداً وكان غذاؤه دوماً يتألف من البط والدجـــاج وكمية من بيض العصافير الدورية يصنعون له منها عجة لايأكل منهـــا احد غيره . وهناك ايضاً امرأة

افرنسية تشاطره طابقه وتقوم بخدمة الفتاتين . وكان سيـــد المنزل يضع في بعض الاحيان رداء على الطاولة وهو رداء مستعمل قليلًا الا انه نظيف ويمكن الظهور به امام الناس .

اضاع بليوشكين زوجته فعاد اليه شطر من المسؤولية في ادارة المنزل ، واصبح بذلك اكثر ارتياباً وبخلًا كغيره من المترملين . ولم يستطع ان يضع ثقته عند الكسندرا ابنته البكر وكان هذا التصرف من جانبه في محله ذلك ان هذه الفتاة لم تلبث ان فرت في احد الايام مع ضابط من الفرسان بعد ان عقدت قرانها منه بسرعة في كنيسة القرية الصغيرة ، وكانت تعلم ان والدهـا يخشى جميع الضباط ويرى فيهم فئة من المقامرين المختلسين . وصب الوالد اللعنه عليها ورفض ان يتبعها ليعيدها الى المنزل . وهكذا أصبح البيت اكثر خلاء كما اصبح المعلم اكثر بخلًا ، ولم يلبث ان شاب شعره وكان اكبر الاثر في ذلك لبخله . ثم صرف المربي الفرنسي من الخدمة لان ابنه بلغ سن الجندية ، كما طرد الخادمة لأنها اتهمت بمساعدة الكسندرا ستيبانوفنا على الهرب . وارسل ابنه الى العاصمة ليدخل في سلك دواوين القضاء ، فدخل هـــذا سرية الجنود وارسل الى والده بعد ان مهر التعهد المطلوب منه في السرية كي يبعث اليه بعض النقود لتجهيز نفسه . فكان جواب والده : « لن ابعث اليك بكوبيك واحد واني لن أتعرف عليك بعد الآن » . وعندما ظلت الفتـــاة الثانية وحيدة في ذلك المنزل ادركتها الوفـــاة بعد زمن قليل . وهكذا ظل ذلك الشيخ هو السيد والحارس الوحيد لجميع ارباح ملكه العريض .

وكانت هذه الحياة القاسية تسمح لبخله بالاتساع والتكامـل ، واضمحلت جميع مشاعره الانسانية وأخذت نفسه تموت شيئاً بعـد شيء . واذا اردنا ان نعزز ما زعمناه لبليوشكين من غرائب فاننا نقول ان ولده اضاع في الميسر مبلغاً ضخماً فصب الشيخ لعنته الابدية على وحيده ولم يعـد يهتم ابداً بوجوده أو عدم وجوده .

وفي كل عام تغلق بعض النوافذ والى الابد « ونحن نعلم ان تشيتشيكوف لم يشاهد غير اثنتين مفتوحتين » ، وتراكمت الانقاض في القصر والبساتين عاماً بعد عام ، ولم يعد بليوشكين يهتم الا بقصاصاته الصغيرة وقاذوراته ، واصبح شيئاً بعد شيء شرساً مع عملائه الذين كانوا يدفعون له اثماناً جيدة لبضائعه ، ولكنهم إزاء معاملته انتهوا بان اهملوه نهائياً مصرحين بان الشيطان قد ركبه وانه ليس بانسان . ولم يلبث القمح ان فسد في مستودعاته وكذلك الشعير وتحولت الطواحين الى اطلال ومزابل ، واصبح الطحين في اقبيته كالحجارة الصلدة ولم يعد بالامكان تكسيرها الا بالمعاول ، وأما الاقمشة النسيجية فقد غابت بجميع انواعها تحت التراب .

وانتهى بليوشكين بان نسي مايملك من ثراء ، ولم يعد يفكر إلا بما تبقى عنده من زجاجات الخمر . واخذ يرسم اشارات على حيز المستوى الذي وصلت اليه الخمور في دنانها كي لا يستطيع احد ان يشرب منها سراً . واعتنى ايضاً بخواتيم الشمع والريشات وبخابئها . وظلت محاصيل املاكه كما هي ، ذلك انه يترتب على كل فلاح ان يدفع نفس القيمة التي كان يدفعها سابقاً . كما كان كل فلاح مجبراً على ان يسلم نفس كمية محصول البندق ، او ان يقدم نفس عدد القطع النسيجية التي كان يقدمها . ودب العفن في كل شيء في مستودعات العجلات والدكاكين ، وتحول إلى خرق بالية يعمل في زواياها العفن ، وحتى السيد نفسه مع جميع مايملك اضحى خرقة انسانيه بالية .

ومرة جاءت ابنته الكسندرا ستيبانوفنا لرؤيته مع طفل لها لعله ينال من والدها شيئاً من النقود . ذلك ان حياة الجندية مع ضابطها لم تكن قط جذابة كما تخيلت قبل زواجها منه . وقد صفح بليوشكين عن زلتها وأعطى الطفل زراً ليتلهى به ولكنه لم يقدم لابنته كوبيكا واحداً . وعادت الكسندرا مرة ثانية للمجيء وكان معها طفلان وجلبت لوالدها قطعاً من الكانو لأجل الشاي

ورداءاً منزلياً نظيفاً ذلك ان الرداء الذي يلبسه ابوها يبعث على الخجل. فلاطف بليوشكين حفيديه وشكر ابنته للاشياء التي جلبتها له ولكنه لم يعطها شيئاً .

هذا هو الانسان الذي كان امام تشتشيكوف . وهو ظاهرة موضوعية نادرة في الروسيا ، في ذلك البلد حيث يكون الرجال أميل إلى افشاء الحقائق من كتمانها ... ولعل هذه الظاهرة الموضوعية الحسية تشمل كثيراً من الملاكين الذين باتوا سعداء في معيشتهم ، يحيون منشرحين دائماً وهم لا يعدون من الروسيين ، ويحرقون ، كما يقال ، الحياة من جميع مسامها . اما الفلاحون الذين يجتازون هذه الاراضي فانهم يندهشون عند مشاهدة القصور ويتساءلون من هو ذلك الامير الذي يملك جميع هذه الاملاك . فمنازل هؤلاء السادة الامراء بحجارتها البيضاء تشبه القصور في جميع مظاهرها ، في مداخنها وجناحاتها وغرفها المعدة لشتى الطبقات من الاصدقاء الطارئين . وهاهي ذي المسارح والملاعب المرتجلة، والانوار المنسابة والحدائق الغناء . فالاقليم كله يوجد في هذا المكان ملخصاً تقريباً . وان جميع صعوبات الحياة واخطارها لتزهق امام هذه الاضواء الاصطناعية التي تتفجر خلال العوامسج الملتفة والاشجار وتحيل لونها الاخضر إلى لون آخر اقل عذوبة . اما في الاعالي ، فان السماء المظلمة لتصبح اشد عبوساً وقتاماً ، بينما تبدو ذرى الاشجار وكأنها منغمسة في الظلام المخيم وابعد فيه قراراً ، كما تبدو متلهفة امام ذلك النور الزائف الذي يضيء جذوعها .

وقف بليوشكين ساكناً مدة وجيزة أما بافل ايفانوفيتش فانه من جهته لم يحاول ان يستهل الكلام ، بل كان مندهشاً مشتت الفكر امام مرأى سيد المنزل وتلك القاعة ، واعمل فكره لايجاد علة تبرر زيارته ظاناً انه يحسن به ان يطري فضائل بليوشكين وخصاله النادرة ، وانه مسرور بالمثول امامه واعلان خضوعه له ، ولكنه شعر بان مثل هذا الكلام مبالغ فيه مبالغة ظاهرة ، فرمى بآخر نظرة على جميع تلك الاشياء التي تملأ المكان وفكر بان الفاظاً « كالفضائل

والخصال الجيدة » يجب عليه ان يبدلها بألفـــاظ اخرى كالنظام والاقتصاد ، وسرعان مابدل عبارته والقى بها موجزة تعبر عن سروره بالتعرف على رجـل مثله وتؤكد احترامه له ، وكان بمقدور تشتشيكوف ان يجد حجة اخرى افضل من تلك الحجة ولكن الخيال لم يسعفه .

وكان بليوشكين اثناء ذلك يجيب بالفاظ غير مفهومة ويدندن بشفتيه ، ولم يكن في فمه اسنان وكانما كانت أحاسيسه توحي له هـــذا القول : «اذهب الى الشيطان انت واحـترامك » الا ان قوانين الضيافة الروسية قاسية جـــداً لاتسمح لأي انسان كان ، ولو انه بخيل ، ان يزدريها ، ثم اضاف بليوشكين بصوت مرتفع :

ـ تفضل بالجلوس .. لقد مر زمن طويل دون ان استقبل أحداً واعترف لك باني جد مسرور من ذلك كثيراً .. لقد سادت عادة سيئة في مجتمعنا ، ألا وهي الزيارات .. لقد تغذيت منذ زمن والمطبخ منخفض جداً وقد تحطم الفرن لسوء الحظ هذا الصباح .. ولو اني اوقدت النار فيه الآن لعم المنزل الحريق .

« آه آه ! .. هتف بذلك تشتشيكوف في نفسه ، لقـــد قيل لي ذلك .. ولحسن الحظ اني تغذيت غذاء جيداً عند سوباكيفيتش » وتابع بليوشكين :

ـ اما فيما يتعلق بعلف الدواب فلايوجد عندي رجل خاص به .. وكيف احتفظ بمثل هذا الرجل ؟ ان املاكي صغيرة وفلاحي كسول ، يكره العمل فاقضي طيلة ايامي مع جراب المتسولين ، وقال تشتشيكوف بشيء من الحيرة والارتياب .

ـ لقد قيل لي انك تملك اكثر من الف نفس .

ـ ومن قال لك ذلك ؟ يجب ان تبصق في وجهه ياباتيوشكا ! انه بلا ريب لص خبيث أراد ان يسخر منك .. ان عدد فلاحي قد تناقص بسرعة ! .. ذلك ان الحمى قتلت كثيراً من عبيدي خلال تلك السنوات الثلاث الاخيرة .

ـ أأضعت كثيراً من عبيدك حقاً !

- اجل .. اضعت عدداً كبيراً جداً .

- أتسمح لي بسؤالك عن عددهم بالضبط .

- ثمانون .

- مستحيل .

- انا لا اكذب ياباتيوشكا .

- وتلك النفوس الميتة ! أهي معدودة في آخر احصاء .

- لقد فقدت منذ الاحصاء الاخير حتى الآن مايربو على المائة والعشرين فلاحاً .

وهتف تشتشيكوف :

- مائة وعشرون .

- باتيوشكا . اني رجل كبير السن ولذلك لا اكذب ، فلقد بلغت السبعين من عمري .

والظاهر ان بليوشكين قد اخطأ في فهم سبب هتاف بافل ايفانوفيتش ، وعرف الاخير انه اساء التصرف لانه لم يظهر شفقته لمصائب الآخرين ، فصعد زفرة وشرح عطفه العظيم على بليوشكين لهذه الكوارث التي حلت به .

- ان العطف ياباتيوشكا لا يهمني في شيء .. انظر مثلاً انه بالقرب من منزلي يوجد ضابط ، لعل الشيطان قد جاء به ، يقول انه قريبي ، ولا ادري من أين ينبع هؤلاء الاقرباء ! انه يناديني بعمه العزيز ، ويضم يدي بحرارة .. ثم ، وعندما يبدأ بقص شكاية لي .. آه ! فاني عند ذلك أضع القطن داخل اذني .. ان وجنتيه محمرتان دوماً كالجمر .. انه بلا ريب يسبح في الخمر ! لقد أضاع ما معه منذ ان بدأ حياته كضابط بالميسر أو مع ممثلة من الممثلات .. وهاهو يحاول استدرار عواطفي .

وحاول تشيتشيكوف ان يشرح لبليوشكين بان اشفاقه عليه ليس له أية صلة بذلك الضابط ، واستطاع ان يبرهن له ان ذلك ليس بالكلام العادي المعسول بل بالحجج الدامغة اذ صارحه بانه على استعداد لأن يدفع له نقداً المدفوعات

المترتبة عليه عن المائة والعشرين عبداً المتوفين منذ الاحصاء الاخير . وبدا ان هذا العرض قد جمد بليوشكين ، فانفرجت عيناه انفراجاً كبيراً ، وحملق في مخاطبه طويلاً ثم قال :

– ألم تخدم في الجيش قط يا باتيوشكا ؟

– لا .. اني مازلت من المدينيين .

– من المدينيين ؛ ثم أخذ يحرك بشفتيه كما لو انه يمضغ بعض الاطعمة ... انك سوف تخسر نقوداً لقاء هذا العمل .

– اني على استعداد تام لان أضيع النقود كي أسعدك .

– آه يا باتيوشكا ! يالك من محسن كريم .. هتف بذلك بليوشكين دون ان يلحظ انه اثناء نوبة سروره قد اوقع بعض التبغ من غليونه وان رداءه المنزلي قد انفرج انفراجاً اكثر مما تسمح به الآداب . ثم تابع :

– انك لتقدم جميلاً لشيخ كبير. آه ! ايها الاله المخلص ! ويا اولياء السماء! ولم يستطع ان يضيف شيئاً ، ولكن الفرحة ظهرت على وجهه القاسي وعاد تعبيره الى اكتساب طابع الاهتمام الشديد . فجفف وجهه بمنديله ومسح شفته العليا به .

– اوضح لي ، ارجو المعذرة اذا قاطعتك ، كيف تستطيع بحق السماء ان تدفع هذه الضريبة السنوية ؟.. والنقود .. اتعطينيها لي أم تدفعها لخزانة الدولة بنفسك ؟

– اليك ما سنفعل ... سنعمل صكاً ببيع العبيد كما لو كانوا احياء ونسجل فيه اني اشتريتهم منك .

– صك بالمبيع ، اجل ، قال ذلك بليوشكين وهو كالحالم واخذ بتحريك شفاهه . صك بالمبيع ان هذا يكلف ... ان مثل هذه المعاملات ليس من ذمة فيها .. لقد كنا في السابق ننال مانريد ببضعة كوبيكات ووعاء مليء بالدقيق

اما اليوم فانه يلزمنا عربات مليئة بالبرغل .. وقطعة صغيرة حمراء من فئة العشر روبلات .. ما هـذا الجوع للذهب !.. هؤلاء الذين يستطيعون ان يقودوا الى هذه المعاملات حتى جميع القوانين المسلكية المسيحية . ان الكلام الجميل له سلطان عظيم .. وما من انسان يستطيع المقاومة امام نفوذ الكلام الذي ينقذه .

« وانت ... لقد قاومت » فكر بذلك تشيتشيكوف وتبين له انه يجب عليه احتراساً من بليوشكين ان يجعل نفقات الصفقة مكان اعتبار .

وجزم بليوشكين بان مخاطبه احمق سخيف ، لم يخدم في الجندية قط، ولم يستطع ان يخفي سروره فتمنى كل النجاح والسعـادة لجميع الناس على السواء وليس لتشيتشيكيوف فحسب بل حتى لجميع اولاده ولم يحاول ان يسأل عما اذا كان له اولاد ام لا . ثم اقترب من النافذة وضرب زجاجها بيده وصاح :

ــ ايه ! بروشكا !

ومرت برهة طويلة ، ثم سمع بعدها انسان يركض في دهليز المنزل ، وبقي هذا الراكض مدة طويلة وقد خرجت من حذائه ضجة عظيمة وفتح البـاب اخيراً ودلف منه شقي يبدو عليه انه في الثالثة عشر من عمره ينتعل حذاء اضخم من قدميه بكثير . ولكن لماذا لم ينتعل بروشكا حذاء جيداً ؟ السبب في ذلك انه وضع زوجاً واحداً من الاحذية بقياس ضخم يصلح لجميع خدم بليوشكين ، وهذا الزوج يجب ان يوضع دوماً في مـدخل بيت المعلم . وكل فلاح يستدعيه السيد عليه ان يسرع بالمجيء حافياً يقفز في باحة المنزل فوق المـاء والحجارة . وعندما يصل الى الدهليز ينتعل ذلك الحذاء ويظهر بعد ذلك امام المعلم . وفي أواخر فصل الخريف حيث يبـدأ التجلد بالظهور في كل مكان يمكن مشاهدة العبيد بقفزاتهم العجيبة كالراقصات او الراقصين في الباليه .

ــ انظر إلى هذا الرأس القذر ! قـال ذلك بليوشكين وهو يشير الى وجه بروشكا ... انه حيوان يبدو كصنم صنع من الخشب ، ولكني نسيت نعتـاً

آخر له ، هو انه سارق ايضاً. ماذا جئت تعمل هنـا ! هيه اجب ايها الابله .
وساد السكون . أعد لنا السماور أتسمع ؟ خذ هاك المفتـاح ، اعطه لمافرا ،
وقل لها ان تذهب للمطبخ وتأتي بالكاتو الذي جلبته لي الكسندرا ستيبانوفنا ،
والذي صنعته خصيصاً للشاي ... ولكن انتظر إلى اين تركض ؟ياالك من أبله!
ليذهب الشيطان بقدميك . هيه ؟ استمع الآن ، ان أسفل الكاتو قد اصابه
العفن ... ليكشط عنه عفنه هافرا بسكينه ، ولا تدعه يرمي بشيء بل ليأت به
إلى بيت الدجاج ... اما أنت فعليك ان تحذر،اياك ان تدس أنفك في المطبخ...
وإلا فالعصا تعرفها جيداً ! انها لتزيد في شهيتك ... احذر ان تدس انفك ...
وإلا فسترى !...

ـ ان هـذا المخلوق لا يمكن ائتمانه على شيء ! تابع بليوشكين حديثه بهذه العبارة متوجهاً بها الى تشتشيكوف بينما انصرف بروشكا .

ولم يفت بليوشكين ان يرمي بافل ايفانوفيتش بانظار حذرة. لقد كانت طيبة غير عادية مما جعلها تبدو في نظر بليوشكين مستحيلة فقـــال في نفسه : « الشيطان وحده يعلم ما إذا لم يكن يعظم نفسه كهؤلاء الضباط اللصوص ،انه يكذب كي يكلمني ويتناول الشاي من عندي ، ثم يذهب بعـد ذلك دون ان أنال منه شيئاً » . ثم ، ومن قبيل الحذر ، ولأجل الاختبـار ، طلب من بافل ايفانوفيتش تحرير صك المبيع باسرع وقت ، ذلك انه لا يمكن الوثوق بالغد ، فالذي يحيا اليوم قد يموت غداً . واوضح تشتشيكوف انه مستعد لذلك دون اي تأخير واكتفى بطلب قائمة تامة بجميع اسماء العبيد .

وانقشعت غمامة الشك عن عيني بليوشكين ، وحاول ان يتحبب من ضيفه، فتناول المفاتيح واقترب من الخزانة ، ففتحها وبعد ان حرك فيهـا الكثير من الزجاجات والكؤوس قال :

ـ هاهي ذي ، لقد وجدتها ... هنـا يوجد قليل من المشروب الرائع ... لقد شرب لي اكثرها هؤلاءاللصوص .

وكان تشتشيكوف قد شاهد قبل قليل زجاجة صغيرة بين يدي بليوشكين مغطاة بالغبار .

– انها زوجتي التي صنعت هذا ... ومنذ ان ترملت نسي ان يغطيها الوضعاء فوقع في داخلها جميع انواع البعوض ، ولكني استخرجت جميع ما وقع فيها وهاهو ذا الشراب نظيف صاف . سأملأ لك كوبا صغيراً .

غير ان بافل ايفانوفيتش اسرع بالرفض معتذراً بانه قد تناول الغذاء كاملاً قبل ان يأتي لزيارته . فقال بليوشكين :

– لقد اكلت وشربت اذن ، وهذا صحيح ، ان الاشخاص الذين ينتمون للطبقة العالية يعرفون انفسهم جيداً ، انهم لا يأكلون وإن كانوا جائعين .. بينما اولئك اللصوص يزدردون كل شيء دون توقف .. مثال ذلك جاري الضابط فانه يدخل الى بيتي وهو يصيح : « اعطني ماآكل ياعماه » وانالست بعمه ؛وهو ليس عنده مايتبلغ به ؛ وأنا متأكد من ذلك وإلا لما اتاني يتسول .. وانت انك تريد قائمةباسماء هؤلاءاللصوص .. هذا حسن .. سأكتب لك منذ الآن على ورقة خاصة لأحذف اسماء الميتين من قائمتي حتى الاحصاء القادم .

وثبت بليوشكين نظارتيه فوق أنفه وذهب إلى المنضدة ليجلب بعض الاوراق . وهناك فك حزمة ضخمة بعد ان أزال عنها ما تراكم عليها من الغبار مما سبب لتشتشيكوف العطس وتناول اخيراً ورقة عليها اسماء الفلاحين تحوي على مائة وعشرين اسماً . وتبسم تشتشيكوف وهو يرى هذا العدد الكبير من النفوس الميتة . فوضع الورقة في جيبه وقال لبليوشكين انه يتحتم عليه ان يذهب غداً إلى المدينة ليختم عقد الصفقة .

– إلى المدينة ! ماذا تقول ؟ ولمن أترك هذا المنزل ؟ وليس عندي فيه غير اللصوص انهم سينهبون كل شيء في أقل من اربع وعشرين ساعة . بل اني سأجد عند العودة قميصي مفقوداً .

– أما من صديق عندك ؟

– صديق ؟ لقد مات جميع اصدقـائي ومنهم من تركني . ليس لي صديق ياباتيوشكا ! ثم هتف بليوشكين. عندي واحدفحسب هو رئيس المحكمة نفسه... ولقد جاء هنا مرة راداً لي الزيارة ... لقد كنـا في الصغر نشترك معاً في جميع الحماقات ... واني استطيع ان اكتب اليه .

– وهل يمكنك ذلك .

– لقد كنا نحب بعضنا كثيراً ... وكنـــا زملاء في مدرسة واحدة.

ولم يلبث وجه بليوشكين المصفر ان استضاء قليلاً بالاختلاجـات العاطفية التي انعكست عليه . وهذا الحادث الواقعي المحسوس نستطيع ان نشبهه بغريق طفا فوق سطح الماء مما جعل الناس الذي وقفوا يشاهدونه يطلقون صرخةالفرح والسرور ، ولكن عبثاً يرمي اخوته واصدقـاؤه له الحبال ذلك لان جسده لم يظهر لهم قط ، فهو ثقيل ضيق عار فوق الثبج . هكذا اصبح وجه بليوشكين بعد هذا الوميض المشع من العواطف اكثر قساوة وشراسة .

– لقد كان فوق هـذه المنضدة فرخ من الورق الابيض ولكني لست اعلم ماحل به ، كان بليوشكين يقول ذلك وهو يفتش في كل مكان تقععليه انظاره، فوق الرياش ، وفي كل ركن وزاوية . ثم اخيراً نادى بصوت عال :

– مافرا ! مافرا !

وركضت امرأة تحمل صحناً عليه قطع الكاتو التي كان المعلم قد طلب جلبها. فسألها بليوشكين :

– ايتها المنكودة اين وضعت فرخ الورق ؟.

لم أره ايها المعلم ، لم أر غير قصاصة الورق التي سددت بها هذه الزجاجة.

– أرى عينيك تكذبان أرى فيها انك سرقتها .

– ولماذا ؟ وماذا تريدني ان اكتب عليها ! اني لا اعرف حتى القراءة .

ـ انك كاذبة ... لقد اعطيتها لقندلفت الكنيسة ... ذلك الذي لا يعمل شيئاً غير توسيخ الورق ... لقد اعطيتها له .

ــ لو كان القندلفت يحتاج إلى الورق لاشتراه ، فهو ليس بحاجة لوريقتك .

ــ انتظري قليلاً ... ستأخذك الشياطين يوم الدينونة وستشوي جسدك بالنار اللاهبة ... سترين !

ــ ولماذا تشوي جسدي طالما اني لم اقترب من رقعتك ... قد اكون ضعيفة كغيري من النساء ، ولكني لم اسرق شيئاً قط .

ــ لقد قلت لك ان الشياطين ستقذف بك في النار تشويك شياً ، وذلك لانك لا تنقطعين عن تخطئة معلمك ، اسوف يستخرجون من جسدك دهنك بعد ان يغلي .

ــ وأنا سأقول لهم بان ذلك غير صحيح ... خذ هاهي ذي وريقتك ... انك دوماً ترميني بالتهم ظلماً .

ــ وشاهد بليوشكين ورقته فصمت قليلاً ثم تابع :

ـ ولماذا تحتدين؟ياله من أمر سيء . ألأجل كلمة واحدة تقال لها تردين بعشرين كلمة ؟ اذهبي وائتيني بالنار كي استطيع ختم الرسالة ... ولكن انتظري... انك ستأتين بالشمعدان ... لا ، انه يشتعل بسرعة ويكلف غالياً...احضري لي عود ثقاب .

وخرجت مافرا ، وجلس بليوشكين على مقعده وتناول قلمه وأخذ يطوي الورقة واستمر كذلك طويلاً ليرى ما اذا كان نصفها يتسع للشيء الذي يرغب بكتابته . ولما رأى ان ذلك مستحيل ، غمس قلمه داخل الدواة المليئة بسائل اسود غطاه البعوض . ثم اخذ يكتب بخط اشبه بالنوطة الموسيقية . ولما تعبت يده اليمنى نقل القلم الى يسراه واخذ يخط جاهداً اكبر عدد من الاسطر وهو متأسف بينه وبين نفسه لان اسفل الورقة سيظل ابيض خالياً من الكتابة .

تلك هي المخزيات ، وذاك هو الانحطاط الاخلاقي وحمأة العدم التي تردى فيها ذلك الانسان ! فهل صحيح ان هذا الحادث واقعي ؟ بل كل ذلك صحيح فجميع الامكانيات موجودة في الذات البشرية وان الشاب المليء بالحياة ليرتجف فرقاً حين يفكر بما تخبيء له الشيخوخة . يجب ان تعيشوا جميع المظاهر الغاليه لكل سن وعقد . لاتحتقروا أية سطوة من السطوات الانسانية . فانكم ان لم تفعلوا ذلك لن تستطيعوا استعادة تلك الحياة قط . ذلك ان الشيخوخة قاسية رهيبة لاتهب شيئاً ولاتدع اي شيء .

ـ أولا تعرف صديقاً لك يستطيع ان يشتري شيئـــاً غير النفوس الميتة ، كالنفوس الآبقة مثلاً ؟ سأل ذلك بليوشكين وهو يطوي الرسالة .

ـ وهل يوجد عندك عبيد آبقون ؟ قال ذلك تشيتشيكوف وهو يحملق بعينيه :

ـ أجل بطبيعة الحال .. ولقد حاول صهري ان يقبض على هؤلاء الفارين .. ولكنه للأسف فقد آثارهم ، غير انه جندي وسيشتكي الى الحاكم .

ـ وكم يبلغ عدد هؤلاء الفارين ؟

ـ نحو السبعين .

ـ مستحيل !

ـ اقسم لك على ذلك ... ما من سنة تمضي وإلا ويهرب فيها الكثيرون .. انهم كلهم شرهون .. لايفكرون الا بالطعام وانا لايوجد عندي هنا ما اقتات به؟ ولكني اقنع بسرعة .. قل ذلك لصديقك واعلمه ايضاً انه لم يقع في الفخ من هؤلاء العبيد الا عشرة وهذا سيجعل صفقته مربحة جداً .. وانت تعلم ان العبد الواحد يساوي خمسمائة روبل .

« طبعاً لن اقول شيئـــاً لأي انسان » قال ذلك تشيتشيكوف لنفسه ثم اجاب بانه لا يجدر بالمرء ان يتكل على أحد ؛ فان النفقات المباشرة تبدو اعلى من الارباح ، فالذهاب الى المحاكم يكلف كل شيء تقريباً حتى يبلغ حد تضييع

الملابس . ولكنه ، اي تشيتشيكوف ، لايرغب الا بمساعدة بليوشكين .

ـ اذن كم تدفع لي ؟ طرح بليوشكين هـــذا السؤال وقد تشنجت يداه كاليهودي .

ـ خمسة وعشرين كوبيكاً عن كل نفس .

ـ في الحال .

ـ أجل .

ـ ولكن يا باتيوشكا ، انا رجل فقير ، اعطني اربعين عن كل نفس .

ـ سيدي العزيز ، هتف بذلك بافل ايفانوفيتش ، ان ما اريد اعطاءك إياه ليس اربعين كوبيكاً فقط ، بل ارغب باعطائك خمسمائة كوبيك عن كل نفس ، ذلك اني لا استطيع ان ادع شيخاً له قلب مثل قلبك يتألم ويعيش في مثل هذه الحال من البؤس الشديد .

ـ هذا صحيح ، هذا صحيح ، قال ذلك بليوشكين وهو يحني رأسه ليتخذ مظهر الشهيد ، أجل ... ان حالي حسن !...

ـ فانت ترى اذن باني اعرفك جيداً ... اذن لماذا لا ادفع لك الخمسمائة كوبيك عن كل نفس ... ان السبب في ذلك اني لا املك مالاً ... ولكني مع ذلك سأضيف لك خمسة كوبيكات ... فيكون المجموع ثلاثين كوبيكاً عن كل نفس وهذا كل ما استطيع ان ادفعه لك .

ـ اضف كوبيكين ايضاً .

ـ ليكن لك ذلك ... اثنان وثلاثون كوبيكاً ، وعندك سبعون نفساً أليس كذلك ؟

ـ بل ثمان وسبعون بسعر اثنين وثلاثين كوبيكاً عن كل نفس .

وفكر بطلنا هنيهة ثم قال : سيكون المجموع اربعة وعشرين روبلاً وستة وتسعين كوبيكاً . ان تشيتشيكوف قوي جداً في الحساب .

ثم طلب كذلك من بليوشكين ان يحرر له قائمة باسماء العبيد الهاربين واعطاه المبلغ نقداً ، وامسك بليوشكين بالنقود وحملها الى الطاولة بنفس الاناة والحذر الذي نتحلى به عندما تقرب من فمنا كأساً من الخمر طافحة كي لا يقع منها شيء على ثيابنا فيتلفها ؛ وعندما وصل الى المـــائدة نظر الى نقوده مرة ثانية ثم وضعها بحرص شديد داخل درج الطاولة ، ان هذا الكنز سيظل هكذا مدفوناً في هذا المكان حتى ذلك اليوم الذي يدفنه فيه الابوان كارب وبوليكارب سيدا القرية وتكون الفرحة الكبرى لابنته وصهره كما قد تكون ايضاً لذلك الضابط الذي يدعي انه من اقاربه ، وهدأ بليوشكين بعد ان نظم نقوده ،ومر وقت طويل وهو هادىء ساكن لا يكاد يجد موضوعاً يثير فيه النقاش .

– هل ستغادرنا الآن ؟ قال ذلك صاحبنا وهو ينظر الى تشتشيكوف يقوم بحركة لأخذ منديله ، واعاد هذا السؤال لذهن بافل ايفانوفيتش بانه ليس لديه وقت لتضييعه ، فأجاب وهو يتناول قبعته .

– اجل انه وقت الرحيل .

– والشاي؟.

– اذا سمحت سنتناوله معاً في المرة القادمة .

– ولكن كيف .. لقد اعددت السماور ، ثم اني والحق يقال لست براغب جداً بالشاي .. فالشراب غالى الثمن والسكر ابداً سعره يتعـالى ، ثم صاح : يابروشكا لا تأتي بالسماور وأعد هذه القطعة من الكاتو الى مافرا كي تضعها في نفس المكان الذي كانت فيه .. لا .. انتظر قليلاً ! سأذهب بهذه القطعة انا .. إذن يحفظ الله ياباتيوشكا ، بوركت اعط هـــذه الرسالة لرئيس خزانة السجلات .. وليقرأها انه صديق قديم .. ولقد تزوجنا معا في يوم واحد .

ثم قام ذلك الشيخ الغريب ، ذلك الشبح العجيب بمرافقة بافل ايفانوفيتش الى البـــاب الكبير ذي الرتاج الغليظ الذي ما لبث ان قفل بعد ذلك خلف الزائر

مرتين وطاف بعد ذلك بجميع املاكه ليرى ما اذا كان الحرس مازالوا في اماكنهم ، فوجدوهم يضربون على برميل فارغ بمجارف خشبية مما يجعل اللصوص يمتنعون عن الدخول الى هذه الاملاك فتتأمن الحراسة ، ثم عاد الى المطبخ ليرى اذا كان الجميع قد أكلوا جيداً ، أما هو فقد ازدرد صحناً مليئاً باللحم المسلوق وبعد ان عامل عبيده معاملة اللصوص عاد الى غرفته ، وهناك ظل وحيداً يفكر في كيفية مكافأة زائره العظيم لأجل طيبته التي لا مثيل لها حقاً ، « سأجعل له هدية مؤلفة من ساعة .. ستكون جميلة جداً » لانها من الفضة الخالصة لا من النحاس أو الزنك .. انها لا تسير سيراً حسناً ولكنه بلا ريب سيصلحها .. انه شاب فهو يحتاج الى ساعة لأجل زياراته لخطيبته .. لا ! قال ذلك فجأة بعد لحظة تفكير : سأدعها له في وصيتي ليتذكرني بها دوماً .

اما بطلنا فانه رغم ذهابه دون هدية فقد كان غارقاً في سرور عظيم ، ذلك ان الكسب الذي حصله يساوي في الواقع اكثر مما هو في الحقيقة ، لقد ربح مائتي عبد من الموتى ، ولكن ربحه لم يقتصر على الموتى بل تعداه الى الآبقين ، ذلك انه ربح منهم الكثير ، لقد كان متأكداً من حدسه عندما زار بليوشكين بانه قام بعمل رائع ، غير انه لم يفكر بانتصار كهذا الانتصار ، أجل انه كثير المرح ولذلك اخذ يصفر فيما بين اصابعه كما لو انه ينفخ في مزمار ، وقد انتهى من صفيره بانفجار هائل لأغنية مضحكة سخيفة ، حتى ان سليفان نفسه بعد ان أصغى اليها مندهشاً قال وهو يهز رأســـه : يا للمعلم انه يغني .. انظروا اليه كيف يغني .

وكانت الظلمة قد عمت الكون تقريباً عندما وصل الى اول بيت في القرية وكانت الاشياء تبدو انها غارقة في الظلمة التي بدأت تزداد قتاماً ، وبدت الوان الحواجز غير واضحة ، أما شوارب الحراس فقد كانت تتراءى انهـــا ارفع من جبينهم بينما كانت انوفهم مختفية تماماً تقريباً ، وقد فهم تشتشيكوف من قرقعة

العجلات واهتزاز العربة انه يسيرفوق طريق معبد ، لم تكن المصابيح موقدة بعد ، ولكن كانت انوار ضئيلة تجتاز بعض النوافذ ، وكان الجنود والعمال والحوذية يلتقون في المنعطفات والأزقة فيتناقشون في امورمبهمة يستدعيهاعادة في هذه الليلة هبوط الليل وتولي النهار ، وكان الناظر يرى ايضاً نساء بشالاحمر واقدام عارية داخل الاحذية ، ومجموعة من الاحياء التي بتحلقها المنخفض في المحال العامة تشبه الخفافيش .

لم يلحظ تشتشيكوف شيئاً من ذلك ، بل انه لم ير حتى الموظفين وهم يأتون من نزهاتهم الى المدينة متسلحين بعصيهم الصغيرة ، وكانت تقرع اذنيه من وقت لآخر صرخات نسائية مختلطة : انت تكذب ايها السكير ، اني لم اسمح له بمعاملة سيئة كهذه ابداً ، اواه .. لاتضربني ايها الحيوان القذر .. اذهب الى مفتش البوليس وسوف اتبعك ، وهناك صرخات اخرى تبعث على الجنون تنبعث من حناجر الشباب المراهقين الذين لم يتجاوزوا العشرين ،وهم يحلمون عند خروجهم من التياترو الى « شوارع اسبانيا » الى المعبودات من النساء اللواتي يخطفنهم ليلاً على اصوات الجيتار ، ان نشوة الخيال تجعلهم في السماء يزورون شيلر .. ولكن هاهم يعودون الى الاقذار ، الى الحقيقة التي لامفر منها ، الى أوشاب السوق الرئيسي ، الى الحياة الارضية العادية التي تكون في كل يوم .

وبعد هزة اخيرة ظهرت العربة وكأنما تسير داخل حفرة ؛ كانت قدوصلت في الحقيقة الى ماتحت باب خادم الفندق ، وجاء بتروشكا فاستقبل تشتشيكوف وكان يحمل بيده جانب ردائه كي لايتطاير في الهواء بينمامد يده الاخرى لسيده كي يعينه على الخروج من العربة ، وظهر بعد ذلك صبي الفندق وهو يحمل شمعة بيده ومنشفة على كتفه « ولكن ترى ، هل سيعجب بتروشكا بعوده معلمه حقاً اني اجهل ذلك ، ولقد تبادل مع سليفان النظرات فالتمعت ضحكة فرحه في وجهه العبوس .

وعندما صعد تشتشيكوف الدرج الى غرفته خلف الصبي الذي يحمل بيده الشمعة ، قال له هذا الاخير :

- لقد تنزهتما طويلاً .

- أجل هذا صحيح وانت كيف حالك .

- حسن ولله الحمد .. لقد جاءنا احد الضباط البارحة فاحتل الرقم ١٦.

- ضابط ؟

- من ريازان .

قال تشتشيكوف وهو يلج غرفته .

- حسن جداً . عد الى عملك كي ارضى عنك .

وعندما اخذ يجتاز الممشى قال لبتروشكا .

- لقد استطعت على الاقل ان تفتح النوافذ .

فأجاب بتروشكا بانه فتحها ، ولكن تشتشيكوف أحس انه يكذب ،الا انه كان زاهداً في النقاش ، انه تعب لدرجة الاعياء الشديد من جراء اسفاره الطويلة ، فطلب حساء خفيفاً ثم نفى عنه ثيابه ، وانطرح فوق فراشه وراح في سبات عميق لايستطيع ان يوقظه منه شيء .

الفصل السابع

ما أسعد الانسان الذي يعود إلى منزله بعد سفر طويل ممل عانى فيه التعب وقاسى الشيء الكثير من ضجيج الاجراس وتصليح العربات مع المتشردين الذين يصادفهم في الطريق . حقاً ما أسعد رجلاً كهذا يعود فيستمتع بالضوء ينير له الطريق منذ وصوله وهو يجتاز غرفاً حبيبة اليه ويسمع صيحات الترحيب من أفواه الاطفال ويشعر بمظاهر الود والحنان تحيطها به اسرته فينسى من ثم متاعب السفر . ألا ما أسعد مثل هذا الانسان وما اشقى العازب .

ثم ما اسعد الكاتب الذي يبتعد عن النفوس الكئيبة ويترك الواقع المؤلم ويصف الطبائع الراقية . وانه لسعيد سعيد ذلك الكاتب الذي يختار من الاوساط المنحطة الشخصيات الشاذة فلا يخون إلهامه ولا ينحط إلى مستوى البؤساء فينطلق في الاجواء الاثيرية حيث لاتعيش غير المخلوقات الجميلة . ان مثل هذا الكاتب يحسد على شيئين ، فهو في محيطه يصف هذه الاجواء اولاً ونجده أبعد صدى ثانياً . ذلك انه يضع ستاراً كثيفاً على عيون الاشخاص الذين وصفهم ليحجب عنهم احزان الحياة ويكتفي بوصف الجميل والنبيل فتصفق له الجماهير وتتبعه وتنادي به كعبقرية فذة تحوم في خيراتها كالنور يداعب أعلى

القمم . وتخفق القلوب لدى ذكر اسمه وتسيل دموع الاعجاب ... انه إله .

واما الكاتب الذي يجرؤ على نشر ما لاتراه العيون العادية ويغترف من آنية مصائب الحياة ويعرض الشخصيات البائسة المسكينة الغارقة في الانحطاط من التي يصادفها كل يوم ... اما هذا الشاعر القاسي الذي يصف بقوة وعنفوان ويبرز هذا الواقع ليطل عليه الناس ، اما هذا الرجل فليس له ان ينتظر تصفيق الجماهير ، ذلك انه لن يرى ابداً دموع الاعجاب ولن يشعر بحماس القلوب كما لن تهرع اليه عذراء اخذتها الشفقة ، وهو نفسه لن يغيب عن وعيه مأخوذاً بروعة اشعاره ولن يفلت اخيراً من حكم معاصريه المنافقين الذين يدينون أدبه ويضعونه في مصاف الكتابات المبتسرة المهينة للانسانية متجاهلين القلب والروح والعاطفة التي أوحت بمثل هذا الادب . ذلك ان هؤلاء الحكام لا يفهمون ابداً ان العبقرية هي هي عندما يصف الانسان الشموس البعيدة وحين يرسم لوحات لحياة الحشرات التي لا يلحظها احد ،ولا يفهمون ان الموهبة عظيمة جداً حين تستدعي سخط المجموع ، وان الضحكة الشديدة تعادل الاعجاب الارستقراطي الهادي، وان الهوة التي تفصل بين الضحكة الصافية وبين تكشيرة دجالي السوق انما هي هوة سحيقة . كلا ... ان الحكام المعاصرين ليجهلون هذه الحقائق ولا ينون عن إهانة الكاتب الذي يبقى وحده محروماً من العاطفة والتأييد فيحيا حياة قاسية في وحدة مريرة مع نفسه .

اما أنا فيجب علي ان اسافر طويلاً مع شخصياتي الغريبة وأتأمل الحياة التي تنكشف للابصار بصورها التي لا تكاد تحصى ، وأدرسها بقهقهة ساخرة تنتقل بين الاجيال ، وبدموع غامضة مجهولة .. ولكن لنمض في طريقنا ، فان هذه الاشياء التي مرت ظلالها امام انظاري بعيدة عني ... فماذا يفعل تشتشيكوف ؟

استيقظ بافل ايفانوفيتش من نومه وتمطى فشعر بالراحة ، وتذكر وهو

مستلق على ظهره بانه اصبح سيد اربعمائة نفس فأخذ يفرك يديه مبتهجاً ثم قفز من سريره دون ان ينظر الى المرآة وهي عادة كانت حبيبته جداً الى نفسه اذ كان يحب كثيراً ان يتأمل وجهه وخاصة ذقنه ويفخر بشكلها أمام اصدقائه : « انظر كيف هي مستديرة » . وفي هذا الصباح انتعل بسرعه حذاءه المزين بشتى انواع النقوش من مختلف الالوان . ونسي سنه ووقاره فقفز مرتين ، ثم وقف على رؤوس اصابعه . وتناول محفظته وفرك يديه ابتهاجاً كأنه قاض يجلس للغداء بعد تحقيق طويل وتناول اوراقه ، وكان قـــد قرر ألا يرجيء اعماله الى الغد وان يحرر بنفسه عقود البيع ويكتب عنها نسخة ثانية كي لايدفع عليها اجراً ثانياً وكان في القديم قد تثقف بمعرفة طريقة كتابة العقود .

كتب بحروف كبيرة : « عام الف وثمانمائة و .... » ثم كتب بحروف أصغر من الاولى : « نحن الموقعين ادناه ... » وتابع الكتابة ... وبعدمرور ساعتين كان قد انتهى من عمله .

واحس تشتشيكوف بشعور لايوصف وهو يقرأ اسماء هؤلاء العبيد الذين عاشوا كفلاحين شرفاء مجتهدين او كسكيرين كسولين خدعوا اسيادهم بمختلف الطرق . كان هناك ثمة ميزة خاصة بكل قائمـة ومن خلال هذه الميزة كان العبيد المسجلون في القائمة يعودون الى الحياة بطبيعة خاصة حسب ميزة القائمة كان لكل من فلاحي كوروبتشكا لقب . وكانت قائمة بليوشكين تمتـــاز بالايجاز فأسماء العبيد مسجلة عليها بالحروف الثلاثة الاولى فقط ثم يلي ذلك عدة نقاط بعدها . اما قائمة سوبا كيفيتش فقد كانت تعدد الصفات ، ودقتها ممـــا يستلفت الانظار ، ذلك ان سوبا كيفيتش لم ينس صفة واحدة من صفات فلاحيه : « نجار ممتاز » و « ذكي ... لايسكر » فكان يذكر كل شيء حتى آباء وامهات فلاحيه واخلاقهم ، وقد اضاف الى صفات فلاح يدعى فيدوشوف هذه العبارة : « مجهول الاب ... مولود من خادمة المزرعة كابيتولينا ولكن اخلاقه جيدة

ولا يسرق » فمثل هذه الاوصاف على كثرتها كانت تضفي على القائمه الحياة فيظهر العبيد وكأنهم عادوا ثانية الى الحياة .

شعر بافل ايفانوفيتش بالحنان وهو يقرأ هذه الاسماء فتنهد وقال: « يا لله ... ما اكثركم أجيبوا ما ذا فعلتم في حياتكم وكيف جاهدتم حتى لا تموتوا من الجوع ؟ »

وتوقف دون قصد على اسم : «بيوتر سافلين فيوناجاي كوريتو كوروبتشكا» ولم يستطع تشتشيكوف كتمان دهشته فهتف : « ماهذا الاسم .. انه يكاد يأخذ سطراً برمته .. هل كنت عاملًا ماهراً أم فلاحاً بسيطاً ؟ وكيف مت .. أفي الكوخ أم سحقتك عربة في الطريق ؟ » وشاهد اسماً آخر فتابع: « بروبكاستيبان .. حطاب .. رجل قنوع جداً .. آه لقد كان يصلح للخدمة في غرفة الحرس .. لقد اجتاز الريف الروسي وهو يحمل في حزامه فأسه وعلى كتفه جذاءه ، وكان يتغذى بكوبيك خبزاً وبكوبيكين سمكا ثم يعود الى منزله ومعه مائة تسلكوفيس (نقود روسية تعادل الواحدة منها اربعة فرنكات افرنسية) وقد احتاط باخفاء مبلغ في حذائيه ، وانت كيف انتهيت؟ هل اردت ان تربح مبلغاً كبيراً باصلاح قبة جرس فوقعت من شاهق وكان في الاسفل رجل وليكن اسمه ميشي ، فما إن وقعت حتى حك برقبته وقال : « لقد تحطم غليونك ياصديقي فاينا » ثم ربط وسطه بحبل متين وتسلق البرج ليحل مكانك .

وقرأ من جديد : « مكسيم تلياتنيكوف .. حذاء .. » ثم فكر : « حذاء .. سكير كالحذاء .. اني اعرفك جيداً ياعزيزي وإن شئت فسأروي لك قصتك .. لقد تعلمت مهنتك من الماني كان يضربك عند كل خطيئة تقع فيها ولم يكن ليسمح لك بدقيقة واحدة ترتاح فيها ، وكان يتمدحك كثيراً عندما يتحدث عنك مع زوجته ، وعندما انتهيت من تعلم المهنة قلت في نفسك : «لقد

جاء دوري الآن في استئجار محل لي ولن اكون كهذا الالماني الذي لم يربح شيئاً في حياته ، أجل لسوف احاول أن اصبح غنياً ، وبعد ان دفعت لسيدك فدية كبيرة استأجرت دكاناً وتلقيت الكثير من التوصيات ثم اشتريت جلداً رديئاً من حيث لايعلم أحد وبعته احذية مصنوعة بضعف الثمن الحقيقي ،وبعد مرور خمسة عشر يوماً كانت الثقوب تملأ تلك الاحذية ، فلعنك الزبائن وفرغت دكانك ، فأخذت تتجول في الطرقات ثملاً وانت تزمجر : لقد ساءت الاحوال كثيراً جداً ، ولم يعد في مقدور الروسيين ان يعيشوا في بلادهم لان الالمان اصبحوا السادة في كل مكان » .

وانتقل إلى اسم آخر وقال : « وهذا الفلاح ؟ آه . . . انهذا اسم امرأة . . . أليزافينا فوروبي ولكن ماذا تفعل هذه المرأة هنا ؟ لقد خدعني ذلك المحتال سوباكيفيتش » وكان تشتشيكوف على حق فقد كان الاسم لامرأة وقد دسها سوباكيفيتش بين أسماء العبيد بعد ان حرف في اسمها قليلاً ، بحيث يتوهم المرء انها رجل وحذف بافل ايفانوفيتش الاسم بكل بساطة ، وقرأ اسماً آخر : « غريغوري الذي قد يصل او لايصل . . » وفكر : « وانت كيف كنت ؟ لقد كنت تملك زحافة وعربة فغادرت قريتك واخذت بالتنقل من سوق الى آخر مع التجار . . . فهل فارقت الحياة وانت تسير ؟ أولم يفلح اصدقاؤك في تقييدك بأرملة جندي متوردة الخدين ؟ أو لم تلفت عربتك بخيولها الجميلة نظر سارقي الاخشاب ؟ وثم . . . وبعد تفكير طويل هل دخلت احد الفنادق حيث اودعت روحك في حجرة حقيرة هناك ؟ . . . حقاً ان الشعب الروسي مضحك . . . وان الروسيا لا تحب الفخامة في الموت » .

وتابع تشتشيكوف وهو يقرأ اسماء عبيد بليوشكين الآبقين :

« وانتم يا اصدقائي الاعزاء مازلتم احياء ولكنكم لاتصلحون لشيء ، ولذا فأنتم والاموات سواء . أخبروني أكنتم تعانون كثيراً عند بليوشكين ام انكم

استسلمتم لنزوة طارئة عندما تهتم في القفار تقطعون الطرقـات ؟ أأنتم اليوم في السجن ام انكم تحرثون الارض في خدمة سيـــد آخر ؟ أريمي كاربا كين ... نيكيتا فولو كيتا وابنه انطون فولو كيتا .. ان قراءة هــــذه الاسماء وحدها تكفي ليعلم المرء ان اصحابها من اللصوص المحتالين .. وهذا بوبون خادم المزرعة يبدو انه يجيد القراءة .. هو لا يقتل بالسكين ولكنه بلا ريب قد أصبح لصاً بطريقة شريفة .. وبما انك لا تملك جوازاً فقد اوقفك الكابتن اسبرافنيك وكنت بلا ريب جريئاً في التحقيق ، وسألك الضابط وهو يضيف الى اسمك نعتاً رناناً :

ـ من يكون سيدك؟

فأجبته بجرأة :

ـ النبيل فلان .

ـ وماذا تفعل هنا .؟

ـ اني في عطلة .

ـ وأين جوازك .؟

ـ لقد اعطيته لبيموتوف ، معلمي .

ـ فليدخل بيموتوف هذا .. أأنت بيموتوف .

ـ أجل انا .

أصحيح انه اعطاك جوازه ؟.

ـ لا .

وهنا قال الضابط وهو يكرر استعمال النعت الرنان :

ـ لماذا كذبت ؟

فأجبته بجسارة :

ـ هذا صحيح فاني لم اعطه جوازي لأني وصلت الى البيت ليـــلاً ولكني اعطيته لقارع الاجراس بروشوروف .

ـ فليدخل قارع الاجراس .. هل اعطاك جوازه كما يزعم ؟

ـ لا .

فهتف الضابط وهو يلعن ويشتم :

ـ لقد كذبت ثانية .. أين هو جوازك ؟

فأجبته بجرأة :

ـ لقد كان معي جواز ولكني قد اكون فقدته وأنا في الطريق فقال الكابتن اسبرافنيك وهو يضيف الى اسمك نعتاً مهيناً :

ـ لماذا سرقت معطف الجندي ... ولماذا سلبت الكاهن حافظة نقوده ؟

فأجبته ببرود :

ـ هذا غير صحيح فاني لم أسرق في حياتي ... اما كيف جاءني هذا المعطف فالحق اني لا أدري ... ولا شك في ان احدهم قد حمله إلي .

فصاح الكابتن اسبرافنيك :

ـ حيوان ... حيوان ... قيدوه وضعوه في الزنزانة فأجبت :

ـ بكل سرور ... فليكن .

وتناولت علبة سعوطك بكل هدوء وقدمتها لجنديين مشوهين جاءا لتقييدك وأنت تستفهم منهم في أي حرب اصيبوا ومتى تم فصلهم من الخدمة الحقيقية . وانت الآن تعيش في السجن بينما يستمر التحقيق في قضيتك . ثم قررت المحكمة نقلك من سجن تساريفوتشيك الى سجن آخر . وعندما وصلت الى السجن الجديد قلت : لقد كانت الزنزانة هناك انظف وأوسع وكان فيها عدد كبير من المساجين » .

وقرأ تشتشيكوف : «أباكوم فيروف» ثم أخذ يفكر : « وانت كيف كنت ؟ هل استهواك الفولغا وحياة البحارة الحرة » ثم غرق بافل ايفانوفيتش في احلامه وهواجسه . ترى بماذا كان يفكر ؟ أفي مصير اباكوم فيروف ام في صور الحياة الحرة التي يحبها كل روسي مهما كانت طبقته ؟ وعاد اخيراً الى التفكير في فيروف :

« أين فيروف الآن ؟ انه بلا ريب يذهب ويجيء على المرفأ حيث تتكدس الحبوب فيساوم على ثمن بضاعته . ان جميع العمال يضحكون ويمرحون قبل ان يغادروا عشيقاتهم ونساءهم . وهم يغنون ويرقصون بينما يرزح الحمالون تحت وطأة أحمال الشعير التي ينقلونها الى قعر المراكب بين عاصفة من الشتائم والاهانات . وكانت إهرامات من الاكياس تنتظر بعيداً ان تنقل الى البواخر الكبيرة . تلك هي حياتكم باعمال المرافيء فأنتم دوماً مرحون وكما ترقصون وتشدون فانكم ستعملون وتتعبون وانتم تحاولون تسلية انفسكم باغنية طويلة لا تنتهي كالروسيا نفسها . وهتف تشتشيكوف وهو ينظر الى ساعته : « آه انه الظهر ... لقد تأخرت ... لو اني انهيت عملي ، إذن لهان الامر ، ولكني ماأزال في البداية... لقد شغلتني الاحلام ... اني حيوان » .

وسرعان ما ارتدى ملابسه على عجل وشد حزامه ولكن دون ان يفلح في تصغير حجم كرشه ، وتعطر ثم أخذ قبعته وأوراقه وذهب الى المحكمة لتسجيل عقود البيع . وكان في عجلة من امره لا لأنـه يخشى ان يكون متأخراً فرئيس المحكمة صديقه وهو وحده يستطيع ان يختصر او يطيـل اوقات الدوام كالاله زيوس الذي كان يطيل الايام ويقصر الليل لمصلحة من يحبهم ويسمح لهم بذلك ليربحوا معركة او لينهوا خصومة . ولكن بافل ايفانوفيتش كان يرغب بانهـاء مشاكله بسرعة لا لان كل شيء يبدو له غامضـاً قلقاً ، فقد كان لا يصدق انه يملك هذه الارواح لذلك كان يريد ان ينتهي باسرع مايمكن من تسجيل العقود.

وما كاد يخرج من فندقه وهو يرتدي معطفـاً من الفرو حتى صادف رجلاً آخر يرتدي معطفاً آخر من الفرو ايضاً وقبعة مصنوعة من فرو كلب الماء وصرخ الرجل عندما شاهد تشتشيكوف ، انه مانيلوف ؛ وسرعان ما ارتمى الرجلان على بعضهما وبقيا هكذا مدة خمس دقائق يتبادلان القبل بشكل ظل كلاهمـا يعاني الامرين من ألم اسنانهما طيلة ذلك النهـار . كان فرح مانيلوف عظيما وقد

ظلت عيناه مغلقتين طويلاً ولم يترك يد تشتشيكوف إلا بعد مضي ربع ساعة ، وقد شعر هذا الاخير باصابعه تحرقه بشدة عندما افلتها مانيلوف من قبضته .

قص مانيلوف على بطلنا كيف وصل الى المدينة وصور له شدة شوقه لعناقه وكان يستعمل في ذلك أعذب الالفاظ وارشقها ، وانهى كلامه ليفرغ الى مديح لايوجهه إلا رجل لفتاة راقصها في احدى الحفلات . وفتح تشتشيكوف فمه وهو لايدري بماذا يجيب ثم قدم له مانيلوف ورقة يلفها شريط وردي اللون .

ـ ما هذه الورقة ؟

ـ قائمة اسماء الفلاحين .

ففتح بافل ايفانوفتش الورقة وابدى اعجابه الشديد بالخط .

ـ لقد كتبت الاسماء جيداً ، ولا حاجة بي لاعادة كتابتها الآن ... وهذا الرسم ... لو يرسم جيداً عندك .

ـ لاتتكلم عن هذا .

اهو انت ؟

ـ لا ... بل هي زوجتي .

ـ آه ... اني خجل لما سببته لك من المشقة .

ـ ليس هناك من مشقة عندما يتعلق الامر ببافل ايفانوفيتش .

فانحنى تشتشيكوف شاكراً . وعندما علم مانيلوف ان صاحبه في طريقه الى المحكمة لتسجيل عقود البيع عرض عليه ان يرافقه . وهكذا ذهب الصديقان الى المحكمة يتأبط كل منهما ذراع الآخر . وكان مانيلوف كلما صادف عقبة في الطريق من منخفضات او مرتفعات او أدراج ، يسند تشتشيكوف وكأنه يريد ان يحمله ، ذلك انه لايحتمل ان يؤلم تشتشيكوف قدميه الصغيرتين . واخيراً وصل الصديقان الى المحكمة . وكان مقرهـا يقع في بناء مؤلف من ثلاثة طوابق من الحجر الابيض ترمز نظافته الى نقاء موظفي العدالة المحلية . واما بقية الابنية المجاورة فكانت أصغر من بناء المحكمة ؛ وكان هناك مخفر

للجنود يقف الديدبان امام بابه ، و كان يوجد عربتان او ثلاث تنتظر زبائنها لتقودهم الى السجن . واخيراً كانت هناك اسوار عالية تملؤها الكتابات والصور المرسومة بالفحم ، و كان هذا كل مايزين ذلك الميدان المنعزل .

كانت رؤوس الموظفين تطل من نوافذ الطابق الثاني والثالث ولكنها سرعان ما توارت فجأة ؛ ذلك انه بلا ريب قد مر الرئيس بهذه المكاتب في تلك الآونة . وصعد الصديقان السلالم أو بالاحرى اجتازاها قفزاً ، ذلك ان تشتشيكوف كان يسرع الخطى خشية ان يحاول مانيلوف مساعدته ؛ بينما كان مانيلوف يقفز بدوره كي لايتعب صديقه . ووصل الصديقان الى بهو طابق المكاتب وقد انبهرت انفاسهما من التعب . ولم يكونا بحاجة لاظهار اعجابهما بنظافة المكان ذلك انه لا يهتم احد بتنظيفه والقذر يظل قذراً على مر الايام ، ذلك ان العدالة تستقبل ضيوفها دون كلفة . كان يجب وصف المكاتب ولكن المؤلف يشعر بالجبن امام مكاتب الموظفين ، فاذا ما اتفق له ان مر في الغرف الفخمة حيث يبرق فيها كل شيء ، فانه يسير بسرعة وانظاره متجهة بتواضع نحو الارض بحيث لايكاد يرى شيئاً .

وشاهد بطلانا كمية كبيرة من الورق الابيض والورق المسود بالكتابة ورؤوساً محنية واعناقاً غلاظاً ومعاطف انيقة وثياباً خيطت في الريف . ولفت نظرهما معطف رمادي صاف و كان الرأس الذي يخرج من هذا المعطف ملتصقاً به تقريباً .

كان هذا الرجل يكتب بسرعة محضراً يتعلق باملاك اشتراها ملاك مسالم ورغم ان هذا الملاك عاش حياته ملاحقاً من قبل العدالة فقد كان يعيش بأمان مع عائلته يحيط به اولاده واحفاده . و كانت تتعالى من حين لآخر امثال هذه الصيحة : « أتريد الملف رقم ٣٦٨ يافيدوسي فيدوسفيتش » او « انك تبذر حبر التاج » . و كان صوت مرنان يتعالى في بعض الاحيان ويقول بلهجة آمرة : « اكتب بسرعة والا حسمت عليك مرتب ستة ايام » فتسرع الاقلام في

ركضها فيخرج عند احتكاكها بالورق صوت اشبه بصوت زحافات تمر فوق اكداس من اوراق الاشجار الميتة .

واتجه تشتشيكوف مع صديقه مباشرة الى اول طاولة فسألا موظفين شابين كانا وراءها :

– أتسمحان بان تدلانا أين يجب ان نتوجه بشأن قضايا العبيد ؟

فأجابا :

ـ وماذا تريدان ؟

ـ عندي طلب اريد ان اقدمه .

ـ وهل اشتريت عبيداً ؟

ـ اريد ان اعرف اولاً اين يوجد مكتب العقود أهو هنا ام في مكان آخر؟

– قل اولاً ماذا اشتريت وماهو السعر الذي دفعته وبعد ذلك ندلك على المكتب ، والا فمن المستحيل ان نرشدك .

وفهم تشتشيكوف ان هذين الموظفين فضوليان كجميع الشباب أو انهما يريدان ان يسبغا على نفسيهما الوقار والاهتمام فقال :

– اسمعا لي ؛ اني أعرف تماماً ان جميع قضايا بيع العبيد تعالج في نفس المكتب فأرجوكما إذن ان ترشداني الى هذا المكتب اما اذا كنتما تجهلان عملكما فسأتوجه الى آخر غيركما .

ولم يجب الموظفان ولكن احـــدهما اكتفى بأن أشار باصبعه الى زاوية في الغرفة كان موظف هرم يرتب اوراقاً فيها ، فمر تشتشيكوف ومانيلوف بين عدة مناضد واقتربا من الشيخ الذي كان منصرفاً الى عمله فقال تشتشيكوف وهو يحييه :

– اسمح لي ان اسألك عما اذا كنت المكلف بعقود بيع العبيد .

– نحن لانعالج قضايا العبيد هنا .

ـ وأين اذن ؟

ـ في مكتب العقود .

ـ وأين يكون هذا المكتب .

ـ هناك حيث يجلس ايفان انطونوفتش .

ـ وأين هذا الايفان انطونوفتش ؟

فأشار الشيخ الى زاوية اخرى من الغرفة .

فذهب تشتشيكوف مع صديقه الى ايفان انطوفتش .

وما إن رآهما هذا الاخير حتى القى نظرة خلفه ثم القى نظرة اخرى عليهما وعاد بعد ذلك الى عمله .

قال بافل ايفانوفتش :

ـ اسمح لي ان اسألك عما اذا كان هنا مكتب عقود بيع العبيد .

ولم يبد على ايفان انطونوفتش انـه لانهماكه في عمله ولذلك لم يجبه .. لقد كان رجلاً ناضجاً لافتياً ثرثاراً ، وكان يبدو عليه انه تجاوز الاربعين من عمره، كث الشعر اسوده ، قـــد برز القسم الاوسط من وجهه بحيث يبدو على سوية واحدة مع انفه .. وكان وجهه في جملته من الوجوه التي تسمى عادة باسم : قبضة الابريق .

وعاد تشتشيكوف الى السؤال :

ـ هل تسجل العقود هنا .

ـ نعم .

ـ اليك اذن بطلبي .. لقد اشتريت عبيداً من عدة ملاكين في هذه المقاطعة وهاهي عقود البيع معي ، ولم يبق غير تسجيلها .

ـ هل البائعون هنا ؟

ـ ان بعضهم موجود ولكن بعضهم الآخر منحني تفويضاً مطلقاً .

ـ وأين طلبك ؟

ـ ها هو معي .. اني بحاجة الى السرعة ، ايمكن ان انفض يـــدي من المشكلة اليوم ؟

ـ يستحيل ذلك ، إذ يجب ان نرى ما اذا كان هؤلاءالعبيد محجوزين .

ـ ان علاقاتي طيبة مع رئيس المحكمة ايفان غريغورفتش ولتعجيل الامور يمكن ..

فقاطعه ايفان انطونوفتش بشدة :

ـ ان ايفان غريغورفتش ليس الوحيد هنا .

وفهم تشتشيكوف بان عليه ان يكون حريصاً هنا فقال .

ـ اني لاانسى احداً فقد كنت فيخدمة الدولةوأعرف كيف تجري الامور.

فقال صاحبنا بلهجة ألطف :

ـ اذهب الى الرئيس واحصل منه على امر للاشخاص الذين تتعلق قضيتك بهم فينتهي الامر .

فمد تشتشيكوف يده الى جيبه وأخرج ورقة مالية ووضعها بلطف امـام ايفان انطونوفتش ولم يبد على صاحبنا انه لاحظها ولكنه غطاها بجلدة مصنف ، فأراد بافل ان ينبهه اليها غير ان ايفان انطونوفتش افهمه باشارة من رأسه ان لا داعي لذلك ، ثم أشار الى موظف وقال :

ـ سيقودكما الى قاعة المحاكمات .

كان الموظف الذي اشار اليه قد خدم العدالة باخلاص بحيث ان ثقوب كمي معطفه تسمح برؤية البطانة بوضوح ، ورافق الموظف صديقينا الى قاعةالمحاكمات حيث كان هناك بعض المقاعد وطاولة عليها لوحة خشبية مثلثة سجلت عليهـــا القوانين الثلاثة الاساسية للعدالة الروسية ، وكتابان كبيران كان الرئيس وراءهما يشع كالشمس .

ودار الموظف على عقبيه احتراماً لهذا الحزم الذي لم يكن ليجرؤعلى دخوله بعد ان فتح الباب للصديقين .

وعندما دخل مانيلوف وتشتشيكوف القاعة رأيا ان الرئيس لم يكن وحيداً فقد كان سوباكيفتش جالساً الى جانبه محتجباً خلف تلك اللوحة المثلثة ، وعلت صيحة ترحيب تستقبل الصديقين وتحركت المقاعد الرسمية محدثة ضجيجاً مزعجاً ووقف الرئيس كما بـدا سوباكيفيتش بكمين طويلين ، وتلقى الرئيس بافل ايفانوفتش بين ذراعيه ورددت جـدران الغرفة صدى القبلات وسأل كل منهما الآخر عن صحته وصرح الاثنان انهما يعانيان آلاماً في الكليتين وقد عز الامر للحياةالعصرية .

كان سوباكيفتش قد أعلم الرئيس بمشتريات بافل ايفانوفتش فأسرع هـــذا بهنئه مما جعل تشتشيكوف يتأثر كثيراً بالتهنئة ويشكره بحرارة مرتفعة جداً عليها ، ثم توجه الى سوباكيفتش وسأله :

ـ وانت كيف صحتك.

فأجاب سوباكيفتش .

ـ لااشكو شيئاً ولله الحمد.

وبالفعل فانه يمكن للحديد نفسه ان يتأثر بالبرد اكثر من هذا الملاك القوي.

وقال الرئيس :

ـ انك مشهور بالصحة فقد قيل لي ان المرحوم والدك كان قويا كالطود .

فقال سوباكيفيتش

ـ لقد كان بوسعه ان يصرع دباً وحده .

ـ ولكن يبدو لي انك الآن تستطيع بسهولة ان تصرع دباً لوحدك .

ـ لا ... فقد كان أبي اقوى مني

ثم تنهد وتابع :

– لم نعد من نفس الطينة اليوم... انظر الى حياتي فهي ليست في الواقع حياة
– وما الذي ينقص حياتك لتكون جميلة ؟
فقال سوباكيفيتش وهو يهز برأسه :
– اوه ... لاشيء حسن بالمرة ... احكم بنفسك يا ايفان غريغوروفتش! لقد تجاوزت الخمسين من عمري ولم أمرض يوماً قط ... كان من الممكن ان اصاب بألم في حنجرتي او في اي شيء آخر ولكن ... لاشيء ... لاشيء ... ان هذا لدليل سيء فمن المؤكد باني سأدفع ثمن هذا غالياً ذات يوم .
وبدا على سوباكيفيتش انه حزين . فحدث كل من الرئيس وتشتشيكوف نفسه قائلاً: « انه يبالغ... كيف يجرؤ انسان في مثل قوته على الجأر بالشكوى؟»
واخرج بافل ايفانوفيتش من جيبه رسالة بليوشكين ثم قال متوجهاً بحديثه الى الرئيس :
– عندي رسالة لك
فأجاب الرئيس وهو يتناولها :
– وممن ؟
ثم مزق الغلاف وهتف
– آه ! من بليوشكين ... أما زال على قيد الحياة ... باللحظ لقد كان انسانا ذكياً وثرياً جداً في الماضي ... ترى ماهي احواله الآن .
فقال سوباكيفيتش
– انه كلب حقير يميت عبيده جوعاً .
وقال الرئيس بعد ان قرأ الرسالة
– حسناً اني اقبل ان أمثله، متى تريد توقيع العقود فأجاب تشتشيكوف :
– اليوم لاني اريد ان اغادر المدينة غداً وعندي جميع الاوراق .
– حسناً ولكن ثق باننا لن ندعك هكذا ، سنسجل العقود اليوم ولكننا سنلهو معاً ... انتظر قليلاً لألقي أوامري .

وفتح الرئيس باباً يطل على غرفة مليئة بالموظفين الذين يشبهون النحل في كثرتهم إذا جاز لنا ان نشبه خلية نحل مليئة بالعسل ، بمكتب في محكمة ، ونادى الرئيس :

– هل ايفان انطونوفتش هنا ؟

فأجابه صوت : « نعم »

– إيتني به

وجاء ايفان انطونوفتش الى قاعة المحكمة فحيا باحترام :

– خذ جميع هذه العقود ياايفان انطونوفتش ... فقاطعه سوباكيفتش .

– لا تنس يا إيفـــان غريغورفتش انه يلزم شاهد لكل فريق فاستدع المدعي العام فهو دائماً دون عمل لأن حاجبه زولوتوشكا وهو اكبر وغد في العالم يقوم باعماله . واستدع كذلك مفتش الشؤون الصحية فهو فارغ دوماً وستجده في مكتبه ايضاً الا إذا كان يلعب بالورق عند صديق . واخيراً هنـاك بالقرب من هنا تروخاتشفسكي وبيفوشكين اللذان لايعرف احد ما جدوى حيـاتيهما . فهتف الرئيس :

– انها فكرة حسنة .

وأرسل في الحال موظفاً لاستدعاء الاشخاص المذكورين .

وقال تشتشيكوف :

– أرجوك ايضاً ان تستدعي وكيل ملاكة اشتريت منها عبيداً وهو أبونا الكاهن سيريل وأحد موظفيك . فأجاب الرئيس :

– بكل تأكيد ... سننجز كل شيء ولكني ارجوك ألا تدفع شيئاً لأحد فأصدقائي لايدفعون . ثم وجه امراً بصوت منخفض الى ايفان انطونوفتش يبدو انه لم يعجب الاخير . وأثرت عقود البيع في نفس الرئيس تأثيراً حسنـاً وخاصة

عندما رأى ان قيمة المشتريات ترتفع الى مائة الف روبل تقريبـــاً فنظر الى تشتشيكوف بفرح ثم قال :

– آه ! ... لقد اشتريت كل هذا يا بافل ايفانوفتش ... هذا مدهش ... هذا مدهش .

فأجاب تشتشيكوف :

– أجل لقد اشتريت كل هذا .

– انها صفقة مدهشة .. بلى مدهشة .

– لم يكن بامكاني ان افعل احسن من هـــذا . ان هدف حياة الانسان يتحدد عندما يضع قدماً ثابتة على الارض ويهجر الاوهام التي غذت شبابه .

ثم وجه بافل ايفانوفتش عبارة مناسبة في مهاجمة الافكار التحررية والشباب ولكن كان عدم الاقتناع بما يقول يبدو في كلماته ؛ وكان يحدث نفسه قائلا : « ان جميع ما تدلي به يا صديقي غير صحيح ... وانك لكاذب » ولم ينظر الى سوباكيفتش او مانيلوف خشية ان يقرأ الامتعاض على وجهيهما ، ولكن خوفه كان في غير محله فقد ظل سوباكيفتش على بروده وأما مانيلوف فقد سحره خطاب تشتشيكوف فكان يهز رأسه بسرور كما لو كان احد عشاق الموسيقى يستمع الى مغنية بلغت أوج الفن في غنائها .

وفجأة قال سوباكيفتش :

– ولكن لماذا لاتقول لايفان غريغورفتش ماذا اشتريت ؟ وانت يا ايفان غريغور فتش لماذا لا تستفسر عن مشترياته ... لقد اشترى ذهباً صافياً ، لقد بعته صانع العربات فيجييف .

فأجاب الرئيس :

– فيجييف ؟ انك تمزح ... اني اعرفه جيداً ... لقد اصلح عربتي ، ولكن اسمح لي ان اذكرك بأنك قلت لي انه مات .

فهتف سوباكيفتش دون ان يضطرب :

ـ فيجبيف مات ؟ ان اخاه هو الذي مات ، اما فيجبيف فحي وفي صحة جيدة ... لقد صنع لي منذ ايام عربة يحسدني عليها سكان موسكو انفسهم... انه يستحق ان يشتغل عند القيصر .

ـ نعم انه عامل ماهر ويدهشني انك استغنيت عنه .

ـ اوه لقد بعته آخرين ايضاً ... لقد بعته بروبكاستيبان الحطاب وميلوخين وماكسيم تلماتنيكوف الحذاء ... لقد ذهب الجميع ... لقد ذهبوا ...

فسأله الرئيس عن السبب في بيع عبيد يفيدونه كهؤلاء .

ـ لا ادري ... حماقة ... لقد قلت لنفسي : ماذا لو تخلصت منهم ... وبالفعل فقد تخلصت منهم .

وأحنى رأسه كما لو كان نادماً على حماقته وأضاف :

ـ لم يزد ذكائي مع بياض شعري .

وسأل الرئيس بافل ايفانوفتش :

ـ ولكن اسمح لي ان اسألك : انك تشتري العبيد دون الاراضي فهل تنوي ان ترسلهم ليشتغلوا في مناطق اخرى ؟

ـ نعم .

ـ هذا أمر آخر ... وأين تريد ان ترسلهم ؟

ـ الى ... الى حكومة خرسوك .

فقال الرئيس :

ـ ان الاراضي ممتازة هناك والمراعي خصيبة ، ولكن هل تملك كثيراً من الاراضي هناك ؟

ـ مايكفي لتشغيل الفلاحين الذين اشتريتهم .

ـ وهل تملك انهاراً او مستنقعات ؟

ـ أجل عندي الانهار والمستنقعات ايضاً .

وألقى تشتشيكوف نظرة سريعة على سوباكيفتش وهو يتلفظ بهذه العبارات

ولكن وجه الاخير كان عديم التأثر كالمعتاد ، ومع ذلك فقـــد كان يبدو انه يقول لتشتشيكوف :

« ماهذه الاكاذيب التي تسمعنا إياها ، انك لاتملك انهاراً ولا مستنقعات بل لاتملك الاراضي »

وبدأ في هذه الاثناء الشهود بالورود : و كان اولهم المدعي العام ثم مفتش الادارة الصحية واخيراً تروخاتشفسكي وبيفوشكين وآخرون من الطفيليين كما وصفهم سوباكيفتش . و كان تشتشيكوف يجهل شخصيات بعضهم ، وقـــد اكتمل العدد اللازم من الشهود ببعض موظفي المحكمة ثم جاء سيريل وابنه .

ووقع كل منهم ذاكراً تحت توقيعـه طبقته وجميع ما يحمله من أوسمـــة وشهادات ، كما وقع بعضهم باحرف مائـلة وبعضهم الآخر باحرف مستقيمة . و كانت بعض الاحرف تقترب من بعضهـــا حتى لتبدو غريبة عن الابجدية الروسية وأنهى ايفان انطونوفتش الشكليات وسجلت العقود ووضعت عليهـــا الطوابع ودفع تشتشيكوف اقل قدر ممكن من المال ، ذلك ان الرئيس قد أمر ألا يؤخذ منه الا نصف المبلغ المحدد بالقانون واما النصف الآخر فقد ألغي بطريقة لايفهمها انسان ، وعندما انتهى كل شيء هتف الرئيس :

– لم يبق الآن الا ان نشرب على شرف هذه الصفقة .

فقال تشتشيكوف :

اني تحت تصرفكم وما عليكم الا تحديد الساعة ذلك اني لااستطيع ان ارفض بضع زجاجات من الخمر الجيد لهذه (الشلة) الكريمة .

فأجاب الرئيس :

– انت لم تفهمني ، إذ اننا نحن الذين سنقدم لك الخمر لان هذا من واجبنا ، وما انت الا ضيفنا فعلينا ان ندعوك .. عندي فكرة جيدة ايهـــا السادة .. لنذهب الى مدير البوليس فهو من صانعي المعجزات ، وما عليه الا ان يبدي

اشارة بسيطة حتى تقام مـــأدبة فاخرة وجيدة في نوعهـا ثم نلعب بعد ذلك الويست سوياً .

لم يكن في مقدور انسان ان يرفض اقتراحاً كهذا ، فكلمة مأدبة وحدها تكفي لأن يشعر الشهود بشهية عظيمة ، وهكذا اخذ كل منهم قبعته ورفعت الجلسة ، وعندما مروا بمكتب ايفان انطونوفتش تقدم (قبضة الابريق)من تشتشيكوف وتمتم :

– لقد اشتريت بمائة الف روبل عبيداً ولم تدفع لي الا ورقة مالية صغيرة .

– فأجابه بافل ايفانوفتش بصوت منخفض :

– أي عبيد .. انهم عديمو الجدوى ولا يساوون نصف هذا المبلغ .

ففهم ايفان انطونوفتش انه امام انسان لا يستطيع ان يأخذ منه كوبيـكا واحداً ، وفي هـــذه البرهة اقترب سوباكيفتش من تشتشيكوف وسـأله بصوت منخفض :

– كم دفعت ثمناً للعبد الواحد عند بليوشكين ؟

– قل لي انت اولاً لماذا وضعت اسم فوروبيا في قائمتك ؟

– اي فوروبيا ؟

– المرأة اليزافيتا فوروبيا .. أتذكرها .. لقد ذكرت اسم اليزافيتا .

فقال سوباكيفتش وهو يلحق بالجماعة .

– كلا فاني لم اسجل اسم فوروبيا .

ووصل الجميع الى مكان مدير البوليس ، وكان هـــذا بالفعل من صانعي المعجزات ، فما ان عرف رغبة الوافدين عليه حتى نادى ضابط الحرس وهمس في اذنه كلمتين ثم اضاف بصوت عال : « افهمت ؟ » وفي الحـال ، وبينما بـــدأ الاصدقاء يلعبون الويست امتلأت الطاولة في غرفة الطعام بشتى انواع اللحوم والأسماك والحلويات الفاخرة النادرة .

كان مدير البوليس بمثابة أب لهذه المدينة الصغيرة فقد كان يعيش مع مواطنيه وكأنهم من عائلة واحدة ، فهو يتصرف بالحوانيت والاسواق كما لو كان في منزله تماماً . وكان الى جانب ذلك يحسن القيـــام بواجبه كمدير للبوليس حتى ليصعب التمييز فيما إذا كان قد خلق لهذه الوظيفة ام انهـا خلقت له . وكان قد رتب اموره بشكل يجمع معه اضعاف موارد أسلافه ، ومع ذلك فقدغزا قلوب سكان المدينة . فالتجار يحبونه لعدم تكبره وهو بدوره يحضر عمـادة اولادهم ويدخل بيوتهم . واما أنه كان يسخرهم لزيادة ثروته فهو يفعـل ذلك على الاقل بمهارة . ذلك انه كان يربت على اكتافهم عندما يراهم ويضحك معهم ويقدم لهم الشاي ويستفهم عن أحوالهم وينصحهم بأدوية يحددها لهم إذا علم ان احدأولادهم مريض ... لقد كان بالفعل رجلا طيباً .

وعندما يجتاز المدينةبعربته كان يلحظ كل شيء ويعرف كيف يلقي الكلمة اللطيفة على مسمع كل انسان : « هيه ميشيتش يجب ان نلعب الفوركا » فيجيب ميشيتش : « بكل تأكيد يا أليكسي ايفـانوفتش » ... « وأنت يا إيليـــا بارامونوفتش تعـال شاهد جوادي ولنجعـله يتسابق مع جوادك وسنرى من يربح » فيضحك التاجر الذي يحب حيواناته من اعماق قلبه ويجيب وهو يداعب لحيته : « حسناً سنرى يا أليكسي ايفـانوفتش » . وأما موظفوه الذين يخلعون قبعاتهم له عند التحية لا يستطيعون ان يمنعوا انفسهم من القول حـال مروره : « ان اليكسي ايفانوفتش انسان طيب » والخلاصة انه استطـــاع الفوز بشعبية قوية ، وكان التجار يقولون : « ان اليكسي ايفانوفتش يخدعنـا ولكنه يعرف كيف يحمينا عند اللزوم . »

وما إن وضعت الاطعمة على المـائدة حتى طلب مدير البوليس من ضيوفه الانتقال الى غرفة الطعام وتأجيل اتمام اللعبة الى مابعد الغداء . وكانت الروائح الشهية تداعب انوف الضيوف وكان سوباكيفتش يراقب سمكة كبيرة وضعت

في طبق بعيداً عن سائر ألوان الطعام. وبعد ان تناول الجميع كأساً من الكحول تسلحوا بشوكة وانقضوا بها على المائدة واندفع كل منهم الى نوع من المقبلات . وتناول بعضهم الكافيار والبعض الآخر اخفى بهجومه سمك السردين والبيض والجبن . اما سوباكيفتش فقد نظر باحتقار الى هذه المقبلات وجلس قرب السمكة الكبيرة، وبينما كان الآخرون يشربون ويثرثرون ابتلع صاحبنا السمكة في اقل من ربع ساعة . وهتف مدير البوليس بضيوفه عندما تذكر السمكة : « ايها السادة ها كم احدى معجزات الطبيعة » ولكن معجزة الطبيعة تلك لم يبق منها في هذه اللحظة الا ذنبها . وكان سوباكيفتش في تلك الاثناء قد انتقل الى طبق آخر مليء بالسمك المقلي ، وبعد ان سجل نصره انتحى جانباً واخذ يرقب (الشلة) وعيناه تغمزان باستمرار .

اما مدير البوليس فقد كان يحب الخمر لدرجة الهيام ، ولذلك لم تنتهي الانخاب . وبالطبع فان الكاس الاولى كانت نخب سيد خرسوك ثم نخب ازدهار أراضيه ونخب نجاح توطين عبيده في ذلك البلد الجديد ، ثم نخب زوجة بافل ايفانوفتش المقبلة الحسناء دون ادنى ريب ، وبالطبع فان هذه الكلمات كانت تشجع بطلنا على الابتسام . وقد احاط به الجميع ورجوه ان يبقى بينهم خمسة عشر يوماً على الاقل .

– لا يابافل ايفانوفتش ... ان الانسان لايفتح باب غرفته ليدخل البرد اليها ... ستبقى معنا قليلاً ... سنزوجك ... سنزوجه يا إيفان غريغورفتش أليس كذلك ؟

فهتف الرئيس :

– أجل سنزوجه... عبثاً تقاوم ... سنزوجك ... لقد زرتنا ... لاتقل شيئاً فنحن لا نحب المزاح .

فقال تشنشيكوف مبتسما :

- ولم المقاومة ؟ ان الزواج شيء جميل حقاً ، ولكن الامر امر الخطيبة .
- ستكون لك خطيبة ... ولم لا ؟ ستحصل على جميع ماترغب .
- اوه ... ولكن لي خطيبة بالفعل .
فهتف الجميع :
- برافو سيبقى ... عاش بافل ايفانوفتش ... هورا هورا !...
واقترب الجميع منه يحملون بايديهم الاكواب فقرعوها وصاح المتحمسون : « ايضاً .. ايضاً » وقرعت الكؤوس ببعضها ثلاث مرات وكان المرح عاماً ، اما الرئيس فقد كان يقبل بافل ايفانوفتش بلطف يتزايد كلما أمعن في الشراب ويناديه بأعذب الاسماء : « ايا روحي الصغيرة .. أيا امي الفتية » ثم اخذ (يفقش) أصابعه ويتراقص حوله وهو يغني الاغنية الشعبية : « أهذا انت يافلاح كامارا » وقدمت الشمبانيا مع نبيذ هنغاريا فزاد هذا في صرح (الشلة) ونسي الاصدقاء الويست واخذوا يتناقشون ويصيحون ويزمجرون ؛ كانوا يتحدثون في كل شي في السياسة ، وفي الشؤون العسكرية ، ويبدون من الآراء الثورية مالو أيدها ولد احدهم منذ ربع ساعة لجلدوه ، كما وجدوا حلولا كثيرة لأعقد المشاكل ، اما تشتشيكوف فلم يسبق له ان شعر بهذه النشوة وكان يعتقد انه فعلًا ملاك في خرسوك فأخذ يتكلم عن الاصلاات التي سيدخلها في اراضيه كما تحدث عن سعادة قلبين جمع بينهما الحب ، ثم أنشد سوباكيفتش قصيدة من قرنو الى شارلوت ، ولكن هذا لم يفلح في اثارة اهتمام صديقه الذي زادت السمكة في نعاسه .

وادرك تشتشيكوف بسرعة خطر هذا المرح فطلب عربة ولكن المدعي العام قدم له عربته وكان حوذيها رجلا مجرباً فقاد العربة بيده اليمنى بينما امسك الشتشيكوف بيسراه كي لايقع على الطريق ، وهكذا وصل صاحبنا في هذه الشروط الى الفندق ، وكان خياله شارداً يحلم بعذراء فتية وجميلة كما اخذ يحلم القرى خلابة حول خرسوك ، وأموال وفيرة ، فدعا اليه سليفان وامره ان

يجمع فلاحي المستعمرة الجديدة في باحة الفندق وان يناديهم باسمائهم . واصغى سليفان الى سيده مدة طويلة دون ان ينبس بحرف ثم ذهب الى بتروشكا وقال له : « اذهب وساعد السيد على خلع ملابسه ! » فأسرع بتروشكا الى تشتشيكوف وكان السكر قد بلغ ببطلنا حداً كاد ان يوقعه على الارض فأخذ الخادم ينزع الحذاء من قدميه . وبعد ان خلع ملابسه استلقى على سريره نام وهو يعتقد انه بالفعل سيد خرسوك .

اخذ بتروشكا الملابس وعلقها على مشجب صغير ثم جعل ينفضها بقوة حتى متلأ الممر بسحب من الغبار . وفي اللحظة التي بدأ فيهـــا بالدخول الى غرفته شاهد سليفان يخرج من الاسطبل ، فنظر كل منهما الى الآخر بصمت وفهم كل واحد ان الآخر يقول : « لقد نام السيد فلنذهب لنمرح قليلاً . » وفي الحال رتب بتروشكا ملابس بافل ايفانوفتش ونزل الى الباحة ومشى الصديقان جنباً الى جنب دون ان يقول احدهما للآخر اية كلمة عن هدفهما . وكانت نزهتهما قصيرة فقد اجتازا الطريق ثم دخلا حانوتاً تجاه الفندق فوجدا نفسيهما في غرفة شبه كهفاً يجلس فيه اشخاص عديدون الى موائد خشبية . ترى ماذا فعل سليفان وبتروشكا ؟ ان الله وحده يعلم ذلك ، فقد خرجا بعد مضي ساعة يمسك كل منهما بيد الآخر ويبديان لبعضهما ، ولكن بصمت ، كل انواع الود والمحبة وبعد ان قضيا ربع ساعة طويلة في تسلق الدرج نجحا في اجتياز الدرجة الاخيرة وفتحا باب غرفة بتروشكا. ووقف هذا برهة كبيرة قرب سريره متسائلاً كيف تنام ثم استلقى على الارض بجانب السرير ، ووضع سليفان رأسه فوق بطن صديقه ونام ناسياً ان عليه ان ينام في غرفة الخدم او في الاسطبل . ونام الاثنان في الحال وقد ملآ الغرفة شخيراً ، وكان معلمهما يجيب عليه بصفير خفيف يخرجه من انفه . ثم خيم هدوء عميق على الفندق وبقيت نافذة واحدة مضاءة ... انها نافذة غرفة الضابط الذي وصل بالامس من بازان ، وكان من هواة الاحذية ؛ ذلك انه أوصى حين وصوله على اربعة ازواج من الاحذية وقضى نهاره برمته

وهو يجرب الحذاء الخامس ، واقترب من سريره اكثر من مرة ليخلع هذا الحذاء وينام . كان في هذه البرهة يجلس على حافة السرير ويرفع ساقه بين الفينة والاخرى ، ولكنه لم يستطع ان يمنع نفسه من الاعجاب بشكل حذائه .

الفصل الثامن

أصبحت مشتريات تشتشيكوف حديث المدينة وأبـدت مختلف الآراء والنظريات حول مدى فائدة شراء عبيد لتوطينهم في ارض جديدة. وكان بعضهم يقول ان اراضي الجنوب خصبة بلا ريب ولكن ماذا سيصنع فلاحو تشتشيكوف دون ماء؟ ذلك انه لا يوجد انهار هناك.

ـ ان عدم وجود الماء ليس بذي قيمة ياستيفان ديمتريش ولكن نقل هذا العدد ... تلك هي المشكلة. وبعد، تصور عبداً في أرض جديدة دون بيت او بقعة مألوفة فانه سيهرب بلا أدنى ريب. واني متأكد من ذلك تأكدي من ان الاربعة هي حاصل ضرب اثنين باثنين، أجل سيهرب دون ان يدع اثراً خلفه.

ـ اسمح لي يا الكسي ايفانوفتش ان اعترض على قولك؛ اني لا اعتقد ان عبيد تشتشيكوف سيهربون. فالروسي قادر على كل شيء وهو يعتاد بسرعة على تغيرات الاقليم. ولو انك ارسلت العبد الى كاماشتكا شريطة ان تزوده بمعطف دافيء، فانه سيضرب يده بالاخرى ويمسك بمطرقته ليبدأ ببناء بيت له.

ـ انك تنسى نقطة هامة ياايفان غريغوريفتش وهي اخلاق عبيد بافل ايفانوفتش.

ان الملاكين لايبيعون العبيد النشيطين ابداً ، واني لأراهن على قطع عنقي بان كلًا من عبيد تشتشيكوف إن لم يكن سارقاً او سكيراً ، فهو على الاقل كسول او مشاكس .

ـ هذا صحيح .. ان الملاكين في الواقع لايبيعون احسن عبيدهم وماعبيد تشتشيكوف الا من السكيرين . ومع ذلك فهناك نقطة يجب مراعاتها : انهم هنا كسولون ولكن تغير الجو والبيئة سيؤثر فيهم ، ونحن نعرف امثلة كثيرة من هذا القبيل ، والتاريخ نفسه يبرهن على صحة هذا الرأي .

فهتف مدير مصانع التاج :

ـ ابداً ... ان هـــذا لايحصل على الاطلاق ... ان فلاح تشتشيكوف سيكون له الآن عدوان : أولهما المقاطعات الروسية التي على الحدود حيث تباع الكحول ، وأؤكد لكم بانهم سيصبحون بعـــد مضي اسبوعين من وصولهم سكيرين لدرجة الموت . واما العدد الثاني فهو عـــادة التشرد والتجوال التي ستتغلغل في أعماقهم اثناء عملية نقلهم ... هذا الااذا قام تشتشيكوف بمراقبتهم باستمرار ، وعرف كيف يقودهم ويعاقبهم على اقـل ذنب دون وسيط ... فيضربهم بنفسه على الفك او على النقرة ...

ـ ولمـــاذا يضربهم تشتشيكوف بنفسه ؟ سيكون له وكيل يقوم عنه بهذه المهمة .

ـ الوكلاء ؟ انهم عصابة لصوص .

ـ هذا صحيح ، والسبب في ذلك ان الملاكين انفسهم لايهتمون باعمالهم .

فهتفت عدة اصوات :

ـ هذا حق .

ـ اذا كان الملاك يعرف كيف يدير املاكه واذا كان يفهم الناس فهماً صحيحاً فانه بلاريب سيستطيع ان يحصل على وكيل طيب .

وهنا قال مدير المصانع بانه لايمكن الحصول على وكيل بأقـل من خمسة

آلاف روبل في العام . فأجاب الرئيس بأن اي وكيل يقبل ثلاثة آلاف روبل بسهولة ، فهتف مدير المصانع :

– هلا دللتني اين يوجد ؟ أفي انفك؟

– ولماذا في انفي؟ اني اعرف واحداً في مقاطعتنا ..واسمه بيونربيوتروفتش ساموالوف ؛ وان تشتشيكوف بحاجة لمثله .

وابدى الكثير عطفهم على تشتشيكوف ، وكانت مصاعب نقل هذه الكبيرة من العبيد يخيفهم ، فبدأوا بالتخوف من ثورة هؤلاء العبيد وهنا قال مدير البوليس بان الثورة مستحيلة وان الكابتن اسبرافنيك يعرف كيف يحافظ على الامن ، وهو لن يحتاج الى ازعاج نفسه بل سيكتفي بارسال عمرته ..وهذه العمرة وحدها كافية لسوق الجميع حتى خرسوك ، ثم انتقل الجمع الى بحث الوسائل التي تؤدي الى ترويض نفوس تشتشيكوف الثائرة ، فاقترح بعضهم اقسى الاساليب العسكرية واما البعض الآخر فكان ارحم قليلاً ،وقال مدير البوليس بانه يتوجب على بافل ايفانوفتش ان يكون اباً لعبيده فيجعلهم يستفيدون من حسنات العلم .

تلك هي الاحاديث التي دارت في المدينة الصغيرة ، وتوصل اصدقاء تشتشيكوف الى نصحه بان يطلب فصيلة من الجنود تواكب عبيده ، ولكن بافل ايفانوفتش شكرهم واعلن بانه سيعرف كيف يستفيد من تلك النصائح ، ولكنه رفض كل مساعدة عسكرية لان فلاحيه هادئون بالاضافة الى انهم يرغبون بالذهاب الى خرسوك فلا خوف والحالة هذه من حدوث ثورة .

وكانت لهذه الاحاديث نتائج طيبة لم يكن تشتشيكوف لينتظرها . وقد اشاع بعض اصدقائه بانه مليونير لا اكثر ولا اقل . وكان سكان المدينة يحبون تشتشيكوف حباً عميقاً كما كانت امثال هذه الشائعات تزيد في تقدير المدينة وحبها لبطلنا . وسكانها اناس طيبون يعيشون متفاهمين وتسود بينهم الالفة والمحبة .

اما احاديثهم فهي مليئة بالتعابير البسيطة والعاطفية : « يا صديقي العزيز ايليا ايليتش » « اسمعني يا اخي انتيباتور زاخارفتش » « ايه ! .. ولكنك تكذب ياامي الصغيرة ايفان غريغورفتش » اما عندما يكون الحديث موجهاً الى مدير البريد فان الحديث إذ ذاك تضاف اليه بعض التعابير الالمانية .

والخلاصة انهم يحيون كعائلة واحدة ولم تكن الثقافة لتنقص بعضهم؛فرئيس المحكمة يحفظ قصيدة «ليودميلا» لجوكوفسكي عن ظهر قلب . بل كان يلقي منها باتقان عدة مقاطع امثال : « الغاب والهضبة تنام » وكان ينام) يلفظ (تتثاءب بقوة حتى ان المرء يكاد يرى الهضبة تغفو ، ورغبة منه في زيادة التأثير يسبل جفنيه شيئاً بعد شيء . واما مدير البوليس فقد كان منصرفاً الى الفلسفة يقرأ في الليل باستمرار « ليالي يانغ » و « مفتاح اسرار الطبيعة » لايكارتهاوس . وكان ينقل منها مختصرات كثيرة ولكنه لم يكن يعرضها على انسان كما ان هذه الدراسات لم تكن لتمنعه من ان يكون روحياً . وكان يحب الالفاظ المنتقاة ويرغب في ان يراها مزدهرة في خطبه كما كان يقول . وبالفعل فان المرء يسمع اكثر من مرة في عباراته : «ياسيدي العزيز» و «انت تعرف... انت تفهم...» و « تصور ... » و « نسبياً كما يقولون » و « على شكل ما » وفوق ذلك كان يغمز بعينيه عندما يتلفظ بتعبير جميل . اما كبار بقية الموظفين فقد كانوا ايضاً مثقفين . فهذا قرأ (فارامسي) وذاك اشترك في « انباء موسكو » والثالث لم يقرأ شيئاً البتة . وهناك ثمة انسان يعيش دون حراك حتى انه يتوجب عليك ان تدفعه لتشعر بحياته ، وهناك آخر يقضي حياته مستلقياً على أريكة ولا فائدة من إضاعة الوقت معه فهو عاجز عن إبداء اي جهد للنهوض .

وأما عن صحتهم فالجميع على احسن حال ولم يحدث ان اعرف احدهم معنى السل الرئوي ؛ والكل ينعم بسماع زوجته تناديه : « ياقرعتي الكبيرة ، ياكرتي الضخمة . » والجميع طيبون ومضيافون حتى ان كل غريب يذوق خبزهم

ولحمهم ويلعب معهم الويست يصبح حالا من اخصائهم . وهكذا كانت الحال مع بافل ايفانوفيتش الذي عرف فوق ذلك كيف يرضيهم بعذوبته وميزاته العديدة . وكان الجميع يظهرون حبهم بشدة لبطلنا الذي كان يتساءل كيف يغادر المدينة ذلك انه كان يسمع دائماً : اسمع ياباقل ايفانوفتش ابق بيننا اسبوعاً واحداً »

ولكن الأدهش من كل ذلك حقاً ، هو ذلك الاثر العميق الذي تركه تشتشيكوف في نساء المدينة . ولفهم هذا الاثر يجب التوسع في وصف هؤلاء النساء مجتمعهن والوان ارواحهن الفاقعة . وهي مهمة صعبة على المؤلف لانه يحترم زوجات كبار موظفي المدينة جداً ؛ ومن جهة اخرى ... اجل من جهة اخرى ليس الامر من السهولة (باي مكان) .

كانت سيدات مدينة (ن) ، كانت ... لا ، لااستطيع ... اني لأشعر الخجل حقاً ... كان ابرز مافيهن ... امر غريب ... آه ! ان القلم ليرفض الاستمرار ... وهو يصبح ثقيلا كالرصاص . فلندع هذه المهمة اذن لمن يملك الواناً حية ، واما نحن فسنكتفي بقول كلمتي عن مظهرهن الخارجي ، وسنقولهما بشكل سطحي .

ان هؤلاء السيدات ، كما يقال عادة ، يصلحن للظهور في المجتمعات ، ومن هذه الوجهة يمكن اعتبارهن مثلا يحتذى به . ان هؤلاء السيدات في سلوكهن وانتقائهن اللهجة والالفاظ ، وفي محافظتهن على تقاليد المجتمعات وتتبعهن آخر تفاصيل تطور الازياء ، ان هؤلاء السيدات في جميع هذه الاشياء يسبقن سيدات بطرسبرج وموسكو بمراحل كبيرة . فهن يلبسن آخر الازياء ويتنزهن في عربات يقف في مؤخرتها خادم يرتدي بزة مذهبة . وكانت بطاقة الزيارة مطلوبة من كل انسان حتى ولو كانت مكتوبة باليد وعلى ورقة من ورقات اللعب . وكان هناك ثمة عادة اخرى قد تتخاصم صديقتان اذ خطر لواحدة منهما تجاهلها وهذه العادة هي رد كل زيارة بزيارة مثلها . وعبثاً يحاول زوجاهما او اقاربهما اصلاح ذات البين بين هاتين الصديقتين . ويجد الجميع انفسهم مرغمين على الاعتراف

بانه وان كان كل شيء ممكن على الارض فمن المحال ان تصفح سيدة عن تجاهل تقليد الزيارات . وقد تحصل مشاهد عنيفة من جراء هذا الامر اذ يشعر الزوجان ببقية باقية من اخلاق الفروسية حين يتدخلان لانهاء المشكلة ، ولكن الامر لا يصل ابداً الى المبارزة ؛ والسبب في ذلك ان الجميع كانوا موظفين مدنيين ، ولكن لا يدع احدهما فرصة تمر دون ان يوجه الى خصمه اهانة ما ، الامر الذي يخلق حالات اصعب بكثير مما لو وقعت المبارزة بالفعل .

وكانت سيدات مدينة (ن) قاسيات جداً من الوجهة الاخلاقية ، ولهذا فان كل ما هو رذيلة أو اغراء يغيظهن ، فيعاقبن كل ضعف دون رحمة ، ومع ذلك فانه اذا اتفق ان حصلت مغامرة صغيرة بينهن ، فانهن إذ ذاك يكتمن السر جميعاً ، فتبقى المظاهر سليمة ويكون الزوج بالتالي مهيئاً لوضع حد لكل سؤال فضولي وهو يضيف هذا المثل : « ليس من خصائص احد التدخل اذا عاشر الاشبين الاشبينة » ، ولنقل ايضاً ان سيدات مدينة (ن) كأخواتهن سيدات بطرسبرج ، يمتزن بانتقاء عباراتهن ، فلا يقلن مطلقاً : « تمخطت » أو « مسحت عرقي » أو « بصقت » ، بل نجد ان مثل هذه العبارات ينطقنها على هذا الشكل : « لقد خففت عن انفي » أو « لقد استعملت منديلي » كما انهن لا يقلن ابداً : « هذا الكوب أو هذا الصحن منتن » بل يقلن : « هذا الصحن أو هذا الكوب ليس كما يجب » ، وكن ايضاً ، وذلك بقصد تجميل اللغة الروسية يتحدثن بنصف لغتنا تقريباً ويستعضن عن النصف الثاني باللغة الفرنسية .

هذا كل ما استطيع ان اقوله عن سيدات مدينة (ن) بصورة سطحية غير اني اذا شئت ان اتعمق .. انه لمن الخطر التعمق في النظر الى قلوب السيدات فلأتابع إذن .. وبصورة سطحية طبعاً .

كانت سيدات مدينة (ن) قد تحدثن قليلا جداً عن تشتشيكوف غير انهن كن مجمعات على انه بهي الطلعة ، وما ان انتشرت الشائعات حول ثروته حتى وجدن له مزايا عديدة مستجدة .

ان سيدات مدينة (ن) لا يتأثرن بالثروة في الواقع ، ولكن كلمة مليون أثرت فيهن كثيراً ، ذلك انه في هذه الكلمة ، عدا عن معنى المال الذي تحمله ، شيء يؤثر على جميع الناس ، صعاليك وأغنياء ، فالمليونير بوسعه ان يتسلى بمشاهدة الخطة والدناءة دون ثمن ؛ والكثير يعرفون ان لا أمل لهم مع هـذا المثري ، اذ لا حق لهم في هذا الأمل . ومع ذلك فانهم يدعون له وينحنون احترامـــاً ويسعون الى ان يدعوهم الى العشاء معه . ولا استطيع ان اقول ان هؤلاء السيدات شعرن باستعداد خاص لهذا النوع من الخطة دون غيره ، ولكنهن مع ذلك ازددن في التحدث عن بافل ايفانوفتش . وكانت أحاديثهن عنه ، انه بلا ريب ، ليس جميلاً جداً ، ولكنه سيبدو اقل جمالاً لو كان اكثر بدانة وبالمناسبة فان هؤلاء السيدات عندمـــا تحدثن عن رجل نحيف قلن انه يشبه المسواك اكثر مما يشبه الرجال . وقد ازداد اعتناء السيدات بهندامهن وأضحت المخازن تعج بجموعهن حتى غدت مكاناً جديداً للنزهـــة لا يعدم الانسان فيه التسلية . ودهش التجار عندما وجدوا ان كميات من الاقمشة كانت كاسدة عندهم لارتفاع ثمنها قد نفدت بسرعة . وامـــا في الكنيسة ، فان كل سيدة تأتي للصلاة ، كانت تجر وراءها ذيل ثوبها الطويل مما يضطر الشرطي معه الى شق الطريق لها بين الجماهير كي لا تقع مصيبة لهذا الثوب الجميل .

واصبح من المستحيل على تشتشيكوف ألا يلحظ انه موضوع هذا الاهتمام. وفي ذات يوم عاد الى غرفته فوجد على الطاولة رقعة صغيرة ولم يستطع ان يعرف من اين جاءته ، فقد قال خادم الفندق ان الشخص الذي حملها له قد حصل منه على وعد شريف بالسكوت والكتمان . اما الرسالة فكانت تبدأ هكذا : « كلا ... يجب ان اكتب اليك ... » وتدعي الكاتبة بعد ذلك ان شيئاً ما يؤلف بين قلبيهما ... ثم اتت بعد ذلك بافكار حول الحياة : « ماهي حياتنا؟ انها واد عامر بالآلام ... وما هو العالم ؟ اكداس من الكائنات عديمة الحس» وتتابع الكاتبة بعد ذلك : « اني اسقي بدموعي صفحات كتبتها أمي الـــتي

توفاها الله منذ خمسة وعشرين عاماً .» ثم تدعو الكاتبة بعد ذلك تشتشيكوف الى الهروب من المدن ، حيث يختنق الانسان في الاطر الضيقة ، الى هدوء الصحارى وسكونها . ثم تنهي رسالتها بعبارات تصور فيها اليأس ، وتردفها بهذه الابيات :

ستدلك حمامتان
على جثتي المتجمدة
وسيقول لك نواحها
انها ماتت غريقة بدموعها

وكان البيت الاخير مختل الوزن ... ولكن ما الاهمية في ذلك ؟ وكانت الرسالة مكتوبة بروح العصر ولكنها لاتحمل تاريخاً ولا توقيعاً ولكن يوجد فيها حاشية تقول : ان على بافل ايفانوفتش ان يحزر من كتب له ، وان كاتبة الرسالة ستكون مساء الغد في حفلة الحاكم الراقصة .

واهتم تشتشيكوف بالموضوع ، فقد اثارت هذه الرسالة اهتمامه فقرأها واعاد قراءتها ، وغمغم آخر الامر : « يجب ان اعرف على الاقل من كتب لي هذه الرسالة » وفكر في الموضوع اكثر من ساعة ثم هز رأسه وقال : « انها محبوكة جيداً » ثم طواها ووضعها في الصندوق ، بين اعلان ودعوة الى زواج لم يغير موضعها منذ اكثر من سبع سنوات . وبعد بضعة دقائق ، تلقى تشتشيكوف دعوة الى حفلة الحاكم ، وهذه الطريقة ، كانت هي الوحيدة لتعبر بها الطبقة الارستقراطية عن جهاد احترامها للسلطات الحاكمة .

وتوقفت اعمال المدينة ، واتجهت جميع الافكار والجهود في هذه الحفلة الراقصة . ومن المؤكد انه منذ خليقة العالم لم يستغرق الهندام في اية بقعة من بقاع المعمورة ، ما استغرقه من الوقت في هذه المدينة . فقد وقفت السيدات اكثر من ساعة قرب المرآة يجربن على وجوههن التعابير المختلفة ، ويتلفظن بكلمات غير مفهومة تشبه نوعاً ما الكلمات الفرنسية ، وهي اللغة التي لا يفقه منها

تشتشيكوف حرفاً . وتهيأ بافل ايفانوفتش للحفلة بدوره ، فوقف قرب مرآته يتسلى بتقطيب حاجبيه وتحريك شفتيه ، ثم داعب ذقنه بعـــد ان اعجب بجماله ثم انصرف الى هندامه ، وكان حسن المزاج ، فأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو يضع ربطة عنقه ، ويحيي وينحني . ورغم انه لم يرقص في حياته قط ، فقد مشى خطوتين راقصاً ، فأسقط الفرشاة على الارض وارتجت خزانته

احدث وصول تشتشيكوف الى الحفلة اثراً عميقاً ، فأسرع الجميع الى استقباله وكان يحمل بعضهم ورقاً للعب ، بينما قطع البعض الآخر حديثه عنـــد عبارة: « أجابت المحكمة على هذا ... » ونسي المحدث ماذا اجابت المحكمة واسرع الى بافل ايفانوفتش وصاح :

– بافل ايفانوفتش .. آه .. يا آلهي ! بافل ايفانوفتش . ياعزيزي بافـــل ايفانوفتش .. ايها المحترم بافل ايفانوفتش .. ياروحي الصغيرة بافل ايفانوفتش ، أهذا انت يا بافل ايفانوفتش .. اعطونا اياه لنستطيع معانقته . آه يا عزيزي بافل ايفانوفتش .

وألفى بطلنا اصدقاءه يقبلونه دفعة واحدة ، فما كاد يتخلص من عناق رئيس المحكمة حتى وجد نفسه بين ذراعي مدير البوليس ، وسلمه هـــذا الى ذراعي مفتش الشؤون الطبية ، والقى هذا به الى مدير مصلحـــة الكحول ومن ثم الى المهندس .

كان الحاكم في هذه الاثناء يقف وسط السيدات وهو يحمل تحت ابطه كلباً ، وبيده الاخرى كيساً من الحلوى . فما كاد يرى بافل ايفانوفتش حتى رمى بالحيوان والكيس ارضاً . والخلاصة ان تشتشيكوف استقبل بفرح وغبطة ، فلم يكن وجه إلا وشع بالسرور والرضى ، حتى ليقال إنها السعادة التي سرحت على وجوه الموظفين بعد وصول رئيسهم ، فأفرخ روعهم بعدان وجدوا الرئيس في وضع سار ، حتى انه القى ببعض الكلمات اللطيفة استقبلها الموظفون الذين

سمعوها بالضحك ، واما الذين لم يسمعوها فانهم ضحكوا ايضاً مع الآخرين ،
ويبدو بعيداً عنهم شرطي ، لم يضحك في حياته قط . قد شاعت الابتسامة في
وجهه وكأنما يحبس نفسه عن قهقهة .

اجاب بطلنا ببشاشة على الجميع ، وحيا من اليمين ومن اليسار ، ففتن الجميع
واحاطت به السيدات وكأنهن حديقة من الزهور والعطور ، واخذت تشبكوف
ينشق من هذا العبير بتلذذ . وكانت زينة النساء في تنافس ، فالشرائط والزهور
تداخلت في بعضها بتشويش طبيعي لتزين اثوابهن .

واما قوامهن فكان يبدو رشيقاً . ولنقل بالمناسبة ، ان نساء مدينة (ن)
يملن الى البدانة ، ولكنهن يعرفن كيف يستعملن الحزام بفن ودراية تتوارى
معهما السمنة . ولكن الى جانب ذلك يفكرن في كل شيء ويتذكرن التفاصيل
وكانت الصدور والاكتاف عارية ، ولكن ، دون ان يندى لها الجبين . ذلك
انهن يسفرن مفاتنهن الى حد لو تجاوزنه قليلا ، اذن ، لتسبب حتما بضياع
لب رجل . ولكن يتسترن بذوق رفيع ، فهناك شريطة تعرف باسم « قبلة »
تغطي العنق وما تحت الاثواب ، وكانت تبدو هناك زخارف من الحرير الثمين
تدعى باسم « تواضع » . ولا شك في ان هذا « التواضع » يخفي ما لا يمكن باي
شكل ان يسبب ضياع رجل ، ولكنه كان يخلق جواً من الغموض يبعث على
الاغراء . وكانت القفازات ترتفع حتى المرفق وتترك اجمل قسم من الذراع
عارياً . وبالفعل ان اكثر اذرعة النساء بضة مفتولة بشكل يحسدن عليه . وقد
حاولت بعض السيدات ان يرفعن القفاز اكثر من ذلك بقليل ، ولكن النتيجة
انتهت بتمزيق هذا القفاز . والخلاصة ان كل شيء كان يهتف : « لسنا في الريف
... هنا العاصمة ، هنا باريس نفسها » . وبالتأكيد كان بامكان المرء ان يرى
هنا وهناك قبعة صغيرة او ريشة طويلة تتعارض مع الزي ، ولكن اليس من
مميزات مدينة ريفية ان تنكشف بشكل ما النغمة المزمنة .

كان تشتشيكوف يتساءل وهو ينظر الى هذه السيدات : « من كتب لي هذه الرسالة ؟ » ولكن موجة من الاكمام والمرافق والأشرطة والقمصان المعطرة كانت تمر امام ناظريه بسرعة . كان هناك زوجة مدير البريد ، وزوجة الكابتن مفوض الشرطة ، والسيدة ذات الريشة الزرقاء ، والاخرى ذات الريشة البيضاء ، والامير تشيبشيلبسف الجيورجي ، وموظف من بطرسبرج ، وفرنسي يدعى كوكو ، وبير شونوفسكي ، وبير بندوفسكي ، كان كل هؤلاء يرقصون الفالس .

وفكر بافل ايفانوفتش وهو يتراجع : « هوذا الريف ينطلق» . وما كادت السيدات تعود الى الجلوس ، حتى اخذ يتأمل فيهن واحدة فواحدة عله يكتشف صاحبته من تعبيرات وجهها . ولكنه لم يستطع اكتشاف شيء ، ذلك ان وجوه السيدات كانت تبدو مغلقة لايمكن فهم ماتعبر عنه، فقال تشتيشكوف : «اية نفسية هي نفسية النساء » وبداعليه القنوط ، اذ انه لن يتمكن من تفسير مايرى على وجوههن ... ان المرأة وحدها مملكة يتيه فيها الرجل ، ولاشيء يمكنه من انقاذه منها فيما لواستسلم . انه لمن المحال ان يحدد حال هذه النظرات : دافئة ، عذبة ، تعبة ، منتشية ... جذابة ... مثيرة ... تبعث على الجنون ... المرأة ؟ ! ولكنها الصف الجميل من الجنس البشري وكفى !

وعذراً من القارىء ! ان بطلي قد تلفظ بكلمة تخدش أذواق النساء المترفات . ولكن ما العمل ؟ ان الشعراء الروس مرغمون احياناً على استعمال اللغة الشعبية ولكن القراء وحدهم هم المسؤلون عن هذا ، وخصوصاً قراء الطبقات العالية . انه لمن المستحيل ان يسمع الانسان لفظة روسية منتقات ، فالجميع يعبرون عن افكارهم بشكل مدهش بالفرنسية والألمانية والانكليزية ؛ فهم يكلمون هذه اللغات جيداً ويتلفظون بها بصورة أحسن . فيلفظون الفرنسية من أنوفهم ويزقزقون كالعصفور بالانكليزية ، وطنيتهم لايظهر الا في بيوتهم الريفية .

هؤلاء هم قراء الطبقة العليا وكل من يريد ان ينتمي الى هذه الطبقة . وهذا مايدعونه: « يجب ان تكون اللغة الروسية معقولة وصافية ، ولكن لاحق لها في ان تستسلم اي جهد » .

لم ينجح تشتشيكوف في اكتشاف « المجهولة » التي كان دائباً على البحث عنها . وقد امعن في النظر فلاحظ ان نظرات جميع السيدات ترمي الى إشارة شعور هو خليط من الامل والألم . فاستسلم أخيراً لليأس وحدث نفسه : « لا فائدة من البحث فلن أتعرف عليها » . ومع ذلك فقد بقي مزاجه صافياً ، فكان يتبادل الكلمات اللطيفة مع الفاتنات ماراً أمامهن بخطى صغيرة كما يفعل الكهول الوشيقون ، دافعاً بتحية نحو اليمين وبانحناءة نحو اليسار . وكان بافل ايفانوفتش يتقدم فيضع قدمه ثم يرفعها وأخيراً يعيدها الى مكانها فوق الارض واسماً بذلك فوق بلاط الغرفة أشكالاً هندسية متنوعة اما السيدات فقد كن مسرورات لانهن وجدن فيه الى جانب الظرف والفتنة ، تلك الطلعة المهيبة الجريئة التي تسمو الجنس الجميل . ولم يمض وقت قليل حتى بدأن بالتنافس من أجله ، وقد لاحظ بعضهن انه من الواجب الوقوف امام الابواب ، فأسرعن الى احتلال المقاعد الخالية في تلك المناطق للاقتراب منه . ووقعت مشادة بين سيدتين ، وكادت تكون العاقبة وخيمة في النتيجة ، وقد وصفت السيدات اللواتي نجحن بالجلوس قرب بافل ايفا نوفتش بالوقاحة .

وانشغل تشتشيكوف بالحديث مع السيدات اللواتي عرفن كيف يحطن به ويثرن اهتمامه بالاحاديث الجذابة التي لم يستطع ان يفقه منها حرفاً ، حتى انه نسي ان يقدم فروض الاحترام لربة المنزل . وقد تذكر ذلك عندماسمع صوت زوجة الحاكم وكانت تقف الى جانبه ، فقالت له بنبرة يمتزج فيها اللوم بالعذوبة :

ـ . آه يابافل ايفا نوفتش . . . انه لمن المستحيل ان يصل المرء اليك .

ولن استطيع ان انقل بالنص كلمات زوجة الحاكم فقد كانت من النوع المصقول الذي برع في وصفه كتابنا الحديثون الذين يفهمون تماماً اللغة المنتقاة

واساليب حديث الطبقة العالية . واستدار بطلنا نحو ربة الدعوة وكاد يجيبها بعبارة من فصيلة عبـــارات زنو فسكي وليتسكي وليدين وغريبين وغيرهم من العسكريين اللبقين . ولكن ما إن رفع عينيه حتى أصيب بالذهول والبهرة، ذلك ان زوجة الحاكم لم تكن وحيدة . بل كانت تمسك بيد فتاة في السادسة عشر من عمرها ، شقراء فاتنة ، مع انسجام في القسمات ، ووجه لطيف بديع من النوع لا يصادف الا على ندرة في الروسيا حيث يمتاز كل شيء بالفخامة ، سواء أكان ذلك امرأة ام مدينة ، ام جبالاً وغابات ام وجوه وشفاه وأقدام . وكانت هي بنفسها تلك الفتاة التي صادفها وهو في الطريق عندما غادر نوزدريف واصطدمت عربته بعربتها بشكل أضنى فصلهما العم ميتيا وميناي . وبلغ من ارتباك تشتشيكوف انه لم يستطع ان يجد لفظة ذكية ، ولم يعد بين عباراته وعبارات غريبين وزنوفسكي وليدين اي وجه للمشابهة .

قالت زوجة الحاكم :

ـ انك لا تعرف ابنتي بعد ، والسبب في ذلك انه لم يمض كبير وقت على مغادرتها المدينة .

واجاب تشتشيكوف بانه يدين لصدفة سعيدة باهرة بالتعرف الى ابنة الحاكم واراد ان يضيف بضع كلمات اخرى ، ولكن الالهام لم ينجده . فقالت زوجة الحاكم عبارة اخرى ثم غادرته برفقة ابنتها الى (شـــلة) اخرى . واما بافل ايفانوفتش فقد ظل برهة طويلة دون حراك كرجل خرج للنزهة ثم تذكر انه نسي شيئاً هاماً ، ففقد لامبالاته واخذ يجهد نفسه ليذكر ما ينقصه ، فمنديله معه ، وكذلك نقوده ، ولكنه يسمع مع ذلك هاتفاً يحدثه بانه نسي شيئاً ما ، فينظر بذهول الى الجموع المتماوجة امامه ، وتختلط امام ناظريه العربات والمارة وبنادق الجنود الذاهبين .

وفجأة أصبح تشتشيكوف غريباً عن كل ما يحيط به ، ولكن السيدات لم

ينقطعن عن إرهاقه بالاسئلة المحرجة :

« اتسمح لنا ، نحن سكان الارض ، ان نتجرأ على سؤالك عن موضوع احلامك ؟ » او « اين تكون هذه البقاع المباركة التي تسكن اليها افكارك ؟ » او « ما اسم تلك التي تثير فيك جميع هذه الاحلام المورقة ؟ »

وقد تلقى بافل ايفانوفتش هذه الاسئلة بعدم اكتراث ، بل انه غادر هؤلاء السيدات دون استئذان ليجد ربة المنزل وابنتها . غير ان السيدات العنيدات لم يشأن الاستسلام ، فقررن استعمال احط الاساليب للفوز بتشتشيكوف . ان نقطة الضعف في بعض النساء ، ولا اقول في جميع النساء ، انهن عندما يكتشفن موضع جمال في انفسهن ، في الجبهة مثلا او الشفتين او اليد ، يخيل اليهن ان هذه الفتنة تبهر جميع الانظار ، وان كل من يراهن من الرجال يقول في نفسه : « ما ابدع هذا الانف الاغريقي الاشم! » او « يا لهذه الجبهة الجميلة الناصعة! » ،وأما من تكون ذات كاهلين جميلين فانه يخيل اليها انها تسمع سلفاً آهات الشباب المعجبين وهمسهم : « ما اروع هذين الكتفين ! » . وهي تظن ايضاً أن هؤلاء الرجال لن ينظروا الى الشعر والانف والجبهة والوجه . بذلك كان السيدات يفكرن ، ولذلك فان كل من اتى الى هذه الحفلة منهن قد صمم على اظهار مفاتنه اثناء الرقص .

كانت زوجة مدير البريد تحني رأسها بتراخ وهي ترقص الفالس ، حتى انها لتشبه بالفعل مخلوقة سماوية . وكان يوجد سيدة لم تحضر للرقص لان قدمها اليمنى تعاني تورماً قالت عنه بالفرنسية إنه في حجم حبة العدس .. ولكنها لم تستطع ان تقاوم الاغراء ، فرقصت قليلا حتى لا تظن زوجة مدير البريد نفسها ملكة الحفلة . ولم يهتم تشتشيكوف بكل هذا ولم ينتبه للحلقات التي ضربت حوله ، فكان يقف على رؤوس اصابعه ليحظى بمشاهدة الشقراء الفاتنة . وشاهدها اخيراً جالسة قرب امها التي عرفها من عمامتها الشرقية المزينة بريشة تهتز بعظمة وخيلاء . فأسرع اليها وكأنه يريد ان يشن هجوماً عليها ... ترى أكانت الرغبة هي

السبب في اندفاعه ام ان اندفاعه هذا تسبب عن تزاحم جموع الراقصين خلفه ؟ في الحق انه ما من احد يدري ... ولكنه كان يسرع في مشيته وهو يرتطم بالجميع . وتلقى مزارع منه ضربة كاد يقع معها على الارض ، ولكنه تماسك لحسن الحظ بصعوبة ، ذلك ان سقوطه سيجر معه سقوط صف كامـــل من الراقصين . وتراجع مدير البريد بدهشة ممزوجة بالتهكم وهو يشاهـــد بافل ايفانوفتش ، ولكن بطلنا لم ير احداً لان انظاره كانت معلقة بالشقراء الجميلة اللابسة قفازيها بشكل ينم عن رغبة بالرقص عارمة . وكان يوجد بالقرب منها اربعة ازواج من الراقصين يرقصون المازوركا ،وكان ضابط من سلاح المشاة يحرك قدميه وذراعيه وجسده متخذاً من الاوضاع ما لا يمكن تصوره حتى في الاحلام. ومر تشتشيكوف بجانب الراقصين حتى وصل الى قرب زوجة الحاكم وابنتها ، ولكنه جبن فجأة وظهر الارتباك في حركاته .

ليس في مقدورنا ان نقرر ان بطلنا قد أحب ، إذ انه من المشكوك فيه ان يكون امثاله من الرجال المتراوحين بين النحول والبدانة ، قادرين على الاحساس بشعور كهذا . ومع ذلك فقد احس بانفعـال مبهم عصي التفسير يضيق عليه الخناق . وقد بدا له ، كما اعترف فيما بعد ، ان الحفلة الراقصة غابت عن ناظريه ، وان القيثارات والابواق تعزف في البعيد خلف الهضبة ، وان كل شيء قد تلفع بضباب يشبه الضباب الذي يخيم على الحقول .

وفي اعماق هذا القرار الغامض كانت قسمات الفتاة الجميلة تسفر عن وجه جميل بيضوي .. وقوام رهيف رشيق ، وثوب ابيض يضم اعضاء جسمها الغض بحنان ما بعده حنان ، لقد كانت ابنة الحاكم وحدها تبدو وحدها بيضاء شفافة وسط هذا الجمع الغامض .

هكذا يتحول كل شيء في هذه الدنيا ويصبح امثال تشتشيكوف شعراء ، ولو كان ذلك لساعات قصيرة في حياتهم . وربما كان هناك ثمة مبالغة في اطلاق

لفظة شاعر ، ولكن بافل ايفانوفتش ظن نفسه شاباً بل فارساً . وشاهد قرب السيدتين مقعداً شاغراً فاقتعده ، كان الحديث في مبدأ الامر صعباً ، ولكن بطلنا سرعان ما شعر بالارتياح فازداد جرأة .

وهنا يتوجب علينا ، بملء الاسف ، القول إن الرجال الوقورين الذين يحتلون المناصب الرفيعة لايعرفون كيف يكونون خفيفي الظل في احاديثهم مع السيدات ؛ فالسادة الضباط ابرع منهم في ذلك ... ولكن هؤلاء ماذا يفعلون ؟ انهم لايقولون اشياء غريبة او عظيمة ، ولكن الفتاة التي يتحدثون معها لاتني عن الضحك . واما الوزراء فان الله وحده يعرف ماذا يروون : هم يقولون بأن الروسيا بلاد واسعة ،ثم يتفوهون بمديح مأخوذ من احدى القصص ، وبعد ذلك يغامرون بمزاح يضحكهم اكثر مما يضحك مستمعيهم . اقول هذا لاوضح السبب الذي ادى بالشقراء الى التثاؤب ، ولكن بطلنا لم يلحظ شيئاً من هذا ، فراح يكيل للفتاة عبارات ،احفظها عن ظهر قلب ، من الثناء كان قد قررهـا بنفسه كثيراً من المرات في ظروف اخرى مماثله : في سيمبريسكي عند سوفون ايفانوفتش بيزبتشين أمام ابنته وزوجات اولاده الثلاث ماريا واميليا والكسندراجافر يلوفنا ، وعند فيدور فيدوروفتش بيريكون ، وفي ريا زنسك ، وعندفرول فاسيلفتش بوبيدونسني في بانزا ، وعند اخيه بيوتر فاسيلفتش امام شقيقة زوجته كاترينا ميخايلوفنا وابنتي اخيه روزا فيودوروفنا واميليا فيودورفنا ، وفي فياتنـكا عندبيوتر فارسوتوفتش امامشقيقة زوجةابنه بيلاحيا ايجوروفنا وابنة اخيه صوفياروستيسلوفناوابنتي عمهصوفيا الكسندروفنا وماكلا نورا الكسندروفنا .

وسخطت السيدات لسلوك بافل ايفانوفتش . فمرت احداهن بالقرب منـه ليلحظ امتعاضها ، ومررت طرف ثوبها الطويل فوق قدم الشـابة الشقراء ، ولمزتها بطرف منديلها ، وفي نفس اللحظة ألقت سيدة اخرى بعض العبارات الخبيثة الجارحة . ولم يسمع بافل ايفانوفتش اي شيء من هذا ، بل الاحرى

ان نقول انه لم يظهر عليه ما يدل على انه سمع . وكان هذا خطأ منه ، إذ يتوجب عليه ان يقيم وزناً كبيراً لرأي السيدات ، ولقد ندم على موقفه هذا فيما بعد، ولكن بعد ان سبق السيف العذل ، اي عندما لم يعد بمقدوره إصلاح ما افسد .

وارتسم الغضب على الوجوه ! لقد كان تشتشيكوف يتمتع بالتقدير للايينه، ولمظهره النبيل . ولكن ، كانت هناك امور لا تغتفرها النساء ، والرجل خاسر بعدها بلا مراء . ان المرأة اضعف من الرجل واقل منه ثباتاً ، ولكنها تبدو في بره معينة قوية تسيطر على الظروف . ان اللامبالاة التي اظهرها تشتشيكوف قد اعادت الوحدة الى السيدات ، تلك الوحدة التي تهددت عند الهجـــوم على المقاعد . ثم اخذت هؤلاء السيدات بايجاد المعاني السيئة لبعض العبارات البريئة التي تلفظ صاحبنا بها . ومما زاد الطين بلة ، ان شاباً نظم قصيدة ساخرة حـــول الراقصين والراقصات ، الامر الذي يحدث دوماً في الحفلات الراقصة في الريف . فنسبت على الفور الى بافل ايفانوفتش ، وبدأ الحنق يتزايد فأخذت جميـــع السيدات تحكم على بطلنا بقسوة ، واما ابنة الحاكم فانها عوملت بقسوة اشد .

كانت مفاجئة بغيضة جداً تنتظر بطلنا ... إذ بينما كانت الشقراء الجميلة تتثاءب وبينما كان تشتشيكوف يروي لها قصصاً من ابطالها الفيلسوف ديوجينوس نفسه ، ظهر نوزدويف في قاعة الرقص . ترى هل كان قادماً من البوفيه ام انه جاء من الصالة الخضراء حيث كان فيها اكابر المقامرين ، ثم ، هل خرج منهـــا باختياره ام انه غادرها مطروداً ؟ وما الفرق ... فقد كان مرحاً يمسك بيد المدعي العام منذ أمد طويل بلا أدنى ريب ، ذلك ان هذا الاخير المسكين كان يقطب حاجبيه ويحاول بشكل ظـــاهر ان يتخلص من نوزدويف الذي كان يتناول كوبين كبيرين من الشاي الممزوج بمقدار من الروم جعل طلاقته لا تكاد تنضب .

وما إن رآه تشتشيكوف حتى قرر مغادرة القاعة لانه لم يكن يتوجس خيراً من هذه المقابلة . ولكن ، لسوء الحظ ، تقدم الحاكم بنفسه ليعلن ابتهاجه برؤية صديقه العزيز بافل ايفانوفتش ، وطلب منه ان يكون حكماً في مناقشة جرت

مع سيدتين عن وقار النساء في الحب . ولكن نوزدويف كان قد رأى بدوره بافل ايفانوفتش فمشى مباشرة نحوه . ثم صاح من بعيد بضحكة ارتعش لها خداه الطريان المتوردان :

ـ آه ... سيد خرسوك ... ملاك خرسوك ... ايه ... لقد اشتريت كثيراً من الاصوات ...

ثم صاح متوجهاً بحديثه نحو الحاكم :

ـ ولكن سعادتك لاتعلم بانه يتاجر بالارواح الميتة ... اسمع ، اني في الحق يا تشتشيكوف أقول لك هذا بكل مودة لاننا صديقان ،أليس كذلك ؟اقول لك امام سعادته باني كنت اشنقك لو استطعت الى ذلك سبيلا ... اجل ... اني في الحقيقة اشنقك .

وود بافل ايفانوفتش من اعماقه لو ان الارض ابتلعته .

ـ انك لن تصدقني ، يا صاحب السعادة ... ولكنه عندما قال لي : بعني ارواحاً ميتة انفجرت من الضحك ، ولما جئت هنا قيل لي انه اشترى بثلاثة ملايين روبل فلاحين لينقلهم الى بقعة من الارض ... ولكنه طلب مني ان ابيعه امواتاً . اسمع ،يا تشتشيكوف ... انك وحش ... وحش حقيقي ... واني اردد هذا امام صاحب السعادة .. أليس كذلك، يا سيدي المدعي العام ؟

ولكن المدعي العام وتشتشيكوف والحاكم كانوا مرتبكين فلم يجدوا جواباً . وتابع نوزدويف مستفيداً من الارتباك العام المخيم على الجميع :

ـ ايه .. وانت ،يا اخي .. لن اتركك قبل ان تقول لي لماذا تشتري نفوساً ميتة ؟ انصت لي،يا تشتشيكوف .. يجب ان تخجل في الحق من نفسك .. وانك لتعلم باني من اخلص اصدقائك .. وها هوذا صاحب السعادة حاضر وكذلك المدعي العام .. انك لا تستطيع ياصاحب السعادة أن تتصور الى اي حد يعبد أحدنا الآخر .. اني اتصور لو انك سألتني قائلا : نوزدويف ، قل لي بصدق من تحب اكثر : انا ام تشتشيكوف ؟ لأجبتك بصدق وبدون تردد :

« تشتشيكوف » . انتظر ياصديقي العزيز لسوف اقبلك ، اتسمح لي يا صاحب السعادة بتقبيله؟.. هيا يا تشتشيكوف لا تمانع ، واسمح ان لي اطبع على خدك الناصع كالثلج قبلة صغيرة .

ولكن تشتشيكوف دفعه عنه بعنف كاد معه ان يقع على قفاه ، فابتعد الجميع ولم يعد يصغي اليه احد .

ومع ذلك فان ما أدلى به حول النفوس الميتة قد سمع بوضوح في انحاء القاعة وانبهر له جميع المدعوين .

بدا ان الخبر غريباً فبقي الجميع مبهوتين يتساءلون بأنظارهم .

ولاحظ بافل ايفانوفتش ان عدة سيدات قد اخذن بتبادل ابتسامات تنطق بالخبث . وكانت بعض الوجوه تعبر عن الحيرة العميقة التي تنتاب النفـــوس . وكان الجميع الى جانب ذلك يعرفون عن نوزدويف افكه ووقاحته . وما من احد يدهش اذا سمع منه اغرب القصص . ولكن طبع الانسان غريب حقاً ، ذلك ان الخبر مهما كان مصدره فانه يأخذ طريقه في المجتمع حتى ولو كانت الغاية من سريانه هي السماح لبعض المثرثرين ان يقولوا : «اسمعوا هذه الكذبة المنتشرة» ولبعضهم الآخر ان يجيب بعد ان يستمع اليه بسرور بالغ : « اجل انها اكذوبة قذرة لا تستحق اي اهتمام » . ومع ذلك فانهم يسارعون الى روايتها في كل مكان . ويهتف الجميع : « يا لها من اكذوبة خبيثة » وهكذا تسمع المدينـــة برمتها تلك القصة التي لا تستحقق اي اهتمام .

واثر هذا الحادث ، التافه في ظاهره ، كثيراً في بطلنا ، مما يدل على ان كلمات الاحمق يمكنها في بعض الاحايين ازعاج رجل زكي ، فقد شعر بالارتباك فجأة كرجل لمع حذاءه ثم اتسخ بالوحل حالا . حاول ان يفكر في شيء واراد ان يسلي نفسه بلعبة الويست ولكنه لم ينجح في اللعب ، وارتكب اخطاء فاضحة وكان رئيس المحكمة يعرف عن بافل ايفانوفتش انه لاعب قدير ، ولذا لم يستطع ان يفهم سبب هذه الاخطاء . سخر مدير البريد والرئيس ومدير البوليس من

تشتشيكوف وادعوا انه عاشق ؛ بل صرحوا أنهم يعرفون الشخص المجرم الذي جرح قلبه . ولكن شيئاً ما لم يستطع ان يعزي بطلنا رغم محاولته الضحك والمزاح . فظل على ارتباكه اثناء العشاء رغم ان الحاضرين بدوا لطفاء دمثين، ورغم ان السيدات طردن نوزدويف منذ امد طويل بعد ان احتقرن سلوكه ، ذلك انه جلس على الارض اثناء الرقص وجذب مراقصته من ثوبها ، وهذا لا مثيل له في الوقاحة كما قلن .

كان العشاء مرحاً جداً ، فقد جلس المدعوون حول شمعدانات بثلاثة اذرع، وزهور ، وحلويات ، وزجاجات ، وقد ظهر الفرح على وجوههم . وكان الضباط والسيدات والرجال يتنافسون في الظرف . وكان الرجال يغادرون مقاعدهم وينتزعون الصحاف من ايدي الخدم ليقدموها بأنفسهم الى السيدات . وقدم عقيد الى جارته صحناً طفح بالحساء على رأس سيفه . اما الرجال الناضجون الذين جلس بينهم تشتشيكوف فقد كانوا يتناقشون ويصيحون وهم يلتهمون كميات هائلة من السمك واللحم . وكانوا يعالجون مواضيع كان من الممكن ان تثير اهتمام تشتشيكوف في وقت آخر . ولكن بافل ايفانوفتش ظل صامتاً كأنه مسافر انهكه التعب،غير قادر على الاشتراك في حديث هام لان جميع افكاره قد غادرته ، ولم ينتظر نهاية العشاء فعاد الى غرفته في ساعة مبكرة .

كانت نفسه قلقة عندما رجع الى غرفته كهذا المقعد الذي يجلس عليه . وكان القلق يستولي عليه ، واما فكره فكان يسبح في الفراغ ويردد غاضباً : « ليذهب بكم الشيطان بعيداً،يا من ابتدعتم الحفلات الراقصة ! » ثم . . ولماذا هذا المرح ؟ ان الموسم رديء والاسعار مرتفعة ، وبالرغم من ذلك فان الجميع يذهبون الى تلك الحفلات الراقصة ! ... والسيدات ... انهن يرتدين الملابس الثمينة ، وهذه واحدة منهن قد ارتدت ثوباً يكلف آلاف الروبلات التي يدفعها الفلاحون ... ان ضمير الانسان لشيء عجيب ... ترى لم كل هذا

الفساد وتلك الاكاذيب ؟.. بلى ! ان كل هذا يحدث كي يشتري الرجل لزوجته شالاً او اقمشة جميلة .. اجل ! كل هذا يحدث لئلا تقول امرأة إن زوجة مدير البريد ترتدي ثوباً اجمل من ثوبها . ويهتف الجميع : الى الرقص .. الى الرقص .. الى المرح .

ان الحفلات الراقصة لهي عار اي عار ، وفضيحة اي فضيحة . هي ليست روسية ولا تلائم مزاج الروسيين والروح الروسية . ومن المضحك حقاً ان تشاهد رجلاً ناضجاً متشحاً بالأباسود الرسمي ، يقفز فجأة برشاقة الشيطان ، ثم يلوح بساقيه كالاطفال ، او ان تشاهد آخر يناقش اموراً هامة وهو يقفز كالوعل الصغير ويميل من اليمين ومن اليسار . حقا ان هذا لتقليد على طريقة القرود . اما اذا كان الفرنسيون يظلون اطفالا حتى سن الاربعين ، فهل يتوجب علينا ، نحن الروس ، ان نكون على شاكلتهم .

اني لأشعر بعد كل حفلة راقصة باني قد ارتكبت حماقة امتعض جداً لمجرد تذكرها . ما من شيء يعلق في الذهن .. اني إذا تحدثت مع احد رجال المجتمعات فانه يتكلم في جميع المواضيع ويجتر ما قرأه في الكتاب ببلاغة وطلاوة لانظير لها ، ولكن ليس ثمة شيء ينم عن شخصية هذا الرجل . واتحدث بعد ذلك الى بائع لايعرف غير عمله فوأفيد منه اكثر مما افدت من جميع احاديث المجتمعات ... ثم ماذا افيد من الحفلات الراقصة ؟... لو شاء كاتب ان يصف ما يجري فيها لعكست صفحاته نفس الفراغ .. وماذاتكون النتيجة ، أأخلاقية أم لا أخلاقية ؟ لا اعلم ! ولكن الكتاب عندئذ لا يصلح الا للقذف به جانباً .

بهذا كان يفكر تشتشيكوف بعد عودته من تلك الحفلة ، ولكن غضبه كان له في الواقع سبب آخر . ان الحفلة لم تغضبه بحد ذاتها بقدر ما اغضبه الفشل الذي مني به والدور المضحك الذي مثله فيها . وكان عندما يحاكم الامور بهدوء يرى ان جميع ما حدث لا تخشى عقباه طالما ان صفقة النفوس الميتة قد تمت . ولكن الانسان عجيب حقاً ، فتشتشيكوف لايطيق ان يسيء به الظن اولئك الذين يحتقرهم ولا يقيم لهم وزنا . فهو وإن كان يأخذ عليهم تفاهتهم وفخامتهم

الفارغة فقد كان ما يثيره انه اعتبر نفسه مسؤولا عما حدث في تلك الليلة . ومع ذلك فانه لم يحكم بقسوة على نفسه ، وهو على حق في هذا ، إذ اننا جميعاً نشترك في نقطة ضعف شاملة ألا وهي التساهل مع انفسنا في اخطائنا وإلقاء التبعة على الآخرين ، على الخادم ، او الموظف ، او الزوجة ، او الكرسي الذي نرى انه من المناسب ان يتحطم على احد الابواب . كان على تشتشيكوف اذن ان ينفث غضبه ، فصب على نوزدويف وابلا من الشتائم لم يسمع بمثلها اي حوذي من ضابط او جنرال مهما كان ماهراً في الابداع ، كما انه لم ينج شخص واحد من من عائلة نوزدويف من شتائم بطلنا .

كان بافل ايفانوفتش جالساً على مقعده يشتم نوزدويف مهتاجاً ، يتناوبه النعاس والافكار السود ؛ بينما كانت الشمعة تحترق مهددة بالانطفاء السريع ، وكان الليل قد اقترب من هزيعه الاخير ، فسمعت من بعيد بعض الديكة تصيح ، واما في المدينة الغارقة برقادها فقد كان بعض المارة يجتازون الطرقات الوعرة التي يعرفها السكيرون الروس معرفة جيدة . ومع ذلك فقد كان حادث يتهيأ هناك في الطرف الآخر من المدينة من شأنه ان يزيد في حراجة موقف بطلنا .

كانت عربة غريبة تسير بضجة في شوارع وأزقة المدينة الصغيرة المقفرة ، ولم تكن هذه العربة لتشابه عربة او عجلة او زحافة ، ولكنها تشبه جذع شجرة ركب فوق العجلات .

كان بابا هذه العربة لايغلقان جيداً بسبب خلل في القفل وقبضة الباب . ولم يكن البابان ليثبتا في مكانيهما لولا أنهما ربطا بالحبال . كانت العربة مليئة بالوسائد والاغطية والاكياس والخبز وجميع انواع المعجنات . وكان على درجة العربة خادم يرتدي معطفاً وطنياً تكسو وجهه لحية وطنية مهملة خالطها المشيب . . . وكان هذا الخادم من النوع الذي يدعى دائماً « ياصغيري » . وأيقظت ضجة العربة مع صرير البابين حارساً ليلياً رفع رأسه وصاح وهو يغالب النعاس :

« من هذا ? » ولما لم يبصر احداً وسمع صوت عجلات العربة بعيداً مد يده الى ياقة معطفه فالتقط حشرة ثم اقترب من النور وسحقها على إظفره والقى سلاحه، ومن ثم عاد الى النوم حسب قواعد الفئة التي ينتسب اليها .

ولم تعد الحيوانات تقوى على جر العربة والسير بها لعدم اعتيادها على طرقات المدينة المدهشة التعبيد . فدارت في عدة طرقات ثم دخلت اخيراً في زقاق مظلم ومرت امام كنيسة القديس نيقولا ووقفت قرب باب مسكن الكاهن . وهبطت من العربة فتاة التفت بشال وامسكت بيديها باب العربة بقوة كقوة الرجل وكان الخادم نائماً اذ ذاك الحين .

وعوت الكلاب وفتح الباب فدلفت العربة الغريبة الى باحة ضيقة مليئة بالاخشاب والسلال وبيوت الدجاج . وخرجت السيدة من العربة وكانت هي بذاتهـا كوروبتشكا الملاكة . ان هذه العجوز قد قلقت بعد ذهـاب بطلنا ، فقضت ثلاث ليال لاتعرف للنوم طعما ، واخيراً قررت السفر الى المدينة لتعلم اذا كان تشتشيكوف قد خدعها ام لا . كانت تريد ان تعرف الثمن الحقيقي للنفوس الميتة لانها كانت تخشى ان تكون قد باعتها بثلث الثمن الحقيقي .

وسوف يعرف القارىء نتائج وصول كوروبتشكا الى المدينة من حديث بين سيدتين . وسنروي هذا الحديث في الفصل القادم .

الفَصلُ التّاسِعُ

في ذلك الصباح ، وفي وقت مبكر جداً عن اوقات الزيارات العادية ، خرجت امرأة من منزل خشبي بلون البرتقال ، له نافذة صغيرة اقيمت فوق أعمدة زرقاء . كانت هذه المرأة تلبس ثوباً أنيقاً مخططاً بالتربيعات، يرافقها خادم على رأسه قبعة مستديرة ، ويلبس رداء ذا ثنيات عديدة مطرزة بشرائط الذهب . صعدت هذه المرأة الى عربتها بسرعة واغلق الخادم بابها وفك (فرامل) السير وصاح بالسائق : « سر ! » . وفي نفس اللحظة كانت المرأة تحاول ان تستعيد القصة التي سرت لتعرفها عليها كي تحفظها . ولم تنقطع عن النظر من خلال زجاج الباب لتتأكد ، وهي غاضبة ، بأنها مازالت في منتصف الطريق . كان كل منزل يبدو لها أطول مما كان ، والمستشفى بنوافذه الصغيرة العديدة يبدو وكأنه لا نهاية له . وهتفت هذه المرأة بعد ان فقدت صبرها : « ياللبناء الملعون ، انه يأبى الاختفاء ! » أما الحوذي فقد تلقى هذا الأمر مرتين : « بسرعة اكثر ، بسرعة اكثر يا اندريوشكا . انك لم تنتهي اليوم ! » وفي النهاية وصلت بطلتنا .

توقفت العربة امام منزل رمادي مؤلف من طابق واحد عليـــه نقوش بيضاء نائتة تحت نوافذه ؛ ونهضت بالقرب منها (شعرية) من الخشب عاليـــة ، ويبدو على بعد قليل حائط مؤلف أوتاد قد ابيضت لكثرة ماتراكم عليهـــا من الغبـــار . وفوق النوافذ صفت أواني للازهار ، وببغـــاء تتأرجح

داخل قفصها وقد خطم منقارها داخل حلقة ، وكلبان نائمان تحت اشعة الشمس.
وفي هذا البيت كانت تقطن صديقة وفية « لسيدتنا » .

ان الكاتب ليهتم كثيراً باعطاء اسم لهاتين المرأتين يرضى عنـــه الجميع .
ويرى انه من الخطأ ابداع اسم مرادف ، لذلك فهو يجد دائماً احدهم لحمل هذا
الاسم في اي زاوية من زوايا مدينـــة ضخمة . وهذا في الحق مايثير الغضب
والسخط ، ذلك ان الكاتب متهم دوماً بالتجسس ، وبافشاء اقل سر في حياته
وبالحديث عن الصحاف التي يحبها والملابس التي عليه ، وعماتهيىء له زوجتـه كي
يصلح لطبقته ، وبذلك تصبح الطبقة الاجتماعية اكثر خطراً .

لقد اصبحت طبقتنا الاجتماعية اكثر اهمية في عصرنا ، ذلك انه ينطبع كل
شيء بطابعها ويبدو انه خطأ شخصي بحت ، مداره الهواء الذي يسري. ويكفي
ان يقال ان أحمق يقطن المدينة كي يصبح رجل من الخارج مقرا : « وانا ايضاً
اقطن هذه المدينة ، واذن ، فأنا سخيف ! »

وكي اتجنب الضجر ايضاً ، سأدعو المرأة التي كانت موضع الزيارة : «بالمرأة
المحببة من جميع وجهات النظر » . هكذا كانت تدعوها مدينة (ن) برمتها في
جميع الامكنة . ان هذه المرأة قد نالت هذا الاسم بصورة شرعية ، ولكنهـا
كانت دوماً تعمل لصالحها لتكون ابداً محبوبة كثيراً ، محبوبة من ذلك الحب
الذي يخفي غالباً : تخزات الدبابيس وخطوطاً رهيفة انثى . ولايجب علينا ان
نقول بأن الخطر قد اسرع بتلك التي تجرأت على منازعته المكان الاول! ولكن
ذلك بأجمعه قد اصبح معروفاً بأنه يختفي خارج الوجود . في حركات هذه المرأة
كثير من الظرف ، وهي تحب الحشرات ، وتعرف كيف تأخذ نفساً حالماً وهي
تحني رأسها ببطء . والجميع موافقون على دعوتها : «بالمرأة المحببة من جميع وجهات
النظر » .

اما الصديقة التي جاءت لزيارتها ، فانها ليست كثيرة الغنى بمزاياها ؛ فلندعها
نحن ايضاً : « بالمرأة المحببة بكل بساطة » . ان قدوم تلك المرأة قد ايقظ

الكلبين الصغيرين اللذين يناmان معرضين للشمس: أديل بشعره الطويل، وبوبوري بخطاه السريعة. وقد أسرع كل منهما في الدهليز رافعاً ذيله الى حيث خلصتهما المرأة من لجاميهما. وكانت هي في داخل ثوب ذي لون عصري، وعلى عنقها اطوق طويل؛ اما جو الغرفة فكان مفعما بعبير طيب الياسمين.

وما إن عرفت المرأة المحببة من جميع وجهات النظر بقدوم المرأة المحببة بكل بساطة، حتى هبطت سريعاً لتقذف بنفسها بين ذراعي صديقتها. وتعانقت المرأتان وأخذتا بتصعيد الهتافات الداخلية الحديثة العهد. وأما القبلات فكانت اشد ضجيجاً من الكلبين اللذين اخذا بالنباح من جديد، مما سبب لهما ضربة بالمنديل. ثم ان الصديقتين ذهبتا الى الصالة الزرقاء حيث وجدتا منضدة أهليلجية وحواجز مزينة بالبلاب. وجاء على اثرهما الكلبان، اديل بشعره الطويل وبوبوري بخطواته المسرعة.

هتفت سيدة المنزل وهي تدعو صديقتها الى الجلوس فوق الاريكة:

– هنا، هنا، في هذه الزاوية الصغيرة؛ اجل هكذا... وهذا المسند.

وكانت وهي تقول ذلك، تضع المسند الذي طرز عليه رسم ضابط مدرج الانف مربع الشفاه.

– لكم انا سعيدة لانك.. لقد سمعت ضجة العربة فسألت نفسي: من يأتي في مثل هذا الوقت المبكر؟ وقالت لي بارشا: «ولكنها امرأة نائب الحاكم!» فأجبتها: أجاءت هذه الحمقاء لتزعجني... سوف لن استقبلها.

وعندما حاولت المرأة ابلاغ صديقتها النبأ العظيم الذي جاءت من اجله خرجت صرخة من المرأة المحببة من جميع وجهات النظر، أعطت اتجاهاً مخالفاً للحديث تمام المخالفة.

– الهندية الحسناء. هتفت بهذه العبارة وهي تنظر الى رداء المرأة البسيطة المحببة.

– اجل جميل الى حد كبير! وقد قالت لي براسكو فيافيدوروفنا بأنها تحب

ان تشاهد التربيعات اصغر قليلاً ... وان تكون التنقيطات زوقاً لاكستنائية ... ولقد عمدت الى إرسال قماش جميل جداً لاختي ... فيه من الجلال مالا يعبر عنه بالكلام ! ... ففي مواجهتي قليلاً .. خطوط صغيرة ... دقيق ، دقيق ... ادق من ان يستحضره الخيال الانساني ... وفي الاسفل لون سماوي وبين الخطوط عيون واذرع ثم عيون واذرع من جديد !...انه نسيج وحده! نستطيع ان نقطع في الحقيقة بأنه لايوجد ماهو اجمل منه في الدنيا .

– ولكنك ياصديقتي العزيزة جداً لقد زينت كثيراً .

– ابداً

– اوه ! أؤكد لك ...

يجب ان نعلم بأن المرأة المحبية من جميع وجهات النظر كانت مادية قليلاً ، وكثيرة الاهتمام بالمشاكسة والشك ، وترفض ان تصدق مايؤمن به الناس .

فبعد ان برهنت لهـا بأنها لاتزين لها الكلام في الثوب ابداً ، هتفت المرأة المحبية بكل بساطة :

– آه تهانئي ... لايوجد فيه خمل ابداً !

– كيف ؟

– اجل ... والغالب في اكاليل الزهر !

– ولكن الاكاليل ليست جميلة !

– الاكاليل .. كل شيء اقل جمالاً من الاكاليل .. زوار بالاكاليل ، وأكاليل على الاكمام ، والاكتاف ، وفي الاسفل ، وفي كل مكان .

– اكاليل في كل مكان ، ان ذلك ليس بشيء جميل ياصوفيا ايفانوفنا .

– سنرى يا أنا غريغوريينا ، ولكنه لطيف طريف ! لفقتان ... فتحات عريضة ... وهذا مايدهشك اكثر أيضاً !.. هذا الذي سيجعلك تهتفين اعجاباً ... أتعلمين ان الخصر يصبح اكثر طولاً ... (فالتنورة) مثنـاة على شكل سلال قديمة .. وتوضع ايضاً وسائد صغيرة محشاة ، وهكذا تصبح المرأة جميلة جداً .

- هذا ، واعترف لك بأنه كثير ...

- انا من رأيك تماماً !

- اقسم لك بأني لم ارتدي هذه الاثواب مطلقاً .

- ولا انا ... ثم انه لايمكننا ان نعرف الى اي حد سيتجه الطراز !..

وهذا يستدعي اي شيء !... لقد طلبت من اختي طرازاً صحيحة للضحك ... ولقد بدأت ميلاني بالخياطة ...

فصاحت المرأة المحببة من جميع وجهات النظر وهي لا تستطيع أن تخفي ماظهر عليها من اضطراب :

- آه ! هناك طرز في حوزتك اذن ؟

- اجل ، ولقد جلبتهالي شقيقتي .

- اعطينيها ... أيا روحي الصغيرة .٠. استحلفك بأقدس القديسين .

- آه ! ولكني وعدت بهابراسكوفيافيدوروفنا ... فاذا اخذتهـــا انت فانك ستلبين هذا الطراز بعدها .

- ولكن من يقتني ثوباً بعد براسكوفيافيدوروفنا ؟ إنه لغريب من جهتك ان تؤثري الاغراب .

- ولكنها عمتي .

- عمتك ... من جانب زوجك ! ... لاياصوفيا ايفانوفنا ،لااريد ان اسمع شيئاً ... انها اهانة فظيعة منك !... اني ارى بأن صداقتي التي لها وزنها عندك تريدين تحطيمها !..

ولم تعد تعرف المسكينة صوفيا ايفانوفنا ما تفعل ؛ فقد أدركت الطريق الخاطىء الذي ورطت نفسها بسلوكة ... لذلك فهي تود لوتقطع لسانها !

وسألت المرأة المحببة من جميع وجهات النظر بقوة :

- وهذا الولد الجميل ؟

- آه ! ايها المولى القدير ! انا التي أظل هنا ... ان هذا لعجيب ! ولكني

قد جئتك لأجله . لقد اخطأت المرأة المحببة بكل بساطة بأضاعة نفسها تحت مد الكلمات التي تورطت فيها عندما بكرت بقول كل شيء !

– انك تستطيعين ان ترتلي مدائح ذلك الرجل ، وان ترقي به الى السحاب ؛ ولكني اقول لك بأنه قذر ، قذر ، قذر !

– لتسمعي اذن ما سأقصه عليك .

– لقد عدوه رجلاً عظيم الجمال !... أهو رجل جميل ؟... ان له انفاً ... انفاً متقلباً قوياً !

– ولكن اسمحي لي ان اقص عليك ... يا آنا كريكوريفنا ، يا روحي الصغيرة ، اسمحي ان اقول لك ... انها قصة ، اتفهميني ... قصة ... مايسمى بقصة .

وتلفظت صوفيا ايفانوفنا هذه الكلمات بالفرنسية بلهجة حزينة متوسلة .

وليس من الصعب ان نلاحظ ان المرأتين قد خلطتا مجادلتهما بكثير من التعابير الاجنبية وبعبارات فرنسية طويلة ايضاً . وبما ان الكاتب مليء اعجاباً بالفرنسية التي استدعيت لانقاذ شقيقتها الروسية ، ومليء باجلال اعضاء المجتمع الراقي ، هذا المجتمع الذي يتكلم افراده في جميع الساعات اليومية بالفرنسية حباً بوطنهم ، فان الكاتب قد فضل ان يستعمل عبارة اجنبية واحدة فحسب ، في تلك القصيدة الروسية . واذن فلنتابع بالروسية .

.. ولكن اي قصة .

– آه ، ياعزيزتي ! لو انك تتصورين في اي طريق وجدت نفسي هذا الصباح ، لقد جاءت زوجة الاب سيريل ... وماذا تظنين ؟ ان رجلنا هادىء جداً ، اقصد مسافرنا ... من هو ؟

– ماذا ! اقام بدور زوجة الاب سيريل .

– دور !... ليس هــذا بشيء ، يا آنا كريكوريفا ، اسمعي ماقالته لي !... ان الملاكة كوروبتشكا قدجاءت اليها ، خائفة مصفارة الوجه كالموتى ... وسردت ... سردت ... لا ولكن اسمعي ... قصة حقيقية !... لقــد فعل

ذلك بقسوة ، في ليلة مظلمة بعدما نام الجميع عندها طرق الباب طرقة مخيفة ثم خرجت صرخات تقول : « افتحي ، افتحي ... او يكسر الباب !... » ماذا تقولين ؟ وماذا تظنين في هذا السيد الجميل ؟

– وهذه الكوروبتشكا ؟... أهي صغيرة ، جميلة ؟

– انها امرأة عجوز .

– لطيف ! .. فهو يركض اذن خلف العجائز !... اني افهم سيداتنا ، لقد عرفن من يعشقن .

– ولكن ، لا يا آنا كريكوريفنا ، انك لست كذلك ! انظري اليه لقد اصبح جندياً من قمة رأسه الى اخمص قدميه ... من جنس رينالدو رينالديني ... ومنسق : « بيعيني جميع ما تملكين من النفوس الميتة ! »، فاجابته كوروبتشكا متفكرة : « لا استطيع بيعها لانها ميتة » - لا انها ليست بميتة ... وهذا يمكنني من معرفة ما اذا كانت ميتة ام لا ! ». ثم صرخ : « انها ليست بميتة ... ليست بميتة ، ليست بميتة ! » وقصارى القول انه اثار فضيحة . فتراكض جميع اهل القرية ، وبكى الاطفال ، ولم يفهم اي شخص شيئاً ما ... فساد الهول والاضطراب بكل بساطة !... ولكنك لا تستطيعين ان تتصوري هلعي وانا اسمع هذا الحديث . وقد قال لي ماشكالي : « سيدتي العزيزة ، انظري انك مصفرة ». ولم يكن في نظرتي اي حزن ... فقلت : سأسرع ركضاً الى آنا كريكوريفنا . وهكذا اسرعت ... وقد سألني الحوذي : اين الذهاب ؟ فلم اعرف بماذا اجيب ، واخذت انظر اليه وكأنه مجنون ... وقد ظن حتما اني فقدت صوابي ! آه !... أليس لديك اية فكرة عن اضطرابي ورجفاني ؟

فهتفت المرأة المحببة من جميع وجهات النظر :

– ان هذا نسيج وحده ! ثم ماذا تعني تلك النفوس الميتة ! اصارحك باني لم افهم شيئاً ، وتلك هي المرة الثانية التي اسمع فيها عن تلك النفوس الميتة . وقد اكد لي زوجي ان نوزدويف قد كذب !.. ولكن هناك بعض الحق الى جانبه حتما .

ـ ولكن راقبي سلوكي وانا اسمع هذه القصة . ثم ان كوروبتشكا قالت :
« وانا الان لاادري مالفعل ، انه يضيق علي كي أمهر له ورقة غير صحيحة ، وقد اعطاني خمسة عشر روبلاً ثمناً لكل رأس .. واني امرأة مترملة تنقصها التجارب والدعامات ! » اجل هذا ماجرى ! رباه ، لكم يقلقني هذا !
ـ على رسلك ، كما تشائين .. ولكن هذه النفوس الميتة تخفي وراءها شيئاً ما .
ـ اجل ، اني اعترف لك بهذا . قالت هذا المرأة المحببة بكل بساطة . ولكي تعرف الى اي حد ولكن سيحتفظ هذا الحديث بسريته سألت : ولكن بماذا تفكرين ؟
ـ وانت ؟
ـ انا ... سأضيع كلية .
ـ اريد ان اعرف تماماً جميع اقتراحاتك .
ولم تجد المرأة المحببة بكل بساطة لديها ماتقوله . ولذا تأثرت بسهولة . ولكنها وجدت نفسها لاتصلح لتأليف اقل فكرة ، لقد كانت دون هذه المقدرة ، وهي تحتاج اكثر من غيرها الى النصائح والصداقات .
قالت المرأة المحببة من جميع وجهات النظر :
ـ اذن استمعي الي ، ان النفوس الميتة ...
ـ وصديقته ، كلها عيون وآذان ، وهي بالرغم من انها ثقيلة نوعاً ما ، فقد بدت أخف ، حتى انها لتشبه ريش الطائر تقذف به اقل نفخة . او هي تشبه صياداً روسياً عندما يصيب الحيوان بالرغم من العاصفة التي تبيض عينه وشاربيه وحاجبيه بأغشية رقيقة من الجليد .
قالت المرأة المحببة من جميع وجهات النظر :
ـ ان النفوس الميتة ...
فهتفت صديقتها :
ـ حسناً ؟ ماذا ؟

ـ ان النفوس الميتة ...

ـ قولي ... بحق السماء !

ـ انها تخفي .. الحقيقـــة .. وهي .. ان تشتشيكوف يريد ان يخطف ابنة الحاكم .

كانت هذه الخاتمة غير متوقعة بالاضافة الى انها جنونية من جميع وجهات النظر . وبدا أن المرأة المحببة بكل بساطة قد تحجرت ، فشحب وجههـــا ، وارتعدت من الخوف واضحت بيضاء كالاموات .

ـ يا الهي !.. ليس في مقدوري ان أظن !

ـ اعترف لك بانه منذ ان تكلمت .. تنبأت بكل شيء !

ـ يا لسلامة النية ! لـكم ارتفع ضغطها .

ـ سلامة النية ! لقد سمعتها .. انها قالت اشياء لا اكاد اجدالجرأة الـكافية في نفسي لأقولها .

ـ يا آنا كريكوريفيا . . ان القلب ليتمزق حسرة عندما نفكر في جميع هذه اللا اخلاقيات .

ـ ان جميع الرجال مجنونون بها .. واعترف لك بانني لم افهم بعدماذا تملك هذه الشابة .

ـ انها متصنعة ، وهذا لا يطاق .

ـ انها لتشبه الرخام .. وليس في وجهها اي حيوية .

ـ أنها متصنعـة . . متصنعـة .. متصنعـة ! ولا اعـــلم ممن استقت كل هذا التصنع .

ـ وهي الى جانب ذلك بيضاء كالتمثال ، كالموتى .

ـ لا يا صوفيا ايفانوفنا ، لا تقولي ذلك . . انها تضع الحمرة . . . بوقاحة ما بعدها وقاحة .

ـ ولكن لا .. يا آنا كريكوريفنا .. انها بيضاء ، بيضاء كقطعة الحوار.
ـ ولكني يا عزيزتي قد جلست بقربها في احد الايام .. فشاهدت الحمرة التي تضعها .. انها في ثخانة الاصبع .. تتساقط منها كقطع الجص الدقيقة .. وكل ذلك ذلك من تربية امها .. ان البنت تصبح ايضاً اكثر اعتناء بهندامها من الأم !
ـ اسمحي لي .. اني على استعداد للمخاطرة، لاي مخاطرة ، اني على استعداد لتضييع اطفالي ، وزوجي ، وارزاقي .
فهتفت المرأة المحببة من جميع وجهات النظر وهي تضرب كفاً بكف :
ـ ماذا تقولين اذن، يا صوفيا ايفانوفنا؟
فاجابت المرأة المحببة بكل بساطة وهي تضرب بيديها ايضاً :
ـ انك لغريبة ،يا آنا كريكوريفنا . اني انظر اليك و ... انت تدهشيني .
مثل هذه المحادثة يجدها القارىء طبيعية جداً بين صديقتينا اذا كان الموضوع التقاء انسانتين في نفس اللحظة . وان كثيراً من الاشياء لتبدو بيضاء صافية لتلك السيدة التي ظهرت بلون القرمز امام صديقتها .
وتابعت المرأة المحببة بكل بساطة :
ـ ان البرهان باهت جداً ... اتذكر .. بأني جلست قريبة من مانيلوف وقلت له : انظر اليها ، كم هي صفراء !
ـ يجب على ازواجنا ان يكونوا بليدين كي يغمى عليهم امامها ، وفيما يخص رجلنا الجميل ... انك لا تستطيعين التصور ، يا آنا كريكوريفنا ... لكم يلذ لي .
ـ ان الكثيرات يتعلقن به .
ـ طبعاً لست من هؤلاء .. يا آنا كريكوريفنا .. انك لا تستطيعين ان تقولي ذلك .
ـ اني لا اتكلم عنك .. فأنت لست الوحيدة في الميدان .

ـ ابداً ، ابداً ، يا آنا كريكوريفنا ! اسمحي لي ان ألفت نظرك الى اني لا اعرف تماماً .. هناك اخريات كثيرات بعيدات المنال .

ـ اسمحي لي، يا صوفيا ايفانوفنا.. اني لا اقوم بمثل هذا الغنج ابداً .. لعل الآخريات يفعلن ذلك ، اما انا فلا !

ـ ولم الغضب ؟ .. ان النساء الآخريات يكن في المرقص .. اولئك اللواتي كن يتسارعن نحو الابواب مثلا لاحتلال المقاعد .

وهذا الكلام الاخير الذي ادلت به المرأة المحببة بكل بساطة ، كان من شأنه ان يحرك العاصفة .. ولكن الصديقتين سكتتا . وتذكرت المرأة المحببة من جميع وجهات النظر بانها لم تنل بعد بغيتها من طراز الثوب التي طمعت فيه، في حين ان المرأة المحببة بكل بساطة كانت تتوق الى تفصيلات اخرى حول موضوع اختطاف ابنة الحاكم . ولذا فان العاصفة التي هبت سريعا واستفحلت ما عتمت ان خبت وهمدت . اما في المواقف الاخرى فان هاتين السيدتين كانتا عاجزتين تماماً عن التعرض للسوء والتصرف الوقح . ولكن ، في المجادلة، كانت كل واحدة منهما لا تقوى على مقاومة لذة القذع والقدح : « فقد كانتا تقولان مثلا لبعضهما : اليك . التقطي .. خذي وابتلعي والحق ان لقلوب النساء والرجال حاجات كثيرة .

قالت المرأة المحببة بكل بساطة :

ـ لم استطع بعد ان افهم ، كيف ان تشتشيكوف ، هذا المسافر البسيط، يتجرأ على مثل هذه الضربة ! ثم أليس له شركاء ؟

ـ أوه ! أتستطيعين افتراض ذلك ؟

ـ ولكن من يعينه ؟

ـ اعتقدي ان نوزدريف !..

ـ نوزدريف !.. حقا !..

ـ انه لجدير بذلك ... لقد اراد ان يبيع أباه ... انه اللعب بالورق .

ـ يا آلهي ! ... يا لها من احاديث جديدة هامة تزفينها الي... اني لم افترض قط ان نوزدويف يمكن ان يختلط في هذه القصة .

ـ ان هذه الفكرة قد جاءتني بصورة طبيعية .

ـ الا يجب ان تكون في العالم ؟ .. انظري ، انتمكن من الاعتقاد بكل هذا عندما يصل تشتشيكوف ... آه ! لكم ارتجفت ، يا آنا كريكوريفنا ! ... فاذا لم احظ بصداقتك ! ولطفك ... فاني تائهة . وقد راقبت ماشكا اصفراري ، فقالت : ولكنك بيضاء كالاموات ـ انها تتصرف احسن من هذا يا آلهي ... ونوزدويف ايضاً ... اني اكاد اجن !

وارادت المرأة المحببة بكل بساطة ان تعرف حقائق اعمق عن الحادث ساعة وقوعه ، مكان وقوعه ، ولكنها اشتطت في بحثها ، فاعلنت المرأة المحببة من جميع وجهات النظر انها تجهل كل شيء . فهي لا تعرف الكذب ولا تسمع ـ وهذا غريب جداً ـ ان تستبدل عقيدة تعتنقها بأي ثمن .

اما الاختطاف الذي لم يكن بالنسبة الى الصديقتين بادىء الامر الا مجرد فرضية ، فانه سرعان ما اصبح حقيقة . وقد سار الرجال الاذكياء ، كما يقولون عن انفسهم ، بنفس هذا الاتجاه . ويمكن الاعتراف حتى بهذا بالنسبة لاعمق دروس علمائنا . وكان يبدأ هؤلاء ، بكل لطف ، بالاسئلة اللبقة وهم في تمام هدوئهم : « أليس السبب الاصلي هكذا ؟ واسم هذه البلاد أليست من هذه الرقعة من العالم ؟ وثم ، هذه الحجج الا تدل على عهود اخرى سحيقة في القدم ؟ واخيراً هذا الاسم الدال على شعب بالذات ، ألم يكن اسماً لأمة اخرى ؟ » واخذوا بتعداد اسماء الكتاب القدماء لعلهم يجدون بينهم بادرة تؤيد فرضيتهم ، وقد تجرأوا الان فتكلموا عن الكتاب الراحلين ، ينقبون بينهم ويجيبون عنهم ، ناسين اللباقة التي كانت مبدأ فرضيتهم الاولى . لقد ظهر كل شيء لهم واضحاً كما قالوا : « لقد ثبت الامر ، هذا هو اسم الشعب الذي نرغب ، وهكذا يجب ان تحل

المسائل ! ». سقطت هذه الكلمات من على المنبر ، ودوخت تلك الحقيقة الجديدة العالم ، وقهرت كثيراً من المتعصبين والمتحمسين الامناء .

وبينما كانت الصديقتان مشغولتين بحل تلك المسألة الصعبة اللاذة ، دخل الوكيل غرفة الاستقبال . وفي الحال ، وضعته المرأتان في معرض الفكرة الجديدة ، وأعلمتاه بقصة النفوس الميتة . فأخذ يغمض عينه اليسرى وينظف لحيته الملوثة بالتبغ بمنديله ، ولكنه لم يفهم حرفاً مما تحدثت به المرأتان. فتركتاه وخرجتا للتجوال في أنحاء المدينة الصغيرة . لقد تم لهما ماارادتاه ، ولسنا بحاجة لأكثرث من نصف ساعة حتى يهتاج الشعب ويثور ، ولكن مامن إنسان اكثرث للقصة . انهما ستقهران العالم اجمع ، وعلى الخصوص هؤلاء الموظفين الذين يحيون متبلدين وقد بدت حالهن كتلميذ حلم اثناء نومه ان رفاقه قد غرقوا في البحر جندياً ، او كورقة تتطاير في الفضاء وقد ملئت تبغاً . وقد شعر هذا التلميذ في نومه بكل مايخالج نفس الغريق ، فما إن استيقظ حتى اخذ يقفز حول نفسه ، ولا يشعر الا بريح زمهرير باردة ، فأجبر نفسه على فهم مايجري حوله . ثم شاهد بعد ذلك أشعة الشمس تتراقص على الجدران ، وسمع قهقهات رفاقه المختبئين في الزوايا ؛ كما شاهد من خلال نافذته الفجر حالت انبثاقه ، والغابة تستيقظ على حداء العصافير ، والجدول السلسبيل وقد ملىء بالسابحين . ثم لاحظ أخيراً ان الجندي الغريق يمنعه من التنفس ! تلك هي الحالة الاولى التي كان يعانيها السكان والموظفون في مدينة (ن) ... بادىء الامر . ولكنهم يشبهون ايضاً حالة الخراف وهي تثب دون أن تعلم ماذاتريد أن تفعل . النفوس الميتة ، هذه الفكرة العجيبة قد اختلطت بابنة الحاكم حتى لم يعد التمييز بينهما سهلاً .

لقد هذا بعد ان تملكتهم الحيرة وأغلقت مجرى تفكيرهم فأخذوا يعدون للامر عدته حاقدين لانهم لم يروا اي شرح عقلي لكل هذا . اي شيء هذه النفوس الميتة ؛ اي شيء هي ؟!... اي منطق تحمله تلك النفوس الميتة ؟!... وكيف يمكن شراء نفوس ميتة ، بل أية حماقة هذه ؟ واي ثمن باهظ يدفع ، ولاي شيء

تصلح تلك النفوس ؟... وابنة الحاكم ، ماذا ستفعل إزاء هذا الحادث الغريب؟ وهو ، إن كان يريد شراء نفوس ميتة فلماذا يحاول خطف ابنة الحاكم ؟ أيريد أن يقدم لها هذه النفوس كهدية ؟ وهذه المدينة ، اية سخافة تجري فيها؟واخيراً، ماسبب هذه النفوس الميتة ؟... انه لاسبب لها ! ... ان هذا لشيء بسيط!... سوروينت ايتها الحمقاء... ليأخذك الشيطان !

انظروا هوذا المدينة بقضها وقضيضها تثرثر بهذه النفوس الميتة وابنة الحاكم وتشتشيكوف ، وهكذا... وهكذا ابداً ... تمر العواصف بهذه المدينـــة الصغيرة الراقدة دوماً ... ولقد خرج الرجال العاقلون من أقفاصهم . والآن ، هاهي الاحلام تدور حول هذه المخلوقات التي قضت حياتها داخل أثواب النوم، الصارخات في وجه صانعي الاحذيه والخدم والسكارى والخياطين الذين يتأخرون دوماً عن مواعيدهم . وهكذا ايضاً تدور الاحلام حول هؤلاء الذين قضوا صلاتهم مع العالم ، فلا يعاشرون الا الزافايلشيين والبوليجافيين والسوبيكوفيين والترابوفينتسكيين . ويشاهد اخيراً ، من جديد ، هؤلاء الناس الذين حاربتهم الروسيا بجمع قواها ، لايتمكنون ان يخرجوا من انفسهم . لقد ظهرت مدينة (ن) فجأة ، مدينة كبيرة تغص بالشبان ، حتى لكأنها مدينة واسعة الارجاء.

وشوهـــد سيسوا بافنو تيفتش ، وماكدونالد كارلوفيتش الذي لايعرفه أنسان ، وهو مجهول اجتاز الصالونات ، مجروح في ذراعه ، ذو قامة طويلة .. وامتلأت الشوارع بالعربات والمسافرين الغرباء الزي والمحافل العجيبة الشكل . ولكن كل هذا الضجيج كان لايجذب انتباه اي انسان في مناسبـة اخرى او برهة ثانية . الا ان مدينة (ن ..) كانت منذ زمن طويل و كأنها قطعت عن العالم ، حتى ظهر في هذه المدينة منذ ثلاثة شهور وبدون حدوث اية ضجـــة ، جماعة ثرثارون لابد من وجودهم في مدينة احوج ماتحتاج اليه هو الاحياء .

وانقسمت المدينة قسمين ، وتنازعها رأيان : الاول يؤلفه جماعة الرجال ، والثاني تؤلفه النساء . فأما القسم الاول ، وهو الاكثر حماقة ، فانه لم يكترث

الا بالنفوس الميتة . واما القسم الثاني ، فانه لم يهتم الا باختطاف ابنة الحاكم .
ويجب ان نعترف هنا بان النساء قد ظهرت بمظهر النظام والاحتراز ، وهؤلاء يعرفن بطبيعة الحال ، كيف كيف تكون ربات البيوت ، وكيف يمكن ترتيب المنازل وتنظيمها . كان كل شيء بالنسبة لهن واضحاً وثميناً كانما وضع في رواية محكمة العقدة مترابطة الخيوط . ويجب هنا ان نعرف بان تشتشيكوف كان مغرماً منذ مدة طويلة . وقد شوهد مع ابنة الحاكم في حديقة تحت اشعة القمر ، ولكن الحاكم كان بلا ريب يريد ان يزوج ابنتـــه من ثري كبير ، يهودي مثلا . ولكن ... ولكن تشتشيكوف كان قد طلق امرأته (ولم يعلم احد انه كان متزوجاً) . وقد كتبت امرأته هذه رسالة مؤثرة الى الحاكم فقرر تشتشيكوف ان يختطف الفتاة قبل ان يعلم بذلك احد .

ان التاريخ ليروي هذه الاشياء محرفة . ان تشتشيكوف لم يكن متزوجاً ، ولكنه من الرجال الذين لا يصلحون لشيء . وكانت تربطه علاقات مع امرأة الحاكم ثم طلب بعد ذلك يد ابنتها . ولم ترد الام ان توقع جريمة ، فرفضتـــه رفضاً قاطعاً تحت وخز ضميرها . ولذا صمم تشتشيكوف على عمليـة الخطف . لقد روى بعضهم هذه الحادثة على هذا الشكل ، الا ان البعض الآخر رواها بشكل مخالف . وعلى اية حال فان هذه الحادثة قد اذيعت في احياء المدينـــة بالطول وبالعرض . ان العامة تريد دوماً ان تتغذى بغذاء الخاصة . ولقد كان الحديث عن تشتشيكوف يدور في بيوت لم يشاهد فيها قط . ولكن ، كما هو الحال دوما عند اشاعة الاخبار ، فقد اضيفت الى الحادثة زيادات وتعليقـــات وتحشيات ، فازداد انتشار الخبر ساعة بعـــد ساعة حتى وصل الى اذن امرأة الحاكم . وبما انها ربة اسرة عظيمة ، ويشار اليها بالبنان في المدينـــة ، فقد اغتاظت كثيراً . واشمأزت من العمل . ولم يقتصر الخبر على الام فحسب ، بل تعدى ذلك الى ابنتها المسكينة التي لم تكن باحسن حال من والدتها . وقد لاقى هذا الخبر ، بطبيعة الحال ، سيلا من الاسئلة والتهديدات والنصائح وغير ذلك

مما يروج عند انتشار الشائعات . ولم تفهم الفتاة المسكينة اي شيء من هذا لانها كانت غريقة دموعها .

وبعد انتهاء كل شيء ، اضحت النساء بصف الرجال بعد ان أفحموهن بصحة نظرتهم . ولكن النفوس الميتة ليست الا مجرد اشاعة وألهية لابعاد كل شبهة عن تحقيق الخطف . وقد رضخ بعض الرجال لهذا الرأي وانضموا الى فئة النساء رغم التنبيهات العديدة والتحديات الكثيرة من بقية الرجال الذين وصموهم بالتخنث لانضمامهم لفئة النساء .

ولكن فئة الرجال لم تحظ بالنظام والاتقان الذي تحلت به الفئة المقابلة ، بالرغم من المساعي والجهود التي بذلوها . كان كل شيء عنـــدهم مشعثاً غليظاً قبيحاً ، تعوزه الادارة الحسنة . وبقيت افكارهم حائرة ، مرتبكة ، متناقضة . فأخذ الفراغ بخناقهم لطبيعتهم العاجزة عن كل تنظيم ، وكل معرفة بالهدف ، وامتلئوا بالخوف والشك . ولذا استنتجوا أن هذه الاشاعة إن هي الا اضحوكة ومهزلة ، وان اختطاف ابنة الحاكم انما هو من شأن رجل عسكري ، ليس من العامة . فتشتشيكوف لن يستطيع القيام بامر من هذا النوع . واخـذ النساء يكذبن مرددات : هذه فئة من الفاجرات ، وتلك تشبه الدرافيل ، ثم اخذن ينقلن مايسمعن مع الاضافة والتشويه . ولكن الشيء الهام الذي يجب تركيز الاهتمام عليه ، انما هو ثمن تلك النفوس الميتة . ولكن في اي مكان تختبيء تلك النفوس ؟.. ان الشيطان وحده يعلم بذلك !.. يجب الحصول اذن على قصـــة اسوأ من هذا او اكثر اذية !.. ترى لماذا يعتقد الرجال ان الاسرار المختفية انما هي خاطئة ؟ والآن لقد قدم حاكم آخر ليحكم المقاطعة ؛ وهذا ماجعل الرعب يسيطر على قلوب الموظفين . ان هذه التولية الجديدة انما تعني ، في واقع الامر ، بحثاً وتمحيصات وتحقيقات ومحاسبات ومراجعات . ثم ان الرئيس الجديد لابد له من ان يستدعيهم .

وقال الموظفون التعساء :

- واذا علم الحاكم الجديد بهذه الضجة المنتشرة في مدينتنا .. ان ذلك سيكون بلا ريب سبباً في حياتنا او في موتنا جميعاً .

وسقط مدير الصحة مريضاً في فراشه ، ذلك انه اعتقد ان النفوس الميتة تعني ، بكل بساطة ، جميع المرضى الذي ماتوا في المشافي بعد مرض معد ، دون ان يؤخذ لهذا المرض اي تدبير من قبل السلطات . وبالنسبة اليه ، كان تشتشيكوف رسولا من قبل الحاكم العام ليفتح تحقيقاً في هذا الموضوع . ولذلك فقد اسرع مدير الصحة الى الحاكم ليخبره بمخاوفه وهواجسه . وقد رد عليه الحاكم بان فكرته هذه لايقوم عليها دليل ، ومن ثم عراه الاصفرار وسأله :

- أماتت نفوس تشتشيكوف حقاً ؟ فهو يملك الثمن اذن ؟ ثم ماادراك اذا لم يكن الحاكم العام الجديد قد قبض الثمن ؟ وركض الحاكم بدوره ليبث مخاوفه الى اصدقائه . فاصفر الجميع وشملهم الخوف بسرعة اكثر من سرعة انتشار الطاعون .

واخذ يتساءل جميع من في المدينة : اية غلطة هذه ؟ ان النفوس الميتة لتأخذ معنى لم يفكر به احد من قبل . ولقد دفنت جميع هذه الاخبار عندما انتشر حديثان جديدان هزا المدينة هزاً عنيفاً . وكان اولهما يدور حول تجار من سولفيدتشيكود جاءوا الى مدينة (ن ...) اثناء السوق السنوية ، فدعوا الى وليمة غداء عند اصدقائهم الاوستيسولسكيين . وكان عصير اللوز والليمون واشياء اخرى كثيرة ، من حلويات هذه الوليمة . وقد انتهى الغداء حسب العادة بدعوة الى العاب المصارعة . وقد تغلب السولفيد تشيكوديون على زملائهم تغلباً مبيناً . وكانت النتيجة ان تلقى احد المنتصرين ضربة من جمع يد قوية على انفه حطمته وهدت كيانه .

وانتهى الامر بأن اعترف المنتصرون بخطئهم وطلبوا الصفح على أساس ان ما جرى كان من قبيل المزاح فقط . وهكذا عم الضجيج في كل مكان عندما ترك المنتصرون اخصامهم واعطوهم بعض القطع النقدية . لقد ظل كل شيء غريباً وانتهى الامر على ان الاوستيسولسكين قد هزموا شر هزيمة .

واما الحادثة الثانية فقد جرت قبل ذلك . كان فلاحوا قرية فيشيفاياسبيس قد تعاقدوا مع الموجيـــك وهم في منطقة بوروفكا ـ زاديريلوفا على استبدال الشرطي بانسان آخر يدعى دروباجكين لينوب عنه . وقد زار هذا الشرطي اولي نعمته زيارة ودية ، كان داعيها ان رجل الامن هذا ، كان قد يكشف عن سر رجل حقير ينصب الاشراك للنساء والفتيات . ولم يستطع احد ان يكتم التحقير الذي يستحقه هذا الرجل الشرير ، ولكن الموجيـــك اكدوا ان الشرطي قد اظهر عدوه بمظهر الهر رغم تبينهم له على ذلك اكثر من مرة . وقد وقع الشرطي يوماً في احد الاشراك ، وهذا ما يستحق . ولكنه لم يعـــذر الموجيـــك على عدم انقاذهم له ، وهكذا وجد المسكين ميتاً على الطريق وقد تمزقت ثيابه ولم يعرف احد لون وجهه شكله . ففتح القـــاضي تحقيقاً واسعاً ، ولكن المجرم ما زال مجهولاً . وبما ان الموجيـــك كانوا حاضرين باجمعهم ؛ فقد كانوا بحاجة الى رأي جازم نهائي ! وهكذا قالوا جميعهم : ان الشرطي هو وحده المجرم ، لانه لم ينقطع عن إنزال المظالم بالناس الآمنين ، وقد مات في مكان ناء بالسكتة القلبية .

ان هذا العمل اشبه شيء بالخطة المرسومة ، وقد أخذ الموظفون الآن بالتساؤل : لماذا تكون النفوس الميتة من الرجال المقضي عليهم في مثل هذه المناسبات ؟ وقد جاء الى الحاكم من جديد دليلان في وقت واحد فذعر جميع الموظفين . قال الاول للحاكم : انه بحسب بعض التقارير تبين ان ضارب النقود الذي يصنع المناجل كان موجوداً في حكومته . وقد تجول داخل المدينة تحت اسماء مختلفة ، فأصدرت الاوامر حالا للبحث عنه . واما الدليل الثاني فقد نقل تقرير حاكم المقاطعة المجاورة بتوقيف من لا يحمل جواز سفره . وقد اخافت هذه الاشياء مدينة (ن) وذهبت جميع الفرضيات والحلول السابقة ادراج الرياح ، ولم يدر اي سؤال حول تشتشيكوف . وقد اخذ الجميع الآن يقولون ان الامر يتعلق بماضي بافل ايفانوفتش . فهو قد ذكر بنفسه ، مرتبكا ، من اين

جاء ، وقد قص آلامه الناتجة عن تتبعه الحقيقة بغموض ما بعده غموض . كما اعترف بالاعمال الشريرة التي حاكها له اعداؤه العديدون اثناء حياته السالفة . كما ذكر ان حياته في خطر ، وانه مراقب دوماً ! ولكن لماذا ؟

من هو تشيشيكوف ؟ انه لا يصنع المناجل ولا يشابه اللصوص ، فمن يكون اذن ؟ ان جميع الموظفين يضعون هذا السؤال منذ المقطع الاول من قصتي هذه ! يجب ان يستفهم هؤلاء الذين اشترى منهم النفوس الميتة ، ترى ماذا يعني الشراء ؟ وماذا تعني النفوس ؟ ان بافل ايفانوفتش قد اعترف بقصده المكتوم فتحدث عن نفسه شخصياً مع كثير من الاشخاص المختلفين .

ذهب الموظفون بادىء الامر الى كوروبتشكا ، ولكن المعلومات كانت معدومة تقريباً . فتشتشيكوف قد اشترى نفوساً واشترى ايضاً ريش طيور بخمسة عشر روبلاً وكان يشتري اشياء كثيرة بلا ريب . انه يشبه رجلا آخر يشتري ريش الطيور ، عرف كيف يخدعها ، ويخدع زوجة الكاهن باكثر من مائة روبل . وقد رددت كوربتشكا هذه الاحاديث عدة مرات فتحقق لدى جميع الموظفين انها بلهاء . اما مانيلوف فقد اقسم انه يأخذ تشتشيكوف على مسؤوليته وانه ليضحي بجميع املاكه ليملك فقط جزءاً من مائة من مزايا بافل ايفانوفتش . والخلاصة ان تحدث مادحاً واضاف الى حديثه بعض تأملات عميقة عن الصداقة صحبها بغمزات رشيقة من عينه . وقد دللت هذه الاحاديث على رقة قلب مانيلوف ولكنها لم توضح للموظفين اي شيء يحل المسألة .

اما سوباكيفتش فقد اكد ان تشتشيكوف رجل شريف وانه باعه احسن عبيده وكلهم احياء ولكنه لا يريد ان يتنبأ بالمستقبل ، فالفلاحون قد يموتون بعد السفر بسبب التعب وهو ليس مسؤولا عن ذلك لان هذا تابع لارادة الله فالحميات والامراض القاتلة تملأ العالم وهناك قرى بكاملها قد ذهبت الاوبئة بها .

فلجأ الموظفون عند ذلك الى طريقة يعوزها الشرف ولكنها يمكن ان تحقق لهم فائدة ، الا وهي استجواب خدمي تشتشيكوف بواسطة خدم المدينة . وقد

سألوهما عن تفاصيل حياة سيدهم الماضية ولكنهم لم يفيدوا من ذلك شيئاً لانهم لم يفهموا من بتروشكا اي شيء . واما سيفان فقد قال ان تشتشيكوف قد شغل اول أمره منصباً في الدولة ثم عمل بعض الوقت في الجمارك . ان لمثل هذه النوع من البشر طبيعة غريبة . فاذا ما ألقيت عليهم سؤالا صريحاً مباشراً ، لا يذكرون لك شيئاً ، ولا تكون لديهم اقل فكرة . وما إن تنتقل الى موضوع آخر حتى يتحدثون معك عن أشياء كثيرة مفصلة حتى لتصبح راغباً باسكاتهم فقط .

وهكذا أدت تحقيقات الموظفين الى زيادة تأكدهم بانهم لا يعرفون اي شيء عن تشتشيكوف . ومع ذلك فان تشتشيكوف يجب ان يكون شخصاً ما ؛ قد أتى من جهة معينة . فقرروا عقد اجتماع ليتدارسوا المسألة ويفحصوا التدابير التي يجب ان يتبعوها ؛ وان يبحثوا عما اذا كان بامكانهم اعتقال بافل ايفانوفتش كمشبوه ، او عما اذا كان بامكانه ان يلقي بهم في السجن باجمعهم . وقد تقرر أن يكون مكان الاجتماع منزل مدير البوليس الذي كان يعتبر كما نعرف أباً أو محسناً لمدينة (ن ..) .

الفصل العاشر

لاحظ الموظفون الذين اجتمعوا عند والد المدينة البار كم هزلت اجسادهم من الهم . فقد ارهقهم تعيين حاكم جديد للمدينة ، كما ارهقتهم الوثيقتان والشائعات التي انتشرت في كل مكان ، الى اصبحت فيه وجوههم شاحبة ومعاطفهم اكثر عرضاً .

أما رئيس المحكمة فقد نحل ايضاً مثل صديقه مفتش الشؤون الصحية ، واما المدعي العام فقد اصبح مثل انسان يدعي سيميون ايفانوفتش لم يناده احد باسم اسرته . وكان هذا يحمل في سبابته خاتماً تعرفه سيدات المدينة معرفة جيدة ، لقد نحل هذا الرجل ايضاً واصبحت سبابته بالتالي نحيلة ... وبطبيعة الحال كان يوجد في المدينة بعض الشجعان الذين ظلوا محافظين على رباطة جأشهم ، ولكنهم كانوا جد قليلين ، وكان من بينهم مدير البريد الذي لم يتعكر مزاجه بل كان لا يني عن القول : « اني اعرفكم جيداً ايها الحكام العامون ، فانكم تبدلوا اماكن وظائفكم ثلاث او اربع مرات ، واما انا فما زلت هنا منذ ثلاثين عاماً » وكان الآخرون يجيبون : « حسنا ايها العزيز ايفان اندريفتش ، انك

في مركز حسن ، لم تتلقى رسائل او ترسلها ، فانك تستطيع ان تغلق مكاتبك ساعة قبل انتهاء الدوام ، كما تستطيع ان تؤخر رسالة لتاجر ، او ترتكب خطيئة ، وهكذا فانت تبدو في مركزك دوماً قوياً ، ولكن ماذا تفعل لو كان الى جانبك الشيطان بعينه ابداً ؟ »

لكم هو مزعج حقاً قبول ما سبق ان رفضته ، او ارضاء هـذا والابتسام لذاك .

بهذا كان الموظفون يفكرون فيما بينهم .. وبالطبع لا تمكن مقاومة الشيطان وهكذا اجتمعوا عند مدير البوليس ، ولكن كان عند بعضهم ما تسميه العامة بالتفكير السليم . نحن الروس ، لم نخلق لاجتماعات من هذا النوع ، انك تستطيع ان تجد في اجتماعات العلماء واجتماعات الفلاحين رئيساً ، ولكن النتيجة ستكون الفوضى والبلبلة . واما السبب في ذلك فانه من الصعب معرفته ، إذ لسنا نصلح للمآدب والحفلات والنوادي ، ولكن هذا لا يمنعنا من المبادهة إطلاقاً ، فكل ريح تدفعنا الى تأسيس جمعيات خيريه او غير ذلك ، يكون الهدف منها جيداً ، واما القوة التنفيذية فمعروفة . وفي بادىء الامر نرضى عن انفسنا حتى ليخيل الينا ان العمل قد انتهى . فعندما نؤسس جمعية لاغاثة الفلاحين وندفع اشتراكات كبيره فاننا اول ما نبدأ به هو الاحتفال بالامر ، ويكون ذلك باحياء حفلة ندعو اليها جميع شخصيات المدينة فننفق بهذا نصف ما جمعنـــاه ، ثم نستأجر للادارة شقة فخمة ، ونستأجر لهذه الشقة خدماً ، ثم .. ثم يكون الباقي خمسة روبلات ونصف الروبل فقط ، لتوزع على الفقراء ، ومع ذلك فما من احد عرف كيف توزع هذه الروبلات المسكينة ، فيبدي كل رأيه في الموضوع .

اما اجتماع موظفي مدينة (ن..) فقد كان من نوع آخر ، لم يكن الامر هنا متعلقاً بالفقراء او الاغراب . بل كان كل من هؤلاء السادة المجتمعـــين مهتما بصورة شخصية ومباشرة بالقرار الذي سيتخـــذ . كان هناك اذن خطر

واحد يتهدد الجميع ، ولذا يجب ان يكون الاتفاق تاماً . ومع ذلك فقد كانت الحالة سيئة ؛ ففقدان التوجيه التام يبدو واضحاً ، وكل ذلك بالاضافة الى الافكار المتناقضة التي كانت من طبيعة كل اجتماع او مؤتمر .

فقد قال احدهم مثلا : « ان تشنشيكوف يزور المستندات » ، ثم لم يلبث ان اضاف : « ومع هذا فيمكن الا يكون الامر صحيحاً . » واكد آخر ان « بافل ايفانوفتش كان مبعوث الحاكم العام » ثم قال : « ولكن هذا لا يبدو على وجهه » وقد نفى الجميع اعتباره لصاً متخفياً . فطلعته النبيلة واسلوبه في الحديث لا ينمان عن رجل بمقدوره ان يقوم بجميع اعمال اللصوصية .

وفجأة هتف مدير البريد بعد ان غرق برهة في الصمت ، وبدا كأنه مدفوع بوحي مفاجىء :

– ايها السادة ، اتعرفون من هو تشنشيكوف ؟

وتلفظ بهذه الكلمات بنبرة هزت الجميع ؛ فهتفوا دفعة واحدة :

– من هو ؟

– ايها السادة ! انه الكابتن كوبيكين .

وعندما قالوا :

– ومن هو الكابتن كوبيكين ؟

اجاب مدير البريد :

– انتم لا تعرفون اذن من هو الكابتن كوبيكين ؟

فاعترفوا جميعهم بجهلهم ، ففتح مدير البريد علبة سعوطه قليلا كي لا تستطيع الاصابع ان تغوص فيها لانه لم يكن يؤمن بنظافتها ، ولذا كان يقول غالباً :

– ايها الاصدقاء اني لا اعرف اين تضعون اصابعكم غالباً ، ولكن الذي عرفه ان التبغ يجب ان يظل نظيفاً .

وقال ، وهو يمر اصابعه على التبغ :

– ان الكابتن كوبيكين يمكن ان يكون موضع قصة عظيمة .

- فأبدى الموظفون عند ذلك رغبتهم في التعرف على هذه القصة أو هـذه القصيدة كما شاء مدير البريد ان يسميها .

وبدأ صاحبنا حديثه :

قصة الكابتن كوبيكين

انه بعد حملة ١٨١٢ ياسيدي العزيز ، « قال هذا بالرغم من ان المستمعين كانوا ستة اشخاص » وجد الكابتن كوبيكين بين الجرحى . وكان رجلاً مجنـونا وشيطاناً مريداً عرف كيف يصلح لكل شيء ، وفقد في كراستوي وليبزيغ ذراعاً ثم ساقاً . وفي ذلك العهد لم يكن هنـاك تدبير خاص بالجرحى ومشوهي الحرب .

والخلاصة ان الكابتن كوبيكين وجد نفسه بحاجة ماسة الى العمل كي يقوم بأوده . ولكن لم يبق له الا اليد اليسرى فذهب الى ابيه الذي قال له : « ليس لدي ما اعيلك به ، والذي عندي لا يكاد يكفيني » ، فقرر الكابتن عند ذلك ان يذهب الى بطرسبرج ليحصل على مساعدة منها ، لانه دفـع للوطن الشيء الكثير من دمه وحياته . وهكذا وصل بحقائبه الى العاصمة . تصوروا الكابتن كوبيكين وقد وجد نفسه فجأة في بطرسبرج ، المدينة التي لا تضاهيها مدينة في العالم ، وقد بهرته انوارها وعماراتها .

وحاول الكابتن ان يجد لنفسه مسكناً ، ولكن الاسعار كانت مرتفعة ، كوبيكين لا يملك اكثر من عشر ورقات كل منهـا من فئة الخمـسة روبلات ، وبهذا المبلغ لا يستطيع الانسان ان يشتري قرية ، او انه يستطيع شراء قرية ولكن اذا أضاف الى المبلغ حوالي اربعين الى روبل يقترضها من ملك فرنسا . وهكذا سكن كوبيكين في فندق قبله بروبل واحد في كل يوم ، وكان يقتات بالحساء والملفوف ولحم البقر . وهناك في بطرسبرج ، سأل عمن

يتوجه اليه فأجيب : « الى من تتوجه ؟ لا يوجد في العاصمة احد » .

وبطبيعة الحال كانت السلطات في باريس ، والجيش لم يعد بعد . ولكن كانت هناك لجنة مؤقتة فقيل له : « جرب ، فقد يعطونك شيئاً » فاجاب كوبيكين : « سأذهب الى هناك واقــول لهم اني سفكت دمي وبذلت حياتي في الخدمة » .

وهكذا يا سيدي العزيز ، استيقظ كوبيكين باكراً وحلق لحيته بقدر ما يستطيع باليد اليسرى ، لانه لم يكن لديه نقود يدفع منها اجرة الحلاق ، وارتدى ملابسه العسكرية وذهب يجر رجله الخشبية لمقابلة رئيس اللجنة .

سأل عن مسكن الرئيس فقيل له : « هناك تجده ، في ذلك المـنزل قرب الرصيف » . وكان البيت يشرق بالرخام والزجاج الأخاذ ، وعلى الباب كانت توجد ازرار معدنية يجب أن تغسل اليد بالصابون مرتين قبل لمسها . وقد وقف على الباب حارس مهندم .

وبعد مضي اربع ساعات ، ظهر احد رجال الحرس ليقــول : « هوذا الرئيس ! » وظهر في البهو عالم كامل من النجوم المتراصة كحبات الفاصوليا داخل الوعاء واخيراً دخل الرئيس ، تصوروا الآن كيف كان هذا الرئيس : انه رجل يفرض الاحترام والطاعة على الجميع ، فكان يقترب من هذا أو ذاك ليقول : « ماذا تريد ! . ولم انت هنا ؟ . »

واخيراً يا سيدي العزيز ، ها هوذا بالقرب من كوبيكين الذي روى له قصته وقال : « فأنت ترى كيف بذلت دمي وفقدت ساعدي وساقي ، ولم يعــد بامكاني العمل ، ولذا فاني اتجاسر على طلب مساعدة ، أو إذا صح التعبير ، فاني اتجرأ على طلب راتب لي » .

وشاهد الرئيس بأم عينه الساق الخشبية والكم الفارغ من الذراع فقال له : « حسناً .. لتعد الي بعد ايام ! » . وظن كوبيكين ان الامر قد انتهى . فذهب يقفز فرحاً ، ودخل مشربا ليتناول كوباً من الفودكا ، ثم تنـاول العشاء في فندق انكلترا وشرب معه خمراً ، ثم ذهب الى المسرح وعندما خرج منه شاهد

على الرصيف انكليزية حسناء ، فصعد الدم الى رأسه ، واراد ان يركض خلفها بساقه الخشبية ولكنه راجع نفسه وفكر : « هذا يكفي .. لقد انفقت كثيراً فلأترك النساء الى حين اتسلم مرتبي ». وارجو هنا ان تلاحظوا انه انفق مامعه في خلال ثلاثة او اربعة ايام ، ثم ذهب الى اللجنة وقال انه يريد تعويضاً عن الدم الذي سفكه ، والحياة التي بذلها. فأجابه الرئيس : « حسن جداً ، ولكن يجب ان اقول لك انه لايمكننا ان نفعل شيئاً لاجلك دون اذن السلطات العليا ، وانت ترى بنفسك هذه المرحلة التي نجتازها ، فالحرب لم تنتهي تماماً . انتظر اذن عودة الوزير وكن واثقاً اننا لن ننساك ابداً ، واذا لم يكن لديك ماتعيش منه، فهذا كل مااستطيع ان اعمله لك » . ولعلكم فهمتم جيداً انه لم يعطه الشيء الكثير ، ولكن هذا المبلغ الذي اخذه كوبيكين منه يسمح له بانتظار القرارات التالية . ولكن صاحبنا كان يريد شيئاً آخر ، فقد كان يعتقد انهم سيعطونه الوف الروبلات ويقولون له : « خذ ايها العزيز ، اشرب وامرح ! » وهو من جانبه لم يكن يحلم الا بالمسرح والخمر والانكليزية الحسناء . وهكذا خرج من القصر ككلب طرده الطاهي وقد نكس ذنبه الى مابين قوائمه . ثم ان حياة بطرسبرج قد جذبته وكان قد اعتاد عليها ، ولكن لايمكن عمل اي شيء فيجب عليه اذن ان يحيا بطريقة لايعرفها الا الشيطان . وهذا صعب على رجل قوي الجسم يتمتع بشهية جيدة . ومرة مر امام مطعم فشاهد طاهياً اجنبياً يرتدي ثياباً بيضاء كالثلج ، وهو يهيىء الواناً من الاطعمة يستطيع كوبيكين ان يلتهمها كلها بشهية . ثم مر بالقرب من محلات ميلوتين فرأى هناك على النوافذ سمكا وكرزاً وباقات من الفريز تنتظر احمق يدفع مائة روبل ثمنا لها . والخلاصة انه كان يرى في كل خطوة يخطوها مايجذبه ويغريه ويسيل له لعابه ، ومع ذلك كان عليه ان ينتظر . فمن جهة كان يقدم اليه السمك والكرز ، وباليد الثانية ، لون من الطعام يدعى « غداً » . فقال في نفسه : « حسنا .. كما يريدون ... سأقلب اللجنة رأساً على عقب وأصيح بالرؤساء : كما تريدون ! » وبالفعل عاد بطلنا الى اللجنة غاضباً وهو على استعداد لأن يحطم كل شيء .

وعندما وصل قيل له : « أهذا انت ، ولكن قيل لك ان . . . » فأجاب كوبيكين : « عفواً ، ولكني لااستطيع الحياة هكذا . . اني في اشد الحاجة لأن آكل لحماً ، وأشرب خمراً فرنسياً جيداً ، وأذهب الى المسرح . أفهمتم ؟ » فهتف الرئيس : لا انك تبالغ ، ثم ان للصبر حـــدوداً . انه لديك في الوقت الحاضر مايساعدك على العيش حتى يتقرر مصيرك . وستكافأ كما يجب حتما ، لانه لم يسبق لنا في الروسيا ان اهملنا رجلاً خدم وطنه . اما اذا كنت تريد ان تسكر وتأكل اللحم وتذهب الى المسرح . . فان هذا لن يكون . وفي هـذه الحالة عليك ان تدبر امورك بنفسك .

وبدا ان كوبيكين لم يسمع شيئاً حتى لكأنهم يصيحون في واد . فأخـذ يزمجر ، وثار على الجميع دون ان يجتنب اي انسان : « انت لاتعمل شيئاً . . . ماانت الا احمق . . انك تخرق القوانين » . وفي هـــذه الاثناء ظهر جنرال ، فناوله كوبيكين نصيبه . عند ذلك وجد الرئيس انه من الضروري اللجوء الى القسوة والعنف . فقال :

– حسناً فليكن . . انت لاتريد الاكتفاء بما اعطيناك والانتظار بهـدوء حتى يتقرر مصيرك . . اذن فسنصحبك الى مكان اقامتك الجديدة . احضروا عربة !

وظهر فلاح طويل القامة . . له ذراعان خلقا ليكونا ذراعي حوذي . . . او طبيب اسنان . فقاد كوبيكين الى العربة . فقال هذا في نفسه : « حسناً . . . هذه سفرة اجرها على الاقل » . وبينما كانت العربة تسير به كان يفكر : « لقـد قلت لي انه يجب علي ان اساعد نفسي بنفسي . . حسناً فليكن . . . لسوف اجد عملاً . »

وما من انسان يعلم اين قادوه . ولم يعد احد يتكلم عن الكابتن كوبيكين . قد غرق هذا الرجل في بحر النسيان كما يقول الشعراء .

ومن هنا ياسيدي العزيز تبدأ القصة الحقيقية للكابتن كوبيكين . لقد فقـد كل اثر له ؛ الا انه بعد شهرين ظهرت عصابة من قطاع الطرق اخذت تعيث في

غابات ،يازان فساداً،ولم يكن رئيس العصابة ياسيدي العزيز الا ...

فهتف مدير البوليس فجأة مقاطعاً :

– اسمح لي يايفان اندريتش ، انك تقول ان الكابتن كوبيكين فقد ذراعاً وساقاً ، اما تشتشيكوف ...

فصاح مدير البريد صيحة عظيمةوضرب بقبضة يده على جبينه . انه لم يستطع ان يفهم كيف غاب عنه هذا الامر . واعترف بصحة المثل الروسي القديم القائل: «ان فكر الرجل الروسي اشبه شيء بالدرج» . ومع ذلك فقد حاول حالاً التخلص من هذه المشكلة ، فأكد انهم في انكلترا يصنعون سيقاناً من الخشب ، يكفي ان يضغط فيها على زر خفي حتى تحمل الساق صاحبها الى مكان لا يعرفه الا الله وحده .

ولم يشأ احد من الموظفين ان يصدق بان تشتشيكوف هو الكابتن كوبيكين بالذات . ووجدوا ان مدير البريد قد ذهب بعيداً جداً . ولكنهم تأثروا على اية حال بالقصة فبالغوا في فرضياتهم حول شخص تشتشيكوف . فقد يكون تشتشيكوف نابوليون بنفسه ، ثم ان الانكليز يحسدون الروسيا لعظمتها وقوتها . كان هناك صور كاريكاتورية تمثل روسياً يتحدث مع انكليزي ، وكان هذا الاخير يقود كلباً مقيداً يدعى نابوليون . قال الانكليزي : « احذر ، فاذا تابعت فاني اتركه يهاجمك » . ومن يدري ؟ لربما تركت انكلترا نابوليون يخرج من جزيرة القديسة هيلانة ليتجول في الروسيا تحت اسم تشتشيكوف .

ولم يصدق الموظفون هذه القصة ايضا،ومع ذلك فقد لاحظونا وهم يفكرون ان المنظر الجانبي لوجه تشتشيكوف يشبه صورة نابولون ، وكان مدير البوليس يقومون بخدمته العسكرية عام ١٨١٢ . وقد شاهد بنفسه نابوليون . واعترف ان الامبراطور لم يكن اطول ولا اضخم ولا انحل من تشتشيكوف .

وقد يقول بعض القراء ان هذا الحديث لا يبدو واقعيا ، وكذلك المؤلف فانه من نفس رأي القارىء . ولكن لسوء الحظ كانت الامور تجري على هذه الصورة بالرغم من ان مدينة (ن) تقع بين العاصمتين لا في صحراء نائية .

وليذكر القارىء الحوادث التي تلت طرد الجيش الفرنسي ، فان جميع الملاكين ورجال الاعمال والتجار والحقوقيين والمتعلمين اهتموا بالسياسة ثمان سنوات على اقل تقـــدير .

وكانت جريدة « اخبار موسكو » و « ابن الوطـن » موضع القراءة من اول حرف الى آخر حرف . وكان الناس عوضاً عـــن ان يسألوا عن سعر الشوفان يقولون :

« ماذا يقال في الصحف ؟ اهرب نابوليون مجدداً من جزيرته؟» . اما التجار فكانوا كثيري الخوف لانهم يعتقدون بنبوة نبي كان مسجوناً منذ ثلاث سنين ، وكان هذا النبي قد جاء من مكانه لايعرفه احد ، وهو يرتدي بزة قذرة تنتشر منها روائح سمك متفسخ . واعلن ان نابوليون عدو لدود للمسيح ، وانه يعيش خلف ستة اسوار وستة بحار مكبلا بالقيـود . ولكنه سيحطم السلاسل يوماً ويسيطر على العالم . وقد القي القبض عليه بعد تلك النبوءة التي روعت طبقة التجار الروس برمتها . ومر وقت طويل كان فيه هؤلاء التجار عندما يدخلون الفنادق ويتعارفون لقضاء اعمالهم ، يبدأون بالحديث عن عدو المسيح وهم يتناولون الشاي . وسرت عدوى الاساطير هذه الى الموظفين والنبلاء ، فكانوا يجدون معنى عميقاً لكل حرف من حروف اسم نابوليون . وقد وجد الكثيرون منهم فيها حروف رؤيا يوحنا اللاهوتي .

فمن الطبيعي اذن ان يفكر موظفو مدينة (ن) طويلا في هـــذا التشابه بين تشتشيكوف وامبراطور الفرنسيين ، وبعـد ان تناقشوا فترة من الزمن قرروا التوجه مباشرة الى نوزدويف ، فهو اول من تـكلم عن النفوس الميتة ، وله علاقات متينة مع بافل ايفانوفتش فهو حتما يعـــرف بعض التفاصيل عن حياتـه الخاصة .

ان هؤلاء الموظفـــين غريبو الاطوار ، انهم يعرفون تماماً ان نوزدويف يكذب دائما ، وانه لايمكن الوثوق به وبأحاديثه ، ومع ذلك فقد هرعوا اليه . وهكذا الانسان ، انه لايعتقد بوجود الله ، ولكن اذا وخـزه أنفه ظن ان يومه الاخير قد جاء ، فلا يقرأ ديوان شعر مليء بالامل والبساطة والانسجام ،

بل هو يسرع الى قراءة كتاب تبدو الطبيعة فيه قبيحة ، فيهتف : « ما اعمق هذه المعرفة بخفايا قلب الانسان . » وآخر لايفتأ يعلن اشمئزازه من الاخبار فيذهب يوماً يستشير عجوزاً مشعوذة تعالجه بالدمدمة او باختراع دواء كريه يتناوله وكأنه الدواء الناجح الوحيد .

وكان لموظفينا عذرهم في ما يحيط بهم من ظروف حرجة . فالغريق يتعلق بالقشة دون ان يفكر بجسمه الذي يزن مائة كيلو غرام ، وهكذا تعلق التعساء بنوزدريف .

ففي المساء دعا مدير البوليس نوزدريف الى منزله ، وقد حمل اليه الدعوة حارس متورد الخدين ... وكان نوزدريف مشغولا جداً ، ذلك انه كان قابعاً في غرفته منذ اربعة ايام ، وقد شحب لونه ونحل جسده كثيراً ، وكان عمله يقتضيه انتباهاً عظيما ، لان الامر يتعلق بالتفتيش بين عدة دستات من اوراق اللعب لاختفاء مجموعة لا تظهر عليها الاشارات واضحة لكل انسان فتسمح له بالربح .

وكان هذا العمل يقتضي منه اسبوعين على الاقل ، وفي هذه الفترة كان على الخادم بورفيري ان يعني بالكلب الصغير ويغسله بالفرشاة الخاصة ثلاث مرات في اليوم .

وقد اغتاظ نوزدريف كثيراً لازعاجه اثناء عمله ، فبدأ بالشتائم ولكن ما ان قرأ ان بين الحضور غريباً يمكن ان يلعب معه حتى هدأ واغلق الباب ، ثم ارتدى ملابسه بسرعة وذهب الى بيت مدير البوليس . وقد الهبت اقواله الموظفين ، ذلك ان الشك غير موجود بالنسبة لهذا الانسان ، وبقدر ما كان يبدي الموظفون شكهم فيما يقول كان هذا يزيد في تأكيداته ويجيب على كل شيء بدون أدنى تردد .

كان تشتشيكوف حسب اقواله قد اشترى نفوساً ميتة بعدة آلاف من الروبلات ، وهو نفسه قد باع منها اذ لم يجد مانعاً من ذلك . فسأل الموظفون : « اليس هو بجاسوس اذن ، ألم يأت ليقوم بتحقيق سري ؟ » فأجاب نوزدريف : « ان تشتشيكوف تاجر ، وعندما كنت معه في المدرسة عرف بهذه الصفة ،

وفي ذات يوم ضربه رفاقه لهذا السبب حتى ان اهله اثناء معالجته اضطروا الى وضع مائتين واربعين علقة في جسده لامتصاص الدم المفسود » .

وكان نوزدويف يريد ان يقول «اربعين علقة» ولكن عدد «المائتين والاربعين» قد افلت منه بشكل طبيعي .

ـ الا يزور تشتشيكوف المستندات ؟

فأجاب نوزدويف بالايجاب ، وروى بالمناسبة قصة عن مهارة بافل ايفانوفتش لقد علم ان تشتشيكوف يملك مستندات مزورة بمليوني روبل . فختم البوليس منزله بالشمع الاحمر ، ووضع على بابه حارسين ، غير ان تشتشيكوف بدل جميع المستندات في ليلة واحدة ، وعندما جاء البوليس في الصباح لم يجد مستنداً واحداً مزوراً .

وسئل ايضاً : هل كان تشتشيكوف يريد خطف ابنة الحاكم ؟ وهل وعد نوزدويف بالمساعدة .

فاجاب نوزدويف : بكل تأكيد ، اذ انه دون مساعدتي لن يتمكن من النجاح في مهمته ؟

ووقف عند هذا الحد لانه فطن الى ان كذبة من هذا النوع قد تكلفه غاليا ولكن كان يستحيل عليه ان يمسك لسانه ، ويجب ان نعترف ان هذا الامر صعب جداً لان تفاصيل مثيرة كانت تجول في رأسه .

عين نوزدويف بعد ذلك القرية والكنيسة التي كان يجب ان يتم فيها الزواج. وكان اسم القرية « تروشماتشيفا » واسم الكاهن « سيدور » ، وقد طلب خمسة وسبعين روبلا للقيام بعملية الزواج ، ولم يقبل بهذا المبلغ الا بفضل نوزدويف الذي هدده بكشف فضيحة الزواج غير الشرعي الذي باركه بين تاجر الدقيق ميخايلو وشريكته في الشهادة بعمودية احد الاطفال(١) . وقد قدم هذا الكاهن عربته وجياده للسفر . وذهب نوزدويف في اكذوبته الى حد ذكر معه اسماء الحوذية الذين سيقودون العربة . فقاطعه الموظفون واثاروا انتباهه الى التشابه

---

(١) مثل هذا الزواج تحرمه الشرائع المسيحية .

فين نابوليون وتشنشيكوف ، ولكنهم سرعان ماندموا على ذلك لان صاحبنا اندفع في سيل من الحماقات والاكاذيب ، مما جعل الجميع يهجرونه عدا مدير البوليس الذي بقي يصغي اليه وحيداً علّه يسمع كلمة صحيحة . وعندما يئس منه هتف به : « ليذهب بك الشيطان » . واتفق جميع الموظفين على صحة المثل القائل : « مهما فعلت بالثور فانك لن تستطيع ان تستخرج منه قطرة حليب واحدة » . وهكذا وجدوا أنفسهم في حالة اسوأ من السابق ، واضحى من المستحيل عليهم ان يعرفوا من هو تشنشيكوف .

ولسبب لا يعرفه أحد ، احدثت جميع هذه الشائعات والابحاث والجهود اثرها في نفس المدعي العام، ولما عاد الى منزله اخذ يفكر ويتأمل كثيراً حتى قضى نحبه دون سبب او علة . كان موته بسكتة قلبية او بسبب شيء آخر مفاجىء، فسقط على الارض ولم يكن لدى ذويه الوقت الكافي لقول: « آه، يا آلهي ! » فدعوا الطبيب ليأخذ شيئاً من دمه ولكن دون جدوى؛ اذ ان المدعي العام لم يكن إلا جسداً بلا روح . عند ذلك تذكر الناس ان للمدعي العام روحاً ولكنه ، لتواضعه الجم ، لم يظهرها طيلة حياته . ان الموت لشيء رهيب ، يصيب الكبير ويصيب الصغير ، ففي الامس فقط كان المدعي العام يروح ويجيء ، يلعب الويست ويناقش ويوقع الاوراق ، متميزاً عن الجميع بكثافة حاجبيه وغمزات عينه . وها هو الآن ممدد بلا نأمة ولا حياة ، وقد سكنت عينه اليسرى بينما تقطب حاجباه كأنما يتساءلان : وماذا يبغي الموت ؟ ولم عاش ولم يموت ؟ ان الله وحده يعلم ذلك .

ولكن هذا غير منطقي ولا معقول ... انه لمن غير المنطقي ان يجن الموظفون من الخوف وان ينحرفوا عن جادة الصواب عندما يعرف طفل ما الحقيقة . هكذا سيناقش القارىء الامور ويتهم المؤلف بانه يروي له اشياء غير معقولة، وربما قال عن هؤلاء الموظفين انهم اغبياء ، ذلك ان المرء ليستعمل كلمة

(غبي) اكثر من عشرين مرة في اليوم . لكن لك عيب واحد الى جانب عشر مزايا ، فان اشباهك من الناس سوف لن يروا فيك الا هذا العيب . ان القراء يستطيعون الحكم بسهولة اذا كانوا يرقبون الاشياء من عل ، حيث تفوتهم التفاصيل . وبهذه الصورة يمحون من تاريخ الانسانية قروناً عديدة تبدو لهم دون معنى . إن أخطاء كثيرة قد ارتكبت ، وهي اخطاء لا يقترفها طفل في وقتنا الحاضر ، ثم ان الانسانية قد اختارت طرقاً ضيقة منعزلة وبطيئة تعبر بها الشعوب عن الهدف المطلوب والحقيقة المبتغاة . ورغم ذلك فان الطريق المستقيمة كانت تظهر بوضوح لندل الملوك على المجد .

ورغم ان هذه الطريق نيرة مشرقة ، فان الانسانية بدت بأقرب منها سادرة في الظلمات . ومع ذلك فان الوحي لم ينفعها ، وقد كشفت السماء لها عن هذه الطريق ، ولكن الانسانية استمرت في ضلالها وسارت في وضح النهار داخل ممرات مظلمة تزيد في كثافة الضباب الذي يحيط بها وهي تسير نحو الهوة لتتساءل بعد ذلك : «ولكن كيف الخلاص ؟ وأين الطريق ؟ ». ان الاجيال الحاضرة لتفهم اخطاء الماضي فتدهش لها وتسخر من خطيئات الاسلاف . كما انها لا ترى ان هذا التاريخ قد كتب بنار السماء ، وان كل حرف يطلب الانتقام وهو يشير الى الانسانية الحاضرة . وهذه بدورها تضحك وتسخر ثم تقترف اخطاء جديدة تسخر منها الاجيال القادمة .

كان تشتشيكوف يهمل تماماً الشائعات التي تدور حوله . وكان قد اصيب بالتهاب في حنجرته وهذا شائع جداً في مدننا الريفية . فقرر ان يمكث في غرفته ثلاثة ايام ليحفظ حياته الثمينة التي لم تشبها شائبة . ولم ينقطع عن الغرغرة بالحليب المغلي ، وكان يرتدي (طاقية) من القطن .

وقد وضع قائمة جديدة كاملة بالفلاحين الذين اشتراهم ليقضي وقته ، كما قرأ كتابا باسم « دوقة فالبير » وجده داخل حقيبته . وصنع تشتشيكوف اشياء كثيرة وقرأ بعض الملاحظات ولكن هذا العمل خلف التعب في جسده بسرعة ،

ولم يفهم لماذا لم يقبل احد من الموظفين للاستفسار عن صحته ، في الوقت الذي كانت عربات عديدة منـــذ ايام تقف عنـــد باب فندقـه ، ومن بينها عربة مـــدير البوليس والمدعـــي العام ورئيس المحكمـة ، وغير ذلك من الاشخاص .

واخيراً شعر بتحسن فكان بذلك كثير السعادة لانه يستطيع ان يستنشق الهواء الطلق . فأسرع في ارتداء ملابسه وحلق ذقنـه وتعطر (بالكولونيا) ولف عنقه بشال وخرج .

ان هذه النزهة بالنسبة اليه عيد حقيقي ، فكل شيء يبتسم له : المنازل والفلاحون المارون به، ولكن اساريرهم مع ذلك كانت رصينة . وكانت اول زيارة قام بها تشتشيكوف من نصيب الحاكم ، ورغم الافكار التي كانت تنتابه فان صورة الشابـــة الشقراء لم تغادره مطلقا ، فسره هـــذا بادىء الامر ثم سحره ، وبهذه الصورة دخل بيت الحاكم ، وبدأ بخلع معطفه ، فأسرع الخادم اليه وقال له :

ـ لقد تلقيت امراً بعدم استقبالك .

ـ كيف ... انك لم تعرفني حتما ... انظر الي ملياً .

ـ ولماذا لا اعرفك ، انها ليست المرة الاولى التي اراك فيها، ثم انك الوحيد الذي يجب علي ألا اسمح له بالدخول .

ـ لماذا ؟ وكيف ؟

فاجاب الحارس السويسري :

ـ لقد تلقيت ، امراً ويجب ان يكون هناك ما يبرره .

ثم اضاف ، وقد ارتسمت على وجهه السخرية والتردد :

ـ فاذا طردك السيد والسيدة فهذا لانك لاتساوي شيئاً .

ففكر تشتشيكوف : « هذا غريب » . ثم ذهب حالا الى رئيس المحكمة،

ولكن هذا ما ان رآه حتى اصيب بارتباك شديد لم يتمكن معه من التلفظ بكلمة ، فافترق الاثنان حائرين . وذهب لزيارة مدير البوليس ونائب الحاكم ومدير البريد ، فلم يستقبله البعض واما البعض الاخر فقد استقبلوه ولكن بصورة غريبة ، اذ تبادلوا معه احاديث بلهاء جعلت تشتشيكوف يشك بعقولهم . وحاول أن يرى اشخاصاً آخرين ولكن عبثاً ، فتاه في المدينة منهوك القوى متسائلا عما اذا كان قد جن ام ان جميع الموظفين قد فقدوا عقولهم ، ام انه يحلم ، ام انه بالحقيقة يعيش هذه المهزلة البلهاء .

وعاد الى المدينة في ساعة متأخرة من الليل ، فطلب شاياً وشربه ليتغلب على قلقه ، وبينما كان يحلم بغرابة وضعه فتح باب غرفته فجأة ودخل نوزدويف دون ان يستأذن . وهتف وهو يحك قبعته :

ـ ان قطع سبعة (فرستات) لرؤية صديق لاتعد شيئاً كما يقول المثل . لقد رأيت النور مضاءاً فقلت لأدخل، انه ليس نائماً .. حسنا هذا شاي ، واني لأشرب منه بكل سرور ، فقد ابتلعت كثيراً من الاقذار اثناء العشاء .. اني اشعر بأن معدتي ليست على مايرام ـ املأ لي غليوناً ـ اقصد غليونك .

فأب تشتشيكوف بجفاء :

ـ اني لاادخن الغليون

ـ حقاً .. لقد نسيت انك دجاجة قذرة .. ايه .. ماسم خادمك ... تعال يا « داكرامه » ...

ـ ان اسمه بتروشكا، لا « داكرامه».

ـ كيف ولقد كان عندك خادم يدعى « داكرامه ».

ـ لم يكن قط عندي خادم بهذا الاسم .

ـ هذا صحيح . . ان داكرامه هو خادم . . دربين . . ولقد تخاصمت عمته مع ابنها الذي تزوج خادمة فأوصت لابن اخيها بجميع ممتلكاتها .. كم اود لو يكون لي عمة مثلها .. ولكن لماذا لم نعد نراك ، ياأخي ؟ انك تهرب من الناس .. اني اعلم متأكداً ان مسائلك العلمية

تشغلك وانك تحب القراءة . (ونحن نجهل وكذلك بافل ايفانوفتش ايضاً ، لماذا يظن نوزدريف ان تشتشيكوف يقوم بدراسات علمية) . آه ياأخي تشتشيكوف ، لو انك رأيت .. ان ذلك بامكانه ان يكون غذاء لروحك الساخرة . (ولماذا كان تشتشيكوف ساخراً ؟ هذا مانجهله ايضاً) . لقد لعبنا الفوركا عند التاجر ليخاتشيف ، لكم سررنا وتهكمنا هناك .. وقد حزن بريانديف كثيراً لغيابك . (ولم يكن تشتشيكوف قد قابل في حياته رجلاً يدعى بريانديف) . اعترف ياأخي بانك تصرفت معي بغلظة في المرة الماضية عندما لعبنا الضاما .. ولكني لست حقوداً .. وبهذه المناسبة اقول لك إنهم يحقدون عليك في المدينة ويتهمونك بتزوير السندات .. ولقد سألوني فقلت اننا كنا في المدرسة معاً ، واني اعرف اباك ، وقد اخرستهم .

فهتف تشتشيكوف ، وهو يقفز من مقعده :

ـ انا ازور مستندات ؟

ـ ولكن لماذا انت تخيفهم الى هذا الحد ، بحق الشيطان ! انهم يرتجفون من الخوف جميعاً . فهم يظنونك لصاً وجاسوساً ، وقد مات المدعي العام من الهلع وسيدفن غداً .. هل تأتي ؟ وانهم خائفون جداً من المدعي العام الجديد .. وهم يخافون بسببك ، ولكن هذا الحاكم لن يفعل حسناً اذا اساء معاملة النبلاء ، ومن ثم ليس على هؤلاء النبلاء الا ان يمتنعوا عن اقامة الحفلات الراقصة .. ولكنك ياتشتشيكوف ورطت نفسك في عمل قذر .

فسأل بافل ايفانوفتش قلقاً :

ـ ولكن اي عمل ؟

ـ خطف ابنة الحاكم .. لقد كنت مقتنعاً من ذلك منذ ان رأيتك في الحفلة الراقصة ، وكنت على استعداد لمساعدتك ، ولكنك اسأت الاختيار ، اذ ليس فيها شيء جميل . اني اعرف واحدة .. هي ابنة اختي ، وانها عظيمة وتساوي عناء خطفها .

فهتف تشتشيكوف محنقاً :

ـ ماذا تقول ؟ انا اخطف ابنة الحاكم ؟ لقد فقدت عقلك!

ـ هيا بنا ،ياخي . . . لماذا تتكتم ؟ لقد جئت لمساعدتك. اني أزوجك وأضع اكليل الزواج فوق رأسك وأهتم بالعربة والجياد بشرط واحد ، هو ان تقرضني ثلاثة آلاف روبل احتاج اليها ، لأن القضية قضية موت او حياة .

وخلال هذا السيل الغزير من الاكاذيب ، كان تشتشيكوف يفرك عينيه ليتحقق من انه ليس في حلم : تزوير مستندات ، خطف ابنة الحاكم ، موت المدعي العام بسببه ، وصول الحاكم الجديد .

وفكر : « ان كان الامر كذلك فليس من مجال للتردد اذن ، يجب ان اسرع بالذهاب ! »

وتخلص من نوزدويف ، ودعا سليفان وامره بتنظيف العربة واعدادها للسفر في الساعة السادسة صباحاً . فاجابه هذا « تحت امرك ! » ثم طلب المعلم من بتروشكا ان يأتيه بالحقيبة ،واخذ يضع في داخلها جميع مايقع تحت يده من جوارب وقمصان واحذية . وكان يعمل مسرعاً لانه لايريد ان يؤخر سفره عند الفجر . سليفان الذي كان واقفاً يرقب معلمه وبتروشكا ان يذهب . فهبط الدرج ببطء تاركا عليه آثار حذائه المتسخ . ترى لماذا كان يحك رقبته وماذاتعني هذه الحركة عادة ؟ أهوغاضب لأنه لم يعد باستطاعته السهر مع صديق ، املأنه يجب عليه انهاء مغامرة جميلة والانقطاع عن الذهاب الى مواعيد بجانب بوابات المنازل حيث يضغط على يد بيضاء صغيرة ؟ ام ان السبب في ذلك كونه مرغماً على هجران زاويته الدافئة في المطبخ والسير تحت الامطار وبين الوحول ؟

ان الله وحده يعلم هذا ، فالفلاح الروسي الذي يملك رقبته يخفي افكاراً عديدة عميقة .

الفصل الحادي عشر

لم تسر الامور حسب تقدير تشتشيكوف ، فقد استفاق قبل كل شيء متأخراً عن الساعة المحددة ، وعندما سأل عن العربة علم انها لما تعد بعد . فغضب كثيراً ودعا اليه سليفان ليناقشه الحساب . وانتظر بفارغ الصبر سماع الاسباب التي اجبرته على التأخير ، وعندما جاء سليفان أخيراً سمع منه باقل ايفانوفتش المحاضرة التي يسمعها عادة السادة من خدمهم عندما يكونون على عجلة من امرهم .

ـ يجب حدو الخيل ، يا باقل ايفانوفتش .

ـ ايها اللص القذر ، ألم يكن باستطاعتك ان تقول هذا نهار البارحة ؟

ـ بلى كان ذلك باستطاعتي .. ثم يجب تصليح العجلة ، يا باقل ايفانوفتش ، لان الطرق وعرة سيئة ، وكذلك يجب تصليح مقدمة العربة .

فهتف تشتشيكوف وهو يرفع يده مهدداً :

ـ ايها القذر ، انت تريد قتلي ... أيها الحيوان ، لماذا لم تقل ذلك أمس ؟ هذا وقد مر علينا ثلاثة اسابيع هنا وانت لم تقل شيئاً رغم انك تعرف جميع

ما يلزم . هل تعرف جميع ما يلزم للعربة قبل الآن أم لا ؟ أجب ايها الحيوان القذر !

فأجاب سليفان ، وهو خافض الرأس :

- بلى كنت اعرف .

فصاح تشتشيكوف :

- إذن لماذا لم تقل ذلك في حينه ؟

فلم يجب سليفان بشيء ولكنه اخذ يحدث نفسه : « ايكون غريباً ان اعرف الامر ولا أذكر شيئاً عنه ؟ »

- اذهب واحضر حداداً بسرعة ، يجب ان ينتهي كل شيء خلال ساعتين ! أفهمت ؟ واذا لم يعد كل شيء بعد ساعتين فسأشطرك شطرين .

كان بطلنا مهتاجاً غاضباً ، فاتجه سليفان نحو الباب ولكنه توقف قليلا وقال :

- هناك امر آخر ياسيدي ، يجب بيع الحصان واستبداله بآخر ... انه نذل وسيخلق لنا متاعب طيلة الطريق .

- اتعتقد حقاً اني سأشرع ببيعه ؟

- اقسم لك ياباڤل ايڤانوفتش انه حيوان محتال .

- ايها اللص المجنون ، اني أبيعه حين اشاء ، انتظر قليلاً ، اذا لم تحضر الحداد وتهيء كل شيء خلال ساعتين فسأقتلك ، ولن تستطيع ان تتبين شكلك بعد ذلك . اخرج من هنا !

فخرج سليفان .

خرج تشتشيكوف عن طوره ، فألقى بالسيف الى الارض ، وكان هذا السيف يحمله دوماً في اسفاره ليرهب به قطاع الطريق . واضاع بعد ذلك ربع ساعة في التفاهم مع الحدادين ذلك ان هؤلاء يطلبون دائماً ستة اضعاف اجرهم العادي عندما يرون زبونهم مستعجلاً . وعبثاً دعاهم تشتشيكوف لصوصاً ومحتالين

فانهم لم يذعنوا ، وهم لم يتمسكوا بالسعر الذي طلبوه بل قضوا في عملهم خمسة ساعات بدلاً من ساعتين .

وهكذا أتيح لبافل ايفانوفتش ان يحيا اللحظات العذبة التي يقضيها جميع المسافرين . كان كل شيء معداً على الاطلاق ، واما الغرفة فكانت لا تحوي إلا الحقائب المحزومة وبضعة اوراق ممزقة . الا ان جسم المسافر وإن كان موجوداً هنا فان أفكاره قد سافرت ، ولذا أخذ يذرع ارض الغرفة وقد ازداد به الغضب .

إلا أنه لكل شيء نهاية ، وهكذا أخيراً دنت الساعة المنتظرة وتم تصليح العربة وانصرف الحدادون بعد ان عدوا نقودهم جيداً متمنين لتشتشيكوف سفراً سعيداً . ووضع تشتشيكوف داخل عربته قطعتين من الحلوى ساخنتين كما أخفى سليفان في جرابه بعض المؤونة . ثم صعد بافل ايفانوفتش الى العربة في حين اجتمع حشد من الخدم والحوذية لتحيته التحية الاخيرة .

وسارت العربة آخر الأمر فغادرت باحة الفندق ، فقال تشتشيكوف في نفسه بعد ان رسم إشارة الصليب : « شكراً لله ! »

وقرقع سليفان بسوطه ،وجلس بتروشكا بجانبه بينما اتكأ بطلنا على وسادة من الجلد في حين اخذت العربة تتهادى على الطريق .

كان بطلنا يرقب بشعور مبهم جميع ما تقع عليه انظاره ، من البيوت والجدران والطرقات التي اخذت تتوارى ببطء خلفه . في احدى المنعطفات توقفت العربة عن السير امام موكب جنائزي حاشد ، فأمر بطلنا بتروشكا ليسأل عن الميت فقيل له المدعي العام . فاختبأ في زاوية العربة واسدل الستائر بينما خلع سليفان وبتروشكا قبعتيهما واخذا باحصاء عدد المشيعين الراجلين والذين داخل العربات ، وامرهما بافل ايفانوفتش بعدم التحدث مع انسان بينما اخذ هو في تأمل الموكب .

ان جميع الموظفين يسيرون خلف النعش . فخاف بافل ايفانوفتش ان

يتعرفوا عليه ، ولكنهم كانوا مشغولين في واقع الحال . كان هؤلاء يسيرون صامتين دون اي ثرثرة كما تجري العادة في مثل هذا الموقف ، ذلك ان افكارهم كانت مشغولة بمصيرهم، بالتساؤل عن الحاكم العام الجديد ، وعن كيف سيكون تصرفه تجاههم وكيف سيستقبلهم . اما السيدات المتشحات بالسواد فقد كن داخل عرباتهن التي تسير خلف الموظفين . وكانت تدل حركات شفاههن على انهن يتحدثن بحرارة . ومن الظاهر انهن يتحدثن ايضاً عن الحاكم العام الجديد متناولات في اثناء ذلك جميع الفرضيات حول الحفلات الراقصة التي سيقيمها وحول الاقمشة والازياء الحديثة . وخلف عرباتهن تلك كان ثمة خمس عربات تسير فارغة . واخيراً اصبح بمقدور عربة تشتشيكوف ان تسير ، فرفع بافل ايفانوفتش الستائر وتنهد طويلا ثم قال في نفسه :

« هوذا المدعي العام . . . لقد عاش . . . ثم مات » . ان الصحف بلا ريب سوف تعلن هذا النبأ الذي افجع أبناءه كما افجع الانسانية جمعاء . ان هذه الصحف ستقول بانه كان مواطناً محترماً واباً ممتازاً وزوجاً فاضلا . وهي ستضيف فوق ذلك بان دموع اليتامى والايامى قد تبعته حتى مثواه الاخير . ولكن ... اذا شاء الناس الحقيقة الواقعة ، فان المدعي العام لم يتميز عن غيره الا بشيء واحد فقط ، وهذا الشيء الوحيد هو ان حاجبيه كانا كثيفين .

أمر تشتشيكوف حوذيه سليفان بالاسراع ثم فكر : « يجب ان اكون مسروراً لمصادفتي هذا الموكب ، اذ ان مصادفة الميت في السفر فأل حسن! » واجتازت العربة اخيرا عدة طرقات مقفرة ، ثم تعدت حواجز خشبية طويلة كانت تشير الى نهاية المدينة .

وهكذا توارت المدينة في البعيد ولم يعد يشاهد غير الطريق اللامتناهي . وكان هناك ثمة شارات تدل على المسافات والآبار والقرى ، القرى الرمادية حيث سماور الشاي والمشعوذات والفلاحون الذين يركضون حاملين حزم

الشوفان ... ثم المدن الصغيرة بحوانيتها الضيقة الخشبية الملأى ببراميل الدقيق والاحذية والجلود وشتى انواع البضائع . وبدت الجسور الطويلة والطرقات الممتدة وبيوت الملاكين ، ثم ظهر جندي يمتطي جواداً ، يحرس صندوقاً اخضر كتب عليه : « بطارية المدفعية رقم كذا ... » ثم بدت الاراضي المحروثة حديثاً ، وسمع من بعيد صدى الاغاني والاجراس بينما رنقت في السماء اسراب من الغربان كالذباب .

ايه ... ايتها الروسيا ! ... اني لأتخيلك الآن وأفكر فيك وانا في هذه البلاد الغريبة (١) . ان مدنك لفقيرة شقية لا يتوفر فيها اي شيء من وسائل الراحة ، عارية من جمال الطبيعة ومبتدعات الفن ، فليس هناك قصور مشيدة فوق الصخور ، ولا اشجار ضخمة ، ولا لبلاب فوق البيوت . وان العيون لا ترتفع فيك لتشاهد صخوراً بديعة او قبة مزينة باللبلاب وآلاف الزهور البرية . وان قمم الجبال العالية الخالدة لا تندفع شامخة في السماوات بين الاثير ، ذلك أن كل شيء مكشوف .

ايه ايتها الروسيا ... ان مدنك لمنخفضة قميئة ، لا تظهر بين أثباج الصحارى الواسعة الا كنقاط دقيقة وبقع صغيرة ، ليس من شيء فيها يحمل على الاغراء او يفتن الابصار .

واذن ... ما هذه القوة المندفعة الخفية الطاغية التي تجذبني نحوك ، أيتها الروسيا ؟ وكيف يمكنني ان اسمع اغنياتك الحزينة الجبارة يتردد صداها بين البحار داخل حدودك الممتدة الواسعة . وهذه الاغنية ، اي شيء تخفيه ، واية نداءات مبتهلة ودموع مشرقة تتوارى فيها ؟

ان هذه الاغنيات العميقة الجبارة لتصهر قلوبنا وتعتصرنا لتخلق القلق في

---

(١) لقد بدأ جوجول قصته النفوس الميتة في مدينة فيفاي في سويسرا وأنهى القسم الاول منها في روما من عام ١٨٣٦ - ١٨٤١ .

ارواحنا والسحر في نفوسنا .

ايتها الروسيا ، ماذا تريدين مـني ، وما الآصرة العميقة الـتي تربط بيننا ? لم تنظرين هكـذا الي ولم يتجه نحـوي كل شيء يحيا ويخفق فيك بنظرات بعيدة الغور .

اني لأتأمل فيك حائراً ساكناً ... فأرى الغمام الكثيف ، المتلبد ، ينحدر مشبعاً بالعواصف المهددة ، والزوابع المدمرة . وان افكاري لتخرس ازاء مسافاتك البعيدة المترامية في المدى . ترى ... اي مستقبل يتوارى خلف هذا الاتساع البعيد ..البعيد .. اللامحدود? ترى ... أيلد اعظم الابطال طراً في الروسيا ، حيث تسمح لهم هذه الآفاق الواسعة بالحياة ? ان هذه القوة الصادرة الجبارة الثاوية في هذا الاتساع والمسافات لتجذبني نحوها . وان عنفوانها الرهيب ليتغلغل في أعماقي فيشتعل في عيني لهب قوة خارقة . اين ايتها الروسيـا ... يا أرض الجمال والبدائع المجهولة !...

وصاح تشتشيكوف بسليفان :

ـ قف ?

وزمجر حوذي بشاربين عريضين كانت عربته تجري بسرعة كبيرة :

ـ سأقتلك بسيفي ...لتنتزع الذئاب روحك النجسة ، ألم تر ان هـذه العربة حكومية .

ثم توارت العربة وسط الضجة والغبار .

لكم من الاشياء الغريبة الجذابة الساحرة تثيرهـا هذه الكلمة الروسيـة « دوروغا » (١) . ولكم هي جميلة هـذه الطريق . تغيم السماء وتغطي اوراق الخريف الارض ويهب نسيم بارد يلفح الوجوه ، فيغطي المسافر أذنيه بقبعتـه ويلتف بمعطف الفراء ويقبع في زاوية العربة ، فتستولي على الجسم حرارة عذبة ثم يهاجم النعاس عينيك فتغمضها ، وتسمع بغموض وقع حوافر الجيـاد تمتزج بصرير العجلات ، فتنام دافعاً بجارك الى الزاوية الاخرى . وعندما تستيقظ

---

(١) الطريق .

تكون العربة اجتازت خمس محطات ، فترى القمر ومدينة مجهولة وكنائس بقباب خشبية واقواس سوداء . وترى بيوتاً بعضها قائم وبعضها الآخر قد بني بالحجارة البيضاء . كل شيء ساكن ... راقد . وترى هنالك وهنا نوراً باهتاً منعزلاً لاسكافي يخيط حذاء ، اولخباز يهيىء عجينه .

هنا ... الليل وعظمة السماء ... هنا الهواء شفاف والسماوات العالية بعيدة مع الآماد . هنا برد خفيف يداعب الوجوه فيستولي النعاس والنسيان على المسافر من جديد ؛ فيدمدم الجار المتضايق لان صديقه يثقل عليه ، فيستفيق الاخير فلا يرى شيئاً غير الحقول والصحاري والعزلة والآفاق الواسعة المكشوفة .

وتتوارى الحجارة الدالة على المسافات ، وتشرق الشمس فيبياض الافق البارد وتتكسر عليه خيوط من الذهب الخالص ، ويبترد الهواء ... وان مثل هذا البرد ليحبه الانسان فينام ... ثم يستيقظ عندما تصل العربة الى قرية ما تتصاعد منها اصوات الفلاحين فيشعر الانسان بالجوع .

لكم انت جميل ايها الطريق البعيد ! ولكم من المرات كنت فيها تائهاً عن نفسي غارقاً في همومي فأنقذتني مما انا فيه ! اجل ايها الطريق البعيد .. . لقد عشت معك عدة احلام شعرية ومشاعر إلهية !

وهكذا ايضاً استسلم بطلنا تشتشيكوف للاحلام .. ولكن ، ترى ، بماذا كان يشعر ؟ انه لم يشعر بشيء بادىء الامر فكان يتلفت بعض الاحيان للتأكد من انه غادر بالفعل مدينة (ن ..) كانت البيوت قد توارت ولم يعد يظهر الا الطواحين ، كما توارت ايضاً ضواحي المدينة وكنائسها الحجرية باقواسها البيضاء . وكان بافل ايفانوفتش ينظر يمنة ويسرة ، ثم اصبحت مدينة (ن ..) بسرعة بالنسبة اليه ذكرى غامضة مبهمة كما لو انه غادرها منذ سنوات ، فأغمض عينيه واسند رأسه الى الوسادة . لقد كانت الطريق غير هامة بالنسبة اليه . ويعترف المؤلف بأنه سعيد لذلك ، لانه يجد هنا سانحة للكلام عن بطلنا قليلاً ، ذلك ان نوزدويف والحفلات الراقصة والسيدات العجيبات ، كل ذلك قد منعه حتى الآن من الكلام عنه . فلننس كل شيء اذن ولنهتم ببافل ايفانوفتش وحده . وانا

أشك في ان البطل الذي اخترته قد اعجب القراء . فالنساء لم يحببنه، وهـذا أمر طبيعي لأنهن يردن دائماً ان يكون البطل نموذجاً للكمال ؛ فالويل كل الويل له اذا بدا فيـه نقص خلقي او خلقي؛ فانه لن يرضيهن حتى ولو حلل المؤلف نفسيته بعمق ورسم صورته بصفاء كصفاء انعكاس النور على المرآة . ان سن تشتشكوف وسمنته قد اساءتا بلا ريب اليه ، وخاصة عندما اكتشفن نيته باختطاف بعض السيدات . ان المؤلف يعرف كل هذا ولكنه للاسف لا يستطيع ان يتخذ لقصته رجلاً فاضلاً . غير ان هنـاك اوتاراً اخرى مازالت تهتز الى الآن ، وهي عذراء مجهولة . انه لمن الممكن ان تصادف رجلاً يتحلى بمواهب إلهية ، او فتاة روسية جميلة لا مثيل لها في العالم ، حائزة على جميع فضائل الروح الانثوية . انه لمن الممكن ان يبدو جميع فضلاء العالم ، بجانب هـذين الشخصين ، شاحبين كثيراً كما يبدو الكتاب ميتاً اذا قورن بالكلمة .

ان الروسيا ستستيقظ ولا ريب ، وسيفهم العالم كم من الاسرار المستعصية على روح الشعوب الاخرى قد تغلغلت بعمق في الطبيعة السلافيـة . ولكن لماذا الكلام عما سوف يحدث ؟ اذ لا يجب على مؤلف نضج بعامل السن والحياة الداخلية القاسية ، ان يتصرف بعـدم اكتراث كفتى صغير ، ذلك انه لكل شيء زمان ومكان !

اني لم ارغب باتخاذ الانسان الفاضل بطلا لسبب وحيـد : هو ان الحين قد حان للفضلاء كي يستريحوا . ولكن لماذا ؟ لأن كلمة « انسان فاضل » اخذت تفقد قيمتها لكثرة استعمالها في يومنا هذا . اذ لا يوجد كاتب واحد الا ويمتطي ظهر « الرجل الفاضل » ويهمزه بسوطه حتى قتلت الفضيلة وتقلص ظلها ، فلم يعد يبقى منها الا الجلد والعظام . ان الناس يتكلمون عن الرجل الفاضل بنفـاق وصفاقة وهم لا يحترمون الفضيلة . ولذا فقد آن الوقت لأن يذكر الاوغاد . فلنستخدم اذن الرجال الانذال .

لقد كانت ولادة بطلنا غامضة ؛ ولا يعلم غير الله وحده عما اذا كان أهلوه من النبلاء ومن اي نوع منهم : القدماء ام المستجدون . ان لم يكن يشبه احداً

من اقاربه من الناحية الجسدية ، حتى انه عندما تمت ولادته امسكت به قريبة قصيرة الجرم بين ذراعيها وهتفت : « انه ليس كما كنت انتظر .. لقد كان عليه ان يشبه جدته لأمه ، غير انه لايشبه اباه ولا أمه حتى ولا الضيف الذي مر من هنا » . وبدت له الحياة بادىء الامر بغيضة قاتمة كما لو انه نظر اليها من خلال زجاج داكن . لم يكن له صاحب او صديق ، فعاش في غرفة ضيقة لايجد الهواء اليها منفذاً في الصيف ولا في الشتاء . وخاصة بالنسبة الى السيدات . ان المؤلف يعرف كل هذا ولكنه مع الاسف لايستطيع ان يتخذ بطلاً لقصته رجلا فاضلا. ولكن هناك اوتارا اخرى تهتز مازالت الى الآن عذراء مجهولة فيمكن أن تصادف رجلا يتحلى بمواهب إلهية او فتاة روسية جميلة لامثيل لها في العالم حائزة على جميع فضائل روح الانثوية . وربما بدا جميع فضلاء العالم بجانب هذين الشخصين شاحبين جدا كما يبدو الكتاب ميتا اذا قورن بالكلمة .

وكان ابوه المريض يئن دوماً ويذرع ارض الغرفة ويبصق في وعاء مليء بالرمل مثبت في زاوية الغرفة . واما الولد فقد كان جالساً دوماً وقد تلوثت بالحبر اصابعه ويداه . وكان يقرأ سحابة نهاره هذه الحكمة : « لاتكذب .. استمع الى مايقوله الشيوخ وغذ الفضيلة في قلبك ! » وكان يسمع اباه يصرخ دون انقطاع ،وهو يجر حذائيه على الارض : « أهذا انت ايضاً، ايها الطائش ! » وعندما يكتب كان يضيف ذيلاً او خطاً الى الحروف في حين يتقدم اليه والده ليشد له أذنيه . هكذا مرت السنوات الاولى من طفولته ، وهي سنوات لايحتفظ منها الا بذكريات شاحبة . الا ان كل شيء يتبدل بسرعة في هذه الحياة . ففي ذات يوم مشمس من ايام الربيع اصعده ابوه الى عربة كان حوذيها رجلا أحدب الظهر هو الاب الوحيد للعائلة الوحيدة من العبيد التي كان يملكها والد تشتشيكوف ، وكان ايضاً يهتم بجميع شؤون المنزل . لم تدم الرحلة اكثر من يومين ،وقد نام المسافران في الطريق واجتازا نهراً واقتاتا باللحوم المبردة حتى وصلا آخر الامر الى المدينة صباح اليوم الثالث .

وبينما اعترت الدهشة الصغير لما رآه من جمال الطرقات وفخامتها ،أوشكت الجياد ان ترمي بالعربة في حفرة مليئـة بالوحل . وقد رزح الجواد المسكين تحت وطأة ضربات الحوذي والمعلم حتى استطاع الخروج من الحفرة ودخل في باحة صغيرة . وكان هناك شجرتا تفاح بجانب منزل صغير مختف خلف حديقـة صغيرة ، في اقصاها كوخ خشبي متهدم السقف .

كان يقطن في المنزل قريبة هرمة مهزولة الجسم ، ولكنهـا رغم هزالها وهرمها كانت تذهب صباح كل يوم الى السوق ثم تعود وتجفف جواربهـا على سماور الشاي الساخن . داعبت هذه العجوز التابة وجنتي الصغير وأبدت اعجابها بصحته . وكان عليه هو ان يقيم عندها ويدخل مدرسة المدينة .

قضى الاب ليلة مع ولده ثم ذهب في الصباح . وقد اعطى ابنه قبل ذهابه روبلاً ونصف الروبل لنفقاته بعد ان زوده بالنصائح التاليـة : « اصغ الي ياباڤلوشكا . . اتدأب على العمل دوماً دون تراخ . اطع معلميك وجميع رؤسائك في المدرسة ،واذا مارضي عنك المدير فانك ستصبح في المرتبة الاولى في صفك حتى ولو لم تكن مبرزاً في دروسك ، ولو لم يمنحك الله اية ميزة خاصـة . . . لاتعاشر رفاقك في المدرسة لانك لن تتعلم منهم اي شيء ! ولكن اذا اردت معاشرتهم فاختر الاغنياء منهم لتستفيد من ذلك . لاتعط شيئاً لانسان ،ولكن تصرف بشكل يخدمك الناس ويدللونك . اقتصد في جميع نفقاتك ، اذ ان المال احسن شيء في الوجود . ان رفاقك واصدقاءك قد يخدعونك ، اما المال فلا يستطيع ان يخونك قط ، وبه وحده يستطيع الانسان ان يعمـل كل شيء وينجح في كل عمل ! »

وهكذا ودع الوالد ابنه بعد ان أنهى نصائحه هـذه ، ومضى في عربته . وكانت هذه المرة هي الاخيرة التي يراه فيها باڤل ايڤانوفتش ،ولكن كلماته الاخيرة تلك قد عززت في قلبه ونقشت في ذاكرته نقشاً .

ومنذ اليوم الثاني دخـل باڤلوشكا المدرسة ، فلم يبرز في اي ميدان على

الاطلاق ، الا انه امتاز بنشاطه ونظاميتـه . وابدى بالمقابـل روحاً واقعية مدهشة حقاً . فقد فهم بسرعة خارقة مصلحته، وعمل على جعل رفاقه يدعونه بكثرة ويقدمون له الحلوى دون ان يرد لهم شيئاً مقابل ذلك . بل كان غالباً مايخبيء ما يأخذه منهم ثم يبيعهم اياه بعد ذلك عند الحاجة ، وقد اعتاد وهو طفل على ان يحرم نفسه من كل شيء فلم ينفق كوبيكا واحداً من المبلغ الذي اعطاه والده إياه . وفي نهاية السنة كان المبلغ قد تضاعف بفضل موهبته العملية المدهشة بالنسبة لمن هم في مثل سنه . ذلك انه صنع طيراً من الشمع ثم باعه لرفاقه بعدان طلاه. كما وجد طريقة اخرى لزيادة وارداته ، وهذه الطريقة تتلخص في انه كان يشتري طعاماً من السوق ويجلس في الفصل بالقرب من اغنى الطلاب ، وما ان يلاحظ على وجه رفيقه ما يدل على ان الجوع قد بدأ يداهمه حتى يقدم له كعكة يطلب ثمنها نقداً حسب شهية الطالب .

واهتم خلال شهرين بفأرة وضعها داخل القفص صنعه من الخشب ونجح في تعليمها كيف تقف على قائمتيها ، وكيف ترقد وتقف وتطيع جميع اوامره ، ثم باعها بعد ذلك بسعر جيد .

وعندما تجمع لديه خمس روبلات وضعها في كيس خاطه جيداً ، ثم ما عتم ان ملأ كيساً آخر .

اما سلوكه مع اساتذته فقد كان اكثر ذكاء . اذ لم يكن هناك انسان يمكن ان يمكث هادئاً اكثر منه داخل الفصل ، وكان استاذه يحب الصمت والسلوك الجيد ويشمئز من الطلاب الاذكياء الصاخبين . وذلك لانه يتوهم انهم يسخرون منه ، والويل كل الويل لمن كان يمتاز منهم بخفة روحه . فقد كان يكفي ان يأتي بحركة بسيطة حتى يعاقب بشدة ويطرد من الفصل مع زمجرة ترافقه من الاستاذ : «ياصغيري، سأحطم غرورك وعصيانك ، اني اعرفك ياصغيري اكثر مما تعرف نفسك، انتظر قليلا وسأريك، اركع، هكذا انت محروم من الغداء!» ويفرك الصغير المسكين ركبتيه من الالم ويموت من الجوع او يكاد ، خلال ايام ،دون ان يعرف ما

الذنب الذي اقترفه . وكان المعلم يصيح : « ان المواهب والمقدرة لاتهمني ابداً ، ان السلوك وحده مايهمني ! وانا اعطي اعلى درجة في جميع الدروس لمن لا يعرف كيف يكتب اسمه ، ولكنه يعرف كيف يتصرف جيداً . واني لأعطي الصفر لمن تظهر عليه الخفة والطيش ، حتى ولو كان اذكى الجميع ! »

هكذا كان استاذنا يناقش الامور ، وكان الى جانب ذلك يكره كريلوف لانه كتب : « اشرب اذا شئت ولكن لتنتبه الى ما تفعل ! » وكان ايضاً يحب ان يتحدث طويلا عن الهدوء الذي كان مخيما على صف سابق علم فيه ، فقد كان سماع طنين طيران الذبابة فيه امراً متوفراً ، ولم يكن يشعر بوجود التلاميذ داخل الفصل حتى ساعة قرع الجرس .

وفهم تشتشيكوف استاذه بسرعة ، وهكذا غدا سلوكه نموذجياً . فهو جامد لا يتحرك فيه شيء ، بل لا يرف له جفن ، ولولا وخزه رفاقه بالدبابيس فانه ما كان ليتحرك قط . وعندما يقرع الجرس كان يسبق جميع رفاقه ليناول الاستاذ قبعته . كما انه عندما يخرج من المدرسة ، كان يقف ثلاث مرات في طريق استاذه ليقدم له التحية . وقد افلحت هذه الخطة واعتبره جميع الاساتذة خلال سني دراسته نموذجاً للتلميذ الممتاز . ثم غادر المدرسة بعد ان حصل على أعلى الدرجات في جميع المواد ، كما حصل على شهادة وكتاب كتب عليه بماء الذهب العبارة التالية : « هدية لنشاط مثالي وسلوك عاقل » .

وكان تشتشيكوف في ذلك الحين قد اصبح شاباً محبباً يحاق لحيته . وقد مات والده حديثاً . فورث عنه اربعة معاطف مهترئة وسترتين قديمتين ومبلغاً تافهاً من المال . ان هذا الوالد كان يحسن اعطاء النصائح الثمينة لجمع المال ولكنه لم يجمع هو بنفسه شيئاً . وباع بافل ايفانوفتش البيت الصغير وقطعة الارض بمبلغ الف روبل وعاد الى السكنى في المدينة مع عائلة عبيده . وكان يريد من ذلك ان يختار لنفسه مهنة فيها .

وفي هذه البرهة طرد استاذه القديم من المدرسة ، إما بسبب غبائه أو بسبب خطيئة عابرة ارتكبها . فاستسلم الرجل الذي يعشق الهدوء والحكمة للخمرة ، ثم انقطع عنها بسبب ضيق يده . واهمله الجميع فعاش في غرفة صغيرة يعاني آلام الجوع والحرمان . وعرف تلاميذه القدماء ، الذين طالما أنبهم بجالته فجمعوا له مبلغاً كبيراً من المال ، وباع بعضهم اشياء ثمينة يحتاجها كي يحصلوا لاستاذهم على المال اللازم . اما بافل ايفانوفتش فاعتذر بانه لا يملك ثروة ودفع خمسة كوبيكات فقط ، فرماها رفاقه في وجهه وهتفوا به : « ايها التعس البخيل ! » .

أخفى المعلم وجهه بين يديه وبكى عندما علم بهذا التصرف النبيـــل من تلامذته القدماء ، وقال بصوت ضعيف : « لقد أراد الله ان اذرف الدموع في ساعة الموت » . وعندما قصوا عليه ما كان من تشتشيكوف تنهد بحزن وقال : « إيه يا بافلوشكا ! كم يتغير الانسان . . . لقد كان طيباً لا يعرف الى الغضب سبيلا . . لقد خدعني كثيراً ! » .

ولا يمكنني التصريح بان بطلنا قاس الى هذا الحد ، لا يشعر بعاطفة ما . لقد كان يشعر بالاشياء ولا يطلب اكثر من ان يساعد قريبه ، ولكن شريطة الا يتجاوز العطاء حداً معيناً ، فالمال الموضوع جانباً لتكوين رأسمال محترم ، يجب ان يبقى غير ملموس . ولقد اعطت نصيحة والده أكلها : « حافظ على مالك واجمع الكوبيكات ! » . ولم يكن بافل ايفانوفتش يحب المال لاجل ذاته ، ولم يكن بخيلا ، ولكنه كان يحلم بمستقبل سعيد لا يعوزه فيـه شيء : العربات والاملاك المنظمة والمآدب الفاخرة . ولتحقيق احلامه تلك كان يجمـــع الكوبيكات ويحرم نفسه من اشياء كثيرة كما يحرم الآخرين منها ايضاً . وكان تشتشيكوف يقف مسمراً في مكانه عندما يرى رجلا ثرياً يتنزه في عربة فخمة فيأخذ يتمتم كما لو كان في حلم : « لم يكن هذا الانسان الا موظفاً بسيطـاً في السابق ، وكان يحلق شعره بطريقة تعطي رأسه شكلا مستديراً » . وكان يحدث

في نفسه اعمق الآثار كل ما من شأنه ان يوحي بالثراء .

فتش تشتشيكوف عندما غادر المدرسة عن وظيفة ؛ ولكنه لم يحصل الا على وظيفة صغيرة في المحكمة رغم شهاداته الممتازة التي يحملها . فالانسان بحاجة الى الوساطات في كل مكان، حتى ولو كان في الريف . ان ثلاثين او اربعين روبلاً في العام لمبلغ زهيد صغير ، الا انه قرر ان يبدي نشاطاً عظيماً ، وان يتغلب على الصعوبات المختلفة ، وقد عرف في الواقع كيف يظهر رباطة جأش وثباتاً عظيمين ، مع صبر غريب لا يقوى عليه غيره . فكان يكتب من الصباح الى المساء ، دون ان يخشى التعب الجسدي او العقلي ، غارقاً بين اكداس من اوراق المحكمة . وكان لا يعود الى منزله في الاعم الاغلب فينام على مناضد المكتب ويتناول طعامه مع الحراس . وكان فوق كل ذلك يعرف كيف يظل نظيفاً لبقاً ... وكيف يعطي اوجهه شكلاً محبباً ، ولتصرفاته مظهر النبل .

ولنضف الى ذلك بأن موظفي المحكمة كانوا يتميزون على العكس من بافل ايفانوفتش بالقبح وبالعادات السيئة . وكان لبعضهم وجوه تذكر بالخبز الذي لم يتم نضجه بعد : خد منتفخ كثيراً وذقن نتئة وشفة مشقوقة متورمة . وكانوا يتكلمون بقسوة حتى لكأنهم يتأهبون لضرب احد او يقدمون ضحية لباخوس، مبرهنين في ذلك على ان الطبع السلافي فيه بعض الاتجاهات الوثنية . وكانوا غالباً ما يأتون الى مكاتبهم ثملين ، فيصبح الهواء ثقيلاً خانقاً مسمماً بروائح الكحول . وبطبيعة الحال برز تشتشيكوف من بين مجموع زملائه هؤلاء ، وكان لا يشرب ابداً ، بينما كان وجهه سالماً وصوته عذباً ومع ذلك فحياته قاسية . وكان يعمل تحت إمرة كاتب مسن يمثل عدم الحساسية التامة واللامبالاة المطلقة . ولم يكن بالامكان التفاهم معه ، فهو لا يبتسم ابداً ولا يسأل عن صحة مرؤوسيه مطلقاً . ولم يشاهده مخلوق ، سواء في البيت او في الطريق ، مختلفاً عما هو عليه . كما لم يشاهده احد يشرب حتى يصل الى حالة السكر التي تسمح له بالضحك ، انه لم يستسلم قط الى أحد هذه المباهج التي يستسلم لها القاتل نفسه حين يثمل . لم يكن

فيه شيء جيد او قبيح . وهذا التحرر من كل فكرة او شعور كان يبدو مخيفاً حقاً . وان له لوحا رخامياً لايلاحظ فيه شذوذ بارز ولايشبه مخلوقا . كان وجهه يمتاز بتناظر قاس ؛ وكان يمكن القول،حسب التعبير الشعبي،بأن الشيطان قد سحق عليه ، في الليل ، بضع حبات من الحمص . انه ليستحيل ان تحصل علاقات مع رجل كهذا اوان تحصل صداقة . ولكن تشتشيكوف بالرغم من كل هذا حاول صنع شيء فبدأ اول الامر بتفاصيل صغيرة لاتعني شيئاً . فبعد ان فحص الريشات التي يستعملها رئيسه للكتابة برى له منها عدة ريشات ووضعها بالقرب من محبرته وكان فوق ذلك ينظف طاولته من التبغ والرمل ويناوله قبعته (وهي قبعة فظيعة) عندما يهم بالانصراف . وكان تشتشيكوف ينظف ايضاً معطف رئيسه بالفرشاة اذا ما اتسخ بالحوار . ولكن جميع هذه الاشياء ظلت دون جدوى ولم يتنازل الرئيس لملاحظتها .

استعلم بعد ذلك تشتشيكوف عن حياة رئيسه العائلية فقيل له ان له ابنة في سن معينة وتشبه في وجهها الجامد اباها الى حد بعيد ، فقرر تشتشيكوف ان يوجه هجومه من هذه الناحية ، فاخذ يذهب في ايام الآحاد الى الكنيسة التي تصلي فيها هذه الفتاة ويقف تجاهها مؤدباً حسن الهندام . واخيراً انتهى هذا الجهد بنجاح عظيم ، فقد تأثر الكاتب الهرم الجاف ودعا تشتشيكوف ليتناول معه الشاي . ولم يعرف احد من الموظفين بما يجري الا بعد ان انتقل بافل ايفانوفتش الى بيت رئيسه واصبح شيئاً ضرورياً فيه . فكان يقوم بشراء السكر والدقيق ويتصرف مع الفتاة كخطيب ويدعو رئيسه « بابا » ويقبل له يديه . واقسم الموظفون ان الزواج سيتم قبل بدء الصوم الكبير (١) . وتوسط الكاتب المخيف لتشتشيكوف لدى المحكمة . فشغرت وظيفة سرعان ما عين فيها ايفانوفتش .

وهكذا توصل بطلنا الى هدفه فغادر منزل رئيسه القديم واقام منذ اليوم الثاني في سكن جديد ولم يعد ينادي صديقه « بابا » كما لم يعد يقبل يديه . وانقطع الناس عن الحديث عن الزواج . ومع ذلك فقد كان بافل ايفانوفتش يضغط يد

---

(١) الصوم الكبير هي الايام الاربعون قبل عيد الفصح .

صديقه القديم بود كلما صادفه ويدعوه الى تناول الشاي عنده . وكان الشيخ الجامد رغم جموده وبروده يحني رأسه ويتمتم : « لقد خـــدعتني ... لقد خـــذعتني يا ابن الشيطان ! » .

وهكذا اجتاز تشتشيكوف الخطوة الاولى والصعبة ، فأصبحت حياته إذ ذاك سهلة عذبة ، واصبح هو بسرعة رجلا هاماً في القصر الحكومي . ولم لا ، فانه يملك جميع الصفات اللازمة : يملك السلوك المحبب مع الجرأة في الاعمال ، وقد عرف بافل ايفانوفتش الى جانب ذلك كيف يستفيد من وظيفته ويجعلها مثمرة .

وفي ذلك الحين كانت الملاحقات الصارمة تجري بحق الموظفين المرتشين . ولكن هذه الصرامة لم تخف تشتشيكوف فقـــد عرف كيف يحولها لمصلحته مظهراً في ذلك روح ابتكار روسيـة تستيقظ دوماً في عصور الطغيان . كان يتصرف على الشكل الآتي : منذ ان يتقدم اليه مراجع ما بكتاب توصيـة من الأمير كونفسكي (١) (كما كان يقال عندنا في الروسيا) فانه يعتدل في مـكانه ويقول مبتسما :

«لا ... لا ... لاتعتقد اني ... ان هذا من واجبنا ونحن لا نسعى الى المكافأة. تفضل باعطائي عنوانك ولن تحتاج بعد ذلك الى اي إزعاج ، ا اننـــا سنعلمك بالنتيجة بأنفسنا ».

ويعود المراجع الى منزله مسروراً وهو يقول : « هو ذا اخيراً رجل نحتاج الى المزيد من امثاله .. انه لجوهرة نادرة ... انه لكنز اي كنز ! » وينتظر يوماً او يومين فلا يأتيه انسان ، وكذلك في اليوم الثالث لا يحـــدث شيء . فيعود الى المحكمة ليرى ان عمله لم يتحرك قيـــد انملة ، فيسرع اذ ذاك الى الجوهرة النادرة . فيأخذ تشتشيكوف يده بلطف ويقول : « عذراً .. ارجو المعذرة ، لقد كان عندي كثير من الاعمال ، ولكن كن على ثقة ان الامر سينتهي غداً ، بلى ، غداً دون ريب .. اني مختجل منك حقاً .. » ويصحب

---

(١) ورقة مالية

هذه الكلمات بحركات بهلوانية كأنه مشعوذ . وتمر الايام فلا يتم شيء . ويستلم المراجع فيفهم ان عليه ان يدفع مبلغاً بسيطا للموظفين :

ـ ولماذا لا ادفع روبلا او اثنين فقط ؟

ـ لا ... يجب عليك ان تدفع قطعـــة بيضاء ... يجب ان تدفع خمسة وعشرين روبلا.

ـ كيف ... بطاقة بيضاء برمتها الى الموظفين ؟

ـ اوه ! لا تغضب فالموظفون لا يحصلون الا على روبل واحد ، واما الباقي فانه يأخذ طريقه الى الرئيس .

فيضرب المراجع على جبهته بقبضة يده ، ويلعن الحالة الجديدة والملاحقات عند المرتشين وعذوبة الموظفين ويقول :

ـ كنا نعرف في الماضي على الاقل كيف نعمل ... فقد كنا نعطي روبلًا واحداً للرئيس فيسير العمل ... اما الان فيجب دفـــع مبلغ خمسة وعشرين روبلا واضافة اسبوع لمعرفـة ما يجب عمله ... ألا فليذهب الشيطان بشرف الموظفين .

وهذا المراجع على حق بلا ريب فالرؤساء جميعهـم شرفاء والموظفون وحدهم اللصوص .

وفتح امام تشتشيكوف مجال واسع للعمل ، فقد تألفت لجنة لاشادة بناء حكومي ، واصبح بافل ايفانوفتش من انشط اعضائها .

اخذ الجميع بالعمل ، ومرت ست سنوات دون ان يتقـدم هـذا البناء مرحلة الاساسات اما بسبب رداءة الجو او لنقص المواد ، واستطاع كل عضو في هذه الاثناء ان يبني في طرف المدينة بيتاً صغيراً جميل المظهر . ذلك ان الارض في تلك المنطقة يجب ان تكون احسن منها في وسط المدينة .

وفي ذلك الحين ترك تشتشيكوف شيئاً بعد شيء قواعـد نكران الذات

القاسية التي جعلها دومارانده . وقرر الا يحرم نفسه شيئاً واظهر عند ذلك انه يحب جميع هذه المباهج التي حرم نفسه منها منذ شبابه . منـــذ ذلك العهد الذي لا يملك الانسان فيه زمام امره .

وسمح تشتشيكوف لنفسه ببعض المبالغات فحصل على طاه ممتاز وارتدى القمصان الهولندية الجميلة واشترى أقمشة لا يرتدي منها احد في الريف ، وأصبح لون ثيابه بعد ذلك كستنائياً وحصل على عربة وجوادين ، وكان يقود عربته بنفسه كما اعتاد على الاغتسال بصابون معطر وبماء الكولونيا الغالي الثمن .

وحدث ان عين رئيس للمحكمة جديد ، وكان رجلا عسكريا يكره الرشوة والميوعة . وقد أرهب جميع الموظفين منذ وصوله ، وطلب دفاتر الحسابات واخذ يفحصها بدقة . وكان المال ناقصاً في الصندوق ، ذلك ان الموظفين قد بنوا لانفسهم بيوتا في الاحياء البعيدة من المدينـة . وهكذا بدأت عملية التطهير ، فسرح بعض الموظفين وصودرت ممتلكاتهم وتحولت الى التاج لاستخدامها كمدارس اومبرات . وعانى الجميع من قسوة الرئيس الجديد ، وعانى تشتشيكوف اكثر مما عاناه الجميع . ذلك ان تصرفاته اللبقة لم تعجب الرئيس لسبب لا يعلم به الا الله فنقم عليه حتى الموت .

كان الجنرال اذن قاسياً صلبـــا . وبما انه كان عسكريا يجهل مداورات المدنيين ، فقد عرف الموظفون اخيراً كيف يكسبون ثقته بتذللهم وخضوعهم التام دون قيد او شرط . وهكذا وجد الرئيس الجديد نفسه سريعاً بين ايدي عصابة من اللصوص اخطر من الذين سبقوهم . وكان هو سعيداً بامتلاكه ناصيتهم ويفخر بان لديه رجالاً لهم هذه الصفات النادرة .

هكذا فهم هؤلاء الموظفون نفسية رئيسهم ومزاجه ، فتابعوا ظلمهم بحماس صيادي الفولغا ، فاجتمع لديهم من هذا الصيد الثمين رأسماله من ألوف الروبلات . عند ذلك عرف عدد من قدماء الموظفين هذه الحقيقة عن نفسية الرئيس فاستطاعوا العودة الى وظائفهم .

الا ان تشتشيكوف لم ينجح رغم جميع ما بذل من الجهود ان يحصل على رضى الرئيس . ومع ذلك فقد حاول سكرتير الجنرال الخاص ان يحصل له على وظيفة بواسطة الامير كونفسكي ، ولكن ذلك كان مستحيلاً . إذ انه من السهل ان يقاد الجنرال من انفه ، ولكن ما إن تستقر في ذهنه فكرة ما حتى تلصق فيه كأنها مسمرة ولا يستطيع احد مهما اوتي من حجج ان يغير منها . وكل ما استطاع السكرتير عمله حذف الحواشي المحقرة التي كتبت في سجل خدمة بافل ايفانوفتش . ولم يتوصل الى هذا الا بعد ان اثار شفقة الرئيس على عائلة تشتشيكوف ، وهي عائلة لم يكن لها لحسن الحظ وجود .

حدث بافل ايفانوفتش نفسه قائلا : « وماذا ؟!» . لقد انقطع الشعر الذي القيته ، والدموع لم تعد تجدي فتيلاً ، فيجب ان اعاود العمل ، فقرر ان يحترف مهنة جديدة ، وتسلح من جديد بالصبر ، وعزم ايضاً على احتمال الفقر والحرمان كالسابق ، وكان عليه ان يقصد مدينة اخرى ويعرف اوساطها به . وعانى كثيراً من المشقة في بادىء الامر ، وتقلب في فترة قصيرة بين ثلاث وظائف ، لانها كانت كلها قذرة محتقرة . ويجب ان نذكر هنا بان تشتشيكوف كان يتصرف دوماً كرجل اجتماعي لبق . ومع انه اجبر في السنوات الاولى على ارتياد وسط قذر يبعث على الاشمئزاز ؛ فقد عرف كيف يحتفظ بصفاء روحه ونقائها متطلعاً دوماً الى العمل في المكاتب ، حيث يوحي كل شيء هناك بالارستقراطية . ولم يكن ليسمح لنفسه مطلقاً ان يتفوه بكلمة نابية ، وكان يشمئز كثيراً اذا لاحظ من زملائه عدم احترامهم للالقاب وللطبقات .

ولا شك في ان القارىء سيسر إذا علم بانه كان يغير ملابسه كل يومين في فصل الشتاء ، وكل يوم في فصل الصيف . وكانت الروائح الخبيثة تجعله مريضاً لذلك كان يحشر في أنفه زهرة قرنفل عندما كان بتروشكا يساعده على خلع ملابسه . وكان بافل ايفانوفتش مرهف الحس كالفتاة ، ولذلك كان من الشاق

عليه ان يجد نفسه في وسط تسيطر فيه البذاءة والادمان على بنت الحان .
وحاول ان يضبط اعصابه ولكنه عانى الكثير من جراء ذلك ، وانتابه الهزال بشكل مفزع . وهتف ذات يوم وهو ينظر في المرآة : « لقد اصبحت قبيحاً » وانقطع عقيب ذلك مدة طويلة عن الاعتناء بهندامه أمام المرآة .

احتمل بطلنا هذا البؤس بصبر واستسلام ونجح اخيراً في الحصول على وظيفة في الجمارك . وكان قد رأى كيف يحصل على رجال الجمارك على الاشياء الثمينة الآتية من الخارج ، كما شاهد الاقمشة الغالية والخزف الجميل الذي يرسلونه الى صديقاتهم وخالاتهم وشقيقاتهم . فقال لنفسه اكثر من مرة متنهداً : « هوذا العمل الذي يجب ان احصل عليه فأصبح قريباً من الحدود واصادف أناساً اكثر مدنية ... واستطيع ان احصل بسهولة على قمصان هولندية فخمة ! » .
ويضاف الى ذلك ان تشتشيكوف كان يفكر في الصابون الفرنسي الجيد الذي يجعل البشرة بيضاء ناصعة ، ويسبغ على العذارين نعومة لا توصف . ولم يكن يعرف اسم هذا الصابون ، ولكنه كان واثقاً من إمكان وجوده على الحدود .
وكان بافل ايفانوفتش عضـــواً في لجنة الابنية عندما خطر له للمرة الاولى ان يدخل في خدمة الجمارك . ولكن كان هذا الامر بدا له حلماً بعيداً ولم يكن ليترك الفريسة من اجل ظل ، ولم يكن ليفلت من يده العصفور الصغير من أجل « كركي » رآه وسط الغيوم . وهكذا ، ومنذ ذلك الحين قام بعدة مساع ليتوظف في الجمارك ، وقد نجح في ذلك اخيراً .

اظهر تشتشيكوف مباشرة نشاطاً عظيماً فوق كل ثناء وكأنه ولد موظفاً في الجمارك ذلك انه ابان دقة وذكاء عظيمين . وفي غضون ثلاثة او اربع اسابيع وجد بافل ايفانوفتش نفسه مطلعاً على جميع دقائق مهنته الجديدة .
ولم يعد بحاجة الى الوزن او القياس ، اذ انه كان يعرف من الفاتورة كم يحوي هذا الصندوق من الاقمشة او من المواد الاخرى . وكان يكفي ان يلمس (بالة)

ليعرف وزنها . اما تفتيشه لحقائب المسافرين فقد كان رفاقه يتمدحون ، بعد كل تفتيش ، حاسته الغريبة في اكتشاف المهربات . ولم يكن في الامكان عـدم الاعجاب بالصبر الذي يظهره عند تدقيق كل حاجة ، وكان برودهوأدبه يهيجان الاعصاب . وفي حين كان المسافرون ينتظرون بصبرفارغ ، ويشعرون برغبة لا تقاوم في قتل هذا الموظف المؤدب كان تشتشيكوف يقول لهم بادب جم دون ان يتغير شيء من تعبير وجهه : « هل تسمح بان تزعج نفسك قليـلا وتقف ؟ » او : « أيسرك يا سيدتي أن تذهبي الى الغرفة المجاورة ؟ ان زوجة أحد موظفينا ستتفاهم معك قليلًا » او اخيراً : « اسمح لي يا سيدي ان افتح بهذه السكين بطانة معطفك ! » .

وبعد ذلك ، كان يسحب من البطانة ، مناديل وشالات كأنه يخرجها من حقيبته الخاصة . وكان المفتشون انفسهم يدهشون ويقولون ان تشتشيكوف هو الشيطان بعينه . وكان يفتش عجلات العربات وجراراتها وآذان الخيـول ومواضع اخرى دقيقة لا يجرأ أي مؤلف على ذكرها ، وحيث يستطيع رجال الجمارك فقط ان ينظروا فيها . وكان المسافرون بالمقابل يحتاجون الى وقت طويل بعد ان يغادروا الحدود ، لتهدئة انفعالاتهم ، وكانت حالتهم تذكر بحالة التلميذ الذي يخرج من غرفة مديره بعد ان ركله هذا بصورة مفاجئة غير منتظرة .

وهكذا اضحى التهريب مستحيلا تاماً ، وأصبح تشتشيكوف مرعب اليهود والبولونيين . وكانت أمانته ونزاهته فوق التصور ، فقد كان يرفض ان يحتفظ لنفسه بالاشياء المصادرة التي ضاق بها المستودع لتراكم الاشياء فيه . ولم يكن مثل هذا الاخلاص في العمل ليمر دون ان يلفت نظر الرؤساء ، فرفعوا رتبته ومنحوه ثقتهم . وعند ذلك قدم بافل ايفانوفتش تقريراً الى رؤسائه طلب فيه منحه الوسائل اللازمة للنجاح في محاربة المهربين ، فوضعت تحت تصرفه فرقة من الجنود ومنح مطلق الصلاحية في التفتيش ، وكان هذا مايريده ويعمـل للتوصل اليه .

وفي ذلك الحين كانت عصابة قوية من المهربين قد تأسست ، وكان عملها منظما بدقة ، بشكل جعل افرادها يجنون الملايين . وكان بافل ايفانوفتش يعرفها منذ زمن طويل ، حتى انه استقبل بعض عملائها القادمين اليه لشرائه واجابهم ببرود :

«لم يحن الوقت بعد !» اما الان فقد اصبح حراً في التصرف كما يهوى ، ولذا كتب الى رئيس العصابة هذه الكلمات البسيطة : « لقد أزفت الساعة ! . »

•

كانت تقديرات تشتشيكوف متينة ، فقد كان بمقدوره ان يربح في سنة واحدة ما لا يمكن ان يجمعه في عشرين سنة من العمل المجد . ولم يكن بافل ايفا نوفتش ليريد ان يتصل بالمهربين قبل ذلك . فقد كان هؤلاء في الحق يعاملونه باديء الامر وكأنه كمية مهملة . وكان ما سيدفعونه له ضئيلا جداً . اما الان فقد تغير الوضع واصبح بمقدوره ان يفرض كما يريد . وكي ينجح في عمليته هذه أشرك معه موظفاً آخر لم يستطع ان يقاوم الاغراء رغم سنه وشعره الاشيب .

واتفقوا على الشروط وقرروا مباشرة العمل . ويعرف القاريء بلا شك قصة الخراف التي اجتازت الحدود وهي تحمل تحت صفوفها الزائف ما ثمنه الملايين من الدانتيل .

ان هذه القصة قد جرت في نفس الآونة التي كان فيها تشتشيكوف موظفاً في الجمارك . ولو لا انه اشترك في هذه العملية لما نجح يهودي في العالم فيها . وقد اعيدت هذه العملية البسيطة ثلاث أو أربع مرات ، فحملت الى كل من تشتشيكوف وزميله ربحاً صافياً قدره اربعمائة الف روبل . وبما ان بافل ايفا نوفتش كان اقدر من زميله فقد حصل على خمسمائة الف روبل فقط . والله وحده يعلم مقدار الارباح الجنونية التي كان سيجنيها الاثنان لولا ان شيطاناً

خبيثاً هدم البناء رأساً على عقب ، فقد تخاصم الشريكان ونشب بينهما عداء حتى الموت . ذلك ان تشتشيكوف حدث ان دعا زميله مـــرة بعد مناقشة ربما شرب اثناءها « بابن الكاهن » ورغم ان هذا الاخير كان فعلا ابناً لكاهن فقد شق عليه ان يذكره احد بأصله فأجاب بعنف : « انك تكذب ! . . . أنت ابن الكاهن » وردد عدة مرات : « تماماً . . . انت ابـن الكاهن ! » وكان بالامكان اعتبار الامر منتهياً بعد هذا الرد على تشتشيكوف. الا ان الموظف لم يكتف بذلك بل ارسل تقريراً سرياً كشف فيه النقاب عن نشاط تشتشيكوف. ومع ذلك فقد ساءت علاقاتهما قبل ذلك بسبب امـرأة جميلة يشبه لحمها المكتنز الطري اللفت على حد تعبير موظفي الجمارك .

واستؤجر بعض الرجال لقتل بطلنا ولكن الشريكين سرعان ما وجدا نفسيهما مخدوعين اذ ان هذه المرأة قد فضلت عليهما الكابتن شامشاريف . وماذا يهم ذلك كله ، فان القاريء باستطاعته ان ينسج ما يشاء حـول هذا الحادث ولكن الشيء الذي لا يمكن اصلاحه هو اطلاع الادارة على علاقات بافل ايفانوفتش السرية مع المهربين . وفقد الشريك وظيفته وجر معه تشتشيكوف . واوقف الموظفان وصودرت أموالهما . ومات بعد ذلك زميل بافل نوفتش في زاوية مجهولة من الريف ، اما تشتشيكوف فلم يدع العاصفة تجتاحـه ، اذ انه نجح في اخفاء قسم من ثروته وخـدع أبرع مفتشي البوليس الذين كلفـــوا بالتحقيق في الحادث .

وقد عرف ايضاً كيف يدافع عن نفسه مستخدماً في ذلك ذكاءه ، وفتنة مظاهره ، وحرارة خطبه ، والتملق الذي لا يسيء الى احد ، كما استخدم الى جانب كل ذلك المال . وهكذا افلت بافل ايفا نوفتش من العدالة ، فكان اسعد حظاً من زميله الواشي .

وقد خسر ، بالتأكيد ، رأسماله والهدايا التي كانت تأتيه من الخارج ولكنه

كان يملك عشرة آلاف روبل احتفظ بها للايام السود ، وبعض القصبان الهولندية وعربة من النوع الذي كان يستخدمه العازبون ، وعبدين هما سليفان الحوذي وبتروشكا ، وتأثر الموظفون من زملائه بالمصيبة التي نزلت بساحة رئيسهم السابق فأعطوه بعض الصابون الفرنسي الذي يحافظ على نعومة الخدود ، لذلك فانه عندما كان يقول : « وهكذا قاسيت كثيراً في خدمتي الحقيقة ...» كان يشير بذلك الى البلية التي انقضت على رأسه .

ان القارىء ليعتقدون دون ريب بأن تشتشيكوف بعد مامرت به هذه المحن والأحزان ، وتلك الكارثة الاخيرة ، قد اعتكف في مدينة صغيرة لينعم بحياة هادئة . وهناك يرتدي دوماً ثوبه المنزلي ويقضي ايام الآحاد في فض منازعات الفلاحين . ثم يذهب بعد ذلك لينتقي بنفسه الدجاجه التي سيأكلها مساء . ويقضي حياته هكذا دون إحداث ضجة . ولكن القارىء بلا شك واهم ، ونحن نعتقد لكل تأكيد ، بقوة تشتشيكوف المعنوية النادرة . ان هذه العواصف لم تهدىء او تخفف من حدة بطلنا ولم تطفىء جذوة الحماس التي كانت تتقد فيه مطلقاً . كان اذن يرزح تحت وطأة الآلام فثار على العالم أجمع ولعن الحظ وجور البشر . ثم قرر ان يجرب حظه من جديد في ميدان آخر . وأظهر ثباتاً وحرارة يبدو أمامها حب الالمان باهتاً ، وهم الشعب الذي يمتاز بدورة دموية بطيئة . لقد كان تشتشيكوف على العكس من هؤلاء الالمان تماماً ، اذ ان دمه كان يجول فيه بعنف وكان لابد من عقل راجح وارادة قوية تكبح جماح هذا العنفوان الذي يطلب ان يثب ويعبر عن نفسه بحرية .

أجرى بطلنا المحاكمة الصائبة الآتية : كيف حصل ذلك ؟ ولماذا انصبت هذه المصائب فوق رأسي ؟ ومن لا يغتني من الوظيفة ؟ اني لم أشق انساناً قط لم اسرق أموال أرملة ولم أسلب أحداً مركزه . لقد استفدت من العمل الذي يقدم عليه اي انسان ، ولولم أقدم عليه لاستفاد منه انسان آخر . ثم لماذا نجح هؤلاء في حين أصابني الفشل ؟ كيف لاأشعر بتبكيت الضمير اذا ماأضعت وقتي

سدى ؟ وماذا سيقول اولادي فيما بعد ؟ انهم بلاريب سيقولون : لقد كان والدنا وغداً . . انه لم يترك لنا شيئاً .

ونحن نعلم ان بافل ايفانوفتش كان يفكر كثيراً في سلالته . وهي مشكلة مؤثرة ، اذ من الذي يثابر على نشاطه ويلاحق اعماله بنفسه لولا وجود مشكلة الاولاد ومستقبلهم ؟ وهكذا فان أب المستقبل يشبه الى حد كبير قطاً حذراً ينظر بطرف عينه ماإذا كان صاحبه حاضراً ؛ وحين لايرى انساناً يأخذ جميع مايعثر عليه بالقرب منه ، سواء كان ذلك صابوناً او شمعاً او عصفوراً صغيراً ولا يدع شيئـــاً يفلت منه . كان بافل ايفانوفتش يئن ويشكو اذن ، ولكن الرغبة في العمل كانت تستيقظ في داخله ، وكانت الافكار تزدحم في ذهنه ، الا أن ما كان يعوزه فقط ، هو الخطة الدقيقة المحكمة .

ومن جديد عاد الى الحياة القاسية وحرم نفسه كل شيء كما تخلى عما اعتاد عليه من حياة رخية ناعمة . فقبل وظيفة وكيل اعمال بانتظار عمل أفضل . ولم تك هذه الوظيفة قد اخذت حقها بعدمن الاحترام في الروسيا . فالوكيل كان محتقراً من قبل أي موظف صغير ، ومن قبل الذين يستخدمونه ، وغالباً ما كان يجد نفسه هدفاً لقسوة الناس وبذاءاتهم .

وفي ذات يوم كلف برهن مائة عبد قن . وكان وضع صاحب الفلاحين سيئاً جداً ! فالموسم رديء ، والمواشي أصيبت بالأوبئة وانتشرت امراض اودت بكثير من العمال ، والى جانب ذلك كله كان الملاك طائشاً . فقد بنى منزلاً فخما في موسكو أنفق عليه آخر كوبيك يملكه . وكادان يموت من الجوع ، والاقتراض من الدولة ، كان امراً جديداً لايقدم عليه احد دون رهبة وخوف .

قام تشتشيكوف بصفته وكيل الملاك بالخطوات الاولية اللازمة . ولم يكن في الامكان تقديم اي طلب دون دفع ثمن زجاجة من الماديرا لكل موظف . وأوضح بافل ايفانوفتش بعد ذلك ان العبيد موتى وسأل ماإذا كانت هناك صعوبات ستنجم عن ذلك في المستقبل . فأجاب السكرتير : « ان اسماء هؤلاء

الموتى مسجلة في لوائح الاحصاء، أليس كذلك؟ اذن لماذا تقلق نفسك بسبب ذلك؟ وان الاولـين يموتون ثم يولد آخرون مكانهم فيستقيم بذلك الحساب» وكانت هذه الكلمات بمثابة كشف جديد بالنسبة الى تشتشيكوف ففكر: «لكم انا ابله ... اني افتش عن القفاز بينما هو معلق في سطي ... اني اشتري نفوساً ميتة قبل الاحصـاء الجديد ... ولكن عددهم الفاً مثلاً. فمؤسسة القروض تقرضني مقابل رهن هؤلاء الفلاحين مائتي روبل عن كل عبد، فيصبح في حوزتي رأسمال قدره مائتي الف روبل. ان الظرف مناسب فالأوبئة منتشرة وقدمات عدد كبير من العبيد، كما ان الملاكين قد خسروا في القمار، أو بذروا أموالهم في اللهو، أو أن الديون قد أرهقتهم فذهبوا الى بطرسبرج يفتشون عن الثروة. ان املاكهم مهملة ودفع الضرائب صعب عليهم، لذلك فسيتخلون لي بسرور عن أمواتهم ولو كان ذلك في سبيل الخلاص من دفع الضرائب عنهم... ان هذا للعب وجريء، ولكن علي أن أخاطر! والا فلماذا وهب الانسان الذكاء؟ ن ماتخلصني هو كون الامر غير معقول بحد ذاته فلا يصدق به انسان! ولا يمكن بالتأكيد شراء عبيد او رهنهم دون ارض، ولكني سأشتريهم وارسلهم الى مناطق جديدة أستغلها، إذ أن الاراضي تمنح دون مقابل في حكومتي خرسوك وتوريد وماعلى الانسان الا سكناها! وهكذا ارسل اليها نفوسي الميتة. واذا واذا أراد أحد أن يتحقق من صحة وجود هؤلاء الفلاحين فاني ابرز له العقود الشرعية الموقعة من قبل الكابتن اسبرافنيك في المنطقة التي تم فيها الشراء. واما القرية فيمكن ان أسميها بقرية تشتشيكوف، او أن أدعوها باسم المعمودية «قريه بافلوفسكي». وهكذا وضع بافل ايفانوفتش هذه الخطة الغريبة. وسواء أأرضت القارىء أم لم ترضه فان المؤلف ممتن في قرارة نفسه من بطله هذا، لانه لو لم يتبع هذه الخطة لما كتب لهذه القصة ان تأخذ طريقها الى عالم الوجود.

ورسم تشتشيكوف اشارة الصليب على الطريقة الروسية وباشر بتنفيذ خطته دون تهيب. وقرر ان يدرس بنفسه مناطق بلادنا المختلفة متذرعاً بحجة تغيير

محل إقامته ، كما قرر ان يدرس بصورة خاصة المناطق التي قاست كثيراً من المواسم السيئة وارتفاع نسبة الوفيات فيها اكثر من غيرها . فقد كان يستطيع ان يشتري منها ، بسعر ارخص ، النفوس الميتة التي يحتاج اليهـا . ولم يتوجه مطلقاً الى اي ملاك بل كان يختار الاشخاص الذين يتوسم فيهم الليونة في مثل هذه العمليات . وكان بافل ايفانوفتش يعقد علاقات مع الشخص ويسعى لكسب ثقته كي يحصل على مايريد باسم الصداقة اكثر منه باسم عقد صفقة .

ولا يجب على القراء ان يغضبوا اذا لم تعجبهم شخصيات هذه القصة فتشتشيكوف وحده هو المسؤول عن ذلك ، وهو هو السيد وعلينا ان نتبعه حيث تقـودهـ رغبته . واذا اتهمنا بعضهم بعدم الانسجام في الابعاد وبضـآلة الاشخاص واقلامهم ، فاننا سنجيب بكل بساطة بان الفكرة العميقة للمؤلف لا تنكشف مطلقاً منذ البداية .

ان الوصول الى مدينة او الى عاصمة هو دائماً شيء باهت اللون . إذ ان كل شيء قاتم رتيب . وفي كل مكان مصانع ومعامل لا تكاد تنتهي قـد اسودت بالدخان . اما البيوت المؤلفة من ستة طوابق ، واما الشوارع العريضة وأجراس الكنائس والاعمدة والآثار والابراج وكل الضخامة وعظمة منتجات الفكرة الانساني ... اما كل هذه الاشياء فانها لا تتكشف الا بعد ذلك .

ان القارىء يعرف الآن كيف تمت صفقات تشتشيكوف الاولى ، وسنرى فيما يلي ما ينتظر بطلنا من نجاح وفشل ، وكيف سينتظر على أصعب العقبات . ان الطريق طويلة اما عربتنا التي تقل تشتشيكوف وبتروشكا وسليفان وهناك ما زالت (فرستات) طويلة .

اننا نعرف بطلنا كما هو ، وربما طلب البعض اعطاء صورة نهائية مرسـومة دفعة واحدة تبرز فيها طبيعته الاخلاقية . انه من الذين لا يملكون فضيـلة ولا كمالاً ... وهذا أمر معروف عنه فمن يكون إذن ؟ أهو وغد ؟ ولماذا يكون وغداً ؟ ثم لماذا هذه القسوة في نظرتنا الى الآخرين ؟ انه لا يوجد في الروسيا

أوغاد في عصرنا هذا ولا نعرف الا رجالاً دمثين طيبي النيـة . والذين اهينوا بصفعهم علناً نادرون نعرف منهم اثنين او ثلاثاً . ومن الافضل ان ندعو بافل ايفانوفتش « بالسيد الجامع » . إذ أن الجمع يظل دوماً علة كل شيء ، فهو أصل جميع العمليات التي يصفها بانها ليست نظيفة جداً . وانه بكل تأكيد يوجد في هذا الخلق ما يدفع على الاشمئزاز . ومع ان القارىء يصادف في كل يوم انساناً من هذا الطراز ويقاسمه الخبز والملح ، ويعيش معه ساعات لطيفة ، فانه يحتقره ويشمئز منه اذا صادفه بطلًا لمأساة او قصيدة . ان العاقل هو الذي يلقي دون حقد نظرة فاحصة على الاشياء ويسبر غور جميع الطبائع ويدرس منها اكثر المظاهر خفاء . ان كل شيء يتغير سريعاً في الانسان ، وتنمو في اعماقه بسرعة فائقة دودة مخيفة لا تكتفي بأن تأخذ شكل عاطفة مخيفة فحسب بل تأخذ ايضاً شكل هو بسيط لا معنى له . وهكذا فان هذا الرجل الذي خلق لحياة جميلة وشريفة ، ينسى واجباته العميقة المقدسة معتقداً انه وجد العظمة والقداسة في أعمال صغيرة لا معنى لها . ان العواطف الانسانية كثيرة في عدد حبات الرمل على شاطىء البحر ، وكل منها لا تشبه الاخرى ، وهي بمجموعها ، سواء كانت رفيعة أم منحطة ، تكون بادىء الامر عبدة للانسان ثم لا تلبث ان تصبح بالنسبة اليه السيدة الطاغية .

سعيد هو الانسان الذي يستطيع ان ينمي في نفسه عاطفة ما ؛ فان سعادته العظيمة اذ ذاك تنمو وتتسع من ساعة الى اخرى ومن دقيقة الى دقيقة ، وتتعمق في اجواء روحه اللامتناهية . الا ان هناك عواطفاً ليس للانسان ان يختارها ، فهي تولد معه وليس في مقدوره ان يرفضها ، فتكمن فيه حتى الموت . وكل هذه العواطف تعمل على احداث سلسلة من الاشياء يجهلها الناس حالياً .

ربما كانت العاطفة التي تحفز تشتشيكوف غير صادرة عنه . وربما كانت حياته المظلمة الباردة تحتوي على عنصر سيجعل الرجل في المستقبل يركع على ركبتيه امام حكمة السماء . أليس ظهور مثل هذا الوجه في هذه القصة سراً ؟ لا يهمني

ن لايرضى القاريء عن بطلي فأنا متأكد من ان تشتشيكوف نفسه يمكن ان يرضي قرائي ، وهذه الثقة ثقيلة على نفسي . فلو لم اتعمق في اغوار نفسه واحرك فيه ما يخفى عادة ، ولو لم اكشف عن الافكار السرية التي لا يفصح عنها الانسان مطلقاً لاشباهه ولو صورته كما بدا لمانيلوف ولمدينة (ن ...) الصغيرة : لو فعلت كل ذلك .. اذن لهتف الجميع : كم هو مسل هذا الرجل بافل ايفانوفتش . ولو فعلت ذلك لما قلقلت نفوسهم ولتابعوا اللعب بالورق بعد قراءة هادئة ، هذه اللعبة الوطنية حقاً والتي تعزي الروسيا بكاملها عن آلامها .

لم تكونوا لتودوا ، أيا قرائي الاعزاء ، ان تروا البؤس البشري عاريا على حقيقته ؛ فانتم تقولون : « لماذا ؟ وما المقصود من ذلك ؟ أفلا نعرف بان الحقارة والحمق موجودان ؟ ان الاشياء المعزية قليلة في حياتنا ولذلك نفضل ان نجـــد الجمال والبهاء في العمل الادبي فنحن نريد ان ننسى . »

وهكذا فان الملاك يقول لوكيله : « لماذا تروي لي يا أخي بان اعمالي تسير سيراً سيئاً ؟ أليس لديك ما تقوله لي غير ذلك ؟ دعني أنس احزاني واعمل على جعلي سعيداً ! » وبهذه الصورة يتبخر الماء الذي كان يمكن ان ينقذ البيت ، اجل يتبخر في سبيل تعزية السيد . وهكذا فان فكر الانسان ينام عوضاً عن ان يبحث عن سبل الاصلاح . ثم يأتي اليوم الذي تباع فيه الاملاك بالمزاد في حين يبحث السيد عن النسيان ويتدهور من سيء الى اسوأ .

لربما اكون قد أغضبت بعض من يدعون الوطنية الذين يقبعون بهدوء قرب النار مهتمين بأعمالهم الصغيرة التافهة ويزيدون ثروتهم ، ويبنون سعادتهم على حساب الآخرين . ولكن ما إن يقع حادث يسيء في رأيهم الى الوطن ، وما إن يصدر كتاب يعرض لحقائق قاسية حتى يهتزون ويجن جنونهم كالعناكب حين ترى ذبابة عالقة بخيوطها ويصيحون : « ما الفائدة من كشف هذه الامور ؟ ان هذا كله يتعلق بنا فقط ... وماذا سيقول الأجانب ؟ انهم سيكونون رأياً سيئاً عنا .. يا للمصيبة ! لقد انعدمت الوطنية » . واني لأعترف بعجزي عن الاجابة على هذه الملاحظات العاقلة خاصة فيما يتعلق بالأجانب ومع ذلك ...

كان رجلان يعيشان في زاوية مفقودة في الروسيا ، وكان احدهما ، وهو كيفامو كيفتش ، رجلاً هادئاً يقضي حياته في ثيابه المنزلية . ولم يكن يلتفت لأسرته ويكتفي بحياة تأملية ولا يهتم الا بحل المشاكل الفلسفية كالمشكلة التالية التي كان يحدث نفسه بها وهو يذرع ارض غرفته : « هوذا مثلاً حيوان اتى الى هـذا العالم عارياً ... فلماذا ولد عارياً ولماذا لم يولد كالطائر الذي يخرج من البيضة ... حقاً انه كلما تعمقنا بالاشياء كلما قل فهمنا لها » . بمثل هذه الامور كان صاحبنا كيفامو كيفتش يتفلسف .

واما الثاني فكان يدعى موكي كيفوفتش وهو ابن كيفامو كيفتش . وكان فارساً شجاعاً او « بوغاتير » كما يقال عندنا في الروسيا . وفي حين يسعى ابوه الى تعليل ولاة الحيوانات ، كان موكي يطلق العنان لطبيعة المنبسطة ولم يكن يلمس شيئاً ويتركه كما هو ، ولذلك كنت ترى على طريق ذراعاً مقطوعاً هنا وأنفاً مجدوعاً هناك .

وما إن يظهر في البيت حتى يهرب الجميع ، من الخادمه الى الكلب ، بأنفاس مبهورة . وفي غرفة نومه حطم سريره وجعله قطعاً صغيرة ... هكذا كان موكي كيفوفتش . ومع ذلك كان طيب القلب . وكان الاصدقاء والأغراب يقولون للوالد : « اسمع يا باتيوشكا كيفامو كيفتش ... ان ابنك موكي كيفوفتش شقي كبير فلا مجال للدعة معه » . فكان يجيب : « نعم انه صاخب قليلاً ، ولكني لا استطيع شيئاً فقد فات الأوان ولن أتقاتل معه الآن ليقال عني أب سيء انه يعتد بنفسه فاذا قومت سلوكه أمام الأغراب فانه سيسكت ولكن البلد ستتحدث كلها عما سيجري بعد ذلك وسينعتونه بأنه كلب . لا تعتقدوا بأن سلوك ولدي لا يعنيني ... ألست أباه ؟ اني أهتم بالفلسفة ، هذا صحيح ولكني مع ذلك أبوه ... اني أبوه وليذهب بهم الشيطان جميعاً ... اني أحمله في قلبي » ويضرب كيفا مو كيفتش على صدره ضربات قوية ويزمجر : « اذا كان

كاباً فليبق كذلك فلست الذي يقول ذلك ... ولست الذي يخون والده ». ويتصرف هكذا كاب طيب وبدع موكي كيفوفدش يتابع وتصرفاته ،يعود هو الى مسائله الفلسفية مهتما فجأة بالمشكلة التالية : « لو ولد فيل من بيضة فان قشرتها ستكون ضخمة جداً ولاتستطيع قذيفة مدفع ان تحطمها ، واذن يجب اختراع سلاح ناري جديد » .

هكذا كان يحيا رجلانا في بقعة مجهولة من الروسيا الكبيرة . وقد ظهر فجأة في نهاية قصتنا ليسمحا لي بالاجابة على اتهامات الوطنيين المتحمسين . ففي الواقع ان هؤلاء لا يفعلون شيئاً غير التفلسف ولا يعملون الا لزيادة ثرواتهم على حساب ثروة وطنهم العزيز ولا يفكرون في منع الشر ، ولكن في منع الكلام عن الشر الذي يقترفونه . كلا !ان وطنيتهم ليست هي المصدر الاساسي لاتهاماتهم ، فهذه الاتهامات تخفي شعوراً آخر .

ولماذا لانسمي هذا الشعور باسمه ؛ ان الكاتب مسؤول عن اعلان الحقيقة المقدسه ، انهم يخافون من النظرة التي تتفحص بعمق . انهم خائفون من ان يلقوا بانفسهم نظرة متعمقة على الاشياء لانهم لا يحبون النظر الا بعيون تنزلق على السطح .

لربما سخرتم جميعكم من تشتشيكوف ، ولربما قلتم وانتم تمدحون المؤلف : « ما اقوى ملاحظته . . أي مرح ينطوي عليه ؟ » ثم تضيفون وانتم راضون عن انفسكم قريرو العين على كبريائكم : « ومع ذلك فلنعترف باننا نصادف في الريف امثال هؤلاء الناس السخفاء والادعياء» .

ولكن من منكم يجرأ وهو منطو على ذاته ان يتساءل بخشوع المسيحي : « أليس عندي شيء من تشتشيكوف ؟ » .

ويمر قرب قارئي احد اصدقائه المنتمين الى الطبقة المتوسطة ، فيلكز القارىء جاره في الحال ويهتف وهو يكتم رغبته في الضحك :

« انظر ... انظر هوذا تشتشيكوف مار » . ثم يندفع كطفل ناسياً وقار

السن والمركز الاجتماعي ويركض وراء النعش يضحـــك منه ويسخر به : « تشتشيكوف ، تشتشيكوف ، انظروا تشتشيكوف » .

ولكن آه .. ان صوتنا قد ارتفع كثيراً . وان بطلنا الذي كان نائماً داخل عربته طيلة هذه المدة التي استغرقناها في الحديث عن قصة حياته ، قد استيقظ من نومه الآن . ويمكن له ان يسمعنا نردد اسمه بكثرة . وهو كثير التشكك وسريع الغضب اذا لم نتحدث عنه بالاحترام الواجب علينا تجاهه .

ولا يهم القارىء ان يغضب تشتشيكوف او يرضى ، أما أنا ، فليس عندي اية رغبة في التخاصم مع بطلي . فالطريق التي علينا ان نجتازها طويلة ، إذ ان امامنا جزئين آخرين ومهمتنا مازالت قاسية .

صاح تشتشيكوف بسليفان :

ـ . ايه ... ايه ماذا تفعل ؟ انت ...

فاجابه سليفان ببطء :

ـ . ماذا تريد ان تقول ؟

ـ . كيف ؟ ايها الابله ! انت لا تتقدم !اسرع

وكان سليفان نصف نائم منذ وقت طويـــل ، ويضرب بالعنان حيواناته بصورة آلية وهو مغمض العينين تقريبا .

اما بتروشكا فبعد ان فقد قبعته مال على ركبتي معلمـه ، وقد كاد بافل ايفا نوفتش يتخلص منه اكثر من مرة بدفعه الى الارض .

واخيراً استيقظ سليفان وضرب الجواد المبرقش بالسوط على ظهره فجرى الاخير مسرعاً . ثم قال الحـــوذي مداعباً حيواناتـه : « لاتخشوا شيئاً يا صغاري » . جرت الجياد واخذت العربة تطوي الارض بسرعة . وكان سليفان يقفز فرحاً فوق مقعده وهو يصيح :

« ايه ... ايه ... » وصعدت العربة . مرتفعاً ثم هبطت منحدراً ، ثم

تلاه من جديد مرتفع خفيف متتابع ، وكان تشتشيكوف يبتسم وهو يترنح بين وسائده اذ انه كان يحب السرعه العظيمة ، واين هو الروسي الذي لايحب السرعة؟ ان روحه لتتفتح عندما يجتاز المسافات بسرعة فيهتف اذ ذاك : «ايه... ليذهب الشيطان بكل شيء ! » وكيف لايحب السرعة التي تبدو كانها تستر شيئاً سحريا ، فيعتقد المسافر ان قوة سحرية تحمله على جانحيها فيطير وتطير معه (الفرستات)وتختفي خيوط العربات اللامتناهية مع غابات الصنوبر حيث يمتزج نعيق الغربان بوقع ضربات الفؤوس ...

كل شيء يختفي ، ويختفي الطريق نفسه في المجهول البعيد ، وتأخذ الاشياء معنى مخيفاً ... والسماء وحدها فحسب تتميز بغيومها الخفيفة ، وينزلق القمر خلال هذه النجوم التي تبدو شابة .

آه .. ايتها العربة .. ايتها العربة الطائرة من اخترعك اذن ؟ انه لايمكن لك ان توجدي الا عند شعب ذي اخلاق بطولية على ارض تعيش فيها الاشياء العميقة ، ارض تشغل نصف الكرة الارضية حيث لايوجد من يضيع وقتـــه بتعداد (الفرستات) انك ايتها العربة لاتمثلين شيئاً غريبا .. انت سريعـة الصنع ، فضربة فأس ومقص فلاح ماهر من جاروسلاف يكفي لصنعك. وليس للحوذي الحذاء الالماني القوي .. لا .. ولكن له لحية وقفازان بلا اصابع يجلس على كرسي ويتحرك في مقعده قليلا ، ويفرقع في الهواء بسوطه ،ويدوي صوته بالاغنية ، فتطير الحيوانات وتدور العجلات وترتعش الطريق ويقف المشاة وهم يصرخون مذعورين ، وتمرق العربة مختفية طائرة .

وانت ايتها الروسيا المقدسة ، اية زوبعة تحملك مثل هذه العربة التي لا يستطيع ان يلحق احد بها انك تثيرين عواصف الغبار فتتقصف الجسور ويتراجع كل شيء وتجتازين كل شيء . ومن يرقبك يقف وكأنه مذهول امام معجزة إلهية . الا يمكن ان تكوني صاعقة تقذف بها قوة من السماء مقدسة ؟ وماذا تعني هـــذه

الحركة المخيفة ؟ ما هي هذه القوة الغامضة التي تسكن هذه الجياد الفريدة المجهولة؟ آه ! ايتها الجياد الروسية .. ايتها الجياد ! لكم من العـــواصف تختفي في اعرافك ! وعلى الفمم تدوي الاغاني المعروفة ، فتتمدد رئات الجياد البرونزية ولا تكاد حوافرها تمس الارض . ثم تتطاول وتبدو كأنها خطوط مستقيمة غير متناهية تختفي وتطير في السماء . أيا روسيا المقدسة اجيبي !؟ ولكن الروسيا لا تجيب ! وترن الاجراس ويعلو رنينها العذب ويدوي الهواء البارد بقصف الرعود .. ويهرب كل حي على وجه الارض ، وتختفي بقية الشعوب وتبتعد بقية الامبراطوريات ، لتفسح كلها لك الطريق ايتها الروسيا المقدسة .

القسم الثاني

الفصل الأول

ترى لماذا أصف دوماً البؤس والفقر وجفاف الحياة ؟ ولماذا أزعج سكان البقاع المجهولة من ريفنا الروسي ؟ ولكن ما العمل اذا كان اتجاهي هكذا ، واذا كنت عاجزاً عن وصف اشياء اخرى غير مظاهر البؤس والعاهات البشرية وحياة أنأى القرى في دولتنا هذه ؟ وهكذا فاننا نجد انفسنا مرة اخرى في الوحدة في القرى الضائعة .

كانت سلسلة غير متناهية من الهضاب كأنها قلعة ضخمة ذات أبراج تمتد بخط متكسر على طول اكثر من ألفا (فرست) . وكانت القمم تنتصب بجلالها على السهول الفسيحة كأنها أسوار عالية تتخللها الشقوق ، تتكور بشكل نهود ، مخضرة مغطاة بنسيج من الاعشاب حبكته جذور الاشجار التي نجت من الفأس المجرم بأعجوبة . وكان نهر ينساب كالافعوان وفياً لشطآنه ، ولكنه كان يحفر لنفسه في بعض الاماكن منعطفات فجائية ، تهرب نحو المراعي وتنبسط فيها كمرآة

من نار تعكس اشعه الشمس ثم تضيع في الغابات ، وتمر أخيراً تحت الجسور والطواحين والحواجز التي تبدو كأنما تهرب هي الاخرى كلما مرت بها المياه. ولكن هاهي ذي الجبال تتوارى تحت كتلة ضخمة من الاشجار الخضراء ، وكأنما التقت فيها شجيرات الشمال والجنوب . وهناك اشجار والصنوبر الصفصاف واللبلاب وحشيشة الدينار والزان والحور ، وقد كانت جميع هذه الاشجار تتساند وتتشابك او يخنق بعضها بعضاً وهي تنحدر أو تصعد في الجبل . وعلى قمة هذه الغابة الكبيرة يطفو سقف احمر لقصر سامق وسقوف عزب الفلاحين المجاورة ، وبيت السيد بشرفته العريضة ونافذته الكبيرة . وفوق هذا الخضم الطامي من الاشجار والسقوف ، ارتفعت كنيسة قديمة بأقواسها الذهبية التي تعكس شعاعات باهرة على القرية بكاملها . وكانت صلبان يونانية مثبتة عليها بسلاسل ثقيلة من المعدن نفسه . وهكذا يخيل للمرء عن بعد انه يرى قصراً معلقاً في الهواء بأعجوبة إلهية يعكس لهباً ذهبياً . كانت جميع هذه السقوف والاقواس والصلبان تنعكس في سفح الهضبة على مياه النهر النقية ، وكانت الاقصاب وشجرات الصنوبر المغمورة بالمياه ، بأغصانها وأوراقها ، تتأمل هذه الصورة الساحرة . ومع ذلك لم يكن هذا المنظر ، الجميل غاية الجمال ، ليعادل ذلك المشهد الذي يمكن التمتع به من أعلى القصر . ولم يكن من صديق او ضيف يمر دون ان يلحظ هذا المنظر البديع فيهتف منتشياً : « ايها السيد ما هذه العظمة؟ » ان المساحة لتبدو غير محدودة ، فكنت لا تشاهد خلف المروج الاضواحي من الماء والادغال . وكانت الغابات تمتد منقسمة الى مناطق عدة . وأبعد من ذلك ، هناك ، في الجو الغائم ، كان لون الرمال يضرب الى الصفرة ، ثم غابات زرقاوات اللون كالبحر ، وضباب ينتشر في البعيد ، ثم ، ومن جديد ، رمال اكثر شحوباً ما زالت محتفظة بلونها الاصفر .

واما في الافق فهناك جبال ممتدة بيضاء حتى في ايام العواصف والامطار

منورة بالشمس الخالدة . وبفضل هذا البياض الناصع كنت تلحظ في سفوح تلك الجبال غيوماً تتصاعد نحو العلو بخط لولبي . كل هذه المشاهد ما كانت عين الانسان لتستطيع رؤيتها عن بعد . اما شعاع صليب الكنيسة الذهبي فهو الاية الوحيدة على ان هذا المكان آهل بالسكان .

ان هدوءاً عميقاً يخيم على هذه الابعاد ، هدوءاً مطبق لايعكر صفوه شيء حتى ولا تغاريد الطيور الخافتة . ولم يكن باستطاعة ضيف هذا السيد الذي يتأمل في المنظر ساعات متواصلة الا ان يتفوه بهذه الكلمات : « ايها السيد! ما هذه اللانهاية ؟ ما هذا البهاء ؟ !

ولكن من يكون صاحب هذه القرية التي تشبه قلعة منيعة لايمكن الدخول اليها الا من الجانب المقابل للنهر ؟ »

ان اشجار الصفصاف المنتشرة هناك تستقبل الزائر بلطف مادة اليه أغصانها القوية كأنما تريد ان تعانقه وتود أن ترافقه الى القصر الذي لم نرمنه حتى الآن الا جدرانه الخلفية . كانت واجهة هذا القصر تبدو تامة ، وقد صفت على احد جانبيها بيوت الفلاحين ، بينما قامت في الجانب الثاني كنيسة تشع بصلبانها الذهبية. ترى من هذا الرجل السعيد الذي يملك هذا الفردوس المنعزل؟ ان المالك شاب اعزب في الثالثة والثلاثين من عمره ويدعى أندريه ايفانوفتش تنتيتنيكوف . ولكن من هو ؟ وما عاداته وصفاته ؟ الا توجهن أيتها القارئات بهذه الأسئلة الى الجيران !

ان أحد هؤلاء الجيران ، وهو من عائلة ضباط متقاعدين ، يقول : « انه وغد لئيم ! » وهناك جار آخر ، وهو جنرال يسكن على مبعدة عشر (فرستات) منه ، يقول : ان تنتيتنيكوف ليس بالشخص الغبي ، ولكن رأسه تسكنه حماقات كثيرة ... اني استطيع ان اكون له ذا نفع ، ذلك انه لي علاقات كثيرة في بطرسبرج ... ثم ... ولا يتابع الجنرال عباراته . ولكن هناك

جار ثالث له يدعي الكابتن اسبرافنيك يقول : « غداً سأذهب اليه من اجل بقايا ديوان ! » واما الفلاحون فكانوا لا يتكلمون ، وإذن فالجميع يرون في تنتيتنيكوف رأياً سيئاً ، وما هو بالانسان السيء ولكنه رجل لا عمل له . وهناك كثيرون لا عمل لهم غير التثاؤب ، فلماذا لا يتثاءب تنتيتنيكوف ؟ ومع ذلك فسنذكر كيف كان يقضي أيامه ليكون القارىء فكرة عن طبع اندريه ايفانوفتش وكيف كان يتمتع بالجمال الذي يحيط به .

كان يستقيظ صباح كل يوم في ساعة متأخرة جداً ويبقى زمناً طويلا جداً ايضاً جالساً على سريره يفرك عينيه . وبما ان هاتين العينين كانتا صغيرتين جداً، لذلك ، فان استعمال الفرك لايقاظهما لايعطي مفعوله الا بعد مضي ساعة او ساعتين . وكان الخادم ميكيلو يستطيع ان يحمل الى سيده (طشت) الماء والمنشفة ، وينتظر على الباب قليلا ثم يعود الى المطبخ ويرجع اخيراً ليرى ان سيده قد استيقظ الآن فقط ، فاغتسل وارتدى ثوبه المنزلي . ثم يقوم تشتشيكوف ليذهب الى غرفة الطعام ويشرب الشاي والقهوة والحليب المستحلب حديثاً ، ويملأ الزاوية التي يجلس فيها بفتات الخبز ورماد الغليون .

وكان هذا الفطور يدوم مايقارب الساعتين عداً . ولم يكن هذا كل شيء ،فقد كان يتناول ايضاً كوبا من الشاي البارد ويقترب ببطء من النافذة التي تطل على الباحة . واليكم هذا المشهد التالي الذي يتم في كل يوم : انه قبل كل شيء يسمع صوت غريغوري الخادم يزمجر في وجه بيرفيليفنا الخادمة ويقول :

ـ ايتها الحيوانة القذرة .. ايتها الدودة المنتنة .. اخرسي ايتهاالساقطة .

كانت بيير فيلفنا امرأة حادة اللسان مرنة بالرغم من انها كانت تأكل بكثرة الكعك والزبيب وجميع انواع الحلوى التي يعهد بها اليها . كانت هذه المرأة اذن تصيح في وجهه وهي تشير الى قبضتها :

ـ ايه .. انت اذن تريد ان تتذوق هذه .

ـ ايتهاالوغدة ، لقدعلقت بالوكيل وهو مثلك سارق لص يا كلبةالساحرة..

ان السيد هنا وهو يسمع كل شي .

– السيد ؟ واين هو ؟

– في نافذته وهو يرانا .

وكان السيد في نافذته بالفعل يرى ويسمع مايقولانه .

ولكي تكمل اللوحة ، كان هناك طفل ضربته امه يصرخ كالشيطان ، وثمة كلب يعوي من الالم ، إذ احرقه الطاهي بالمـــاء المغلي الذي القى به من نافذة المطبخ . كان كل شيء في الباحة يزأر ويضج ، وكان السيد يسمع ويرى كل شيء . وعندما تكون الضجة لاتطاق فان تنتيتنيكوف ينزعج اخيراً ويأمر بالهدوء .

وكان قبل موعد الغداء بساعتين يعتكف في غرفته ليؤلف ، بجد ونشاط ، كتاباً يدرس فيه الروسيا من شتى نواحيها السياسية والتمدنية والدينية والفلسفية يريد به ان يحل جميع المشاكل التي خلفتهـا العصور السابقة . وعلى العموم كان يبحث عن حل لجميع القضايا المعقدة التي تهم الانسان الحديث . ويجب أن نقول إن هذا الكتاب مايزال « ابداً » في حيز التأملات . اذ أن الريشة كانت تصر قليلاً على الورقة المليئة بالرسوم والخطوط ثم لايلبث المؤلف العبقري ان يلقي بمخطوطته جانباً ويأخذ كتاباً يقرأفيه . كان تشتشيكوف يقرأ وهو يتنـــاول الحساء والحم والحلويات حتى ان بعض الصحاف تبرد وبعضها الآخر يحمله الخدم دون ان يمس . ويشرب السيد القهوة بعد ذلك ويدخن غليونه ويلعب بالشطرنج من نفسه . اما ماذا كان يفعل في الفترة الواقعة مابين الغذاء والعشاء ، فهذامايصعب علي معرفته ؟ ولربما ، وهذا أغلب ظني ، كان لايفعل شيئاً .

هكذا كان يقضي اوقاته ، ذلك الاعزب البالغ الثالثة والثلاثين من عمره ، وسط تلك الوحدة الكبرى . فهو دائماً متراخ يلبس ثيابه المنزلية بدون ربطة عنق . ولا يشعر بأية رغبة في النزهة اومشاهدة المدينة وركوب الخيل ، بل لا يرغب في فتح النافذة لاستنشاق الهواء النقي . واما ذلك المشهد الرائع الذي يسمر كل انسان ، فكأنه غير موجود بالنسبة اليه . فالقارىء من هـذا إذن ،

يرى ان أندريه ايفانوفتش تنتيتنيكوف من الطبقة « التي تسمى « اوفاليس » او « ليجبوكيس » او « بايباكيس »(١) ؛ وهي كلمات لا معنى لها اليوم في عصرنا هذا . ولكن من أين جاءت هذه النقائص ؟ أهي وراثية بالولادة أم أنها ظروف الحياة القاسية التي تسم الانسان بالقسوة ؟ لن أجيب على هذا السؤال . ولكني سأقص شيئاً عن تربية تنتيتنيكوف .

كان كل شيء فيه يصلح لنمو أحسن الصفات . كان طفلا لطيفاً حالماً ذا بنية مرضية . دخل في سن الثانية عشرة من عمره في مدرسة يديرها رجل ذكي جداً ، يدعى هو الكسندر بتروفتش معبود الشباب . وكان هذا الاخير يفهم النفس الروسية جيداً ويحب الاطفال كثيراً ويعرف كيف يحفز رغباتهم . فما من تلميذ واحد هناك الا ويركض الى مديره بعد ان يقترف خطيئة ما ، يعترف له بها . وكان المذنب يغادر الكسندر بتروفتش غير خافض الهام ، بل بعزم على ان يحسن سلوكه في المستقبل . وكان هذا المدير ايضاً يعرف كيف يشجع الاطفال فيقول لهم امثال هذه الكلمات البسيطة : « الى الامام .. اسرع وانس انك سقطت ! » ولم يكن يذكر السلوك الحسن في احاديثه ؛ ولكنه يقول : « اني اريد الذكاء ، والذكي ليس لديه الوقت الكافي للمزاح ، وحماقات الاطفال تزول من تلقاء نفسها » . وبالفعل فان هذه الحماقات سرعان ما كانت تختفي . اما التلميذ الذي لا يسعى الى التفوق فانه سرعان ما يجد نفسه موضع احتقار رفاقه . فـ ... « حمير » و « اغبياء » الصفوف العليا مرغمون على تقبل هذه الالقاب من اصغر التلاميذ دون ان يجرؤ واحد على رفع يده عليهم . وكان يقال للمدير في بعض الاحايين : « انك تبالغ ، فخفة تلاميذك قد تنقلب يوماً ما الى وقاحة » . ولكن المدير يجيب بدوره : « ان هذا لن يحدث مطلقاً ، فأنا لا احتفظ بالمقصرين اكثر من سنة ، واما الباقون فلهم صفهم الخاص » هو لا يحب ان يكبت الخفة والخبث عند الاطفال ، إذ انه يرى فيها دلائل الصفات الطيبة في المستقبل . ولذا فهو يقول : « انها ضرورية

---

(١) اشخاص كسولون متراخون .

ضرورة البثور التي يستطيع بها الطبيب ان يشخص المرض ».

ان جميع تلامذة المدرسة يعبدون ألكسندر بتروفتش . وكان بعضهم متعلقين به اكثر من تعلقهم بأهليهم . اما عواطفهم فهي دوماً متجهة نحو معلمهم وتفوق في حمياها بقية العواطف الاخرى . وقد ظل التلاميذ بعد موته ردحاً طويلاً من الزمن يشربون الخمرة في يوم ميلاده . ان أقل كلمات التشجيع اذا صدرت منه تكفي لجعل هؤلاء الاطفال يرتعشون من الفرح . واما دروس الصف الاعلى التي لا يقبل فيها غير التلاميذ المتفوقين ، فلا تشبه في أي حال من الأحوال نظام الدروس المطبقة في المؤسسات الحكومية . انه يطلب من تلامذته هؤلاء ، الذكاء العظيم الذي يسمح للانسان ان يمزح دوماً وان يحتمل مزاح الآخرين وسخريتهم ، وان يتساهل مع الحمقى ، وألا يغضب او ينمي في قلبه اية رغبة في الانتقام ، كما يسمح له هذا الذكاء ان يحتفظ بنفسه صافية في شتى الظروف . إن ألكسندر بتروفتش كان يسهر دوماً على ان ينمي فيهم جميعاً مواهب الانسان الواعي ، ولذلك فهو يخضعهم لعدة امتحانات ، وهو الى جانب ذلك يعرف علم الحياة . واما عدد المعلمين عنده فهو قليل جداً ، حتى انه كان يعلمهم بمفرده تقريباً ، متجنباً في تعليمه الغرور والمحاضرات البليغة والدروس النظرية . فهو اذن يحسن ترجمة روح العلم ليستطيع الطفل فهمها ، كما انه لا يعلم لا ما يمكن ان يخلق في الانسان صفة المواطن الصالح . وكان القسم الأكبر من الدروس مكرساً لشرح مجال العمل الذي ينتظر الطالب حين يخرج الى الحياة وألكسندر بتروفتش الى جانب ذلك يحسن الكشف عن هذه الامكانيات بقوة عجيبة ، حتى ان الشاب يجد نفسه ، وهو فوق مقعد الدراسة ، قد اتجه بأفكاره نحو هذا المستقبل الذي ينفتح أمامه . ولم يخف المعلم الصعوبات والآلام والنضال ، بل كان يرفع النقاب بتفصيل دقيق عن جميع المغريات والمحن التي يتعرض لها المرء في حياته . انه يكاد يعرف كل شيء ، كأنما عاش بنفسه جميع

ظروف الحياة التي يصفها بدقة متناهية . وسواء أكان الامر يعود الى الطموح الذي خلقه الكسندر بتروفتش ام الى لهيب نظراته التي تقرأ فيها عبارة «الى امام!» تلك الصيحة التي يحبها الروسي كثيراً ، والتي تخلق المعجزات في نفسه الحساسة المرهفة ، اقول سواء أكان هذا أم ذاك ، فان المراهق يغادر المدرسة ساعياً الى العقبات والمصاعب من تلقاء نفسه لينتصر عليها بمضاء عزيمته . كان عدد المقبولين في هذا الصف العالي قليلاً للغاية ، الا ان الذين تخرجوا منه أصبحوا يملكون قوة معنوية فريدة ، ويبدون كأنما تدرعوا بالبرونز ، وعلى استعداد تام قام لبذل جميع الجهود . يعرفون كيف يصمدون أمـــام اشق الاعمال ، في حين لا يستطيع غيرهم ، ولو كان أكثر ذكاء ، ان يتحمل أقل محنة فيسقط او يستسلم للأوغاد . وهم الى جانب ذلك يعرفون الحياة والناس ، فيفرضون أنفسهم على أشباههم ، ويؤثرون بقوة شخصيتهم تأثيراً بالغاً على الجميع ، وحتى على الفاسدين .

كان قلب تنتيتنيكوف يخفق بشدة حين يفكر بانه سيقبـــل يوماً ما في الصف العالي ، والواقع ان ألكسندر بتروفتش احسن مرب يمكن ان يجده . الا انه في السنة التي وصل فيها اندريه ايفانوفتش الى هذا الصف ، توفي استاذه فجأة ، فكان ذلك له صدمة بالغة وخسارة فادحة مخيفة لا تعوض .

وهكذا تغير في المدرسة كل شيء ، وحل مكان الكسندر بتروفتش شخص آخر يدعى فيودور ايفانوفتش . ولم يهتم المعلم الجديد الا بالمظاهر الخارجية ، فأخذ يطالب الاطفال بسلوك البالغين ، ولا يرى في نموهم الطبيعي غير الفوضى والتخنث . وقد اعلن منذ اليوم الاول لاستلامه مهام التعليم انه لا يحترم غير السلوك النقي . ولكنه لم يستطع ان يجعل من الاطفال اناساً عاقلين ، فبدأت الاخطاء ترتكب في السر ، فأما في النهار فكان كل شيء يسير سيراً حسناً ولكن اذا ما اتى الليل فان التلاميذ لا يحرمون انفسهم من اي شيء .

وعين اساتذة جدد تختلف طرق تدريسهم تمام الاختلاف عن طريقة المدير في فهم العلوم . واخذوا يستعملون في تعابيرهم الكلمات الغامضـــة المجهولة ،

وتوسعوا كثيراً في منطقهم الشخصي ، حتى قتلت روح العلم بهذه الصغائر التافهة. وهكذا فقد التلاميذ كل احترام للسلطات المدرسية وسخروا من المعلمين والمدراء ولقبوهم « بالحمقى » كما تخلل الفساد المؤسسة برمتها ، واختفت في اقل من سنتين سماتها القديمة .

كان اندريه ايفانوفتش هادىء الطباع ، فلم تغره مغامرات رفاقه الليلية الذين يدعون اليهم النساء ويلتقون بهن تحت نافذة المدير . كما انه لم يعر اهتماماً لجميع المشاهد الدنسة ، فظلت روحه صافية نقية واحتفظ بعنصر الطيبة وقاوم الفساد الا انه كان دوماً كالنائم ، وعندما استيقظ الطموح في نفسه ظل كسولاً مهملاً . كان يصغي الى محاضرات اساتذته الملتهبة ويتذكر الكسندر بتروفتش بهدوئه ووضوحه في شرح الاشياء وتبسيطها . اخذ تنتيتنيكوف يتابع دروس الطب والفلسفة وتاريخ الانسانية العام . وكان استاذ التاريخ ، بالمناسبة ، قد بلغ من توسعه حداً ظل معه يحاضر ثلاث سنوات دون ان ينهي المقدمة ، حاصراً دروسه جميعها في بعض المقاطعات الالمانية . ولكن ماهي الدروس التي لم يحضرها تنتيتنيكوف ؟ ان الله وحده يعلم بذلك ! والمهم ان ذاكرته كثيراً ما كانت تخونه ، فيدرك بفضل ذكائه الطبيعي عيوب ونقائص هذا التعليم . ولكنه لم يجد علاجا لذلك . وكان عندما يتذكر استاذه القديم الكسندر بتروفتش سرعان ماتعلو سمادير الكآبة وجهه ، وتغلف نفسه .

ان الشباب ليسعدون بالامل في المستقبل ، وعندما اقتربت السنة الاخيرة من نهايتها قال تنتيتنيكوف في نفسه :

« هذه ليست بالحياة .. بل هذا الذي مررت فيه انما هو اعداد لها ... ان الحياة الفعلية تبدأ بالعمل حيث الجهد والنشاط . » وهكذا سار دون ان ينطق بكلمة وداع لقبور أجداده الى بطرسبرج ، مقتديا بالطموحين من امثاله . والمعروف ان خيرة الشباب الروسي يغادرون البقاع الروسية النائية ، ليأتوا الى العمل في عاصمتنا فيبرزون او يغرقون في حياة الصالونات ، تلك الحياة السطحية الباردة المنافقة .

وقد ساعد تنتيتنيكوف عمه اونوفري ايفانوفتش واقنعه بان الحظ الجميل يكفي وحده ليصبح صاحبه وزيراً او رجل دولة في الروسيا. ثم، وبعد جهود كثيرة استطاع ان يعينه في احدى الوزارات في وظيفة لا اعرفها. ودخل تنتيتنيكوف للمرة لاولى في بهو الوزارة الكبير، فرأى عـــدداً كبيراً من الشباب يكتبون محدثين بريشاتهم صريراً ضاجاً، وحين طلب اليه نسخ ورقة رسمية استولى عليه شعور غامض لم يدرك له كهنها. وبدا له زملاؤه وكأنهم أطفال او تلامذة، وتأكدت لديه هذه الفكرة عنهـم، عندما شاهدهم يهتمون بقراءة قصة تافهة يسارعون الى اخفائها مرتعدين، عند ظهور احـد الرؤساء. وتذكر الماضي فتأسف على الكسندر بتروفتش واغرورقت عيناه بالدموع لان صورة معلمه كانت تنتصب امامه حية: فاصيب بدوار اخذ يفت في ساقيه ولكنه تحامل على نفسه وفكر: «الى العمل، مهما يكن شأنه حقيراً! وهكذا انصرف الى العمل بحماس وحمية.

اين المكان الذي لايجد الانسان فيه المسرات؟.

ان الحياة جميلة في بطرسبرج بالرغم من المناخ القاسي والجو المظلم في بعض الاحايين. فالهواء جليدي، وميزان الحرارة يشير الى ما تحت الصفر بثلاثين درجة، بينما تهب الرياح الشماليـه الباردة فتكنس باعصافها الطرقات، وتلسع المارة وتعميهم، حاملة البياض الى شوارب الرجال، وياقات معاطف الفـرو ورؤوس الحيوانات. وفي حين تزمجر عوامـل الطبيعة وتثور، كنت ترى نافذة مضيئة في الطابق الرابع، حيث توجد غرفة صغيرة تحترق فيها بعض الشموع ويغلي السماور ويجلس بعض الرجال الروس يتحادثون بأحاديث تغـذي القلب والروح، او يقرأون صفحة مشرقة من شاعر روسي ملهم، تخفق لها قلوب الشباب وتشتعل بالحماس القوي، الذي لا تعرفه البلاد الاخرى.

اعتاد تنتيتنيكوف بسرعة على عمله، ولكن هذا العمل بداته لم يعد هدفاً

لوجوده كما ظن ، ثم ان ساعات العمل التي يقضيها في المكتب جعلته يدرك قيمة الوقت الحر وكان عمه في ذلك الحين قد بدأ يتوقع له مستقبلا عظيما ، ولكن سرعان ما ساءت الامور .

هناك من بين اصدقاء أندريه ايفانوفتش شابان من « الساخطين » ، وكانا غريبي الاطوار دائمي القلق لا يستطيعون ان يتقبلوا الظلم بهدوء ، او ما يمت الى الظلم بسبب . ثم أنهما كانا شريفين نظريا ، ولكنهما لم يطبقا مبادئهما في الحياة العملية ! فهما متسامحان بالنسبة لنفسيهما ، ومتزمتان فيما يتعلق بالآخرين . وقد أثرا على تنتيتنيكوف بخطاباتهما الملتهبة المليئة بالسخط على المجتمع ، فأيقظا في نفسه الغضب وجذبا انتباهه الى وقائع لم يكن قد لحظها من تلقاء نفسه من قبل .

وهكذا لم يعد فيودور فيودوروفتش لينتسين ، وهو احد رؤساء شعب الوزارة ، ليعجب تنتيتنيكوف ، اذ وجد به هذا الاخير كثيراً من العيوب التي لا حصر لها . وقد بدا له ان حديث لينتسين العذب مع الرئيس سرعان ما ينقلب الى حدة عندما يستقبل احد مرؤوسيه . يضاف الى ذلك ان لينتسين هذا كان كبقية الاشخاص الفارغين ، يسجل جميع اسماء الذين لا يهنئونه ايام الاعياد ، ويسيء معاملتهم . وقد كرهه تنتيتنيكوف كثيراً ، واعلن له كرهه بصراحة . كما انه فتش عن مناسبة للتحرش به فوجدها . ففي ذات يوم تحدث الى فيودور فيودوروفتش بلهجة قاسية مهينة ، حتى ان فيودور طلب اليه الاعتذار او الاستقالة ، فاستقال صاحبنا ، فهرول عمه اليه مذعوراً وقال له :

ـ بالله … ارجوك يا اندريه ايفانوفتش ! ماذا فعلت ؟ أتترك وظيفة بدأت فيها بداية حسنة لسبب سخيف بسيط هو أنك لم تعجب برئيسك ؟ لو ان جميع الناس يفعلون فعلك هذا لما ظل انسان في عمله قط ! هيا خفف من غلوائك وتعال واعتذر .

فاجاب تنتيتنيكوف :

- ليس الامر بذاك يا عماه ! انه ليسهل علي ان أعتذر . فأنا مذنب في حقه لانه رئيسي ، ومن اللائق بي ألا أخاطبه بهذه اللهجة . ولكن الامر ليس بذاك ، هناك اعمال كثيرة تشغلني ! فوكيلي رجل احمق ، والدولة لا تخسر شيئاً اذا استبدلتني بآخر ينسخ لها أوراقها الرسمية . ولكنها ستخسر بلا ريب اذا لم تقبض الضرائب عن ثلاثمائة عبد . أنا ملاك وعلي ان اسهر على ازدهار وتحسين ظروف حياة هؤلاء العبيد الثلاثمائة ، وهم من رعايا الامبراطورية الروسية . فاذا التفت اليهم يصبحون عمالاً نافعين ؛ وفي هذه الحال ما الذى يجعل رئيس ديوان ما ، وليكن لينتسين مثلاً اكثر نفعاً مني ؟

وذهل عم تنتيتنيكوف وفغر فمه دهشاً وهو يصغي الى هذه المحاضرة التي لم يكن ينتظرها . وبعد ان فكر قليلاً اجاب :

- ولكن ... مع ذلك لن تدفن نفسك في الريف ... ان الفلاحين لا يؤلفون مجتمعاً صالحاً بالنسبة لهذا المجتمع الذي تعيش فيه . انك هنا تصادف أميراً أو جنرالاً وتقابل هذا وذاك ، وتتعرف على تجار اوروبا .. أما هنا فلن تشاهد الا فلاحاً او فلاحة واذن لماذا تحكم على نفسك بالحياة في الجهل والظلام .

لم تؤثر حجج العم على تنتيتنيكوف ، فقد كان هذا يتمثل قريته حينذاك ملجأ مقدساً ، وحقل عمل نافع ، حيث يستطيع ان يتأمل بحرية ويحلم كما يريد . ولقد بدأ منذ بضعة اسابيع بدراسة كتب في الاقتصاد الفردي . وهكذا ، وبعد مضي اسبوعين من هذا الحديث وجد نفسه في طريقه الى القرية التي قضى فيها طفولته ، بين الجنان التي وصفناها أول هذا الفصل . وعاشت في نفسه أحاسيس قديمة ، فأخذ يتأمل ، بفضول المسافر ، المناظر الرائعة الممتدة في عالم اللانهاية . ثم ضاق الطريق قليلاً ليمر في غابة كثيفة مليئة بأشجار السنديان الهرمة فسأل : « ولمن هذه الغابة ؟ » فقيل له : « انها ملك تنتيتنيكوف » . ثم سارت العربة بين المروج فسأل مرة اخرى عن ملاكها فقيل له : « انها ملك

تنتيتنيكوف » . وبدأ الطريق بعد ذلك بالصعود ، وكانت تحيط به من جهة حقول الشعير ، ومن الجهة الثانية مناظر الحقول الجميلة التي استمتع بها ، ثم سارت العربة في ظل اشجار ضخمة متناثرة تمتد حتى القرية ، وظهرت له قبة الكنيسة واكواخ الفلاحين وسقوف القصر الحمراء ، فخفق قلب تنتيتنيكوف بشدة ...
لقد وصل الشاب الى بيته وتجمعت كل احاسيسه في هذه الصيحة : « ألم أكن أحمق ؟! لقد جعلني الحظ مالكاً لهذه الفردوس بينما اردت ان أدفن نفسي وأنا اكتب على الاوراق الميتة . لقد تثقفت وقرأت الكثير ، وتأملت ودرست وسائل بذر الخير في السكان وتحسين حالة قارة باسرها . وتعلمت كيف أعرف واجبات الملاك الذي يجب ان يكون قاضياً ومنظماً ، فعهدت بهذه المسؤولية الى وكيل احمق ... وفضلت على هذه المسؤوليات العميقة والادارة الفعلية هذا العمل المضحك ، هذا العمل الذي يجعلني ادير املاكا لا أعرفها ، متعرضاً لاكبر الحماقات والاخطار .

كان موقف غير منتظر قد تهيأ عند وصوله . فقد علم الفلاحون بمجيء سيدهم . فاجتمعوا في باحة القصر الواسعة ، وقد ارتدت الفلاحات منهن قبعات مزخرفة على رؤوسهن ، بينما اطلق الفلاحون لحاهم ، وهتف الجميع : « ايها الاب المغذي . . انت لم تنسنا ! » ان الشيوخ والعجائز كانوا متأثرين جداً بذكرى الاب والجد وجد الاب .

وتأثر تنتيتنيكوف ولم يستطع ان يحبس دموعه فقال في نفسه : « ولم هذا الحب ؟ اني لم ارهم مطلقاً ولم اهتم بهم » واقسم بينه وبين نفسه على ان يشاركهم عملهم وقد استلم بالفعل مهمة عمله كملاك .

طرد تنتيتنيكوف وكيله وانقص ساعات العمل الاجباري واشرف على الاعمال بنفسه وظهر في كل مكان : في الحقول وفي الطواحين وحتى في المرفأ ليشرف على شحن المراكب وتفريغها بنفسه ، بينما اخذ الفلاحون الكسولون يحكون ذقونهم ويبدأون العمل . الا ان هذا لم يدم طويلاً ، فالفلاح خبيث ،

وقد فهم بسرعة ان السيد يريد العمل ولكنه لايعرف كيف يقود هـذا العمل الى صالحه . فهو يتكلم ويشرح ولكن تعوزه الدقة والتعابير الواضحة النهائية. ونحن نبالغ اذا قلنا بأن العبيد لم يتفاهموا مع سيدهم ، ولكنهم لم ينسجموا معه فظلت وحدتهم ينقصها التناسب المطلوب .

لاحظ اندريه ايفانوفتش بسرعة ان اراضيه لاتنتج مافيه الكفاية ، في حين ان اراضي الفلاحين بدأت تعطي محصولا طيباً . لقد كانوا يبذرون اراضيه قبل اراضيهم ، ولكن القمح كان ينمو متأخراً ، ومع ذلك فقد بدا ان الفلاحين يشتغلون بحماس ، حتى انه يقدم الفودكا لهم مكافأة على حماسهم هذا . اما الشعير والشوفان فقد كانا ينموان ايضاً في اراضي الفلاحين بينما لايكاد القمح نفسه يظهر في اراضي السيد . ان الفلاحين يخدعون سيدهم بالرغم من جميع مامنحهم من امتيازات . ولذا فقد جمعهم مرة وانبهم على هذا المحصول فقالوا :

ـ ولكنك رأيت بنفسك عملنا ، وقدمت لنا الخمرة مكافأة لنا !

ولكن بماذا يستطيع تنتيتنيكوف ان يجيب ؟

ـ واذاً ، فلماذا هذه المحاصيل الضعيفة ؟

ـ من يدري ؟ ربما كان الدود يخرب الجذور ! والصيف رديء للغاية ، فقد هطل فيه المطر بكثرة .

ومع ذلك فان الديدان لم تضرب بالفلاحين وكذلك الامطار ، فهو قد حسنب المحاصيل عندهم بعكس ماجرى في أراضي السيد . وكذلك وجـد تنتيتنيكوف صعوبة بالغة في التفاهم مع الفلاحات ، فقد كن لاينين عن طلب الاعفاء من العمل الاجباري ... انه لأمر غريب ... ان اندريه ايفانوفتش قد ألغى الضرائب عن القماش والجوز وانقص نضف الأعمال الاخرى ،مؤملا ان تفيد النساء من أوقـات فراغهن ، للاهتمام بمنازلهن والسهر على غذاء وكساء أزواجهن وأولادهن ، اوليعتنين بحقولهن ، الا ان شيئاً من هذا لم يحدث إذ انهن ينصرفن في اوقات الفراغ الى السكر والعربدة والمخاصمات . واما الأزواج

فقد كانوا يشتكون الى تنتيتنيكوف : « لم تعد هناك وسيلة تمكنني من الحياة مع زوجتي الجهنمية !»

عند ذلك أراد أن يقسو ... ولكن كيف ؟ كانت الفلاحات يصرخن آخذات بالانين ، فهن مريضـات يعانين افظع الآلام ، فيهتف تنتيتنيكوف المسكين : « إذهبي ... إذهبي سريعـــاً ... وليحرسك الله » وتذهب المريضة لتختصم مع جارة لها ، وتكسر لها أضلاعها بقبضة يدهـا ، الامر الذي لايقوى عليه الرجال .

برد حماس الملاك فأخذ يراقب الاعمال ولكن دون مبالاة . ولم يعـد يعير اهتماماً لحركة المنجل الرتيبـــة وأكداس المحصول والطواحين الكبيرة . كان ينظر الى الاشياء البعيـــدة ثم الى القريبة . ويتأمل في منعطف للنهر ويتابع بأنظاره طائراً صياداً ، التقط سمكة وامسك بها في منقاره . ثم يرفع رأسه الى السماء ويدمدم لحنا موسيقياً ويتمتع بأغاريد الطيور التي كانت تمتزج مع بعضها أحياناً في جوقة كبيرة .

وكان طائر حجل يلعب داخل الشعير ، وطيور اخرى تئن اوتغني داخل الاعشاب وتختفي اصواتها في الاعالي « فيهتز في الفضاء المديد بآلاف الضجات ... أيها الخالق المعبود ، ما اجمل عالمك في القرى بعيداً عن صغائر الطرق الكبرى والمدن

ولكن تنتيتنيكوف مل سريعاً هـذا المشهد المتكرر الرتيب ، فانقطع عن الذهاب الى الحقول واعتكف في القصر رافضاً مقابلة و كيله . وكان الجيران يأتون لزيارته ، ومن بينهم ملازم مشاة سابق يدخن باسراف ، حتى ان جسده يكاد ينفث التبغ والدخان . كما كان يزوره طالب يحمل افكارا ثورية متطرفة لم يستطع ان يتابع دراسته ، فعكف على إتمام ثقافته بمطالعة المقالات في النشرات والمجلات وقد مل اندريه ايفانوفتش منها سريعاً وبدت له احاديثها سطحية ، وانطلاقها ذا طابع اوروبي ، وكانت ضرباتها الودية على الركاب تبدو له منطلقة اكثر مما ينبغي . فقرر قطع علاقته بها ونفذ ذلك بجفاء وقسوة . ففي ذات يوم

جاءه الملازم الذي يمثل طبقة من العسكريين لم يعــد لها وجود الآن ، مع فارفار نيكولا فتش فيشنبو كروموف صاحب الافكار الجديدة الذي اتى يتحدث عن الفلسفة والسياسة والادب والاخلاق والحالة الماليـة في انكلترا . فأرسل لهما تنتيتنيكوف من يخبرهما انه غير موجود في المنزل ، ولكنه ظهر في نفس الوقت على النافذة ، والتقت نظراته بنظرات العسكري فتمتم هـــذا : « ايها الحيوان القذر ! » بينما هتف الطالب مشمئزاً : « ايها الخنزير ! » وهكذا انتهت علاقة تنتيتنيكوف مع صديقيه عقيب هذا الحادث . ولم يعد يأتي احد ليزعج اندريه ايفانوفتش . فسر هذا وقرر ان يؤلف كتابا كبيرا يتحدث فيه عن الروسيا . وقد عرف القارىء كيفية تنفيذ هذا القرار . كانت حياته تسير هادئة الا ماندر ، حيث يحدث ان ينزعج قليلا عندما تأتيه المجلات او الصحف ، فيقرأ فيها اسم صديق قديم حاز على رتبة كبيرة ، او قدم خدمة جليلة للابحاث العلمية في عصره . عند ذلك كانت كآبة عميقة تعصر قلبه ويستولي عليه خجل ابكم ، وهو يفكر في حياته الكسولة غير المجدية ، فيذكر الماضي ويتذكر الكسندر بتروفتش ... وينشج باكياً .

ترى ماذا تعني تلك الدموع ؟ أكانت نفس تنتيتنيكوف المريضة تكشف له سر مرضه وتقول له لماذا لم يستيقظ قلبه للحياة ؟ أم ان أندريه ايفانوفتش كان يعلم انه لم يتعلم منذ طفولته كيف يعارك الحياة وينتصر ؛ فلم يستطع لذلك ان يتوصل الى المستوى الذي يسمح له بالاستمرار في متابعة الجهـد ؟ ثم هل هو يعلم ان معدن احساسه الثمين لم يسق كما يجب؟ أم انه يفهم ان معلمه توفي مبكرا ولم يعد هناك ثمة انسان يستطيع ان يحفز قواه التي اضعفها الترددالدائم وأن يمنح ارادته الضعيفة شيئاً من القوة بهذه الكلمةالساحرة: «الى الامام »تلك الكلمة التي يحترمها الروسيون مهما اختلفت طبقاتهم ومهنهم ؟

اين هو الانسان الذي يعرف كيف يقول لروحيتنا الروسية الكبيرة تلك الكلمة القوية الحاسمة: « الى الامام! » واين هو الانسان الذي يعرف الامكانيات

العميقة في الطبيعة الروسية فيقودها بهذه الصيحة نحو حياة امثل ؟ واية دموع بل اي حب يغنى به الروسي لمكافأته ؟ ولكن ها هي ذي القرون تلي القرون والكسل المخجل مستمر والشعب الروسي ما يزال طفلا في حين ان الله لايرسل الانسان الذي يستطيع ان يتفوه بهذه الكلمة القوية .

وظهرت مناسبة كادت ان توقظ تنتيتنيكوف وتقلب مزاجه ... كان هذا الظرف شبه حب ... دون نتيجة :

هناك على بعد عشرة « فرستات » من القصر ، كان يعيش جنرال ينتقدونه دوماً تنتيتنيكوف عندما يتكلم عنه . وهذا الجنرال كسائر القواد المتقاعدين يحب ان يشاطر الناس الخبز والملح ، ولذا فهو يتلقى الكثير من الزيارات دون ان يزور احداً ، وكانت له ابنة حية كالحياة نفسها ، قل ان تجد من يماثلها .

وهذه الابنة كانت تدعى « اولينيكا » ، وقد تلقت تربية غريبة من قبل مربية انكليزية لاتعرف كلمة روسية واحدة . وعندما ماتت أم اولينيكا كانت هذه لما تزل طفلة ، ولم يكن لدى الجنرال ثمة وقت للاعتناء بها ، ولكنه مع ذلك يحبها كثيراً ولايني عن تدليلها . وكانت هذه الفتاة كبقية الاطفال الذين تلقوا تربية حرة ، كثيرة الاعتداد برأيها وشخصيتها . واذا ماشاهد المرء وجهها الجميل وقد عرته الكآبة فجأة ، او رآها تنفجر غضباً وتناقش أباها دون أن تضعف ، اذا شاهدها الانسان على هذه الحال ، سيقول بلاريب ، بأنها فتاة غريبة ولكنها لم تكن لتغضب إلا إزاء عمل ظالم . إلا ان اولينيكا لاتناقش عندما يتعلق الامر بها ، كما انها لا تسعى لتبرير أعمالها ، ولاتريد البتة ان تشقي الانسان المسكين الذي يقوده نكد الطالع لأن يتعرض لغضبها . فاذا ما طلب اليها احد ان تحسن اليه فانها تعطيه جميع ما تحمل من النقود ، وكانت الى جانب ذلك تظهر في كل شيء حماسا وحمية . وهي عندما تتكلم ، كانت نفسها تتابع سير افكارها وتبدو واضحة فيها . اما تعبير وجهها ، ونبرة صوتها ، بل حتى طيات ثوبها ، كانت ترتفع مع صوتها ، فهي لا تعرف المواربة ولا

تخشى إنسانا عندما تعرض افكارها . ولم يكن في مقدور انسان ان يوقفها عن الحديث عندما تريد ان تتكلم . وكانت مشيتها الغريبة الفاتنة فريدة من نوعها ، إذ أنه فيها شيء من الانطلاق والحرارة حتى ان الانسان ليجد نفسه مرغماً على افساح الطريق لها . وكان الرجل الشرير يرتبك ويصمت امام أولينيكا . اما الرجل الذرب الثرثار الجريء ، فانه يفتش عن كلمات للحديث ويظل صامتاً مرتبكا في حين ان الخجول يجد نفسه يتكلم براحة وانطلاق معها . ذلك ان اولينيكا لا تبدو أمامه غريبة ويخيل اليه أنه يعرف قسماتها وانه رآها قبل ذلك ، واعجب بها منذ وقت لا يذكره في طفولته . وهكذا فهو يقضي وقتاً طويلاً بعد مقابلته لأولينيكا يبدو له فيه الحديث مع الرجال الناضجين والشيوخ امراً مملاً محزناً .

وهذا ما حدث لتنتينيكوف ، فقد اكتسحه شعور لم يعرف له كنهاً ملك عليه جميع مشاعره وطغى على شخصيته بجملتها ، فبدت له حياته الشاحبة المتقلبة تضيء فجأة . وقد تلقى الجنرال باديء الامر أندريه ايفانوفتش ببرود صريح ، ولكن الرجلين لم يستطيعا التفهم إذ كانت أحاديثهما تنتهي دوماً بالخصام . ولم يكن الجنرال يطيق المعارضة بينما كان صاحبنا كثير الظنون . وبالطبع فقد غفر أندريه ايفانوفتش الكثير للجنرال من اجل اولينيكا ، واستمرت علاقاتهما حتى مجيء قريبتين للجنرال هما : الكونتس بورديريفا والاميرة بوزالين ، وكانتا وصيفتين في البلاط السابق ولهما علاقات كثيرة في بطرسبرج ، فاستقبلهما الجنرال بحرارة .

ومنذ وصول هاتين السيدتين شعر تنتينيكوف ببرود في موقف الجنرال تجاهه . فقد كان يتجاهله ويناديه بأسلوب مشبع بالازدراء : « ايها العزيز جداً » او « اسمع » او « يا أخي الصغير » ، وبدأ آخر الامر يخاطبه بالضمير المفرد . فانفجر اندريه ايفانوفتش اخيراً وصر باسنانه وهو لا يكاد يتمالك نفسه ، واستطاع ان يقول بصوت هاديء مهذب رغم ان وجهه قد اصطبغ بحمرة الغضب : « اني لأشكرك ايها الجنرال على طيبتك . ان مخاطبتك لي بالضمير المفرد ، إنما هو يلا

ريب دعوة الى صداقة امتن ، ولكن الفرق في السن يمنع رفع الكلفة هكذا !»
فارتبك الجنرال وحاول ان يجمع شتات افكاره وليعبر عنها باحسن مايستطيع ، وصرح انه لم يستعمل هذا الضمير المفرد لقصد سيء ، ثم اضاف بان الشيخ يستطيع ان يخاطب شاباً على هذه الصورة ، وقد حرص الجنرال كثيراً على عدم ذكر قضية الطبقة .

وهكذا انقطعت زيارة الجارين وتلاشى حب تنتيتنيكوف لاولينكا منذ بدايته وانطفأ النور الذي بدأ يضيء حياة اندريه ايفانوفتش ، فعاد الى الظلمات التي اخذت تشتد حلكتها عليه . كما عاد الى الكسل والنوم ، وقد عمت القذارة قصره من جميع الانحاء . فظلت المكانس اياماً كاملة داخل الغرف مع القاذورات ، واهملت السراويل فوق مقاعد ردهات الاستقبال ، واما القمصان المليئة بالغبار فقد كانت تظل اسابيع طويلة فوق المناضد الفخمة . وهكذا مضت حياة تنتيتنيكوف فارغة دون معنى ، ولم يعد يحترمه الخدم ، وحتى في قن الدجاج نفسه فقد اخذت الدجاجات تقرع حذاءه بمناقيرها . واصبح اندريه ايفانوفتش يقضي كثيراً من الوقت في رسم منازل صغيرة واسواراً واكواخاً وعربات . وكان عندما ينسى نفسه في بعض الاحيان ، تمضي يده بشكل لاشعوري في رسم رأس ذي تقاطيع دقيقة رقيقة ، ونظرة نافذة عميقة ، وشعر جميل مرفوع فوق العنق . وبهذا يرى اندريه ايفانوفتش مذهولاً صورة تلك التي لا يستطيع امهر الرسامين ان يجيد رسمها اكثر منه . عند ذلك تعتور الاحزان الشيخ من كل جانب ويأخذ بالاقتناع بان السعادة على الارض ليست إلا وهماً .

هكذا كان يعيش اندريه ايفانوفتش تنتيتنيكوف .

وفي ذات يوم وقف امام النافذة كعادته وفي نفس الساعة المعهودة ، فدهش اذ لم يسمع صوت غريغوري او برفيليفنا . كانت ثمة حركة تخيم على الباحة . بينما كانت الغسالة والطباخ الصغير يركضان ليفتحا الباب الكبير . وظهرت خلف

الباب جياد كالتي ترسم فوق اقواس النصر . وعلى كرسي هـــذه العربة يجلس حوذي وخادم يرتدي معطفاً عريضاً ، وقد ربط وسطه بمنديل كبير . وهناك اخيراً المسافر وكان يرتدي عمرة ومعطفاً من الفرو ، بينما غطى عنقه بشال من الصوف . وعندما وقفت العربة لاحظ تنتيتنيكوف انها عادية بسيطة . وقفز منها المسافر برشاقة رجل عسكري ، وكان ذا مظهر قوي انيق .

ودب الخوف في شرايين أندريه ايفانوفتش ، ذلك انه حسب أن القـــادم موظف حكومي . ويجب ان نقول هنا إنه اشترك اثناء مراهقته في عمـل غير شرعي . فقد فكر اثنان من الضباط المشاة والفلاسفة الذين قرأوا بعض النشرات مع فنان مقامر ظهيره الافلاس دوماً ، بتأسيس جمعية خيرية برئاسة مقامر آخر ماسوني وغد . وكان هدف هذه الجمعية عظيما ، وهو إسعاد الانسانية من ضفاف التاميز حتى اقصى « الكامشتكا » . والمبلغ اللازم لهذا الامر كبير جداً ، لذلك ساهم الاعضاء وبعض الكرماء باشتراكات كبيرة . اما كيف انفقت هـــذه الآلاف من الروبلات ، فأمر لايعرفه غير الرئيس الماسوني وحـده . وانضم تنتيتنيكوف لهذه الجمعية بواسطه صديقيه الطيبين الذين اصبحا ، بعد ان اعتادا على الشرب في صحة العلم ، من السكيرين المدمنين .

وسرعان ماانسحب أندريه ايفانوفتش من هذه الجمعية ، بينما انغمست تلك بعد ذلك في الاعمال المشبوهة ، التي جعلت البوليس يلاحقها . ولم يغفر تنتيتنكوف لنفسه هذا الخطأ وخاف كثيراً من عقابيله ، حتى في المستقبل البعيد ، ولهـــذا السبب شعر بالخوف الذي وصفناه عندما فتح الباب في قصره . ولكن خوفه تلاشى عندما حياه الزائر بأدب جم وانحنى له قليلًا الى جهـة اليـار . ثم اوضح الغريب بتعابير مقتضبة دقيقة انه مضى عليـه زمن طويل وهو مسافر في انحاء الروسيا لقضاء حاجات شخصية ولتثقيف نفسه . وقد قال ان الامبراطورية الروسية تملك كنوزاً لاتحصى وخاصة في مناطقها الزراعية والصناعيـة ، وانه حين اقترب من القصر اعجب بجلال مظهره وجمال منطقته ، ولم يكن ليريدان

يزعج المالك السعيد لولا سوء الطالع الذي شاء ان تصاب عربته بعطل طارىء ، جعل من الواجب اصلاحها . ولذلك لم يشأ ان يحرم نفسه شرف تقديم احترامه لسيد القصر .

وبعد ان انهى الزائر عبارته الطويلة تلك ، ضم قدميه الى بعضهما محدثاً صوتاً عالياً بحذائه . ورغم بدانته الظاهرة ، فقد تراجع الى الخلف قافزاً بخفة كخفة كرة المطاط الصغيرة .

اطمئن تنتيتنيكوف قليلاً ، وظن ان ضيفه عالم يسافر في انحاء الروسيا لجمع النباتات او المعادن النادرة . فرد عليه بانه يضع نفسه تحت تصرف زائره ، كما وعد باستقدام عمال وحدادين لاصلاح العربة ، وطلب منه ان يعتبر نفسه في داره ، ورجاه ان يجلس على احد المقاعد الكبيرة من طراز فولتير .

وأعد أندريه ايفانوفتش نفسه لسماع زائره يتحدث عن العلوم الطبيعية . الا ان هذا لم يطرق الا المواضيع الفلسفية . فشبه حياته بمركب تتقاذفه الامواج وتدفعه الرياح الطائشة ، كما اوضح انه كان يشغل سابقاً وظيفة عالية ، وانه عانى في سبيل الحقيقة كثيراً ، وعرض حياته للاخطار . وكان هذا الغريب يبدو في جميع احاديثه رجلاً عملياً ، وبعد ماانتهى من الكلام ، تمخط في منديله محدثاً صوتاً لم يسمع بمثله تنتيتنيكوف ابداً . كان يخيل للانسان انه يسمع صوت بوق يدوي في ارجاء القصر النائم . ثم انتشرت رائحة الكولونيا اللطيفة ، واعيد المنديل المسكين بعد ذلك الى مكانه .

لاريب في ان القاريء قد عرف في هذا الشخص صديقنا بافل ايفانوفتش تشتشيكوف الذي تركناه منذ أمد طويل . وكان قد هرم قليلا من أثر الحياة المضطربة التي عاناها منذ تركناه ، فقدبدا أن معطفه وعربته والحوذي والخادم والخيل ، لقد بدا جميع هؤلاء أنهم عانوا ايضاً وتعبوا كثيراً ، وهكذا الامر بالنسبة لحالة سيدهم المالية ، الا ان تعبير وجهه وأدبه واسلوبه في الحديث لم يتغير منها شيء .

ظهر تشتشيكوف اكثر لطفا ومهارة في تحريك قدميـــه عند الجلوس ، وكذلك بدا أكثر تمالكا لزمام نفسه . وكانت ياقته وأكمامه في مثل بياض الثلج ، ولا تحمل ملابسه أي أثر من آثار من الغبار . وكان حذاه نظيفين وذقنه حديثة عهد بالحلاقة ، حـــتى ان الاعمـى وحده فقط بمقـــدوره أن يتجنب فتنتهـا .

وتغير في الحال كل ما في القصر . ففتحت ابواب نصف الشقق المغلقة للنور والحياة ، وأثثت الغرف ونظفت وانتظمت فيها الاشياء ، فغرفـة النوم تحوي على كل ما يلزمها وكذلك غرفـة العمل ففيها ثلاث مناضـد الاولى في جانب المقعد الطويل وهي بمثابة مكتب للعمل والثانية للعب وقد وضعت بين نافذتين تحت مرآة كبيرة اما الثالثة فقد وضعت بين بابين يؤدي أولهما الى غرفة للنوم بينما يؤدي الثاني الى غرفة تصلح كبهو لم تطأ أرضها قدما انسان منـذ اكثر من سنة . وقد وضع على الطاولة الاخـيرة سروال يتناسب مع معطف الفرو وسروال جديد وثالث رمادي وصدريتان من المخمل وأخريتان من الحرير يتوج كل ذلك معطف فضفاض . كانت هذه الملابس تؤلف هرماً صغيراً مغطى بمنديل حريري كبير . اما الاحذية الجديدة والمهترئة فقد وضعت في زاوية بين الباب والنافذة وكانت مغطاة بحرص بمنديل حريري كبير يخفيها عـن الانظار وأما الاشياء التالية فقـــد رصفت بترتيب على طاولة المكتب : لوازم سفر ، زجاجة من الكولونيا ، مفكرة ، كتابان كل منهما هو الجزء الثاني من قصة. وملئت الخزانة بالملابس الداخلية النظيفة وأما الملابس القذرة فقد كانت ملفوفة في رزمة وضعت تحت السرير بجانب الحقيبة الفارغة .وكان السيف الذي لا يفارق تشتشيكوف والذي يخيف به قطاع الطريق معلقاً بواسطة مسمار فوق السرير. ان النظام والنظافة يسيطران على الغرفة بشكل غير عادي ، فلم يكن هناك ذرة غبار او نقطة ورق أو أثر للاقذار. وبدا كأن جو الغرفة نفسه قد نقي وانتشرت

فيه رائحة طيبة تصدر عن رجل سليم يغير ملابسه على الاغلب ويغتسل ويصب فوق جسده الكولونيا ايام الآحاد . وكاد بتروشكا ان يحمل الى الغرفة رائحته الكريهة ولكنه وضع في المطبخ كما ينبغي له . وقد خاف اندريه ايفانوفتش في الايام الاولى من ان يزعجه ضيفه ، اذ خشي ان يضطره الغريب على تغيير سير حياته الهادئة .

ولكن خوفه كان في غير محله فقد أظهر صاحبنا بافل ايفانوفتش مرونة مدهشة واستعداداً للتكيف لا مثيل له ، فأثنى على تنتيتنيكوف لبطئه الذي سيسمح له بالعيش مائة عام ، كما امتدح عزلة السيد التي تسمح له بتوسيع افكاره العظيمة » . وعندما شاهد بافل ايفانوفتش الكتب في خزائنها ، صرح بانها تقي الانسان من أخطار البطالة ، وكان تشتشيكوف في كل ذلك قليل الكلام الا أن كلماته لاتخطيء الهدف وكان يصل في الموعد الصحيح ويذهب بشكل لايعكر فيه تأملات تنتيتنيكوف ، ويلعب معه الشطرنج عن طيبة خاطر ويعرف كيف يصمت اثناء اللعب وبينما كان احد الصديقين ينفث الدخان في حلقات حلزونية كان الصديق الآخر الذي لايدخن يمسك بعلبة سعوطه الفضية ويحركها بسرعة بشكل يشبه دوران الارض حول محورها ، او انه ينقر عليها بأصابعه ويصفر .

قال تنتيتنيكوف في نفسه : « تلك هي المرة الاولى التي اصادف فيها رجلاً تمكن الحياة معه ... وهذا فن لايتقنه الروس . ان في الروسيا رجالاً اذكياء مثقفين وطيبين ، الا ان الرجال ذوي المزاج الهادىء الذي تمكن الحياة معهم طيلة قرن كامل دون صخب او ضجيج ؛ فاني لا اعرف منهم واحداً في بلادي . ان ضيفي هذا هو اول شخص اصادفه من هذا النوع ! » .

وكان تشتشيكوف من جهته ايضاً مسروراً من العيش مع رجل هادىء بسيط . إذ ان الحياة الغجرية قد انهكته ، ولذلك كان مسروراً براحته في هذه القرية الجميلة وسط تلك الحقول في هذه الاسابيع الاولى من الربيع . وكانت

هذه الراحة ضرورية له بسبب الآلام التي كان يعانيها .

وفي الواقع كان يصعب ايجاد مكان احسن من هذا للاستراحة . فالربيع الذي اعاقه البرد يعود الى النشاط فتنمو الحياة في جميع الانحاء وكان تشتشيكوف يتأمل في الغابات المائلة الى الزرقةوالازهار الصفراءقرب الاعشاب المخضرة ، والورود الحمراء المطرقة برأسها اللطيف ، وظهرت جميع انواع الحشرات في المستنقعات وخرجت العناكب تطلب لها صيداً . بينما هرعت الطيور في كتائب منتظمة واستيقظت الارض باجمعها ، فقطعب الغابات حبل صمت الشتاء .

اما في القرى فقد كان الناس يرقصون وينظمون الرحلات . وكانت انواع الخضرة ورطوبة الهواء تدعو الرجال الى رحلات طويلة . فالطبيعة كلها تغني وكأنها في عرس إلهي .

مضى تشتشيكوف في كل مكان ، صعد المرتفعات ، وتنزه في القمم طويلًا وتأمل في السهول التي كانت تمتد في البعيد حيث كونت الامطار والفيضانات بحيرات صغيرة عديدة ، وحيث تكون الغابات جزراً صغيرة . دخل بافل ايفانوفتش في هذه الغابات فشاهد الاشجار مايئة باعشاش العصافير والغربان تطير في جماعات كبيرة فتحيل لون السماء اسود كالحاً . ومضى تشتشيكوف نحو المرفأ حيث تذهب المراكب مليئة بالشعير ، وسمع في طريقه هدير المياه وهي تدير الطواحين . وشاهد اعمال الفلاحين الاولى في الربيع ، ولاحظ المناطق السوداء التي ترتسم وسط الاراضي الخضراء ، وامعن النظر في الزارع يرمي الحب من قبعته بحرص لا يسمح لحبة واحدة بالضياع .

وتعرف تشتشيكوف على كل شيء ، فقد رأى الوكيل وتحدث مع الفلاح وزار الطحان واستعلم عن جميع تفاصيل اعمال تنتيتنيكوف . كما عرف ثمن القمح الذي يبيعه وكذلك عرف اسعار الدقيق في الخريف وفي الربيع . واستفهم عن جميع اسماء الفلاحين واسماء اقاربهم وسأل من اين يشتري كل منهم

بقرته وكيف يغذي خنازيره كما أعلموه بنسبة الوفيات بينهم وهي نسبة ضعيفة لسوء الحظ .

وقد فهم تشتشيكوف ايضاً بسرعة ان هذه الملكية الغنية مهملة تماماً ، اذ ان الفلاح يسرق ويسكر وقليلا ما يشتغل .

فكر بافل ايفانوفتش : « يا لتنتيتنيكوف من أبله غبي ، ان له أملاكاً بمثل هذا الغنى ويهملها .. انه يستطيع ان يحصل على مورد سنوي يجاوز الخمسين الف روبل ... وكانت تساوره رغبة ملحة اثناء تجواله في ان يصبح ملاكا بعدما ينهي اعماله بنجاح . وبطبيعة الحال فانه يفكر اذ ذاك بزوجة جميلة حسنة التربية تعرف الموسيقى وبأولاد يخلدون اسمه : غلام نشيط صغير وابنة جميلة ، او غلامان وثلاث بنات !

وهكذا يكون تشتشيكوف قد عاش واصبح مستشار دولة او ارتفع الى طبقة اعلى من هذه الطبقة . ولكن اي رجل لا يحلم بمثل هذا عندما يمشي طويلًا ؟ ان احزان الحاضر لتتلاشى إذ ذاك ويحمله الخيال بعيداً فيثيره ويهزه وهو سعيد ، حتى ولو شعر بان هذه الاحلام المجنونة لن تتحقق ابداً .

هذا وقد اعجب الريف بطبيعته البسيطة ، حوذي تشتشيكوف وخادمه ، وسرعان ما اعتادا عليها . وحالاً اتفق بتروشكا مع غريغوري رغم انهما كادا يتقاتلان في بادىء الامر .

انهال بتروشكا على اذن غريغوري باسماء جميع المدن الروسية التي مر بها وشاهدها . ولكن غريغوري اخرسه حين حدثه عن بطرسبرج ، فلم يكن بتروشكا يعرف العاصمة . واراد ان يتحدث عن المناطق البعيدة التي لا يصل اليها الانسان الا نادراً ، ولكن غريغوري اسكته من جديد بذكر اسم كان من المستحيل ايجاده على اية خريطة ، وقد حدد للمدينة التي تحمل هذا الاسم موقعاً على مبعدة ثلاثين الف (فرست) من القرية . فخفض خادم تشتشيكوف رأسه بذل وظل فاغر الفم مما اضحك جميع خدم تنتيتنيكوف . ورغم ذلك

فقد اصبح غريغوزي وبتروشكا من اعز الاصدقاء ، ولا يكادان يفترقان تقريباً في حانة العم بيمين ، وهو رجل اصلع يسميه جميع الفلاحين : كولكا .

اما سليفان فقد كان مأخوذاً بتسليات اخرى ، اذ ان الفلاحين كانوا يغنون عند الغسق في القرية وتتألف منهم حلقات . فكان يراقب طويلا رقص الفتيات الجميلات ذوات الاجسام المرنة القوية . وقد عسر عليه كثيراً تحديد اجملهن فقد كن جميعاً بيضاوات الاعناق زرق العيون لهن مشية رشيقة وشعور متدلية حتى اواسطهن . وكان سليفان يدخل في الحلقات ويمسك بايدي جاراته البيضاوات ، ويتقدم بينهن ببطء او يتركهن برهة قصيرة ليدخل في حلقة الشباب . وعند ذلك تتجه العذارى الجميلات نحو الشباب وهن يغنين ضاحكات : « هيا ايها الشجعان .. دلونا على الحبيب المنشود » وتغيب الشمس وراء الافق البعيد ، وتتردد اصداء الغناء في كل مكان ، وسليفان مأخوذ لايدري ماذا يدور في نفسه ، فيخيل اليه في الصباح وفي المساء ، انه يمسك الايدي البيض ويرقص داخل الحلقات .

وكذلك الامر بالنسبة لجياد تشتشيكوف ، فقد كانت مسرورة في اقامتها اذ عندها كل ماتشتهي : شوفان ممتاز واصطبلات مريحة تفصل بينها حواجز متشابكة يستطيع بها الجواد ان يرى ما اذا كان جيرانه يصهلون ليردد معهم معزوفة الصهيل .

اما بالنسبة للنفوس الميتة التي كانت هدفاً لبافل ايفانوفتش ، فقد اصبح حذراً جداً فيها حتى مع اغبى انسان . كان تنتيتنيكوف يهمل املاكه بلاريب ولكنه مغرم بالقراءة الفلسفية ويسعى لاكتشاف علل الاشياء . ولذا فقد قرر تشتشيكوف ان يطرق الموضوع بشكل غير مباشر .

علم بافل ايفانوفيش من الخدم ان السيد كان يذهب غالباً لزيارة جار له برتبة جنرال ، وان لهذا الجنرال ابنة بينها وبين السيد ... والخلاصة ان الوالد تخاصم مع السيد ولم يعودا يتقابلان .

وفي واقع الامر ان تشتشيكوف لاحظ اندرية ايفانوفتش يرسم دائماً رؤوساً نسائية جميلة .

وذات مساء ، وبينما كان تشيشتشيكوف يدير علبة سعوطه بين يديه ، قال لتنتيتنيكوف على حين غرة :

– اندريه ايفانوفتش .. انك تملك كل شيء عدا ... شيء واحد !

فسأله تنتيتنيكوف وهو يتابع الدخان المتصاعد من غليونه بانظاره :

– وهذا الشيء؟ ...

– رفيقة للحياة !

فلم يجب بشيء وانتهى الحديث عند هذا الحد .

ولكن تشتشيكوف ما كان ليبأس . ففي يوم آخر وبينما كانا يتجاذبان أطراف الحديث قبل العشاء قال له فجأة :

– يجب ان تتزوج يااندريه ايفانوفتش.

ولكن الصمت كان تاماً حتى انه ليمكن القول بان هذا الموضوع يحزن تنتيتيتنيكوف . ولم يرتبك بافل ايفانوفتش فاعادة الكرة للمرة الثالثة بعد العشاء :

– عندما أفكر في حياتك تزداد ثقتي في ان الزواج أمر ضروري لك ، والانحذار من السوداوية .

كانت لهجة تشتشيكوف هنا اكثر اقناعاً على مايظهر ،او ان تنتيتنيكوف قد سمح له بالتدخل في هذا الموضوع . ذلك انه تنهد وقال بعد ان ارسل سحابة دخان من غليونه :

– بلى يا بافل ايفانوفتش ! يجب ان يكون الانسان سعيداً من اجل هذه الاشياء .

ثم قص عليه قصة علاقته بالجنرال ، وقد انذهل تشتشيكوف عندما علم ان المخاطبة بالضمير المفرد كانت السبب الوحيد في القطيعة . فأخذ ينظر الى

تنتيتنيكوف متسائلاً عما اذا كان مجنوناً او حيوانا . وهتف آخر الأمر وهو يمسك بيدي صديقه :

ـ . قل لي يا اندريه ايفانوفتش ، ارجوك ، ماذا في الضمير المفرد من مهانة ؟

ـ . ليس فيه شيء من المهانة بحد ذاته . ولكن الاهانة كانت في اللهجة المستعملة فكلمة « انت » بالمفرد تعني بل تذكر بانك لست شيئاً وانا استقبلك فقط لاني لا أعرف آخر غيرك ، وهذه الاميرة يوزالين قد وصلت فاعرف كيف تلزم حدك .

ان اندريه ايفانوفتش الهادىء دوماً قد عبس بحاجبيه الآن ؛ وومضت عيناه وارتعش صوته أثناء الحديث .

ـ . وحتى لو كنت مصيباً في زعمك ، فما يضيرك هذا ؟

ـ . كيف ؟

ـ أ أذهب اليه بعد اهانة كهذه ؟

ـ . اهانة ؟ ولكنها ليست بذلك

فهتف تنتيتينكوف :

ـ كيف .. أوليست إهانة ؟

ـ انها عادة الجنرالات فهم يخاطبون الجميع بالضمير المفرد ، ثم لماذا لا نسمح بذلك لرجل محترم خدم وطنه ؟

ـ ان هذا امر يختلف عما نحن فيه . انه لو كان شيخاً فقيراً بسيطاً متواضعاً متواضعاً ، أي لو لم يكن جنرالاً لسمحت له بذلك ولظلت علاقاتنا كما كانت .

وقال تشتشيكوف في نفسه : « يا له من غبي ، انه يسمح لشحاذ ان يخاطبه دون كلفة ويمنع جنرالا عن ذلك » . ثم قال بصوت مرتفع .

ـ حسناً ، لنفترض انه اهانك ولكنك رددت له الاهانة وانتهى الامر . اما ان تتخاصما ... وان تنقطعا عن الزيارة ... فهذا لا ! واذا كان للانسان

هدف فيجب ان يتابعه مهما كلفه الامر . أتترك كل شيء وتتخلى عن هدفك لان رجلًا قد بصق . ان انسانيتنا تبصق دائماً ، ولعلها خلقت لاجل هذا العمل فحسب . ثم انك لن تجد انساناً واحداً في عصرنا هذا لا يبصق . وفكر تنتيتنيكوف وقد اخافته هذه المحاكمة : « أي رجل غريب هذا الرجل ؟ » اما بافل ايفانوفتش فقد قال من جهته : « كم هو شاذ هذا المخلوق ! » ، ثم قال :

ـ اني اخاطبك كأخ لك يا أندريه ايفانوفتش وانت غير مجرب . افتريد ان احل الك هذه القضية ؟ سأذهب الى الجنرال واوضح له سوءالتفاهم الناتج عن شبابك وجهلك بالناس .

فهتف تنتيتنيكوف :

ـ لاأريد ان اظهر ذليلا امامه .. ولا اريد ان .. فقاطعه تشتشيكوف :

ـ اني لاأذل نفسي لانسان . اني قد ارتكب بعض الاخطاء ، ولكن ان اكون جبانا .. اغفر لي اني حاولت مساعدتك . فانا لم اكن اعتقد انك ستفسر كلماتي على هذا النحو . وكان تشتشيكوف يتحدث بكثير من الوقار . فقال اندريه ايفانوفتش وهو يمسك بيدي صديقه :

ـ انا الذي اخطأت .. اعذرني فانا لم أرد ان اجرحك . واقسم على ان اهتمامك بي قد اثر في كثيراً .. ولكن لندع هذا الموضوع ولنقطع حديثنا عنه .

ـ حسنا ولكني سأزوو الجنرال زيارة عادية .

فسأله تنتيتنيكوف مدهوشاً :

ـ ولكن لم ؟

ـ لأقدم له احترامي .

وفكر اندريه ايفانوفتش : « ياله من رجل غريب »

وقال تشتشيكوف :

ـ سأذهب غدا اليه في العاشرة صباحاً . يجب ألا اتأخر عن تقديم احترامي لرجل مثله . ان عربتي لم تصلح بعد ، أفأستطيع ان استغل ضيافتك فأستعير عربتك ؟

ـ يا لله ! أهذا سؤال ؟ ان كل شيء هنا تحت تصرفك !

وعلى هذا افترق الصديقان ، وراح كل منهما يتأمل في غرابة صاحبه .

ولكن الشيء الغريب حقاً ان تنتيتنيكوف عرته انفعالات غريبة لم يشعر بها من قبل . وذلك عندما صعد تشتشيكوف الى عربته مرتدياً معطفاً من الفرو الابيض وربطة عنق زرقاء . وبمضي العربة نحو بيت الجنرال استولت على افكاره الهادئة عصبية غير عادية لم يعهدها من قبل .

كان يجلس على الاريكة او يقترب من النافذة أو يأخذ كتاباً او يحاول التأمل .

ولكن عبثاً كان يفعل إذ أن الهواجس اخذت تتعب دماغه . فقال وهو يقترب من النافذة ويرقب الطريق الذي مضت فيه عربة تشتشيكوف :

« انها لغريبة هذه الحالة » ولكن لندع تنتيتنيكوف يتابع بافل ايفا نوفتش .

الفصل الثاني

في برهة نصف ساعه ، اجتازت الحيوانات القوية « الفرستات » العشرة التي تفصل قصر تنتيتنيكوف عن مسكن الجنرال . واجتازت العربة ممراً محاطاً باشجار السنديان ، ثم حقول قمح بدأت تخضار في الارض التي لم يمض كبير وقت على حراثتها . واجتازت بعد ذلك منحدرات حيث تبدو بعض المناظر من الافق البعيد . ومر من ثم باشجار صفصاف حتى وصل آخر الامر الى باب حديدي تبدو من خلال قضبانه واجهة قصر الجنرال الفخمة باعمدتها الكورنثية. كانت جميع الالوان زاهية إذ ان الجنرال لم يسمح لحجر واحد او لمعدن واحد ان يدل على الهرم . واما الباحة فكانت تشبه بنظافتها ارضاً خشبية ملمعة بالشمع .

اجتاز تشتشكوف الدرج قفزاً واعلن عن نفسه ، فادخل على الفور الى غرفة عمل رب المنزل . كان الجنرال يبهر الانظار بمظهره الرزين وهو يرتدي ثوباً من الحرير الاحمر . واه نظرة صريحه ، وتقاطيع تنم عن رجولة ، وشاربان طويلان ، وسالفان اشتعلا شيباً ، وشعر قصير ، وعنق قوي . والخلاصة انه

كان جنرالاً من طراز قواد عام ١٨١٢ .

والجنرال بتريشتشف كسائر الناس ، وله نقائصه وفضائله . وتمتزج كل من هذه الفضائل والنقائص بالاخرى كما هو الشأن عند جميع الروسيين ، في فوضى غريبة وكان في الساعات الحاسمة يظهر نفساً قوية شجاعة ، وكرماً وذكاء نادراً ، مع اعتداد صبياني بالنفس وغرور و ... وما تبقى من نقائص الروس الكسولين. وكان الى جانب ذلك يحمل على الذين سبقوه في الخدمة ويسخر منهم بشكل جارح ، ويقسوا خاصة على رفيق قديم يعتبره دونه ذكائه ، ولكنه سمائه عليه في المنزلة ، إذ اصبح حاكماً عاماً لمقاطعتين ، تقع املاك الجنرال في احداهما . وهكذا اصبح تابعاً لرفيقه في السلك . ولم ين الجنرال عن استغلال جميع المناسبات لينتقد قرارات الحاكم وينعت جميع تصرفاته بالجنون .

وكان الجنرال الى جانب ذلك متحمساً لفكرة تجديد المدينة وهو يحب ان يعرف ما يجهله الناس في حين انه يكره من يعرف ما يجهله هو . والخلاصة انه يصر على ان يشرف بذكائه على كل شيء ، ويريد ان يلعب دور النبيل الروسي مع انه ربي تربية نصف اجنبية . وانت تدرك من هنا ان الجنرال بحدة مزاجه هذا قد خلق لنفسه عدة خصوم وأرغم على الاستقالة . وبطبيعة الحال لم ينس ان يتهم أشخاصاً بتدبير مؤامرة ضده ، دون ان يجروء على الاعتراف بأخطائه الخاصة . وبعد ذلك ، في تقاعده ، لم يتخل عن سلوكه المتعجرف وسواء أكان مرتدياً ملابسه كاملة أم أنه بثياب المنزل فقد كان دائماً هو نفسه . في حركاته وصوته شيء من السطوة والسيطرة مما يخلق عند الاشخاص الذين ينتمون الى طبقة دون طبقته ، شيئاً من الاحترام او الارتباك .

وقد أحس تشتشيكوف بهذين الشعورين معاً ، فأحنى رأسه الى اليسار قليلا ، ثم رفع يديه كما لو أنه يحمل طبقاً مليئاً بصحاف للغسيل ، ثم انحنى كثيراً وقال :

— لقد وجدت انه من واجبي تقديم نفسي لسعادتك ، اذ اني ، احتراماً

للابطال الذين دافعوا عن الوطن في ميـدان القتال ، قررت ان آتي بنفسي لاقدم لك فروض احترامي .

وبدا أن الجنرال قد رضي لهذا الكلام فهز رأسه مرحباً وقال :

ــ اني سعيد بمعرفتك ... تفضل بالجلوس ... اين خدمت .

فاجاب تشتشيكوف وهو يجلس على حافة المقعد :

ــ اني بدأت العمل في احد المكاتب الماليـة ياصاحب السعادة ، ثم تنقلت فعملت في المحاكم ولجان أبنية التاج والجمارك ... ان حياتـي لتشبه مركباً تتقاذفه الأمواج ياصاحب السعادة . وكنت أصبر دائماً بـل يمكن القول باني أجسم الاستمرار ... لقد تآمر أعدائي على حياتي ... وان الكلمات والالوان والانفعال لأعجز من ان تروي قصة حياتي . وانا لا أطلب شيئاً أكثر من أن أقضي اخريات ايامي في بقعة هادئة ... واما الآن فأنا أقيم عند احـد جيران سعادتـك .

ــ عند من ؟

ــ عند تنتيتنيكوف يا صاحب السعادة .

فقطب الجنرال حاجبيه وزواهما

ــ انه ليأسف ياصاحب السعادة لما بدر منه من قلة احترام نحو ...

ــ نحو من ؟

ــ انه لم يقدر الخدمات التي أديتموها سعادتكم له . وهو لايجـد الكلمات التي ... لقد قال :

« لو استطعت فقط ، بايه طريقة ، أن أبين بأني أعرف قدر الابطال الذين أنقذوا هذا الوطن » فهتف الجنرال وهو يعود الى هدوئه :

ــ ولكن ارجوك ... ماذا عنده ضدي ؟ اني لا أشعر بنفور منه ، بل اني أحبـه كثيراً ، وانا على ثقـــة بانـــه سيصبح ، مـع الزمن رجلا نافعاً جـداً .

ـ ان قولك صحيح ياصاحب السعادة .. ان عنــد تنتينيكوف موهبة كلامية فــذة ... وهو يكتب بشكل مدهش ... انه عبقري بكل معنى الكلمة .

ـ ولكنه يكتب سخافات ... اشعاراً سخيفة .

ـ لا ياصاحب السعادة ليس الامــر كذلك . انــه يكتب تاريخاً ياصاحب السعادة .

ـ يكتب تاريخاً ... عن اي شيء .

ـ تاريـخ ...

وفكر تشتشيكوف ثم اضاف ، اما لأنه كان امام جنرال او لانه أراد أن يؤكد أهمية الموضوع :

ـ تاريخ القواد ياصاحب السعادة !

ـ ماذا ؟ واي قواد ؟

ـ القواد عامة ياصاحب السعادة .. انه يكتب عن طبقة القواد وخاصة قواد الوطن .

وارتبك تشتشيكوف قليلاً وهو يتساءل بينه وبين نفسه : أأناحيوان ؟

وقال بتريشتشف :

ـ اعذرني ، اني لم افهم شيئاً ... هل يكتب عن فترة معينة امانه يكتب تراجم جميع القواد ، ام انه يخص قواد عام ١٨١٢ بالكتابة فقط ؟

فاجاب تشتشيكوف :

ـ تماماً ياصاحب السعادة .. انه يتكلم عن قواد عام ١٨١٢ . ثم قال في نفسه : « ان الشيطان وحده يعلم اذا كنت افهم شيئاً عن هذا الموضوع ! »

وسأله الجنرال :

ـ واذن لماذا لايأتي لزيارتي .. اني استطيع ان اقدم له وثائق هامة ..

ـ هو خجول ياصاحب السعادة .

– هذا امر تافه .. أمن أجل كلمة لامعنى لها ! ما انا بالرجل الذي يظنه ، سأذهب اليه بنفسي .

فهتف تشتشيكوف :

– لا لا ! انه لايقبل بذلك .. سيأتي الى هنا بنفسه ! ثم قال في داخله : « يالله .. كيف تتدبر الامور .. ان تاريخ القواد هذا قد نجح »

وفي هذه البرهة حدثت ضجة خفيفة ثم فتح الباب وظهر خلفه وجه امرأة . ولو ان نوراً فجائيا هبط على الغرفة القاتـــة لما أدهش تشتشيكوف واذهله كما اذهلته هذه المفاجأة . كانت الفتاة قد جاءت لتحدث الجنرال ولكنها اذ رأت تشتشيكوف ترددت قليلًا . وكان وجودها بمثابة شعاعة شمس اضاءت حجرة عمل الجنرال . واخذ بافل ايفانوفتش يلتهم الفتاة بانظاره وقد بهره جمالها . وكان من الصعب عليه ان يحدد نموذجاً لها . اذ ان تعبير وجهها ينم عن نبـــل ونقاء لامثيل لهما . وكانت مستقيمة وخفيفة كالسهم وتبدو كأنها اطول الناس قامة، ولكن هذا ليس غير وهم ، اذ ان قامتها معتدلة وان كانت تظهر طويلتها بسبب تناسب تقاطيع جسدها وانسجامها . اما ثوبها فكان ملائماً لها بشكل ساحر وكأن الجنيات الخياطات قد سهرن على اعداده . ومع ذلك فان الفتاة هي التي تخيط ثيابها بنفسها ، فتفصله بيدها وتضع له النقاط هنا وهناك حتى يأتي الثوب ملائماً لها بطياته الرشيقة ، فتبدو بقية النساء امام هذه الآلهة مخلوقات تافهة لاقيمة لها . ولو ان نحاتاً صنع نموذجاً لها من المرمر لهتف الجميع : ياله من عمل عبقري رائع .

قال الجنرال :

– أقدم لك ابنتي المدللة .. ولكني لاأعرف اسمك . فأجاب تشتشيكوف بتواضع وهو يحني رأسه قليلا :

– وماذا يهمك من اسم رجل بسيط .

– ومع ذلك فانا ارغب بالتعرف عليه .

فاجاب تشتشيكوف وهو يقوم بتحية رشيقة شبه عسكرية ، متراجعاً الى الوراء بخفة كخفة كرة المطاط :

ـ بافل ايفانوفتش ، ياصاحب السعادة .

فقال الجنرال متوجها بالحديث الى ابنته :

ـ ان بافل ايفانوفتش ياعزيزتي اولينيكا قد نقل الي خبراً هاماً .. ان جارنا تنتيتنيكوف ليس بالرجل الابله كما اعتقدنا ، فهو يعمل على تأليف كتاب مهم عن تاريخ قواد ١٨١٢ .

فأجابت الفتاة بحرارة :

ـ ولكن من الذي يقول بان تنتيتنيكوف احمق ؟ لربما يكون فيشنبوكوونوف الذي تثق به اكثر مما يجب ، وهو رجل منحط تافه .

ـ انه ليس بمنحط ولكنه تافه

فألحت اولينيكا :

ـ انه جبان وعديم الاخلاق ، بل هو فوق ذلك تافه . ان رجلاً يهين إخوته كما فعل ، او يطرد اخته من بيت ابيه ، انما هو انسان منحط لارادع له .

ـ ولكن ذلك اشاعة لااكثر !

ـ ان قصصاً مثل هذه القصص لاتخترع اختراعاً . واني لااستطيع ان افهم، ياوالدي ، انك باستقامتك وقلبك الذهبي ، تستطيع ان تستقبل مخلوقاً يبعد عن طينتك بعد السماء من الارض ، وتعرف مع ذلك انه مخلوق رديء .

فهتف الجنرال وهو يلتفت نحو تشتشيكوف :

ـ أرأيت ؟ اننا هكذا دوماً نختصم .

وتوجه بالحديث الى ابنته قائلاً :

ـ ولكن ، ياروحي الصغيرة ، لا يمكنني ان اطرده .

وخيل الى تشتشيكوف ان من واجبه قول شيء :

ـ جميع الرجال يريدون ان يكونوا محبوبين ياآنستي ؛ فما العمل ؟ بل ان

الوحوش نفسها تنتظر من يداعبها امام قضبان اقفاصها .

فقال الجنرال ضاحكا :

ـ هذا صحيح .. اذهب وداعبها .. أه ... أه ... أه ... آه ... ان لها لفما ملىء أنياباً ينتظر ان يداعب .

كان الجنرال يضحك بقوه بينما يهتز جسده كله وخاصة كتفاه اللذان حملا قديماً الشارات . واقتدى بافل ايفانوفتش بالجنرال ولكنه عوضاً عن ان يضحك كالجنرال على هذه الطريقة : أه أه آه ... اختار لنفسه طريقة أخرى هي : إيه إيه ... إيه ... وذلك احتراماً لمضيفه . واهتز جسده هو الآخر ولكن كتفيه بقيا ساكنين ، ولربما كان السبب في ذلك انه لم يسبق له ان حمل عليهما شارات عسكرية .

وقال الجنرال :

ـ حتى الذي يسرق الخزينة ويخدع الناس يطاب الملاطفة ايضاً . ان العمل ليستحيل دون تشجيع . آه . أه . آه ..

وقالت الفتاة وقد ارتسم على وجهها الصبوح تعبير كئيب :

ـ إني لا استطيع ان افهم كيف تضحك ، وهذه الصغائر شد ما تحزنني . واني عند ما أرى هذه الاشياء تتم في العلانية دون ان يعاقب مرتكبوها بالازدراء العام ، عندما ارى ذلك لا استطيع أن أدرك ما يجول في داخلي .. فأصبح سيئة شريرة أفكر .. أفكر ..

فهتف الجنرال مقاطعاً :

ـ ارجوك لا تغضبي منا ... ذلك انه لا ذنب لنا .

ثم اضاف متوجهاً الى تشتشيكوف :

ـ أليس كذلك ؟

والتفت بعد ذلك الى ابنته وقال :

ـ قبليني واذهبي ... سأرتدي ملابسي لاجل الغـــداء ، ثم سأل بافل ايفانوفتش :

ـ وأنت ، أتتناول معنا الطعام ؟ آمل ان تقبل دعوتنا .

ـ اذا كنت تشرفني بـ ...

ـ دون كلفه ... اني استطيع ايضاً دعوة اصدقائي للغذاء ، فحساء الملفوف عندنا جيد الطبخ .

رفع تشتشيكوف يديه قليلاً ، ثم انحنى كثيراً ، كثيراً جـداً حتى لم ير من الغرفة غير قدميه ، وبقي لحظات على هذا الوضع ثم انتصب في الوقت الذي توارت فيه اولينيكا ، ودخل بعد ذلك خادم في طول المـــارد بشاربين طويلين وسالفين كثيفين ، يحمل اناء من الفضة ومنشفة .

ـ اتسمح لي بارتداء ملابسي امامك ؟

ـ انك تستطيع ، يا صاحب السعادة ، لا أن ترتدي ثيابك فحسب ، بل ان تفعل ايضاً كل ما يحلو لك .

خلع الجنرال ثوبه المنزلي وحسر كمي قميصه عن ساعدين قويين ، ثم اخـــذ يغتسل ناثراً الماء حوله كبطة تضطرب في الماء ، وكذلك فقاعات الصوبون فقد اخذت ايضاً طريقها الى كل مكان من الغرفة .

هتف وهو يمسح عنقه :

ـ آه ... آه ... آه . انهم يحبون التشجيع .. آه آه داعبه ، داعبه اذن ، ما من انسان يسرق او يخدع دون تشجيع .

شعر تشتشيكوف انه مرتاح تمام الارتياح ، وعند ذلك هبط عليه الوحي فجأة فقال في نفسه : « ان الجنرال انسان طيب مرح فلماذا لا اجرب معه ؟ » .

وما ان انصرف الخادم حتى التفت الى بتريشتشف قائلاً :

ـ يا صاحب السعادة ، انك لتظهر الطيبة والكرم لجميع الناس ، ولذا فان لي عندك رجاء .

ونظر تشتشيكوف حوله .

ــ ان لي عماً عجوزاً يملك ثلاثمائة عبد ، واني وريثه الوحيد .

وهذا العم قد بلغ من العمر عتياً فلم يعد بمقدوره ان يدير املاكه منفرداً ولكنه في نفس الوقت لايريد ان يعهد الي بهذه المهمة ، وحجته في ذلك غريبة قال لي ذات يوم : « انا لا أعرف ابن اخي جيداً ، اذ ربما يكون متلافاً مبذراً فاذا أراد ان يثبت أهليته للثقة فيجب عليه ان يصبح مالكا لثلاثمائة عبد . وعند ذلك أستطيع ان أعهد اليه بعبيدي ! »

فهتف الجنرال :

ــ ولكن عمك هذا رجل احمق .

ــ ربما كان ذلك ، وعلى اية حال فهذا أمر يتعلق به وحده ، والمهم ان لديه الآن مدبرة منزل ولها اولاد ، وقد يؤول كل شيء اليهم .

فقال الجنرال وقد ازداد تعجباً :

ــ ان العجوز قد فقد عقله بلا ريب . ولكن كيف أستطيع مساعدتك ؟

فاجاب بافل ايفانوفتش :

ــ كنت افكر يا صاحب السعادة انك لو بعتني ما عندك من النفوس الميتة في هذه القرية ، على اعتبار أن أصحابها احياء ، مع تنظيم عقد شرعي بالمبيع اذن ، فاني ابرز هذا العقد لعمي فتنتقل الي ثروته !

وضج الجنرال بالضحك واستلقى على معقده ملقياً برأسه الى الخلف . ومن المؤكد انه ما من انسان في العالم اجمع يضحك مثل ضحكة الجنرال هذه فقد هز المنزل بأركانه ، فركض الخدم وهرعت اولينكا مذعورة تصيح :

ــ ماذا اصابك يا أبتي

بقي الجنرال مستغرقاً في ضحكه وقتاً طويلا ، وعندما رجع الى صوابه قال :

ـ لا شيء ... لا شيء ياصديقتي ... عودي الى غرفتك وسنتناول الطعام بعد قليل . لا تقلقي . أه أه آه

وعاد الجنرال من جديد الى الضحك ، واخذ الصدى يتردد في ارجاء المنزل من اول الممشى الى اقصى الغـرف . وكان تشتشيكوف يرقب كل ذلك بشيء من القلق .

ـ آه ... هذا العم البائس ... سيرى اسماء الموتى ... وسيخدع ... أه أه آه ... !

وقال تشتشيكوف في نفسه : « ان الجنرال كثير الحساسية ، فآمل ألا تسوء الأمور ! »

وتابع بتريشتشف :

ـ ياله من حمار . أه أه . هو يطلب ان تصبح مالكا لثـلاثمائة نفس كي يعطيك فلاحيه .. ولكنه حمار

ـ اجل ! حمار ياصاحب السعادة .

ـ ولكن اية فكاهة هذه ، أن تقدم له امواتاً ... اني ادفع ما يعلمه الله كي اكون حاضراً عندما تقـدم له عقـد المبيع ... كيف هـو ، كم يبلغ من العمر .

ـ انه في الثمانين فقط من عمره

ـ وما يزال يتحرك ... انه انسان صلب ... وبمقدوره ان يقوى على الحب طالما ان له مدبرة بيت .

ـ هو عاجز يا صاحب السعادة ... انه كيس دقيق بدأ يفرغ .

ـ انه غبي تماماً .. اليس كذلك ؟ انه غبي !

ـ غبي يا صاحب السعادة !

ـ أيخرج من البيت ويتحرك ؟

ـ انه يمشي ولكن بصعوبة .

ـ ياله من أحمق ! ... هل له اسنان ؟

ـ اثنان فقط يا صاحب السعادة!

ـ يا له من حمار ... لاتغضب انه حمار بالرغم من كونه عمك .

كان تشتشيكوف يكذب بلا شك، ولكنه لم يكن يشعر بالخجل لان العم الذي تحدث عنه لاجود له .

ـ اذن ، هل اتفقنا يا صاحب السعادة ... وهل ستبيعني امواتك .؟

ـ اعطيك نفوسي الميتة .. لا ، بل سأعطيك من اجل هذه النكتة جميع الاموات مع الارض والاكواخ ، بل خذ ايضاً المدفن ... أه أه آه ... يا للعجوز المخبول ... أه أه ، كم يضحك ... أه أ ه آ ه ...

ومن جديد دوت ضحكة الجنرال في انحاء القصر .

الفَصلُ الثّالِثُ [1]

تمتم تشتشيكوف : « لئن كان الكولونيل كوشكاريف مجنوناً حقاً ، إذن يا له من موقف مضحك » . وكان في تلك الآونة قد تغلغل في الحقول ذات الآفاق الواسعة اللامحدودة ، فلم يرغير السماء وبعض سحابات بعيدة . وقال لحوذيه :

– هل استفهمت عن الطريق يا سليفان . أننا ذاهبون الى الكولونيل كوشكاريف .

– لم يسمح لي الوقت بالسؤال يا بافل ايفافتش ، ذلك اني استغرقت في تنظيف العربة وقتاً طويلاً ، الا ان بتروشكا قد استفهم عن ذلك .

– لقد قلت لك اكثر من مرة ألا تثق ببتروشكا فهو كالحطبة ، بل هو أحمق ، وأنا على ثقة بانه ثمل تماماً الآن .

فهتف بتروشكا وهو يلتفت :

– ليس الامر صعباً ، علينا ان نقطع منحدراً ونجتاز حقلاً فينتهي الامر .

– انت انسان جيد ، وخاصة عندما تشرب الخمر . وعلى أية حال لن يقول

(١) هناك عدة صفحات ناقصة في مسودة الكتاب .

عنك احد : إنه أذهل اوروبا بجماله .

تلفظ تشتشيكوف بهذه الكلمات ثم داعب ذقنه وفكر : « انه لفرق أي فرق ، بين مواطن مثقف وخادم حيوان ! » وكانت العربة في ذلك الحين تقطع منحدراً لهضبة فانكشفت أمامهم مراع جديدة وآفاق جميـــلة ، بينما احيط الطريق بالاشجار .

وصلت العربة السفح قاطعة المراعي ومرت قرب الطواحين مجتازة بصخب كثيراً من الجسور ، ثم سلكت آخر الامر طريقاً مليئة بالاشجار ، فلم يحصل عقيب ذلك أي اهتزاز او رجرجة ، إذ أن العربة كانت تهدهد تشتشيكوف كما لم تفعل ذلك من قبل . اخذت الكروم واشجار الصفصاف بورقها الفضي تلمس بأغصانها وجهي سليفان وبتروشكا اثناء السير . وقد فقد بتروشكا عدة مرات عمرته فكان يقفز على الارض ليلتقطها لاعناً الشجرة وسيده الذي امره بالجلوس الى جانب سليفان . ولكنه بالرغم من ذلك فقد صمم على ألا يحمل العمرة بيده أو يثبتها بقوة على رأسه لأنه في كل مرة تسقط عمرته على الارض ، كان يقنع نفسه بانها المرة الاخيرة . وصلوا بعد ذلك الى طريق محدود باشجار الصنوبر والبلوط ، فدخلت العربة غاباً صغـــيراً ، وبدأت بعد قليل شعاعات الشمس تمر بين الاغصان فاستضاءت بها الاشجار . وشاهد تشتشيكوف بحيرة طولها اربعة (فرستات) تقريباً ، وساهد على الضفة المقابلة ايضاً اكواخ القرية الرمادية .

كانت الصيحات تتعالى من كل مكان . فهناك حوالي عشرون رجلاً تغمرهم المياه حتى الاعناق يمسكون بشبكة كبيرة .. وهذا ما حصل :

أمسكت الشبكة بسمكة كبيرة والتقطت في نفس الوقت رجل عظيم الجرم ضخماً كأنه البرميل ، فأخذ يصيح بأعلى صوته : « دنيس اعط كوزما ... كوزما خذ طرف الشبكة من دنيس ... لا تشد هكذا بقوة ... توماس الكبير ، ساعد توماس الصغير .. أيها التعساء ستمزقون الشبكة ! » .

ولم يكن التعس ليخشى على نفسه اذ يستحيل عليه ان يغرق في الماء لبدانته.

ثم ان المياه تعيده دوماً الى سطحها . بل لا يمكن ان يغرق حتى ولو حمل على كاهليه رجلين ، لان المياه ستردّه ايضاً الى السطح . الا انه هنا كان خائفاً على السمكة ، ولذلك أخذوا يشدونه هو الآخر بحبال رماها اليهم رجال وقفوا على الضفة . قال سليفان :

– انه سيدهم بلا ريب ، انه الكولونيل كوشكاريف

– ولماذا تعتقد ذلك ؟

– لأنه ... انظر اليه . ان جلده اكثر بياضاً من الآخرين وثباته ثبات سيد .

وفي هذه الاثناء كان السيد قد وصل مع الشباك الى الضفة . فوضع قدمه على الارض وشاهد في نفس اللحظة عربة تشتشيكوف . فاقترب من بافل ايفانوفتش حاملاً الشبكة على كتفيه فارشاً يده فوق عينيه ليحميها من حدة الشمس بينما ترك يده الاخرى مسبلة كصورة فينوس مدسيس وهي تخرج من الحمام . ثم صاح به :

– هل تناولت طعام الغذاء .

فرد تشتشيكوف وهو يحييه بعمرته :

– لا

– شكراً لله اذن

فسأله بافل ايفانوفتش وهو مايزال ممسكا بعمرته :

– ولماذا

انظر الى ذلك بنفسك . . . ياتوماس الصغير ، أره السمكة ، وانت يا كوزما ساعده .

ورفع الصيادان السمكة فهتف السيد :

– هية ... يا لها من سمكة ملكية . تعالوا الى المنزل .

وانت ياحوذي اسلك طريق الحقول ، واما انت يا توماس الكبير فلتسرع لفتح السياج ، انه سيصحبكم بنفسه اما انا فسألحق بكم .

اجتاز توماس الكبير القرية وهو حافي القدمين راكضاً امام العربة . كانت اشنات مختلفة من أنواع الاسماك تشاهد معلقة على الأكواخ ذلك ان جميع الفلاحين يصيدون . وصل توماس الى الحاجز فرفع ألواحه الخشبية فمرت العربة بين حقول جميلة ثم وصلت الى ساحة قرب كنيسة خشبية وبدت من بعيد اسطحة بيت السيد. فكر تشتشيكوف : « يشخص غريب هذا الكوشكاريف » وهتف صوت من الخلف :

ـ ها أنذا .

وعندما التفت تشتشيكوف شاهد السيد راكباً على عربة بالقرب منهم يرتدي معطفاً من قماش نانكين وسروالاً اصفر اللون ؛ ولكنه لا يلبس ياقة او ربطة عنق . وكان يملأ العربة وحده .

وعندما اراد بافل ايفانوفتش ان يرد عليه كلمته اختفى داخل العربة التي اصبحت بعيدة عنه هناك حيث كان الصيادون يستخرجون الاسماك . ومن جديد تعالت الاصوات وسمع منها توماس الكبير والصغير وكوزماودنيس .

وكم كانت دهشة تشتشيكوف عظيمة عندما وصل الى القصر وشاهد السيد هناك . وقد استقبله هذا بقبلات متلاحقة وهو مايزال على الدرج . ترى كيف استطاع ان يقطع كل هذه المسافة بتلك السرعة ؟ ان هذا لسر غامض ، تبادل رب البيت مع تشتشيكوف ، بعد ذلك ، قبلة ثلاثية على الطريقة الروسية القديمة رسما بها شارة الصليب . ذلك ان السيد كان من نبلاء الجيل القديم .

قال بافل ايفانوفتش :

ـ اني أنقل اليك تحيات سعادته

ـ سعادة من ؟

سعادة قريبك الجنرال الكسندر ديمتريفتش

ـ الكسندر ديمتريفتش .. ومن يكون ؟

فاجاب تشتشيكوف وقد أدهشه هذا السؤال :

ـ هو الجنرال بتريشتشف

ـ لاأعرف هذا المخلوق .

فذهل بافل ايفانوفتش

ـ وكيف هذا ؟ اني لآمل ان اكون قد حصلت على شرف التحدث مع الكولونيل كوشكاريف

ـ لتفقد هذا الامل اذن . انك لست في بيتـــه بل في بيتي انا !... اني بيوتر بتروفتش بيتوخ .. بيتوخ ، بيوتر بتروفتش .

وظل تشتشيكوف مذهولا ثم هتف بجوذيه وخادمه ، سليفان وبتروشكا .

ـ ماذا فعلتما .

ولكنهما كانا ايضاً فاغري الفم ، وقد جلس احدهما على المقعد بينما وقف الآخر قريبا من الباب . وتابع تشتشيكوف :

ـ ايها الغبيان ، لقد قلت لكما ان تذهبا الى منزل الكولونيل كوشكاريف فجئتما بي الى منزل بيوتر بتروفتش بيتوخ .

فقال بيتوخ :

ـ لقد فعل الصغيران جيداً .. اذهبا الى المطبخ كي نقدم لكما الفودكا ثم حلا الجياد واذهبا للتعرف على رجالي .

فقال تشتشيكوف :

ـ انك ترى بلا ريب خجلي منك .. انه لخطأ فظيع .

ـ لا ، ليس من خطأ هناك .. يجب ان تذوق طعامي قبـــل كل شيء ثم

تقول لي بعد ذلك اذا كان هناك من خطأ ام لا .. ارجوك تعال معي .

و خذ بيتوخ ذراع تشتشيكوف وقاده الى المنزل . وخرج طفلان بلابسهما من احدى الغرف هناك ، وكانا نحيلين طويلين ، يفوقان والدهما طولاً .

وقال بيتوخ :

ـ هذان ولداي الطالبان في الصفوف الثانوية وقد جاءا هنا لقضاء العطلة .. ابق يانيقولاشا مع صديقنا وأما انت ياألكياشا فاتبعني .

ظل تشتشيكوف مع نيقولاشا الذي سرعان مابدا له عديم القيمـــة لانه صرح ان مدرسة المقاطعة لاتساوي شيئاً ، مما جعله يقرر مع اخيه ان يذهب الى بطرسبرج ، لانهما لايريدان ان يعيشا في بقعة نائية منعزلة . فقال تشتشيكوف في نفسه : « وسينتهيان بلا ريب في الحانات . » ثم سأله :

ـ كيف هي حالة املاك ابيك ؟

فرد بيتوخ الذي دخـل الغرفة في تلك الآونة :

ـ مرهونة .. انها مرهونة !

ففكر بافل ايفانوفتش : « يالها من صفقة خاسرة . اني أضيع وقتي سدى! » ثم قال بصوت مرتفع :

ـ هذا أمر مؤسف ... لعلك تسرعت برهنها .

ـ ابداً ... وأنما قيل لي ان ذلك يشكل صفقـــة رابحة ، لان كل الناس يرهنون املاكهم فلماذا لااجاريهم في ذلك ؟ لقد عشت حياتي هنـــا واريد الذهاب الآن الى موسكو ، وكذلك ولداي فانهما يرغبان ايضاً في ذلك ولايحلمان الا بمتابعة دراستهما في العاصمة :

وفكر بافل ايفانوفتش : « ياله من حيوان غبي ... انه سيضيع ثروته وحياة ولديه ... وعنده هنا الاملاك الضخمة والعبيد ويعيش حياة الاسياد كما انه على وفاق مع عبيده ككل ملاكي المقاطعات في الريف ... وأما هناك ... فانهم سيتحدثون في المطاعم والمسارح ويذهب كل شيء الى الشيطان ... بينما يستطيع

هنا ان يعيش هادئاً مطمئناً ... وقال بيتوخ :

– اني اعرف بماذا تفكر!

فارتبك تشتشيكوف وقال :

– وبماذا أفكر ؟

– انت تقول إن بيتوخ هذا رجل احمق ... دعاني الى الغذاء ولم يعد الطعام بعد . ولكن لا سيقدم الطعام بعد دقائق معدودات ياعزيزي . سوف يقدم كل شيء قبل ان تنتهي الفتاة التي رأيتها من جدل ضفائرها .

وقال أليكاشا الذي كان ينظر من النافذة :

– هوذا بلاتون ميخائيلوفتش قادماً الينا يا ابي ! وأضاف نيكولاشا :

– وهو على جواد رمادي اللون .

فسأل بيتوخ وهو يقترب من النافذة :

– اين هو ... اين هو !

فسأله تشتشيكوف :

– ومن يكون بلاتون ميخائيلوفتش ؟

– انه جار لنا يدعى بلاتون ميخائيلوفتش بلاتونوف ، وهو رجل شجاع ممتاز.

ودخل بلاتونوف بعد قليل الغرفة . كان رجلاً بهي الطلعة طويل القامة أشقر الشعر جعده . وقد امسك بسلسلة جميلة من النحاس مربوطة بكلاب يدعوه نسيده « يارب » . وهو حيوان قوي ذوفك مخيف . وسأله بيتوخ :

– أتناولت طعام الغذاء ؟

– اجل !

– أتهزأ مني ؟ وكيف تأتي الي بعد الغذاء ؟

فابتسم الصديق وقال :

– سأعزيك قليلاً ، اني لم آكل شيئاً ولكني فاقد الشهية .

ـ ما اعظم صيدنا اليوم .. آه لو شاهدت ماذا اصطدنا من الاسماك !

ـ اني اكتفي بسماعك تتحدث عن الاسماك ؛ ان مثل هذا الحديث فيه الكثير من الايحاء ، اجبني بحق الشيطان ماذا تفعل حتى تكون دوماً هكذا مرحاً ؟

ـ ولم الحزن ؟ ولماذا احزن ؟

ـ لماذا ؟ ... لان الحياة حزينة !

ـ انك لا تأكل كفايتك ! ... وهذا كل شيء ! كل جيداً وسترى عما اذا كانت هذه الكآبة التي اخترعناها نحن الروسيين لا تتبدد .

ـ أوه لا تتظاهر هكذا بالشجاعة ! انت تعرف الملل كما اعرفه انا .

ـ لا تعتقد ذلك ، لانه ليس لدي وقت للملل . ذلك اني أستيقظ صباحاً فأقابل الطاهي واحدد له اصناف الغداء ثم يقدم لي الشاي ، ويأتي بعد ذلك الوكيل ... ثم هناك الصيد ويأتي بعده وقت الغداء . وما إن انام قليلاً عقيب الغداء حتى تكون علي مهمة الحديث عن طعام العشاء . وهكذا غير النهار فكيف تريدني أن أمل .

وفيما كان الصديقان يتجاذبان اطراف الاحاديث اخذ تشتشيكوف ينظر الى الضيف الذي سحره بجماله وقامته المفتولة وشبابه المتدفق ونقاء تقاطيعه . لم يكن يبدو على هذا الرجل أي ألم أو انفعال او عاطفة ، بل ظلت تقاطيع وجهه جامدة بالرغم من الابتسامة الساخرة التي اعطته برهة شيئاً من الحياة .

وقال تشتشيكوف لبلاتونوف :

ـ لا أستطيع ان اتصور انسان له مثل وجهك يشعر بالملل ... اسمح لي ان اقول انه لربما كان الامر عائداً الى نقص في مواردك او الى وجود اعداء يتآمرون على سلامتك ...

فقاطعه بلاتونوف :

. صدقني أني كثيراً ما ارغب بالشعور بالقلق يتأكلني ، بل ارغب اكثر

من ذلك برؤية احد يثير غضبي ، ولكن للاسف الشديد لا يحصل شيء من ذلك لي ، ولذلك تراني اشعر بالملل والضيق وهذا كل شيء .

- أما لديك قدر كاف من الاراضي ؟ ثم ألا تملك عدداً وافياً من الفلاحين ؟

- اني املك مع اخي كثيراً من الاراضي الواسعة واكثر من ألف فلاح .

- هذا امر غريب ... اذن ألا يمكن ان يعود سبب ضجرك الى موسم رديء أو وباء رفع بين فلاحيك نسبة الوفيات ؟

- على العكس تماماً ... ان كل شيء يسير عندي على مايرام . ذلك ان أخي اداري بارع .

- أراني لا أقدر على فهمك ... أيمل الانسان عندما يملك جميع ما يلزمه ؟

ورفع تشتشيكوف كتفيه عجباً فقال رب البيت :

- انتظر قليلا ... ستطرد هذا الملــــل حالاً اليكاشا اركض الى المطبخ وقل للطاهي ان يقدم لنا لحوماً مبردة على الفور . ثم اين امليان الغبي وانطوشكا اللص ... لماذا لم يقدما لنا ما يثير الشهية من المقبلات ؟

وفي تلك اللحظة فتح الباب ودخل امليان الغبي وانطوشكو اللص ووضعا فوق الطاولة ست زجاجات من المشروبات المختلفة . ثم أتيا بصحاف فيها مختلف أنواع المقبلات . وكان ثمة خدم آخرون يروحون ويغدون بينما كان امليان الغبي وانطوشكا اللص يديران كل شيء بمهارة وذكاء . ان هذين النعتين اطلقهما بيتوخ عليهما كي يحثهما على العمل . ذلك ان السيد لا يحب ان يتعب رجاله فهو طيب نحوهم ، الا ان الروس يحتاجون دوماً الى استعمال نعت يحفز عقولهم كما تحفز الفودكا أمعدتهم .

ولا يمكن صنع شيء معهم فهم معتادون على ذلك ولا يستطيعون الحياة دون دافع يثيرهم .

وتتالت الاطباق من شتى الالوان واتخم رب البيت ضيفيه بكمية الطعام إذ ما يكاد احدهما يصب لنفسه شيئاً حتى يضيف بيتوخ الى الصحن قطعة كبيرة

من اللحم وهو يهتف : « لا الانسان ولا الطير يستطيعان العيش ان لم يكونا زوجين ! » .

اما اذا اخذ احدهما قطعتين معاً فان بيتوخ يسرع الى وضع قطعة ثالثة ويوضح عمله بقوله :

« ان الله يحب التثليث فالاثنان لايؤلفان العدالة » وما ان ينهي صديقاه أكل القطعة الثالثة حتى يقول : « لاتوجد عربة بثلاث عجلات كما لا يرتفع كوخ بثلاث زوايا ! » كان لكل عدد عنده مثل ومنطق : وهكذا أكل تشتشيكوف اثنى عشر صحناً من الوان مختلفة واخذ يفكر : « انه الآن سيدعني بسلام ! » ولكن بيتوخ عاجله بصحن آخر دون ان يتفوه بحرف واحد ، ووضع في هذا الصحن قطعة كبيرة من لحم العجل وقال :

ـ اني غذيت هذا العجل بالحليب مدة سنتين فقط واعتنيت به اعتنائي بأولادي .

فاجاب تشتشيكوف :

ـ لا أقوى على المزيد من الطعام .

ـ ولكن جرب وستقول لي بعد ذلك : لا استطيع .

ـ ليس في بطني متسع لاي لقمة .

وفي الكنيسة ايضاً لا توجد اماكن شاغرة ، ولكن مختار المدينة عندما يدخلها يستطيع ان يجد لنفسه مكاناً ، في حين ان الناس يزحم بعضهم البعض الآخر بشكل اذا سقطت معه تفاحة عليهم لا تقع على الارض . جرب اذن فهذه قطعة المختار .

وجرب تشتشيكوف ، والتهم القطعة وهو يفكر : « كيف سيذهب هذا الرجل الى بطرسبرج او الى موسكو . انه سيتلف كل شيء خلال ثلاث سنوات ! » ولكنه نسي في الواقع ان الروسي مع « الخبز والملح » او دونه يستطيع ان

يتلف كل شيء لا في ثلاث سنوات فحسب بل في ثلاثة اشهر فقط .

كانوا يشربون ويشربون .. الزجاجة تلو الثانية والكأس في اعقاب الآخر، وكل شيء يفرغ . وقد عمل اليكاشا ونيكولاشا كالكبار ولم يكن من الصعب ان يعرف الانسان الى اي فرع من المعارف الانسانيه سيتجهان عند وصولهما الى العاصمة .

نهض الضيفان من على المائدة بصعوبة ظاهرة واتجها ببطء الى الشرفة حيث اخذا مكانيهما بجهد فوق المقاعد . وما ان جلس رب البيت على اريكة تسع اربعة اشخاص حتى داعبه النعاس فنام . وكانت تخرج من فمه المفتوح موسيقى يعجز عن الاتيان بمثلها اعظم المؤلفين الموسيقيين ، ذلك انه يمكن ان تسمع من العجيب صوت الطبل والبوق كما يمكنك التمييز بينهما بسهولة ، إن فمه هذا يخرج سمفونية كاملة تشبه نباح الكلاب .

وهتف بلاتونوف :

ـ ماهذه الموسيقى

فانفجر تشتشيكوف ضاحكا وتابع بلاتونوف :

ـ وكيف يتسرب الملل الى الانسان بعد مثل هذه الوقعة ... ذلك انه لايستطيع بعدها الا النوم .

ـ اجل ولكن لتسمح لي ... اني لااستطيع ان افهم مللك . فالانسان يملك عدة وسائل لمحاربة الملل .

ـ وما هي ؟

ـ يستطيع المرء اذا كان شابا ان يرقص .. وان يعزف .. وان يتزوج اخيراً!

ـ ويتزوج من ؟

ـ هناك كثير من الفتيات الغنيات الجميلات في هذه البلاد

ـ انت واهم !

ـ اذن يمكن التفتيش عنهن في مكان آخر ... بمقدور الانسان ان يسافر

وهذه فكرة حسنة اسمعني !

ـ قل !

ـ ولكن . . . السفر

ـ والى اين ؟

ـ اذا كنت حراً فاتبعني !

وفكر تشتشيكوف « سأحصل منه على فائدة ، اذ سيدفع نصف النفقات مع تكاليف اصلاح عربتي »

وسأله بلاتوغوف .

ـ الى اين سنذهب ؟

ـ اني الآن مسافر في مهمة . ذلك أن الجنرال بتريشتشف ، وهو من اصدق اصدقائي ، قد رجاني أن أزور اقرباءه(١) وأنا جد مسرور لاني سأتعرف على اقارب بتريشتشف ، ولكني أسافر لاني احب السفر ، احب ان ارى العالم فالناس كتاب مفتوح . . . علم كامل الاطار .

وقال في نفسه : « انها فكرة جيدة ، سأحمله جميع النفقات كما سآخذ منه جياده وعربته بينما تظل جيادي مرتاحة »

وكان بلاتونوف في نفس الوقت يفكر : « ليس لدي مايستبقيني في منزلي فلماذا لا اقوم بهذه الجولة ؟ . . .

ان اخي يدير كل شيء فلن يزعجه سفري ، واذن لماذا لا أتجول متنزها؟»

ثم سأل بافل ايفانوفتش :

ـ أتقبل أن تقضي يومين عند اخي ، فانه لن يسمح لي بالذهاب ان لم تفعل ذلك !

---

(١) ـ ان تشتشكوف قد نجح دون شك بمعالجة تنتينيكوف مع بتريشتشف وتم الاتفاق على زواج الاول من اولينيكا ، وقد كان تشتشيكوف باذاعة النبأ على اصدقاء الجنرال

= بكل سرور . سأقضي يومين بل ثلاثة اذا شئت . فهتف بلانونوف :
= اذن اتفقنا .

وتصافح الصديقان بينما استيقظ بيتوخ وفتح عينيه ثم قال :
= والى اين تذهبان ؟ الى اين ؟ . لا ياسيدي الصغيرين . ان العربتين ستكونان بلا عجلات . واما حصانك يابلانونوف ميخايلوفتش فهو على مبعدة خمسة عشر (فرستا) من هنا ! ستقضيـــان اذن ليلتكما هنا وتذهبـــان غداً بعد الغداء حسبما يحلو لكما !

ولم يكن بالامكان مجادلة بيتوخ فالبقاء واجب لامحيد عنه . وهكذا كوفئ الصديقان بسهرة ربيعية جميلة ونزهة على البحيرة قام بتنظيمها مضيفهما . كانت المراكب تنزلق على صفحة المياه يقودها اثنا عشر مجذفا يغنون . ووصل الجمع الى نهر ينتهي عند كل ضفة من ضفتيه بمنحدر هادئ ، كان المجذفون يصطدمون فيه بشباك الصيد . وكان الماء يتحرك ببطء بينما تنكشف الغابات بصمت مهيب .
وفي لحظة مارفع المجذفون مجاذيفهم بحركة واحدة فانساب المركب الكبير وحيداً كطائر خفيف . عند ذلك بدأ شاب بالغنـــاء وكان ذا كتفين عريضين وصوت رنان ، واخذت المقاطع الاولى من أغنيته تنساب فيه بينما أخذ خمسة من الصيادين يرددون لازمتها ، ثم اعاد ستة آخرون بترداد المقطع الاول . وهكذا ارتفعت الاغنية عالية ، عظيمة لامتناهية كالروسيا نفسها . واهتز بيتوخ فوق مقعده واخذ يغني بدوره بينما ظل تشتشيكوف صامتاً ولكنه شعر بكل ما في اعماقه من روسي يهلهل ويهتز . امابلاتونوف فانه الوحيـد الذي كان يقول في نفسه : « وأين الجمال في هذه الأغنية الشاكية الباكية ؟ ان القلق يداخل النفس حين سماعها ! »

وكان الليل قد ضرب بقرنيه عرض الوجود عندما عاد الاصـدقاء . واما المياه فلم تعد تعكس لون السماء ، فصعد الاصدقاء وسط الظلمة الى الضفة حيث اوقدت النار ، ذلك ان الصيـــادين كانوا يحضرون مساء لهم من القصر . واما

الحيوانات والطيور فقد اعيدت الى أقفاصها بينما وقف الرعاة قرب الباب الكبير ينتظرون حصتهم من الحليب آملين ان يدعوهم الصيادون لمشاركتهم في تناول الحساء. وكنت تسمع في الليل احاديث الفلاحين الهادئة التي تختنق احياناً بعواء الكلاب الآتي من البعيد. وارتفع القمر في كبـــد السماء فأضاء بنوره الفضي البراري الكابيـــة. فكان المنظر ساحراً أخاذاً وإن لم يلتفت اليه أحد. اما اليكاشا ونيكولاشا فقد أخذا يتحدثان عن الحلويات والمسارح عوضاً عن ان يتنزها فوق ظهور الجياد، بينما كان والدهما لايفكر الا في طعام الغـــد، واما بلاتونوف فانه كان يتثاءب؛ ولعل تشتشيكوف هو الوحيد الذي كان مليئـا بالحيـاة والنشاط فهتف: «لاشك في انه سيكون لي ذات يوم قرية» وهكذا قفز تفكيره حالاً نحو الزوجة والاطفال.

كان العشاء فخماً بالاجمال، وعندما وجـد باقل ايفانوفتش نفسه وحيداً في غرفة نومه ربت على بطنـه وقال في نفسه: «انه طبل حقيقي... وليس من مكان شاغر حتى لمختار المدينـة أيها العزيز». كانت غرفته تقع قريبة من غرفة بيتوخ، والحاجز بينهما رقيقا، فكل مايقوله السيد يمكن سماعه. وقد أمر هذا السيد طاهيه بتهيئة أصناف الطعام لاجل الفطور وهي أصناف تصلح للغذاء، وكانت لهجته وهو يوصي بانواع الأطعمة تبعث الشهية حتى في الاموات.

— يجب ان تقدم اللحوم المبردة على اربع زوايا الاولى للسمك والثانية للحم والثالثة للبصل والرابعة للنخاع... ثم... أنت تعرف جيدا أني أريد كل شيء كما يرام... فاعتن اذن بكل شيء... خمر اللحم قليلا واجعله طرياً ولكن لاتجعله يذوب داخل الفم كما تذوب الثلوج! وكان بيتوخ يتمطى بشفتيه وهو يقول هذا القول فيسمع تشتشيكوف الصوت في حجرته واضحاً. فقال في نفسه وهو يدخل رأسه في الغطاء.

ـ ليذهب به الشيطان.. ليس من وسيلة للنوم هنـــا بالقرب منه. وتابع بيتوخ.

ـ واريد حول السمك شيئاً من الشوندر مقطعاً على اشكال نجوم صغيرة ، وبعض الجزر والحمص ... و ... انت تعرف جيـــداً . ضع ماتستطيع من السمك . وأوصى بيتوخ على اصناف اخرى :

ـ هنا يجب ان تكون النـــار خفيفة ... لاتحرق شيئاً ونام تشتشيكوف خيراً على ديك رومي محشو بالم يسمع .

اكل ضيفا بيتوخ كثيراً بشكل عجز معه بلاتونوف عن اعتلاء ظهر فرسه في اليوم الثاني . فأرسل الجواد مع حوذي بيتوخ وصعـــد بلاتونوف مع تشتشيكوف الى العربة . وكان الكلب يارب يتبع القافلة متثاقلا لأنه لم يأ كل طيلة حياته بمثل هذه الكثرة .

وعندما غادرت العربة ساحة القصر قال تشتشيكوف :

ـ انه في الحقيقة يبالغ كثيراً

فأجاب صديقه :

ـ ان بيتوخ لايمل ... وهذا هو الشيء الذي يقتلني .

وفكر تشتشيكوف : « لو كان لي مثلك سبعون الف روبل سنويا لمـــا وجدت وقتا للملل .

وقال بلاتونوف :

ـ أتسمح بالذهاب معي الى اختي وصهري ، سأخبرهما بسفري

ـ بكل سرور

ـ ان صهري اذكى ملاك في المنطقة ، ولديه الآن مورد سنوي قدره مائتا الف روبل ومنذ ثمانية اعوام فقط لم تكن ارضه تغل له العشرين الفاً .

ـ أحقاً . اني لأرغب في التعرف به .. يجب ان يكون انسانا يسترعي الاهتمام .. ما اسمه ؟

ـ كونستانجوغلو

ـ وما اسمه الصغير ؟

ـ قسطنطين فيو دورووفتش

ـ قسطنطين فيودوروفتش كونستانجوغلو .. من المهم التعرف على رجل مثله.

ودل بلاتونوف سليفان على الطريق . وكان هذا امر ضروري اذ ان الحوذي يكاد في كل لحظة يفقد توازنه اما بتروشكا فقد سقط عدة مرات على المقعد مما استلزم ربطه بالحبال . وردد بافل ايفانوفتش : « يالخنزير ! » بينما هتف بلاتونوف :

ـ انظر .. هنا تبدأ اراضي صهري .. ان لها مظهراً خاصا بين الاراضي المجاورة.

وبالفعل فان الناظر كان يشاهد اشجار غابة صغيرة مستقيمة كالهام .. ثم غابة اخرى اعلى منها فثالثة اكثر ارتفاعاً ، ثم حقول تأتي بعد الغابات كرة ثانية .

ـ لقد نبت كل هذا خلال ثمانية اعوام . وغيره لا يحصل على ذلك في ظرف عشرين عاما .

ـ ولكن كيف استطاع هو ذلك ؟

ـ اسأله .. انه يعرف الارض كما لم يعرفها انسان . ثم انه يستفيد من كل شيء . فهو يعرف الشجرة ونوع القمح الذي يجود محصوله في كل ارض ويستخدم كل شيء لغايتين او لثلاث غايات . فالغاية الاولى مثلا ان تعطي الارض الرطوبة فتكدس على الارض كمية كبيرة من الاوراق الميتة حيث تدعو الحاجة . ان جيران صهري يشكون من الجفاف اما فهو فلا يعاني منه . وان البـــلاد كلها تشكو سوء الموسم بينما هو ينعم بمحصول وفير .. وأنا لكم يؤسفني جهلي فيما يتعلق بالارض . اما هو فانه يعرف كل شيء عنها بشكل مدهش .. ان جميع الناس ينعتونه بالسحر والشعوذة .. ومع ذلك فان كل هذا لا يستطيع ان يمنع السآمة عني .

وقال تشتشيكوف في نفسه : « في الواقع ان صهره رجل ممتاز . ومؤسف حقاً ألا يعرف هذا الشاب السطحي شيئاً يقصه علي ! »

واخيراً ظهرت القرية ، وكانت تشبه مدينة صغيرة ، فأكواخ كلها تنقسم

من حيث الارتفاع الى ثلاثة اقسام تتوج كل قسم منها كنيسة . وفي كل مكان كانت تنتشر اكداس الحبوب وكميات وفيرة من العلف . وفكر تشتشيكوف : « ان الانسان يستطيع ان يرى بان لهذه القرية رئيساً حقيقياً » .

وكانت الاكواخ متينة والطرقات نظيفة والعربات جديدة . وكانت ملامح الفلاحين تدل على الذكاء بينما كانت الحيوانات جميعها قوية جميلة ، حتى الخنازير نفسها كانت تبدو وكأنها من عرق نبيل . ومن الممكن القول هنا مع الاغنية الشائعة ان الفلاحين يجمعون المال برفوشهم وليس هناك اية حديقة على الطراز الانكليزي ، ذلك ان جميع هذه الحدائق منسقة على الطراز الروسي القديم . وهنالك الى جانب ذلك بيوت للعمال تأخذ بالعلو والامتداد شيئاً فشيئاً حتى تصل الى قصر السيد . وكان الاخير يستطيع ان يشاهد من منزله كل ما يجري في القرية . وكان على سطح القصر برج يستخدم لا لتأمل المناظر الجميلة بل لمراقبة الفلاحين الذين يعملون في أنأى الحقول .

واستقبل الصديقين على الباب خدم نشيطون ماهرون لا يشبهون بتروشكا السكير في شيء بالرغم من انهم لا يرتدون الفرو ، بل يلبسون الثياب الزرقاء البسيطة .

وظهرت ربة المنزل وكانت غضة زاهية كالزهرة ، وجميلة كاجمل ايام الربيع وهي تشبه بلاتونوف كما تتشابه قطرتا الماء ، الا انها كانت منطلقة فرحة بعكس اخيها .

ـ يومك سعيد يا اخي ، اني جد مسرورة برؤيتك .. ليس قسطنطين هنا ، ولكنه سيأتي بعد حين .

ـ واين هو ؟

ـ في القرية مع التجار .

وتبع الصديقان الشابة الى البيت . وكان تشتشيكوف يلقي نظرات متفحصة على منزل الرجل الغريب الذي يملك مورداً سنوياً قدره مائتا الف روبل .

وكان يأمل ان يحكم على اخلاقه من خلال نظام المقعد . ولكن عبثاً حاول تشتشيكوف ان لم يصل الى نتيجة . كانت الغرف نظيفة بسيطة ليس فيها رسوم او ازهار او تماثيل من البرونز او مكتبة او حتى كتاب . كان يظهر كل شيء يظهر وكأن رب المنزل لا يعيش محبوساً بين جدرانه الاربعة ، بل يقضي جميع ايامه في الحقول . ولم تكن افكاره تلد في ظل الموقد على مقعد وثير ، بل بعيداً . . . في الحقول ، في غمرة العمل . فما ان تأتي الى فكرة نظرية حتى يباشر الى تطبيقها فوراً . وشوهد الى جانب ذلك مناضد نظيفة عليها آنية فيها زهور ذابلة . فسأل بلاتونوف :

ـ ما هذه الاقذار يا اختاه ؟

فهتفت ربة المنزل :

ـ اقذار ؟ ولكن هذه انجع دواء للحمى . لقد شفينا العام الفائت هنا جميع فلاحينا المرضى . واما هذه الزهور فمنها تصنع الحلوى . انك تضحك الان ولكنك ستسر عندها تتذوق طعمها .

واقترب بلاتونوف من البيانو واخذ يتأمل في قطعة موسيقية :

ـ هذا قديم جداً يا اختاه ! الا تخجلين ؟

ـ ليس لدي الوقت الكافي ايها العزيز للاهتمام بالموسيقى . فعندي ابنة في الثامنة من عمرها ويجب ان اعنى بتدريسها ، ولا اريد ابداً تسليمها الى مربية ، ان هذا لن افعله قط .

فقال بلاتونوف :

ـ انك ستصبحين مملة يا اختاه ، هوذا قسطنطين قد جاء .

واقترب تشتشيكوف من النافذة التي شاهد بلاتونوف منها قسطنطين . كان رجل في حوالي الاربعين من عمره يتقدم بنشاط وقوة ، يرتدي معطفاً من الجلد ، وقد بدا انه لا يهتم بهندامه ابداً . وكان عبدان يتبعانه ويحدثانه ومن الظاهر انهما يلحان على شيء . وتوقف الثلاثة قرب الدرج فسمع حديثهم الجميع . كان قسطنطين يقول :

ـ ان احسن ما نستطيع فعله هو ان تشتري حريتك من سيدك ، وان اعوزك المال فاني اقرضك مبلغاً ترده لي بالعمل .

ـ لا يا قسطنطين فيودوروفتش ، لماذا اشتري حريتي ؟ خذني انا والآخرين ، اننا سنتعلم كيف نحيا معك براحة ، اننا لا نعرف رجلاً له قيمتك في أي مكان آخر . والمؤسف كثيراً انه من الصعب اجتناب الاشياء السيئة اليوم . فأصحاب الحانات اخترعوا الكحول ، حتى ان برميلاً واحداً من الماء لا يستطيع اطفاء الحريق الذي يحدثه كأس واحد في جوفك ! ولا يكاد الانسان يلتفت حتى تنزلق من بين اصابعه الكوبيكات ! ان المغريات كثيرة والشيطان يسود على الارض وهو يريد إفناء الفلاحين . ثم هناك التبغ واشياء اخرى فما العمل يا قسطنطين فيودوروفتش ؟ نحن بشر ومن الصعب ان يقي الانسان نفسه من الخطأ .

اسمع ياصديقي لن تكونوا هنا احراراً . . . انه بكل تأكيد سيكون في حوزة كل منكم بقرة وجواد . واني هنا اطلب من فلاحي عملاً مخالفاً لما يقومون به في الاماكن الاخرى . فالكل هنا ، وحتى أنا ، يشتغل في الأرض ، وانا شخصياً أشتغل وكأنه قد حكم علي بالأشغال الشاقة . . . ان الذي لا يعمل يحشو رأسه بالافكار الفارغة . . . ففكروا في هذا اذن واتخذوا قراركم دون تسرع .

ـ اننا فكرنا في الامر ملياً يا قسطنطين فيودوروفتش . وقد قال لنا كبارنا ان فلاحيك جميعهم أغنياء بجهدهم وعملهم ، وان كهنتك رجال طيبون بالفعل . اما عندنا فقد ساءت الامور الى حد لم يعد هنالك من يصلي على الاموات .

ـ ليكن . . . ومع ذلك اذهبوا وتشاوروا !

ـ حسناً اتفقنا .

ـ وعند ذلك قال الآخر :

ـ وأخيراً ألا تريد ان قسطنطين فيودوروفتش ان تنقص السعر قليلا ؟

ـ لقد سبق ان قلت اني أشمئز من المساومة . اني لا أشبه ذلك الملاك الذي تذهب لمساومته عشية استحقاق الدفع . انا أعرفكم كلكم وأعرف أن لديكم قوائم فيها اسماء جميع النبلاء المديونين ، فعندما تأتون لمساومتهم يكونون مغتبطين جداً بالبيع حتى بنصف الثمن الحقيقي ، وأما أنا فلا حاجة لي بنقودك وكل ما عندي أستطيع أن أدعه مكانه ثلاث سنوات على أقل تقدير .

ـ أنا لا أخالفك يا قسطنطين فيودوروفتش واني لا أعاملك لأجل فائدة مؤقتة بل لأتعامل معك في المستقبل . خذ هذه الثلاثة آلاف روبل .

وتناول كونستانجوغلو النقود بيرود ووضعها دون أن يعدها في جيب معطفه. وفكر تشتشيكوف : « انه يظن النقود منديلاً للجيب ! »

ودخل كونستانجوغلو ردهة الاستقبال فاعجب تشتشيكوف بكثافة شعره الاسود وشعلة النشاط المتقدة في عينيه وانطلاقه الذي يعود الى أصله الجنوبي . ذلك ان كونستانجوغلو ليس من أصل روسي صاف . وهو نفسه يجهل ماذا كان عليه أجداده ، ولم تكن الانساب تهمه في قليل أو كثير ، فهو يتكلم الروسية ولا يحسن غيرها ولذلك فهو روسي .

وعرف بلاتونوف تشتشيكوف عليه فتعانق الرجلان :

ـ ياعزيزي قسطنطين سأسافر بعض الوقت لأشفي نفسي من السآمة والملل . ولقد عرض علي بافل ايفانوفتش ان أسافر معه من مقاطعة الى أخرى .

فالتفت قسطنطين نحو تشتشيكوف وسأله بأدب :

ـ حسنا والى أين أنتما ذاهبان ؟

فأجاب بافـــل ايفانوفتش وهـــو يحـني رأسه الى اليسار قليلاً ويداعب ذراع المقعد بيده :

ـ أعترف ذلك بأني لا أسافر من اجل أعمالي الخاصة بـل من أجل الجنرال بتريشتشف ، فقـــد رجاني ان أزور أصدقـــاءه فاستفدت من الفرصـة للسفر لان هذا يسرني . ذلـك ان الانسان يرى العالم ويدرس البشر والحياة كـتاب مفتوح او علم آخر .

ـ اجل أنه لمن الجيد ان نتعرف على بلاد جديدة .

ـ هذا صحيح جداً ان الانسان يرى في البلاد الاخرى أشياء جديدة لم يرها من قبل ، ويصادف أناساً لم يحدث له ان صادفهم قبل ذلك والحديث مع مثل هؤلاء الناس يساوي ذهباً ؛ انت محترم جداً ياقسطنطـين فيودوروفتش واني أتوجه اليـك . . . علمـــني علمـــني . . . إرو ظمئـــي الى معرفة الحقيقة النقية الصافيـة .

فسأل كونستانجوغلو :

ـ كيف ؟ ولماذا ؟ واعلمك ماذا ؟ لقد تلقيت تربية سيئة للغاية .

فهتف تشتشيكوف :

ـ حدثني عن الحكمة . . . الحكمة في حسن ادارة الامـــلاك الزراعية . حدثني عن كيفية الحصول على موارد ثابتة جيدة دون حلم او نوم متمماً بذلك واجبك كمواطن صالح ومستحقاً احترام الجميـع !

فاجاب كونستانجوغلو :

ـ اسمع اذن . . . ابق هنا يوماً فأريك اراضي واوضح لك كـل شيء وعند ذلك ترى انه ليس هناك من حكمة .

وقالت ربة المنزل :

ـ ابقينا هنا إذن !

ثم توجهت الى اخيها قائلة :
– ابق هنا يا اخي ، لم العجلة ؟
– ليس من مانع لدي شريطة ان يوافق بافل ايفانوفتش ·
فقال تشتشيكوف :
– كنت ابقى لولا اني اريد ان أرى اقارب الجنرال بتريشتشف كالكولونيل كوشكاريف مثلاً ·
– كوشكاريف ؟ ولكنه مجنون !
– اعرف ذلك وما كنت اذهب اليه لو لم يكن الجنرال صديقاً عزيزاً علي.
فقال كونستانجوغلو :
– إذن اذهب اليه دون ان تضيع الوقت ، فبيته يقع على مبعدة عشرة (فرستات) من هنا ؛ ولدي عربة مجهزة تستطيع ان تذهب فيها الآن وتعود قبل وقت الشاي ·
فهتف تشتشيكوف وهو يتناول عمرته : « انها لفكرة حسنة ! »
ومضت العربة · وبعد نصف ساعة وصل بافل ايفانوفتش الى قرية كوشكاريف وكانت الفوضى تخيم على هذه القرية · ففي كل مكان تقوم اعمال البناء بين القاذورات والآجر ، بينما الاعمدة تملأ الطرقات · وكان للبيوت مظهر المؤسسات الحكومية وقد كتب هنا وهناك بأحرف مذهبة : « مستودع أدوات الري » و « الادارة المركزية للمحاسبة » و « لجان الشؤون القروية » و « مدرسة تعليم الفلاحين » وأشياء اخرى يعلم بها الشيطان ·
وجد تشتشيكوف الكولونيل في مكتبه وقد وضع في فمه ريشة · واستقبله الاخير بحرارة وكان يبدو عليه انه رجل طيب عذب . وسرعان ماقص على تشتشيكوف كم لاقى من العناء ليسبغ على القرية الازدهار الذي تتمتع به حالياً . وكان يشكو من صعوبة إفهام الفلاح مقاصد العلم والفن والخير الذي يجلبه . كما انه لم يستطع إقناع الفلاحات بلبس المشدات في الوقت الذي رأى فيه

في المانيا مع فرقته عام ١٨١٤ ابنة طحان بسيط تجيد العزف على البيانو. والخلاصة انه استطاع رغم عمق الجهل البشري ان يقنع فلاحيه بتعلم القراءه من نصوص فرجيل وكتب الكيمياء .

وفكر تشتشيكوف : « هذا حسن وأنا لم أجد دقيقة واحدة لأنهي فيها دوقة دولافالير »

وتكلم كوشكاريف بعد ذلك طويلاً عن السعادة البشرية ووسائل تنظيمها وكان يلح كثيراً على أهمية اللباس واقسم انه لو لبس الفلاحون الروس الزي الألماني لازدهرت العلوم والفنون والتجارة في أنحاء الروسيا ولعاشت البلاد في عصر ذهبي عظيم . واصغى اليه تشتشيكوف طويلاً وقال في نفسه : « لاداعي للشروح الطويلة والمقدمات مع مثل هذا الانسان ! » وهكذا حدثه مباشرة عن حاجته الى النفوس الميتة والى عقد بيع شرعي فأجاب الكولونيل .

ـ حسبما فهمت من كلامك ، انك ستطلب مني شيئاً .

ـ تماماً !

ـ اذن قدم طلباً مكتوباً بماتريد وضعه في مكتب التقارير والعرائض فيعلق على طلبك ويأتي الى ، وانا أحوله الى لجنة الشؤون القروية ، ومن هناك يحول الى الوكيل وهو بالاتفاق مع سكرتير ... فهتف تشتشيكوف :

ـ يالله هذا يدوم قروناً طويلة . ثم كيف يمكن الحديث عن اشياء كهذه كتابة .. . فالنفوس الى حدما ... ميتة .

ـ حسنا اذن انها الى حدما ميتة ؟

ـ انها ميتة .،. ولكن لايمكن كتابة ذلك لأنها في نظر القانون حية .

ـ هذا عظيم .. فلتكتب اذن انه يجب ان تعتبر هذه النفوس ميتة .. ان لاشياء المكتوبة وحدها ذات قيمة عظيمة . مثال ذلك : انكلترا بلهنابوليون! نتظر قليلا سأدعو الساعي لمرافقتك .

وقرع الكولونيل جرساً دخل لدى سماعه رجل فقال له :

ـ ادع الساعي ايها السكرتير !

وجاء الساعي ولم يكن يشبه الموظفين او الفلاحين .

ـ اذهب معه فسيرافقك .

ورأى تشتشيكوف ألا فائدة من الاعتراض ، فقرر ان يرافق الساعي ويستفيد من الفرصة لارضاء فضوله برؤية المكاتب . ولم يكن لمكتب التقارير وجود إلا على اللافتة . وكان رئيسه كروليف يدير لجنة الابنية القروية الجديدة فحل محله الخادم بيروزفسكي ، ولكنه كان هو الاخر في لجنة الابنية . وذهب تشتشيكوف الى مكتب اللجنة ولكن كانت التصليحات قائمة فيه على ساق وقدم ، فأرغم على ايقاظ سكير لم يستطع ان يقدم له أية معلومات . وقال الخادم مخاطباً تشتشيكوف :

ـ أرأيت ، ان الفوضى مخيفة هنا .. والكل يعمل بالسيد كما يريد . والذي يحكم هنا هو لجنة تصليح الابنيـة ، فهي تأخذ الموظفين من المكاتب الاخرى وترسلهم الى اي مكان .

كان واضحاً أن الرجل يحقد على لجنة تصليح الابنية . ورفض تشتشيكوف ان يقوم بخطوة اخرى ،وعندما رأى الكولونيل قال له ان لم يستطع ان يفعل شيئاً بسبب الفوضى المنتشرة . فاستشاط الكولونيل غضباً وشد على يد تشتشيكوف علامة الامتنان ، ثم امسك بريشتـه واخذ ورقة و كتب عليها ثمانية اسئلة : بأي حق يتصرف مكتب تصليح الابنية بالموظفين الذين لايتبعونه ! كيف سمح المدير للرئيس بالتغيب دون التأ كد من وجود من يقوم مقامه ؟ كيف تسمح لجنة الشؤون القروية بعدم وجود مكتب التقارير ؟

وفكر تشتشيكوف : « ان العاصفة ستثور » وهتف الكولونيل :

ـ لن ادعك تنصرف . ان كرامتي قد مست . وسأثبت قوة الادارة المنظمة ، كما سأعهد بطلبك الى رجل يساوي وحده الاخرين مجتمعين ، أنهى

دراسته الجامعية ... هؤلاء هم العبيد الذين املكهم ... ولن أضيع وقتك الثمين . ارجوك اتبعني الى مكتبتي فستجد فيها كتباً واوراقاً وريشاً واقلاماً، وكل شيء فيها تحت تصرفك ذلك ان الثقافة ملك للجميع .

وكان كوشكاريف وهو يتحدث هكذا يدخل تشتشيكوف الى المكتبة .

كانت غرفة كبيرة ملأى بالكتب والحيوانات المحنطة . وكان هناك كتب للتاريخ والزراعة والكيمياء كما توجد مجلات من مختلف انواع المعرفة الانسانية ارسلت كلها بناء على طلب رسمي بالاشتراك . ومع ذلك فانه لم يقرأها احد . وكل هذه الكتب لم تكن بقادرة على ان تجعل الانسان يقضي ساعة انتظار مسروراً . ونظر تشتشيكوف الى رف آخر فشاهد عليه كتباً فلسفية» . وكان هناك ست كتب تحمل العنوان التالي : « المدخل الى علم التفكير الانساني . « نظرية الجوهر » وفتح تشتشيكوف الكتب مقلباً فلم يشاهد فيها الا كلمات من امثال : تجريد ،جيل ،تطور ، تركيز . فقال في نفسه : « هذا كثير علي» وانتقل الى رف ثالث فوجد كتباً فنية فأخذ واحداً حشي بصور الاساطير . وكانت هذه الصور ترضي العازبين والكهول الذين يحبون مشاهدة صور الباليه والمشاهد المثيرة الداعرة . وكان بافل ايفانوفتش قد قلب كتابا آخر فيه كثير من الصور عندما دخل كوشكاريف وهتف :

ـ لقد انتهى كل شيء بشكل مدهش . ان الرجل الذي حدثتك عنــــه عبقري بالفعـــل ... سأعينه رئيساً على جميع مكاتبي . وهو فريد في ذكائه فقد حل لي جميع مشاكلي بدقيقة واحدة .

وفكر تشتشيكوف : «لحسن الحظ» ثم استمع الى ما قرأه عليه كوشكاريف : بناء على امر سعادتكم لي الشرف ان اعرض مايلي :

١ ـ ان في الطلب الذي قدمه الفارس بافل ايفانوفتش مستشار الدائرة الانتخابية مايدعو الى سوء التفهم . فالنفوس المطلوبة سماها ميتة ولا شك انه اراد ان يقول « المعرضة للموت » . وفي هذه الحالة يكون قد دل على معرفة

عميقة بالعلوم التي تدرس في المدارس الابتدائية القائلة بأن النفس خالدة .

وهتف كوشكاريف :

ـ ياله من خبيث ، لقد سخر منك عندما ذكر كلمة المدارس الابتدائية . ولكني اعترف بأن أسلوبه فخم . ثم تابع القراءة :

٢ ـ اننا لا نملك في الوقت الحاضر نفساً واحدة معرضة للموت فضلا عن ان جميع النفوس التي لدينا مرهونة عدا نفوس قرية غور ميلوفا الصغيرة التي تتنازع ملكيتها مع جارك بريد يتشف . ولذا فلامجال للتصرف فيها كما جاء في العدد ٤٢ من جريدة « اخبار موسكو » .

وهتف تشتشيكوف دون ان يخفي غضبه :

ـ ولماذا لم تقل هذا من قبل ؟ ولماذا تركتني انتظر كل هذا الوقت لأسمع هذه السخافات .

ـ كنت اريد ان أعلمك بهذا بالطريقة القانونية التي هي الكتابة . ان ايغبي بكنه ان يصرف الامور هكذا ولكن يجب ان يعلم ...

الا ان تشتشيكوف قام فجأة واخذ عمرته وفر راكضاً ناسياً جميع قواعد الادب ، اذ انه كاد يختنق من الغضب وكان الحوذي هو الآخر ينتظر . وقد علم انه لافائدة من حل الخيل لعلفها ، إذ عليه ان يقدم طلباً خطياً وينتظر الجواب الى اليوم الثاني تترك الجياد في هذه الاثناء دون إطعامها . وركض الكولونيل خلف بافل اتفانوفتش وامسك بيده وضغطها على قلبه وشكره لأنه سمح لنفسه بمشاهدة كيفية تنظيم اعماله .

وقد خطرت فكرة جديدة على باله وهي إنشاء لجنة جديدة لمراقبة لجنة تصليح الابنية . وعند ذلك لن يجرؤ احد على السرقة والاسراف .

وعاد تشتشيكوف الى قرية كونستانجوغلو ينتفض من الغضب ، وكان الوقت متأخراً فسأله كونستانجوغلو

ـ ولماذا تأخرت ؟

وقال بلاتونوف :

- اذن فقد تناقشت معه ؟

فصاح بافل ايفانوفتش :

- لم أر في حياتي مثل هذا المجنون !

وقال كونستانجوغلو :

- ليس هذا بشيء . ان كوشكاريف انسان ضروري كصورة صحيحة صادقة عن جميع مثقفينا الذين لم يتعلموا شيئاً ، ولكنهم قلدوا سخافات الآخرين . ان لجميع ملاكينا مكاتب ومصانع ومدارس ولجاناً .

آه من هؤلاء الناس ! لقد املنا منهم ان يعقلوا بعد حرب ١٨١٢ . ولكن تبين انهم غير قابلين للشفاء ، فقد فعلوا أسوأ مما فعله الفرنسيون كبيوتر ايفانوفتش بيتوخ مثلا ، ذلك الانسان الذي تعرفه .

- انه لمسكين ... لقد رهن جميع عبيده !

فقال كونستانجوغلو متمما :

- بل سيرهن جميع ما يملك . ذلك انه استقدم عمالاً من لندن ليقيموا له مصنعاً للقناديل ... تصور أن ملاكا يصنع القناديل . وهناك ايضاً شيء آخر . لقد استقدم آلات للنسيج ليصنع ثياباً لعذارى المدن الجميلات .

فقال بلاتونوف :

- وانت ايضاً ، يوجد عندك مصانع .

- اجل ، ولكن من الذي انشأها ؟ لقد وجد عندي صوف اكثر مما يجب فبدأت بصنع الجوخ بسعر بخس للفلاحين المحتاجين اليه . وتجمعت لدي كذلك اصداف اسماك على الشاطىء فصنعت منها عقوداً وربحت اربعين الف روبل ، هذه هي اعمالي .

ففكر تشتشيكوف : « هذا الحيوان المحتال ، انه ماهر جداً ! » وتابع كونستانجوغلو :

ـ اذا كنت قد انشأت هذه الصناعات فذلك لان عدداً كبيراً من العمال كان من الممكن ان يموتوا جوعاً في سنة حدثت فيها المجــاعة بسبب السادة الملاكين الذين نسوا موسم البذار . اني استطيع ان ابني كل سنة معملاً من المواد التي تبقى عندي ، بل اني استطيـع ان اكون ثروة من الاشياء التي ترمى في القاذورات . فأنا لا أبني القصور من الاعمدة بل اشتغل واكد .

ـ هذا عظيم وخاصة الاغنياء من الاقذار .

ـ اجل شريطة ان تنجز اعمالك بسرعة وبساطة ، ان كل انسان يمكنه ان يصل الى غايته بالجهد المستمر . ولكن بيتوخ يذهب من اجل ذلك الى انكلترا وسيعود منها بلا ريب أشد غباء مما كان .

وبصق كونستانجوغلو على الارض احتقاراً وتابع :

ـ وكيف لا اغضب ؟ لو كان الامر متعلقاً بغريب لهان كل شيء . ولكن الامر يهمنا إذ أنه من المؤلم ان يفكر الانسان في ان الطبيعة الروسية تسير نحو الفساد . ان شيئاً من الاخلاق الدونكيشوتية يداخل اخلاقنا وهذا شيء مستجد فما إن يتعلم الروسي قليلاً حتى يلد فيه دون كيشوت جديد فيبني مدارس لا يبنيها أي غبي . واما الذين يتخرجون من هذه المدارس فلا يصلحون لشيء ابداً ، لا للمدينة ولا للقرية . بل يصبحون سكيرين ممتهني الكرامة . ان بلادنا التشغف بالفلسفة وقد بدأت تصبح دون كيشوت في حبها للانسانية ، وتنفق الملايين على مستشفيات للحمقى ، وتشيد القصور الفخمة وفي اقل من اسبوع تلقي بموظفيها قارعة الطريق دون ان يكون في جيبهم كوبيك واحد .

لم يكن تشتشيكوف يهتم بهذا المظهر من الثقافة الروسية ، فقد كان يريد ان يسأل كونستانجوغلو عن الوسيلة التي يكون بها ثروة من القاذورات . ولكن الاخير لم يدع له فرصة للحديث لانه تابع دون ان يتوقف :

ـ وهم يعتقدون انهم يعلمون الفلاح ... ليجعلوا منه غنياً ومزارعاً ممتازاً والباقي يتم من تلقاء نفسه . أحقاً انك لا تعرف شيئاً عن هذا ؟ ان الانسان

ليعتقد ان جميع الناس قد اصيبوا بمس جنون ... وهؤلاء الكتاب ، انهم يكتبون في كل موضوع ، وما إن يصدر كتاب حتى يتهافت الجميع عليه ، وماذا يقولون ؟ انهم يقولون : « ان الفـــلاح يعيش حياة بسيطة جداً » فيجب ان نعرفه على الحياة الرخية لنوحي اليه بالمطالبة بحياة أفضل ، وماذا أصبح هؤلاء السادة الذين يبشرون بالرضاء ... لقد اصبحوا أرقاماً جامـدة لا رجالاً ! فهم يعانون جميع الامراض ، وهم مصابون بالصلع ويريدون إفساد الفلاحين وتأليبهم علينا . ولنحمد الله على ان هذه الطبقة غير قابلة للفساد . فالفلاح مازال يستحق التقدير ... فلا تبدلوه بل يجب تصبحوا كلكم مثله .

فسأل تشتشيكوف :

ـ واذن فانت تعتقد ان الزراعة هي الوسيلة الوحيدة للثراء .

فأجاب نونستانجوغلو :

ـ ليست تقدم اعظم الموارد فحسب ، بل أنظفها ايضاً وأعد لها وقد قيل : « ازرع الارض بعرق جبينك » ومن أجل هذا لا حاجة بنا للحكمة . وقد اثبتت القرون ان المزارع أشد الناس تمسكا بالاخلاق وأشرفهم وأجملهم . وانا لا اقول انه يجب الا نهتم بغير الزراعة وإنما اريد ان تكون الزراعة أساس كل شيء . فعند ذلك تقوم المصانع من تلقاء ذاتها . وانا هنا اتكلم عن المصانع الطبيعية التي تلد من حاجـات الشعب وليست تلك التي تنشأ عن مطالب الترف الذي يشوه الانسانية . فهذه المصانع تزدهر بوسائل مفسدة للشعب وانا لن أسمح مطلقاً بأن تقام هنا معامل للتبغ والكحول والسكر ، حتى ولو كنت أربح منها الملايين . فاني لا اريد ان أساهم في إضعاف الشعب وإفساده لاني أرغب بالعودة الى الله نقياً . وانا احيا منذ عشرين عاماً مع الفلاحين واعرف جميع مايحتاجون اليه .

فقاطعه تشتشيكوف مرة أخرى قائلًا :

ـ ان الذي يدهشني هو أن أراك تكون ثروة كبيرة من الفضلات والقاذورات المختلفة ..

ولكن كونستانجوغلو تابع دون ان يصغي الى تشتشيكوف .

— آه من الاقتصاديين ... انهم أشبه شيء بحمار يجلس على كرسي ويضع على عينيه نظارتين ... آه من الحماقة الانسانية .

ومن جديد بصق كونستانجوغلو على الارض غاضباً فقالت زوجته :

— كل هذا صحيح ولكن ارجو ان تتعلم عند الحديث عن مثل هذه الاشياء ألا تغضب .

وقال تشتشيكوف :

— عندما يسمعك المرء وانت تتكلم ياقسطنطين فيودوروفتش يفهم معنى الحياة الحقة ويدخل في صميم المشكلة . ولكن دعنا من المسائل العامة ولندخل في بحث المسائل الشخصية الخاصة ... سأفترض بأني أصبحت ملاكا ، فكيف أصنع لأقوم بواجباتي كمواطن وأغتني ؟

فهتف كونستانجوغلو :

— كيف تعمل لتغتني ؟ اسمع سأقول لك كيف يكون ذلك !

فقاطعته زوجته :

— لننتعش الآن !

وقامت من مكانها وتدثرت بشالها كما لوأنها تشعر ببرد شديد .

فقفز تشتشيكوف من مقعده برشاقة عسكرية وقدم لها ذراعه وقادها باحترام جم الى غرفة الطعام . كان الحساء قد وضع على المائدة وكانت روائح الخضار الذكية منتشرة في جو الغرفة . جلس الجميع على مقاعدهم وقدم الخدم جميع الاصناف ثم اختفوا . وكان كونستانجوغلو يردد دوماً بان الخدم يجب ألا يسمعوا مايقوله السادة ، ثم انه لايحب بالاضافة الى ذلك ان يشعر بأنظارهم تلتهمه وهو يأكل .

وبعد ان انتهوا من الحساء شربوا كأساً من الخمر قال تشتشيكوف :

— اسمح لي ياقسطنطين فيودوروفتش ان اعود الى حديثنا . لقد كنت

اسألك كيف يمكن ان اغتني بسهولة (١) ؟

وقال كونستانجوغلو :

– وقد كنت اشتري تلك الاراضي التي طلب ثمنها اربعين الف روبل .

فقال تشتشيكوف :

– واذن لماذا لم تشترها ؟

– يجب على الانسان ان يعرف كيف يقف عند حده . ان عندي مايكفيني من الاراضي وعلاوة على ذلك فان نبلاءنا ناقمون علي وهم يتهمونني باستغلال فقرهم فاشتري الاراضي الجيدة بالاثمان البخسة . وهذا مايتعبني .

فهتف تشتشيكوف :

– اني أود لو استطيع أن أكون خنزيراً مثلك .

– انها حماقات ... وماهي بحبوحة العيش التي ينعمون بها ! ان عندهم كتباً لايقرأونها وينهون كل شيء بلعب الورق . انهم ينقمون علي لأني لاأدعوهم للغداء ولاأقرضهم المال . اني لاادعوهم الى الغداء لان المآدب تتعبني ولاني لست معتاداً عليها . وهم اذا كانوا يحبون مشاركتنا طعامنا فما عليهم إلا أن يأتوا . واما اذا حتاج احدهم للمال وجاء إلي وبين لي كيف سيتصرف به ، فاني بلا ريب سأقرضه الكثير ،و دون فائدة ، اذا رأيت انه سيستفيد من اموالي ويزيد من موارده .

وقال تشتشيكوف في نفسه : « اني ارى هذا » . وتابع كونستانجوغلو :

– أنا لا ارفض طلباً كهذا ، واما ان القي بالمال من النافذة فلا ... ليذهب بهم الشيطان ، فاذا كان المال سيذهب الى العشيقات والاثاث والترف والحفلات ... فلن اعطيهم شيئاً ، مطلقاً !

وبصق كونستانجوغلو وكاد ان يفلت بحضور زوجته بعض النعوت القبيحة . وخيمت سحابة من الكآبة على وجهه ، وتغضنت جبهته علامة الانفعال الشديد

---

(١) وهنا ايضاً عدة صفحات مفقودة من المسودة الاصلية .

الذي يعانيه وقال تشتشيكوف وهو يجرع كأساً من الخمر اللذيذ :

ـ اسمح لي ان اعود بك الى حديثنا . كم من الزمن يعوزني كي اثرى اذا اشتريت الاملاك التي تكلمت عنها ؟

فاجاب نونستانجوغلو بلهجة جافة قاسية :

ـ اذا اردت ان تغتني بسرعة فلن تغتني مطلقاً . ولكن اذا شئت الاثراء دون ان تعين زمناً بالذات فانك ستغتني بسرعة .

فقال تشتشيكوف :

ـ ماذا ؟ ماذا ؟

فهتف كونستانجوغلو بضيق وكأنه يحمل على بافل ايفانوفتش :

ـ بالطبع يجب ان يحب الانسان الارض التي يملكها . واؤكد لك ان الامل غير ممل ، وما الذين يقولون انهم يسأمون في الريف الا بلهاء . وانا أموت مللًا لو قضيت اربعاً وعشرين ساعة في المدينة مع هؤلاء السادة في نواديهم وحاناتهم ومسارحهم . ان الجيل الحاضر انما هو عبارة عن مجموعة من الحمير والاغبياء . وأن الملاك لا وقت عنده للملل إذ ليس في حياته مجال فارغ . فلديه أنواع من المشاغل مختلفة تسمو بالنفس فعلًا . يعمل الانسان في الطبيعة مع الفصول وهو يشرك في جميع اعمال الخليقة . انظر الى عملنا السنوي : فقبل الربيع يعد كلا شيء بانتظار الفصل الجديد ، كالبذار وتنظيم الحبوب وتقسيم الاراضي على العبيد لبذرها ، كل ذلك يعد ويحسب له حساب مسبق . وعندما تذوب الثلاجات وتجف الاراضي ، تعود الحياة الى الحقول فتبذر وتزرع ... أنك تفهمني أليس كذلك ؟ اننا نزرع إذ ذاك مسرات الحياة وغذاء الملايين من بني الانسان . وما ان يأتي الصيف حتى نبدأ بحصاد الشعير والشوفان ويسودجو من النشاط والعمل ولا يكون لدى الانسان دقيقة يضيعها ، ولو كان له عشرون عيناً لما كفاه ذلك . ويأتي من ثم وضع الحبوب داخل المخازن . وتأتي بعد ذلك حراثة الخريف ويقبل فصل البرد فتصلح المخازن والاسطبلات وغير ذلك ؛

ويبدأ عمل النساء ، وكل هذا انما هو كمية هائلة من الطاقة الانسانية . اما في الشتاء فاننا نذهب الى المطاحن والمصانع واقوم أنا بزيارة الفلاحين ، فاذا رأيت فلاحاً يحرك فأسه بمهارة فاني اقف لاشاهده مدة ساعتين دون ان امل لان ذلك يدخل السرور الى قلبي ! وعندما افكر في الغاية من هذه الجهود وكيف ان الاشياء تتضاعف ثم تتضاعف لتكون مواد مختلفة واموالاً ، فانك لا تستطيع تصور الفرح الذي يغمرني . وليس هذا الشعور ناشيء من اجل المال فحسب بل هو شعور خاص ينتابني فأحس بأني انا الذي عملت هذه الاشياء كأني ملاك يخلق السعادة والازدهار .

وتابع كونستانجوغلو وقد زالت الغضون من جبهته :

ـ اني لا اعرف فرحاً مضاهياً لهذا الفرح .. ان الانسان هنا يقوم بعمل الخالق ، انه يقلد الله . وقد اعتبر الله العمل الخلاق بمثابة السعادة المطلقة . ولذا فهو يطلب من الانسان ان يعمل هو الآخر لسعادة محيطه .. ومع ذلك فانت واجد من يتجرأ فيقول انه يسأم هذا العمل .

وبدا تشتشيكوف وكأنه يصغي الى اغاريد طائر سماوي، فقد كانت عيناه وشفتاه وكل ما فيه يعبر عن النشوة العميقة والراحة والاطمئنان .

وقالت زوجة كونستانجوغلو وهي تقف :

ـ قسطنطين ! لقد حان الوقت .

فوقف الجميع اقتداء بها ، ومن جديد قدم تشتشيكوف لها ذراعه ، ولكنه كان اقل خفة ورشاقة من السابق إذ اخذت افكاره اتجاهاً واقعياً مادياً .

وتمتم بلاتونوف :

ـ انت تستطيع ان تقول ما تشاء . ولكن الحياة نفسها تحمل في ذاتها الملالة .

وفكر قسطنطين : « ان ضيفنا لا يبدو عليه الحمق ، فهو يصغي كثيراً ويتكلم قليلاً » . وكان كونستانجوغلو سعيداً إذ وجد في النهاية رجلاً يعرف كيف يستمع الى نصائحه .

اخذ الجميع امكنتهم في ردهة الاستقبال الصغيرة قرب الشرفة واخذوا يتأملون النجوم المشعة في السماء . وكان تشتشيكوف فرحاً جداً اذ خيل اليه انه بدأ يستريح اخيراً في بيته بعد تشرده الطويل ، فآماله قد بدأت تتحقق بعد حديث كونستانجوغلو الذي خلق في نفسه هذا الشعور .

إن من الاحاديث مايثير النفس ويخلق فيهـــا الحماسة اكثر من اي حديث آخر . ولو ان المسافر الضائع في الصحراء صـــادف انساناً ما فان الكلمات الدافئة تنسيه الطرقات السيئة وفقدان الملجأ . ذلك ان الامسية التي يقضيها معه تنقش في ذاكرتـه فلا ينسى شيئاً من حركات الرجل ، بل هو يذكر اصغر الدقائق وأبسط التفاصيل .

في تلك الليلة لم يفت تشتشيكوف ان يلاحظ كل شيء في الغرفـــة ذات الاثاث البسيط الانيق ، كما لم ينس الادوات التي زينت بها الجدران اوالغليون الذي دخن فيه بلاتونوف ، ولا ابتسامة ربة البيت لحببة وهي تقول لأخيهـــا عندماينفث الدخان فيخياشيمالكلب يارب : « كفى لاتعذب هذا الحيوان المسكين ! » وكذلك لم ينس الشموع اللاهبة ولا النوافذ الجميلة ولاالليلةالربيعية المنورة بالنجوم والحافلة بغناء العصافير .

وقال تشتشيكوف :

ـ ايها المحترم جداً ! ياقسطنطين فيودوروفتش ، ان لكلماتك وقعاً عذباً عندي . وأستطيع القول بأني لم أصادف في روسيارجلًا له مثل ذكائك ! .

وابتسم كونتسا نجوغلو ، لقـــد كان يشعر ان هناك بعض الحقيقـــة في هذه الكلمات :

ـ لا ... اذا أردت ان ترى رجلًا ذكياً فعلًا ، فاني اعرف شخصاً هو بكل تأكيد أحد مني ذكاء .

فسأله تشتشكوف مندهشاً :

ـ ومن هو ؟

– المزارع موزارف

فهتف بافل ايفا نوفتش:

– تلك هي المرة الثالثة التي اسمع فيها بذكره

– انه رجل قادر ليس على ادارة أملاكه فحسب ، بل على إدارة مقاطعة او دولة . ولو كنت ملكاً إذن لعينته فوراً وزيراً للمال .

فقال تشتشيكوف :

– انه انسان مشهور بالفعل ، ويقال إنه جمع ثروة تقدر بعشرة ملايين .

– عشرة ملايين ... ! ان ثروته تقـــدر بأكثر من اربعين مليونا . ولن يمضي وقت طويل قبل ان يصبح مالكا لنصف روسيا .

فهتف تشتشيكوف و كان يصغي اليه فاغر الفم مشدوهاً :

– ماذا تقول ؟

– اني مقتنع بما أقول ، وهذا أمر واضح . فمن يملك مئات الألوف يغتني ببطء ، أما من يملك الملايين فان مجال العمل والنشاط فسيح أمامه . وكل ما يصنعـــه يتضاعف او يعطي ثلاثة أمثاله ؛ ولن يكون له منافس لان مناضلته مستحيلة ، وهو يشتري بالسعر الذي يريده .

وكاد تشتشيكوف ان يختنق بسعاله حين تمتم :

– يالله ! ولكن هذا غير معقول ... لقد أذهلتني ... يستطيع الانسان ان يتأمل عظمة الخالق ، ولكن الاعجب والاعظم من هـذا ان يشاهد انساناً يملك هذه الثروة الهائلة . اسمح لي ان اسألك ... ان مثل هذا المال لا يمكن ان يتجمع دون خطيئة .

= على العكس ، كانت وسائله شريفة ، لقد جمع ثروته بطريق مشروع .

= لا أستطيع تصديق ذلك ... ان الالوف معقولة نوعاً ما ، ولكن ... ولكن الملايين ! ...

= بالعكس ، ان الالوف تأتي بالسرقة اما الملايين فتتجمع بسهولة . ان

المليونير لا يحتاج الى الالجوء الى طرق غير مشروعة .٠٠ انه يمشي مستقيما الى الامام ، ويأخذ كل ما يراه ، ولا يكون لدى غيره القوة والمقدرة على منافسته. ما اصحاب الألوف فعدد المتنافسين بينهـــم يرتفـــع الى عشرة او عشرين بل الى مائة .

– انه لمن المستغرب أن تبدأ هذه الــثروة ببضعة كوبيكات فاجاب كونستانجو غلو :

– ولكن الامر لا يمكن ان يكون غير ذلك حسب منطـق الاشياء . فمن يلد ومعه آلوف الروبلات ، فأنه يتلقى علومــــهـا ولا يحصل على شيء اطلاقاً . وعلى الرجل ان يبدأ من بدء الاشياء لا من أواسطها . يجب ان يبدأ بالكوبيك لابالروبل ، عند ذلك يمكن ان يعرف الناس والحياة معرفة جيدة، فيصبح رجلًا قويا بمقدوره ان يذلـل العقبات . واذا لاحظ الانسان أن كل كوبيك لا يأتيه الا بمشقـــة فاني اقسم لك انه يرتكب خطيئات اقل . — صدقني ان الانسان يجب عليه ان يبدا من البداية لا من الوسط . وانا لا اثق مطلقاً بمن يقول لي :

« اعطني مائة الف روبل لاصبح ثرياً على الفور » ان مثل هـذا الرجل لن يمشي مشية الواثق المدرك ، بل هو سيتصرف بطيش . . . يجب على الانسان ان يبدأ بالكوبيك .

فهتف تشتشيكوف وهو يفكر رغماً عنه بالنفوس الميتة :

– اذن سأصبح غنياً لاني ابدأ الصفر فعلًا ؟

وقالت زوجة كونستانجوغلو :

– قسطنطين ، لقـد حل موعـــد النوم ... انك تثرثر كثيراً . وقال كونستانجوغلو دون ان يرد على زوجته :

– بالتأكيد ستصبح غنيـــاً ... ستسيل انهـــار الذهب بقربك ولن

تعرف ماتصنع بها .

وكان بافل ايفانوفتش مغموراً بالنشوة مأخوذاً بهذه الاحلام الذهبية ، فطارت افكاره الى انهار الذهب وترددت اصداء عبارة كونستانجوغلو في أذنيه عذبة طربة : « ان انهار .. الذهب . . ستسيل ... »

– أؤكد لك ياقسطنطين انه آن لبافل ايفانوفتش ان ينام !

– وماذا مايهمك .. اذهبي انت للنوم اذا كنت ... وسكت ... لقد رأى بلاتونوف يغط في نومه فوق مقعده ، وكان شخير الكاب يارب أقوى من شخيره ... عندذلك تحقق كونستانجوغلو ان الوقت متأخر بالفعل ، فهز بلاتونوف وقال له :

– هيه ! كفاك شخيراً !

ثم التفت الى تشتشيكوف وتمنى له ليلة سعيدة وانصرف .

انقضى وقت طويل على تشتشيكوف وهو لايستطيع النوم . ذلك ان احلامه أرقته كثيراً ، كان يفكر في الوسيلة التي يستطيع بها ان يحصل على املاك حقيقية لاخيالية . لقد اتضح كل شيء بعد حديثه مع كونستانجوغلو وطرق الاغتناء واضحة الآن ، وادارة الاملاك مهما بدت صعبة يمكن تسهيلها ... انه سيحصل على المال اللازم مقابل نفوسه الميتة . وخيل اليه انه يرى نفسه على رأس ملكية يديرها حسب نصائح كونستانجوغلو بذكاء وحرص مكتفيا بتجارب الماضي متفحصاً كل شيء بنفسه ومتعرفاً على جميع فلاحيه ، تاركا الترف والبذخ ومنصرفاً الى الجد والعمل . وبدأ تشتشيكوف يتمتع بالسرور الذي سيشعر به عندما يسود النظام وتدور جميع الآلات ، وتمثلت أمام ناظريه صورة الملاك الكامل . كان كونستانجوغلو أول رجل في الروسيا شعر تجاهه بالاحترام العميق . فهو حتى الآن لم يحترم احداً ، لا من أجل طبقته وثروته ، ولا من اجل ذكائه قبل كونستانجوغلو ، واخذ مشروع آخر يداعب خيال تشتشيكوف . انه يريد شراء اراضي خلوبرنيف فلديه عشرة آلاف روبل

وسيستدين من كونستانجوغلو خمسة عشر ألفاً . أولم يقل قسطنطين فيودوروفتش انه يساعد كل انسان يريد لنفسه الثراء ؟ اما مايحتاجه بعد ذلك فانه سيعمل على تسديده بعقد قروض اخرى ، ويستطيع الدائنون بعد ذلك ان يلاحقوه وباستطاعة المحاكم كذلك أن تلاحقه اذا كان لديها وقت تضيعه .

وامتد التفكير بتشتشيكوف طويلًا ، ولكن النوم ضم أهل البيت جميعاً بين ذراعيه كما يقول التعبير الروسي ، فجذب اليه تشتشيكوف الذي راح في نوم عميق .

الفصل الرابع

وسارت الامور في اليوم التالي سيراً حسناً ، فقد اعطى كونستانجوغلو عن طيب خاطر عشرة آلاف روبل لتشتشيكوف دون فائدة ودون تعهد ، بل اكتفى بايصال بسيط . وزيادة على ذلك فقد تطوع هو نفسه بمرافقة بافل ايفانوفتش الى خلوبوئيف في سبيل زيارة منطقة هذا الملاك . وكان تشتشيكوف بذلك سعيداً . وبعد فطور لذيذ استقل كونستانجوغلو وبلاتونوف عربة تشتشيكوف الفخمة وذهبوا وكان الكلب يارب يركض امام العربة ويطارد طيور الطريق . وكان كونستانجوغلو قد امر بان تلحق به عربته الخفيفة .

سار الجميع هكذا خمسة عشر فرستاً دون ان يخرجوا عن غابات وحقول كونستانجوغلو . وما ان تركوا املاكه حتى تغيرت المشاهد : حنطة نادرة ، وجذوع اشجار شقية . وكانت القرية التي يلاحظونها عن بعد واقعة بمنطقة جميلة ولكن يظهر انها مهجورة ويرى فيها بناية من الحجارة لم تتم بقيت خالية من السكان ، وخلفها دار اخرى من الحجارة ايضاً الا انها اصغر منها وآهلة بالسكان ، وكان صاحبها الذي يظهر انه من ابناء الاربعين نائماً تماماً الى ان

استقبل الاصدقاء الثلاثة وربطة عنقه ليست في موضعها على ما يرام ومعطفه مرقوع وحذاؤه مهترىء ،وقدفرح لقدوم هؤلاء الضيوف . وكان كمن يستقبل إخوة له بعد غياب سنوات طويلة .

ــ قسطنطين فيودوروفتش ! بلاتون ميخائيلوفتش أي فكرة حسنة ان يصل الانسان هكذا ! دعوني استيقظ تماماً ! لم يأت احد قط لزيارتي ! انهم يفرون مني كما يفرون من الطاعون ... ! انهم يخافون بدون شك ان اطلب الدراهم ! آه ان الحياة لقاسيـــة يا قسطنطين فيودوروفتش ... إنني ... انني المذنب الوحيد ... ما العمل ؟ لقد عشت عيشة خنزير ... ! ارجو المعذرة ايها السادة ! انني استقبلكم بهيئة زرية ، ان حذائي مثقوب ! ماذا ساقدم لكم؟

فقال كونستانجوغلو :

ــ لاتتعب نفسك فنحن قادمون لبعض الأعمال . هـذا مشتر ، إنه بافل ايفانوفتش تشيتشيكوف .

ــ إنني سعيد جـــداً لمعرفتك . اسمح لي بمصافحتك .

وهنا مدتشيتشيكوف ذراعيه :

ــ انني اريـــد أن أطلعك على أملاكي يابافل إيفانوفيتش إنهـــا تستحق اهتمامك ... ولكن هل تعشيتم ايهـــا السادة ؟ فأجاب كونستانجوغلو وهو يستحثه رغبة في إنهاء الصفقة :

ــ نعم نعم علينا الا نضيع الوقت سدى ولنبدأ الزيارة . فقال خلوبونيف :

ــ فليكن ... هيا بنا ... هل ستهتم بثمار سلوكي المتناقض المضطرب ؟

ووضع الجميع قبعاتهم على رؤوسهم واجتازوا القرية التي كانت تتألف من بيوت خشبية صغيرة ثبتت فيها نوافذ ضيقة واطئة تغطى بخرق من القماش .

تابع خلوبونيف كلامه قائلاً :

ــ إن نتيجة اضطرابي وتناقضي ... لقد صنعتم حسناً لأكلكم قبل المجيء ، هل تصدق ياقسطنطين فيودوروفيتش أنه ليس لدي دجاجة ...هذه هي حالي.

ثم زفر زفرة طويلة وثاعرف أنه لن يستطيع أن يجعل قلب كونستانجوغلو يرق له أمسك ببلاتونوف من ذراعـــه ومشيا أمام الجميع ، وتبعهما كونستانجوغلو وتشيتشيكوف . يضع كل منهما ذراعه في ذراع الآخر .

قال خلوبونيف موجهاً كلامه الى بلاتونوف :

ـ إن الحياة لقاسية بل جد قاسية يابلاتون ميخايلوفيتش إنك لاتستطيع ان تتصور كيف أن كل شيء صعب . لامال ولاقمح ولاحـذاء .. ! إنني أتكلم معك بلغة غير مفهومة دون شك ... سخافات حين كنت لاأزال شاباً ووحيداً ... أما حين تنزل جميع هذه المصائب بك مع الشيخوخة ... حين يكون عند الانسان امرأة وخمسة أولاد ... حينئـــذ يخاف نعم إنه يخاف على الرغم منه ...

فقال بلاتونوف :

ـ حين تبيع ضيعتك فان مركزك سيتحسن .

ـ فصرخ خلوبونيف رافعاً ذراعه :

ـ يتحسن ؟ يجب دفع الديون ... لن يبقى عندي ألف روبل .

ـ ماذا ستفعل ؟

لست أدري !

ـ وأنت لا تتاجر أبداً لكي تتغلب على هذا المثل .

ـ ومع مركزي كسكرتير المقاطعة ... ان الوظيفة المناسبة لهذا المركز لا قيمة لها .. خمسمائـة روبل كمعاش شهري عندما يكون للانسان امرأة وخمسة اولاد .

ـ هل تعمل كوكيل

ـ من يقدم لي ملكا وأنا لا أعرف التصرف بذلكي .

ـ واذا تبعك الجوع والموت ... يجب تعلم الدفاع عن النفس سأطلب إلى

صهري فيما إذا كان يستطع أن يجد لك عملاً في المدينة . فقال بلاتون ميخائيلوفتش زافراً وضاغطاً على يد بلاتونوف :

ـ لا يابلاتون ميخائيلوفتش ... إنني لا أصلح لأي شيء ... لقد مت قبل أجلي .. إن كليتي مريضتان نتيجة لافراطي في شبابي والروماتزم في الكتفين ... أين تريد مني أن أذهب ؟ أتريد أن أسرق خزانة الدولة ؟ يوجد عدد كبير من الموظفين الذين يعيشون على حساب كل النـــــاس ... فليحفظني الآله من زيادة الضرائب على الفقراء في سبيل مركز يقدم الي .

وفكر بلاتونوف : « هذه هي نتائج حياة الجنون التي غرقت بها. وذلك أسوأ من الملل ومن النعاس !»

بينما كان خلوبونيف وبلاتونوف يتحدثان على هذه الصورة كان كونستانجوغلو يغرق شيئاً فشيئاً في الحديث مع تشيتشيكوف وصاح قائلا فجأة :

ـ انظر إذن كيف ألقي بالفلاحين في هـــذه الحالة الغريبة من الشقاء ... لا توجد عربة ولا يوجد حصان .٠. يجب أن نعرف حين يجب كيف نبيع كل الاشياء شريطة ... الا يفقـد الفلاح دوابه ويشتغل ... ويلزمنا عدة سنوات الآن لكي نرفع كل هذا ... ! ان فلاح هذه المناطق أصبح كسولاً وسكيراً ! اتركه سنة بدون عمل فهو لا يساوي شيئاً مـدة عصور طويلة ... ! الاعتيـاد على القذارة والحانة ... ! انظر ... انظر هذه الارض ـ وكان كونستانجوغلو يتكلم وهو يشير الى الحقـــول التي تمتد خلف البيوت الخشبيه ـ انها ليست الا مستنقعات ... هناك سأحصـــل على الكتان ... الذي يقـدر ثمنه بخمسة آلاف روبل على اقل تقدير ... وهنـا اللفت ... اللفت بأربعة آلاف روبل ايضاً ..! وكان يوجد فيما مضى القنب على الشاطىء ، اما اليوم فلا يوجد منه شيء قط .. انه لا يزرع .. وهناك ، على بعد ، هذه الشعـــاب لا شيء .. إنني سأستطيع الحصول على غابات .. على اشجار باسقة لا تتمكن الغربان من الوصول الى اعاليها ...ولقد تجرؤوا على اهمال ارض خصبة كهذه . . وعندما

يوجد ما نزرع .. فاننا نقلب الارض بالمر .. إن عندنا مزرعة .. اقلب ارضها بالمر انت واطلب الى زوجك واطفالك ان يقلبوها كذلك بالمر .. مت وانت تعمل .. فانك ستموت على الاقل بعد ان تكون قد قمت بواجبك .. لا كمن يموت على طاولته بعد وقعة شهية ..!

صعد الصحاب هضبة .. وكان نهر يتلوى عن بعد .. وكان يشاهد وراءه بيت الجنرال بترتشتشيف.. ثم في الافق كانت سلسلة من الهضاب المشجرة تخفي ، كما كان يفكر تشتشيكوف ، اراضي تنتيتنيكوف .

صاح تشتشيكوف :

ــ ولكن يمكن تغطية هذه الاراضي بالغابات .. أي مشهد عجيب سيكون حينئذ هذا المشهد ..!

فقال كونستانجوغلو :

ــ انك تحب اذن المناظر الطبيعية ! احترس فيما اذا كنت لا تفكر الا بالمنظر .. فانك ستصبح سريعاً دون خبز وبدون . . منظر طبيعي ! انظر الى الفائدة لا الى الجمال فان الجمال يأتي من نفسه . خذ مثلاً على ذلك المدن ما هي اجمل المدن ؟ انها تلك المدن التي بنيت من قبل سكان حريصين ، قبل كل شيء، على حاجاتهم .. ثم .. على اذواقهم.. وليذهب الجمال الى الشيطان ولتحيا الفائدة!

ــ انني آسف للاضطرار على الانتظار مدة طويلة .. فأنا اود ان يسود هنا النظام والراحة .

ــ هل انت اذن شاب من ابناء الخامسة والعشرين ، او موظف في بطرسبرج وماذا تصنع اذن بالعبيد؟ تعلم قبل كل شيء ان تعمل خلال ست سنوات ... ازرع واقلب الارض ..لا تسترح دقيقة واحدة .. فان ذلك قاس .. قاس . ولكن بعد ذلك ، حين تصبح الارض مزروعة جيداً ومحفورة فانها ستكون اول من سيساعدك . ولن يكون عندك فقط سبعون ذراعاً ، بل سيكون

عندك سبعمائة ذراع غير مرئية ، وكل شيء سيضرب بعشرة ! خذ عندي مثلاً فانني لا أكاد احرك اصبعاً حتى ترى كل شيء يصنع من تلقاء نفسه . ان الطبيعة تحب الصبر ، ذلك هو القانون الذي قدمه الله مكافئاً دوماً اولئك الذين يعرفون كيف يكونون صابرين !

- انك تعرف جيداً كيف تبعث القوة في نفوس من ينصتون اليك !

وهنا صاح كونستانجوغلو بألم وهو يشير الى منحدر هضبة .

- هذا ما يسمى حراثة ! انني لا استطيع البقاء هنا . ! ان رؤية هذا الاهمال وهذه الفوضى ما هي الا موت بالنسبة الي .. تستطيع ان تعقد الصفقة معه دون ان اكون موجوداً .. خذ منه بسرعة كل هذه الكنوز .. انه يشوه صنع الله !

واسودت الدنيا في عيني كونستانجوغلو واضطرب وضغط على يد تشتشيكوف ثم لحق بخلوبونيف وتبعت ذلك فترة صمت .

ثم قال :

- يا قسطنطين فيودوروفتش ! كيف يكون ذلك .. انك لم تقم بشيء سوى المجيء والعودة بهذه السرعة ؟

فاجاب كونستانجوغلو :

- انني لا استطيع البقاء ، فعلي ان اعود ، ان لدي بعض الاعمال الضرورية في البيت ..

ثم قفز الى عربته وذهب .

وفهم خلوبونيف سبب هذه العودة السريعة فقال :

- ان قسطنطين فيودوروفتش لم يستطع تحمل رؤية هذا الشقاء .. صدقني يا بافل ايفانوفتش انني لم ازرع شيئاً هذا العام .. وانني اقسم لك انه لم يكن لدي البذار .. وليست لدي آلات للحراثة .. !

وتابع حديثه متوجهاً الى بلاتونوف :

– ان صهرك على مايقال ملاك ممتاز، ماذا نقول عن قسطنطين فيودوروفتش اذن ان لم يكن نابليون قومه ؟ وقد تساءلت كثيراً : لماذا وجد كل هـذا الذكاء في رأس واحد كهذا الرأس ؟ لو انه يستطيع ان يهرق منه نقطـة في رأسي .. ! انتبهوا ايها الاصدقاء إننا نغامر على هذا الجسر الصغير فاحـذروا السقوط في الغدير ! لقد اعطيت عدة مرات اوامري بترتيب هذه الالواح الخشبية انني لأشكو من هؤلاء الفلاحين الفقراء .. يجب ان يريهم الانسان عمل كل شيء. ولكن اي مثل يمكن ان اريهم ؟ ماذا استطيع ان افعل ؟ خـذهم يا بافل ايفانوفتش .. كان بودي ان احررهم منذ وقت طويل إلا ان ذلك لا يعمل على تقدمهم .. يجب قبل كل شيء ان يتعلموا كيف يعيشون .. انهم محتاجون الى رئيس قاس وعادل يكون لهم قدوة في النشاط والثبات .. ان الرجـل الروسي ، كما اراه في نفسي ، بحاجة الى مؤثر دائم ، والا فانه ينام ويحلم .

فتساءل بلاتونوف قائلاً :

– كيف يكون ذلك ؟ كيف يستطيع الروسي النوم والحلم بينما رجل الشعب يصبح سكيراً ومجرماً إذا لم يراقب ؟

– ان الله وحده يعلم السبب ! نحن رجال مثقفون .. ولقد أنهينا دراستنا الجامعية... فلأي شيء نصلح ؟ ماذا تعلمت ؟ انني أجهل علم الحياة ... انني لا اعرف فن انفاق المال لكي أعيش في الأناقة والوجاهة ولكي لا أستخدم إلا الأشياء الثمينة .... ولم أعمل أقل من بقية الطلاب ... إننا نرى أننـا ذوو قيمة كبيرة ...! وان اثنين أو ثلاثة من رفاقي كانوا يستفيدون حقـاً من الدروس في الجامعـة ... ربما لأنهم كانوا موهوبين ... أما الآخرون فانهم تعلموا مايضر الصحة فقط ومايسمح لهم بربح الكثير من المال ! وانه ليلوح لي حقاً في هـذه اللحظة أن الروسي رجل ضائع ... فهو يريد كثيراً ولكنه لا يستطيع شيئاً ... وهو يفكر دوما بأنه سيبدأ حياته غـداً ... وأنه سيتغير غداً ... وأنه

سيطبق نظام الحمية ... ولكنه لايعمل شيئاً ... ففي مساء اليوم التالي يأكل كثيراً بصورة يلقي فيها بنفسه على مقعده دون أن يقوى على القيام عنه ... وكل شيء عنده يسير على هذا المنوال .

فقال تشيتشيكوف مبتسما .

= نعم ... يحدث هذا غالباً !

فتابع بلاتونوف :

– نحن لم نولد كما يتطلب العقل ... انني لا أصدق أن الروسي عاقل ... واذا مارأيت روسياً يحاكم بصورة عقلية ويعمل ويجمع المال ... فانني لن أثق به ... اذ انه سيخسر كل شيء في يوم ما بومضة من ومضات جنونه ... وكل الروس على هذا الطراز ... مثقفون أو غير مثقفين .. ان شيئاً ينقص الروسي ... ! ما هو ..؟ لا أدري .

وحين عاد الجماعة الى القرية كانت تلك الانطباعات الداعية للاشمئزاز لاتزال مرسومة على وجوههم ، وكانت المستنقعات الموحلة تملأ الأزقة .. وكانت فلاحة ترتدي خرقاً بالية سميكة قد قتلت منذ وقت قصير طفلة صغيرة وهي تشتم مستعينة بجميع الشياطين وشاهدان ضجران يتأملان هذا المشهد : كان أولهما يحفر في عمود بالقرب منه بينما يتثاءب الثاني كما كانت جميع بيوت القرية الخشبية تتثاءب كذلك .. فالسطوح الصغيرة تتثاءب ، وحتى بلاتونوف أخذ يتثاءب حين نظر اليها . ولايرى في كل جانب وعلى كل شيء سوى قطع وأجزاء مركبة او مبدلة بغيرها . فقد وضعت ابواب كبيرة فوق البيوت الخشبيـــة لتسد مسد السطوح ونوافذ محطمة كانت مستندة بجارف مسروقة من مخازن السيد وكان الفلاحون يطبقون منظومة تريشكا: وذلك بأن يقصوا أطراف الثياب وأجزاءهـــا ليرقعوا أكمامها .

قال تشيتشيكوف حين وصلوا الى القرية :

ـ ان أراضيك في حال يرثى لها .

وقد جوبه هو وبلاتونوف في بيت السيد بمزيج من البؤس والأناقة التي كانت تخيم عليه . كانت زوجة خلو بونيف ترتدي ثيابا بذوق عصري وقد حدثتهم عن المدينة والمسرح . وكان يظهر على الأولاد الفرح اذ أنهم ، ذكوراً وأناثا ، كانوا يلبسون ألبسة عصرية . وكان يفضل أن يروا بملابس أبسط من تلك . . هل كانوا يشبهون في شيء أبناء الفلاحين ؟ ووصلت في تلك الأثناء سيدة ثرثارة وحمقاء فانسحب النسوة والأولاد ... وبقي الرجال وحدهم .

قال تشيتيشيكوف :

ـ نعم ... ماهو الثمن الذي تريد ؟ انني أطلب اليك ... متوسلا أن تحدد لي السعر النهائي ... وأنا لم اكن أتوقع أن أجد هذه المنطقة في مثل هذه الحال السيئة ..!

فأجاب خلوبونيف :

ـ نعم هذا حق .. فهي في أسوأ حال ممكنة .. و .. ليس هذا كل شيء .. فأنا لن أخفي عليك شيئاً .. فمن مئة نفس سجلت في الاحصاء الاخير لم يبق لي سوى خمسين .. اذ أن البقية ماتوا بالهيضة لقد فروا دون جواز .. وحتى هؤلاء الآخرون يمكن اعتبارهم كالموتى .. واذا كانت العدالة تطلب مني الاهتمام .. فكل مابقي لدي .. سيذهب الى ذلك الطريق .. وعلى هذا فانني أطلب خمسة وثلاثين ألف روبل ..

وساوم تشيتشيكوف بطبيعة الحال فقال :

ـ ماذا ؟ خمسة وثلاثون ألفاً ؟ ! انني أدفع خمسة وعشرين ألفاً ..

لكن بلاتونوف خجل من تلك المساومة فقال : اشتر ياباڤل ايفانوفتش فان لم تدفع الخمسة والثلاثين ألفاً المطلوبة فانني سأشترك مع أخي بشرائها ، فخاف تشيتشيكوف وصاح قائلا :

ـ فليكن .. انني أقبل .. الا أنني أدفع المبلغ على قسطين .. وسأعطي

القسط الثاني بعد عام .

= ان هذا لمستحيل ياباقل ايفانوفتش .. اعطني النصف في هذا اليوم .. وادفع الباقي في مجرى هذا الشهر .. انك تعرف أني استطيع ان استدين هذا المبلغ .. لوكان عندي أي شيء لكي أعطي الموظفين .

فقال تشيتشيكوف :

= حقا .: لم أكن أعلم .. ليس لدي سوى عشرة آلاف روبل ، لقد كان يكذب في ذلك اذ أن عنده عشرين ألفا مع المبلغ الذي استدانه من كونستانجوغلو الا أنه كان يستصعب دفع مبلغ كبير كهذا المبلغ مرة واحدة .

= انني أكرر ياباقل ايفانوفتش أنني بحاجة ماسة الآن الى مبلغ خمسة عشر ألف روبل

فأسرع بلاتونوف متوجهاً بكره الى تشيتشيكوف :

= انني أقرضك خمسة آلاف روبل .

فقال باقل ايفانوفيتش :

ـ اذن فلكن .. أي حظ هذا في أن يقرضني بلاتون ميخائيلو فيتش هذه الخمسة آلاف روبل

وذهب ليأتي بصرة الدراهم من العربة ، وأعطى فوراً خلوبونيف عشرة آلاف روبل ووعد أن يأتي بالخمسة آلاف الأخرى في اليوم التالي . الا أنه في الحقيقة لم يكن يفكر الا بدفع ثلاثة آلاف فقط ... ثم يعطيه بعد ذلك ألفين بعد يومين أو ثلاثة أيام .. وبالاختصار فهو ليس على عجلة من أمره .

وكان باقل ايفانوفيتش لايحب أن يدع الأموال التي في حوزته تفوته .. وفي حال الضرورة القصوى كان يعد بدفع ديونه في اليوم التالي .. وليس في اليوم الذي هو فيه أبداً .. كان اذن يتصرف كما نتصرف نحن جميعاً .. اذ أننا نحب كلنا أن نجعل الدائن ينتظر في غرفة داخلية ... ويتسلى بفرك مسند الكرسي فماذا يهمنا مادام لايستطيع الانتظار ؟

– عد غداً أيها الصديق فليس لدي فراغ في هذا اليوم وسأل بلاتونوف خلوبونيف قائلا :

– أين ستذهب الآن لتعيش ؟ ألديك قرية أخرى ؟

فاجابه :

لا ... سأرحل الى المدينـة اذ أنني أملك فيها داراً صغـــيرة ... كان يجب علي أن أرحل منذ زمن طويل على كل حال :.. ان لم يكن من أجلي . فمن أجل الاولاد على الاقل ... فهم سيكونون بحاجة الى أساتذة دين وموسيقى ورقص ... ومن المستحيل وجود هذه الاشياء في القرية .

فقال تشيتشيكوف في نفسه :

– « ليس لديه كسرة خبز ويريد أن يعلم أولاده الرقص »

وفكر بلاتونوف قائلا : « غريب »

قال خلو بونيف :

– والآن لنشرب نخب هذه الصفقة المنتهية... ايه... اجلب لنا ياكيريوشكا ... ايها الاخ قنينة من الشامبانيا !

فقال تشتشيكوف مرة ثانية في نفسه :

– ليس لديه كسرة خبز ويشرب الشامبانيا .

اما بلاتونوف فلم يعرف بماذا يفكر . وكان خـــلوبونيف قد آمر بجلب الشامبانيا من المدينة سابقاً لضرورتها ، ذلك أنه في القرية لا يحب النـــاس صنع مشروب (الكفاس) بالتقسيط . ومع ذلك فيجب الشرب . ولحسن الحظ فان فرنسياً قادماً حديثاً من بطرسبرج قد قبل على العكس ان يبيع الشامبانيا بالدين اتى اذن بقنينة الشامبانيا وشرب كل واحد ثلاثة اقـــداح منها . وعم السرور . واصبح خلوبونيف محبباً ، لطيفاً واخذ يقص بعض الطرف المسلية . وكانت كلماته تنبيء انه يعرف الرجال والحياة معرفة تامة . وكانت آراؤه سليمة وكان يتقن تصوير صفات الملاكين الاقطاعيين جيرانه بقليـــل من الكلمات ،

ويظهر عيوبهم واخطاءهم كما كان يعرف سير جميع اعمالهم وخرابهم يصف تمام الوصف بذكاء خارق وذهن حاد عاداتهم مما جعل تشتشيكوف وبلاتونوف المعجبين به يعدانه اذكى الناس .

وقد اعترف بافل ايفانوفيتش قائلًا :

ـ يدهشني ان لا يستطيع رجلًا له مثل ذكائك الخروج من المأزق الحرج الذي توجد فيه .

فأجاب خلوبونيف :

ـ نعم . . ان عندي موارد كثيرة .

ثم أخذ يسرد على مسامعهم مشاريعه . وقد كانت جميعها اكثر حماقة وغرابة من بعضها . ولم يكن أحد يستطيع إلا ان يهز كتفيه ويقول :

ـ « يا آلهي ... أي هوة سيقة بين معرفته للعالم والوسيلة العملية لاستخدام هذه المعرفة ! »

كان كل مشروع من مشاريعه يستند على تملك لمائة ألف أو لمائتي الف روبل ... ثم ينتظم كل شيء ... فتدار شؤون المنطقة بصورة عجيبة ... وتسد جميع الثغرات . . . ويضاعف المحصول الى اربعة امثاله ... وتدفع حينئذ جميع الديون ...

وأنهى خلوبونيف كلامه قائلا :

ـ ما العمل ؟ فأنا لا أعرف فاعل خير يقبل أن يعطيني مائتي الف أو حتى مائة ألف روبل فقط .

فقال تشتشيكوف لنفسه : « لن ينقصه سوى هذا ! مائة ألف روبل ... لهذا الأحمق ! »

قال خلوبونيف أيضاً :

ـ « لي عمة تملك ثلاثة ملايين . لكنها تقية جداً فهي تعطي كثيراً للكنيسة والأديرة ... ولا تحب أن تساعد واحداً من أقاربها أبداً . .. إنها من طبقة النبلاء القدماء ... بالغرابة هـذه المرأة .. . فهي تملك أربعمائة كنار ... وكلابا ... ووصيفات وخدماً ... بصورة لا يمكن تصديقها ... وان أصغر خدمها يبلغ من العمر ستين عاماً وهي تناديه بقولها :

« ياصغيري » . وعندما تعـد حفلة عشاء مثـلا ، وحـين يرتكب مضيفها بعض الهفوات فانها تأمـر الخادم بحرمانه من نوع من أنـواع الأكل ... وهكذا ! ..

وابتسم بلاتونوف ، وقال تشتشيكوف :

ـ ما اسم عمتك هذه ? واين تسكن ?

فأجاب خلوبونيف :

ـ انها تسكن في عاصمـة الـدولة وتسمـى الكسندرا إيفانوفنا خونا ساروفا .

فقال بلاتونوف بحرارة :

ـ ولكن اذهب اليها وقابلهـا . . . عسى ان تفهـم مأزق عائلتك الحرج فتساعدك .

ـ لا فائدة من ذلك ... فان لها طبعاً قاسياً كالحديـد . . . وان كثيرين غيرنا يعملون الآن على الكسب منها ... وانني اعرف شخصاً يطمح بوظيفة الحاكم وقد نجح في ان يدخل في العائلة ويكون واحداً منها ...

ثم توجه بالكلام نحو بلاتونوف :

ـ على فكرة ... اني ادعوك الى حفلة العشاء العظيمة التي سأقيمها في الاسبوع القادم في المدينة ...

ففتح بلاتونوف عينيه دهشة ... كان يجهل انه في عاصمة بلادنا روسيا المقدسة

ومدنها يعيش اناس عيشـــة هي عبارة عن احجية غير مفهومة ... فهم مفلسون ومكبلون بالديون ولا يملكون كوبيكا واحداً .

ومع ذلك فهم يقيمون حفلات عشاء ! ويزعم المدعوون كل مرة ان هذه هي الأخيرة ... وسيكون مضيفهم في اليوم التالي في السجن ... ولكن تمضي عشر سنوات ويبقى الرجل في اعياددوماً ... تتضاعف الديون ... وتتضاعف دعواته ، ويكرر المدعوون دون انقطاع أن هذا آخر عشاء ، وان رب البيت سيكون في اليوم التالي في الزنزانة !

كان بيت خلوبونيف لا يشبه في شيء غيره من البيوت وقد قام في احد الايام راهب بلباسه الديني بحفلة تعميد فيه . وفي اليوم التالي مثلت فيه فرقة فرنسية قطعة تمثيلية .. وفي اليوم الثالث لم تكن توجد في البيت كسرة خبز. وبعد أربع وعشرين ساعة اقيم حفل كبير حضره كثير من الممثلين والفنانين . ومرت اسابيع بعد ذلك مؤلمة لو مرت على غير خلوبونيف لشنق نفسه اوأحرق دماغه .. ولكن شيئاً من التدين انقذه ورده الى نفسه والى سلوكه الذي كان منحلا .. فكان يقرأ في الساعات القلقة من حياته ، تاريخ العباقرة وشهداء الانسانية الافذاذ الذين تعلموا ان يسموا بانفسهم عن الارض وشقائها .. وكان قلب خلوبونيف يرق وفي الوقت نفسه ينتقل فكره الى الاجواء العليا وتفيض الدموع في عينيه . وكان يصلي وتأتيه ـ وذلك امر غريب ـ نجدة لم يكن يتوقعها .. فيتذكره صديق قديم ويرسل له الدراهم ، او ان مجهولة تمر في المدينة وتسمع بحاله التعسة وتتأثر في صميم قلبها كامرأة كريمة ، وتقدم اليه هدية ثمينة .. واخيراً كان يربح من اعمال غريبة لم يكن يتكلم عنها قطعاً .. وكان خلوبونيف يعترف بتدخل العناية الآلهية ويقيم حفلة دينية في بيته ويعود بعدها الى سابق عهده بالتبذير الجنوني

ولما ذهب بلاتونوف وتشتشيكوف قال الاول للثاني :

ـ لقد أثر في نفسي .. نعم لقد أثر في نفسي حقاً .

فاجاب بافل ايفانوفتش ؟
- إنه طفل مبذر . ليس لديه ما يحسد عليه .
وانقطعا بعد قليل عن التفكير بخلوبونيف. كان بلاتونوف لا يهتم بالناس او الاشياء الا بتكاسل وفي نصف يقظة ، نعم ان قلبه ليعتصر وانه ليتألم امام بؤس الآخرين الا ان انطباعاته لا تدخل الى اعماق نفسه . انقطع عن التفكير بخلوبونيف لانه لا يتقن التفكير بنفسه .

اما تشتشيكوف فقد نسي خلوبونيف لسبب آخر وهو وهو ان الصفقة التي قام بها منذ فترة اخذت تشغله بصورة جدية . لم يكن الملاك الخيالي لارض خيالية بل انه اصبح ملاكاً حقيقياً لمنطقة حقيقية . وقد اتضحت افكاره ومشاريعه . وكان يقول لنفسه : « صبراً ، والى العمل ، وليس ذلك بعسير » لقد اعتدت ذلك . كان عندي تلك الميزات منذ ان كنت صغيراً في المهد . ولكن هل سيكون لدي الصبر الكافي الآن ، وفي هذه السن ؟

وكلما زاد تفكيره في الصفقة كلما زاد سروره . كان بامكانه ان يرهن هذه المنطقة بعد ان باع احسن الاراضي . كان يستطع ان يدير شؤون املاكه بنفسه على مثال ما صنع كونستانجوغلو مستفيداً من نصائحه كجار وكفاعل خير واخيراً انه يستطيع ان يبيع كل المنطقة لشخص معتبر ، محتفظاً تاماً بالنفوس الميتة والنفوس الهاربة .. وكان الغلبة لهذا المشروع الاخير .. انه يستطيع اذن ان يترك هذه الاراضي بسرعة دون ان يعيد الى كونستانجوغلو ما له عليه . . فكرة غريبة ..! لا يمكن ان يقال ان تشتشيكوف هو الذي اوحى اليه بها ، لأنها جاءت اليه عفوا الخاطر ، وداعبته ، واستهزأت به . انها سيئة ، وكريهة . . ومن هو خالق هذا الافكار الفجائية والطارئة إ ن ؟

كان تشتشيكوف يسبح في أجواء من الفرح ! إذ أنه أصبح ملاكاً ، ملاكاً حقيقياً ، واقعياً ؛ ملاكاً يملك اراضي واقناناً .. اقناناً احياء وجعل يقفز على مقعده الخشبي ، ويفرك كفيه ، ويغمز بعينيه .. ثم وضع كفه امام

فمه واخذ يصفر نشيداً عسكرياً ، ويتلفظ بصوت منخفض بكلمات عذبة وخفيفة يخاطب بها نفسه : « يا صاحب الوجه الصبوح ، يا أيها الديك الضخم الصغير ، تابع سيرك » ولكنه تذكر فجأة انه لم يكن وحيداً فسكت وحاول ان يكظم السعادة التي كانت تستولي عليه . إلا ان بلاتونوف ظن ان تلك المهمات كانت موجهة اليه فقال :

ـ ماذا تقول ؟

فأجاب تشتشيكوف :

ـ لا شيء .

نظر بافل ايفانوفتش حوله ولاحظ انه كان يجتاز منذ مدة طويلة حرجا صغيراً جميلًا واشجار (السنديان) الكبيرة على جانبي الطريق . ويلمح عن بعد بين اشجار (الصفصاف والسنديان) كنيسة برز رجل في الطريق واتجه نحوهما. كان يضع على رأسه قبعة صغيرة ويمسك بيديه عصا معقدة ، وكلب انكليزي ذو قوائم دقيقة يركض امامه .. انه آزور .

فصاح بلاتونوف :

ـ قف ايها الحوذي : هذا هو اخي .

ثم نزل من العربة ، وتبعه تشتشيكوف . اخذ الكلبان يارب وآزور يلحس كل منهما (بوز) الآخر ثم انقضا على تشتشيكوف وبلاتونوف ، حتى ان آزور اتجه رأساً الى اذن بافل ايفانوفتش واخذ يلحس طرفها . وتعانق الاخوان. وقال فاسيلي اخو بلاتونوف :

ـ إذن .. فأنت تتركني هكذا يا بلاتونوف ؟

فأجاب بلاتونوف بلهجة رخوة :

ـ ماذا جرى ؟

ـ كيف ماذا جرى ، ومنذ ثلاثة ايام لا نعرف شيئاً عنك ؟ وان حوذي بيتوخ أتى الينا بحصانك وانبأنا أنك ذهبت مع سيد . . كان يجب ان

تخبرنا عن مدة غيابك ، وعن وجهتك ، لا يتصرف العقلاء هذا التصرف يا أخي .
لقد قلقت عليك جداً في هذه الأيام الثلاثة !

فقال بلاتونوف :

ـ ما العمل ؟ لقد نسيت ! لقد ذهبنا الى قسطنطين فيودوروفتش وهو يهديك تحياته ، كما يهدي تحياته الى اختنا .. بافل ايفانوفتش انني اقدم اليك أخي فاسيلي .. هذا هو بافل ايفانوفتش تشتشيكوف .

تصافح الرجلان ونزعا قبعتيهما ثم قبلا بعضهما .

تساءل فاسيلي « من تشيتشيكوف هذا ... إن اخي لا يستطيع كسب أصدقاء جدد بسهولة .

ثم صوب نظرة فاحصة الى تشيتشيكوف في حدود الأدب فظهر له الرجل مقبولاً . كما ان تشيتشيكوف صوب ايضاً نظرة فاحصة الى فاسيلي كانت في حدود الادب . كان اصغر من بلاتونوف ، واكثر سمرة منه ، واقل جمالاً ولكنه تقاطيع وجهه تنبىء عن حيوية وقوة وطيب . ويظهر انه كان ينام اقل من أخيه .

ـ فاسيا ... لقد قررت ان اقوم بنزهة بسيطة في روسيا المقدسة مع بافل ايفا نوفتش ... عسى ان ينقشع مللي ...!

فأجاب فاسيلي مندهشاً لهذا النبأ غير المتوقع :

ـ اني اراك قد قررت بسرعة ..

وكان كأنه يريد ان يضيف :

ـ وتريد ان تذهب برفقة رجل لم تره الا مرة واحدة .. وقد يكون سيء الاخلاق ... ولايعرف ذلك إلا الشيطان نفسه .

وأعاد النظر الى تشيتشيكوف زيادة في الحيطة .. فصدم بهيئة محترمة جداً.

ذهب الاصدقاء الثلاثة نحو اليمين واجتازوا بوابة شبكية . ووجدوا أنفسهم في حديقة قديمة أمام قصر عتيق لنوافذه وابوابه مايقيها المطر والشمس. وكانت

شجرتا ورد قد نبتتا في وسط الحديقة وسترت بظلها نصفهاتقريباً . وكانت تحيط بهما مقاعد خشبيــة عديدة . وأشجار أخرى من كرز وليلك كانت تغطي كل القصر تقريبا . وبين اوراق الاشجار لم يكن بالامكان ـ رؤية شيء منه ماعدا الابواب والنوافذ . وخلف سوق الاشجار المستقيمة كالسهام ترى جدران المطبخ البيضاء ، والخمائل ، والاقبيــة . وكانت العنادل تغني . حتى ان عاطفة الخشوع والفرح كانت تستحوذ على نفس الانسان ... فيستعيد على الرغم منــه ذكرى الايام السعيدة حيث كان جميع الناس يرتعون بالسعادة ، وكل شيء كان سهلاً طبيعياً.

دعا فاسيلي تشيتشيكوف الى ان يأخــذ مكانه . ثم جلس الثلاثة تحت شجرة الورد .

وأتى فتى في السابعة عشرة من عمره تقريبــاً يلبس سترة وردية اللون بأوان مليئة بمشروب (الكفاس) مع الثمار المختلفة وكان بعضها كثيفاً غليظاً كالزيت وبعضها يشبه عصير الليمون الفوار . وبعد ان قدم الخادم الشراب أخــذ مجرفة وعـاد من حيث اتى . وكان آل بلاتونوف ، كصهرهم كونستانجوغلو ، ليس لديهم خدم بل كان البستانيون يتطوعون لخدمتهم بالتناوب . وكان فاسيلي يزعم ان الخدم لايشكلون طبقة في المجتمع ، وأي شخص كان يمكن ان يقوم بالخدمة وليس من الضروري اتخاذ أشخاص خصوصيين هذه المهمــــة ، والروسي عامل صالح ماهر عندما يرتدي بزة العمل ، ولكن عندما نلبسه ثيـاب خادم الماني فانه يصبح ثقيلا كسولاً ، ولن يقوم بتغيير ثيابه او يذهب الى الحمام وينـــام بالبسته ... اجمل من الروسي المانياً .. حينئذ ترى القمل قد انتشر في جسمه جميعاً . وكان الفلاحون عند آل بلاتونوف لايلبسون كما يلبس الروس .. وكانت كل زخاوف ثياب الفلاحين من الذهب وأكمام قمصانهم الواسعة كانت تشبه الشال التركي .

قال فاسيلي :

ـ هذا الخمر من انتاجنا .. وله صيت ذائع في المنطقة جميعها .. ملأتشيتشيكوف

منها قدحاً وذاقها.. ذكره هذا الشراب بشراب آخر كان قد ذاقه في بولونيا. وكان يفور كالشامبانيا ويحز برائحته الانف وخزاً لذيذة .

– انه شراب لانظير له ..

ثم أخذ كأساً آخر كانت ألذ من الاولى..

– ملك جميع المشروبات .. وانني استطيع ان اقول انني شربت عند صهرك قسطنطين فيودوروفتش احسن (راتافيا) وهأنذا أشرب الآن عندك احسن (كفاس)

فقال فاسيلي :

– الراتافيا لاتتغيرلان اختي هي التي تصنعها لكن قل لي الى اي منطقة ستذهب؟

فأجاب تشتشكيوف وهو يتأرجح على مقعده ويداعب ركبتيه .

– انني لاأذهب من أجل عملي بقدر ما أذهب من أجل حاجات الجنرال بيتريتشف فقد توسل الي أن أزور أصدقاءه ...وان أصدقاءه هم اصدقائي... وانني أسافر أيضاً بدافع لذتي والسفر حسن من وجهة النظر الصحية عندما يكون الانسان مصاباً(بتصلب الشرايين) ومن ناحية المعرفة .. معرفة الرجال والعالم .. فان السفر كتاب حي او علم ثان .

أصبح فاسيلي حالماً : « عندما يتكلم .. فانه ينصت الى كلماته ...ولكن في كلماته شيئاً من الحقيقة » وظل مدة قصيرة ساكتاً ثم توجه بالكلام الى بلاتون وقال :

– « انني أظن أن هذه الرحلة يمكن ان تفيدك ... فأن ضجرك له اصل اخلاقي ... فأنت تنام لا لأنك تعب أو منهك ولكن لأنه تنقصك ... الاحساسات ... الانطباعات . اما انا فعلى العكس ، اريد ان اكون غير مبالٍ بالاشياء ، ولا أريد ان اهتم بكل ما يجري .

فأجاب بلاتونوف :

ـ ان الانسان حر في ان يهتم بالاشياء او ان لا يهتم بها . (١)
انك تفتش عن المواضيع المزعجة وتخلق لنفسك المتاعب .
فصاح فاسيلي :
ـ اني لست بحاجة لان اخلقها ... فهي تأتي من نفسها ... هل سمعت عن الدور القذر الذي لعبه معنا لينتقم ؟ لقد استولى على قطعة الارض التي اعتاد ان يلعب بها فلاحونا ... صحيح ان الارض لا قيمة لها .. . ولكن لن اتخلى عنها باي ثمن ففي كل فصول الربيع يقيم بها الفلاحون اعيادهم ، وان الذكريات القديمة جداً للقرية مرتبطة بهذه الحقول ولي انا ... وان العادات اشياء مقدسة وانا على استعداد للتضحية بكل شيء في سبيلها .
ـ انه يجهل هذه الاعياد .. لذا استولى على الارض ... فقد قدم حديثاً من بطرسبرج ... لذا يجب توضيح القضية له .
ـ انه يعرف ... وهو على اطلاع ... ولقد ارسلت اليه رجالي فرد عليهم بخشونة ..
ـ كان يجب ان تذهب اليه بنفسك .
ـ لا ... فهو يمثل دور سيد كبير لن اذهب اليه قط ... اذهب اليه انت اذا اردت .
ـ نعم سأذهب ... ولكن .. . انا لا افهم في الاعمال ، وقد اخدع و اغش .
فقال تشتشيكوف :
ـ هل تريد ان اذهب اليه انا ؟ اطلعني على القضية . نظر اليه فاسيلي وقال لنفسه : « انه يريد ازعاج نفسه ! » وتابع بطلنا تشتشيكوف :
ـ اشرح لي نفسية الرجل فقط وما هي القضية ؟
ـ اني لأخجل ان اكلفك بمثل هذه المهمة ... فهو رجل حقير ... نبيل صغير من منطقتنا ... خدم في بطرسبرج ... وتزوج فيها فتاة غنية وجعل

(١) وجدت قبل هذه العبارة صفحات مفقودة من المسودة .

من نفسه سيداً كبيراً ... وجاء هنـــا ليكون حارساً على القانـــون . . .
ولكننا لسنا بالحمقـــى . . . فالزي ليس مرسومـــاً قيصرياً وبطرسبرج
ليست كنيسة لنا .

فقال تشتشيكوف :

ـ انت محق ولكن على اي شيء انتما مختلفان ؟

ـ انه بحاجة الى الارض ... ولو انه تصرف على غيرالطريقة التي تصرف بها
لاتفقت معه ... اما الآن

ـ انني ارى انه يجب الاتفاق ... ولقد كلفت مرة بمهمةمن هذا النوع...
ولم يأسف احد على ذلك حتى الجنرال بيتريتشيف .

ـ ولكنني خجل من ان أطلب اليك ذلك فعلاً .

الفصـــل ؟؟؟ [1]

لكل شيء على ظهر البسيطة قانونه الخاص . والاصل في كل شيء كما يقول المثل ، الاتجاه والانسجام !

ومن حقيبـة الى اخرى ، ومن صندوق الى صندوق ، وبأعجوبة خارقة ، لم وجدت اشياء كثيرة في محفظة تشيتشيكوف، ولكنها لا تخصه. ان تشيتشيكوف لم يسرق شيئاً قط . . ولكنه عرف كيف يستفيد من الظروف . ومن منـا لا يأخذ من غابات التاج ، ومن اقتصاديات البلاد ، ومن ثروة ابنائها ، ما ينفقه على ممثلة ؟ ومن منا لا يأخـذ اموال الفلاحين ليشتري بها عربة فاخرة ورياشاً فخما ؟ ان الحياة مليئة بالمغريات المتنوعة ، من مطاعم غالية الى حفلات راقصة، الى نزهات ورقصات غجرية . وكل مقاومة تكاد تكون مستحيلة عنـدما يقوم الجميع بنفس العمل او عندما يتطلب لون العصر ذلك !

كان على تشتشيكوف ان يذهب منذ زمن طويل ، ولكن الطرقات كانت سيئة فلم تسعفه . وقام ، في تلك الاثناء ، معرض جديد في المدينة ، وكان هذه المرة سوقاً شريفة . ولقد كان المعرض في السابق يقوم على الحيوانات والمواد

---

(١) وهنا ايضاً فقد قسم كبير من المسودة الاصلية ، ولذلك اصبح رقم الفصـــل غير معروف.

الخام وجميع الحاجيات التي يشتريها الفلاحون والمحتكرون ثة . اما الآن فان الباعة المتجولين والتجار سيبيعون منتجات مستوردة من معرض نيجني نوفغورود الكبير . وقد جاء بهذه المناسبة ، الى المدينة ، فرنسيون متوردو الحدود وفرنسيات يلبسن قبعات على احدث طراز من نوع الجرادة المصرية كما كان كونستانجوغلو يدعوها . وبقي الملاكون في ريفهم بسبب رداءة المواسم فامتلأ المعرض بالموظفين وزوجاتهم وكانوا كلهم متلهفين لاستشعار أحاسيس جديدة مجهولة . وافتتح فرنسي مطعما في المحطة يمكن تناول الطعام فيه باسعار رخيصة وكان اكثر زبائنه يتناولون وجباتهم بالدين ، اصبح هذا المطعم تسلية جديد للناس ، فالجميع يريدون التنافس بخيولهم الاصيلة المطهمة وعرباتهم الفاخرة وسائقيها .

بالرغم من رداءة الجو وكثرة الوحول ، فقد اخذت العربات الجميلة تقطع شوارع المدينة ذهابا وايابا . ولم يكن بمقدور أحد ان يعرف من اين جاءت كل هذه العربات التي تنافس في فخامتها عربات بطرسبرج . وكان التجار يحيون المسافرين ويستوقفونهم . ولم يظهر احد من الروسيين اصحاب اللحى الطويلة وقبعات الفرو الا النذر اليسير . لقد اتبع الجميع الازياء الاوروبية ، فأنت لاترى الا الذقون الحليقة والاسنان الملمعة . واما الغلمان فقد كانوا يصحكون:

– هيا ايها السادة ، تفضلوا بالدخول !

وسأل تشتشيكوف :

– ماذا عندكم من الاقمشة ؟ اريد قماشاً احمر اللون .

– اني اؤكد لك بان الاقمشة التي عندنا لا يوجد مثيل لها الا في ارقى العواصم .

– اريد .. اريد قماشاً زيتياً او اخضر صافياً .

– هيه .. ايها الصغير .. اعطه رقم ٣٤ .. هيا ناولنيه .. انظر ياسيدي الى هذا القماش العظيم .

ووضع التاجر قطعة القماش تحت انف تشتشيكوف . فقال هذا الاخير :

– حسناً .. ولكني لا ارغب بهذا النوع . لقد كنت سابقاً موظفاً في الجمارك .. اريد احسن ما عندك من الاصناف ، لا اريد اخضر بل خمرياً !

– فهمت ، انت تريد لوناً حديثاً .. عندي قطعة لا تلائم غيرك اطلاقاً ! وانا انذرك منذ الآن بأنها مرتفعة الثمن ولكن صنفها من اجود الاصناف الممتازة!

وفردت القطعة ، ثم عرضت على الضوء ، وخرج التاجر من خلف طاولته ، واخذ يجس القطعة وهو يغمض عيناً ويفتح اخرى ، ثم هتف : « ان لونها فريد في بابه حقاً ! »

وأعجب تشتشيكوف بالقماش وبلونه ، فأخذ يساوم البائع بالرغم من ان أسعار السلع ثابتة محدودة ، ثم ، وبسرعة ، وضعت رزمة داخل العربة .

– اريد جوخاً اسود اللون غامقاً !

وسمع تشتشيكوف صوتا فقال في نفسه : « ليذهب به الشيطان »! لقد عرف في هذا الصوت صوت خلوبونيف ، فأدار وجهه لانه لا يرغب ان يتعرف عليه صاحب الصوت ، والا لاضطر على ان يقدم له ايضاحات عن ارث عمته المليونيرة. (١)
ولكن خاب أمله ، ذلك ان خلوبونيف رآه فهتف به :

– اوه أهـذا انت يابافل ايفانوفتش .. لماذا تدير ظهرك هكذا كأنك تتحاشاني عمداً ؟ لقد فتشت عنك في كل مكان فلم استطع الى ايجادك سبيلا ، وانت تعرف شدة احتياجي الى مقابلتك لان اعمالنـا خطيرة تقتضي ان نتحدث عنها !

فأجاب تشتشيكوف وهو يضغط على يدي خلوبونيف :

– ياصديقي العزيز .. ياصديقي العزيز .. لقد كنت أود ان أراك منذ زمن بعيد !

ثم فكر : « لتذهب به الابالسة ! » وفي نفس اللحظة شاهد موزاروف فصاح به :

– آه ! يالله ! أهذا أنت ياأفناسي فاسيليفتش .. كيف انت ؟

(١) يظهر ان الامر يتعلق بعملية مشبوهة قام بها تشتشيكوف .

فأجاب موزاروف :

- بخير .. وانت ؟

ثم رفع قبعته بالتحية فرد عليها التاجر وخلوبونيف .

- اني أعاني ألماً فظيعاً في كليتي وقد فقدت النوم ! ويظهر ان آلام بافل ايفانوفتش لاتهم موزاروف الذي التفت الى خلوبونيف قائلاً :

- سيمون سيمونوفتش . . لقد شاهدتك تدخل المتجر فتبعتك .. عندي اشياء أريد ان أحدثك عنها .. أتستطيع الاتيان معي ؟

- بكل تأكيد .. بكل تأكيد !

وخرج خلوبونيف برفقة موزاروف .. وتساءل بافل ايفانوفتش في نفسه :

- ترى ، عن أي شيء سيتكلمان ؟

أدخل موزاروف صديقه خلوبونيف الى غرفته الخاصة وسأله :

- قل لي كيف أعمالك .. وهل تحسنت ؟.. لقد ورثت شيئاً عن عمتك !

- كيف أحدثك ياعزيزي أفناسي فاسيليفتش .. لست ادري عما اذا كانت احوالي المالية قد تحسنت بالفعل ، فاني لم ارث اكثر من خمسين عبداً وثلاثين الف روبل . وكان علي ان أسدد ديوني ، فلم يبق لي شيء ، ومن جهة اخرى يجب ان اعترف لك بأني واثق .. او بالاحرى ، بأني اشتبه بقصة الوصية كثيراً لقد حدث تلاعب .. سأحدثك وستدهش .. ان تشتشيكوف هذا..

- دعنا من تشتشيكوف ياسيمون سيمونوفتش ، ولنتحدث عنك .. قل لي ماهو المبلغ الذي تحتاج اليه لتنهي ارتباكك المالي نهائياً ؟

فأجاب خلو بونيف :

- لقد اصبحت حياتي قاسية جداً وكي اتخلص من ديوني كلها وأعيش حياة متواضعة ، احتاج الى مائة الف روبل . او اكثر .. وهذا مستحيل !

- افرض انك حصلت على المبلغ فماذا تفعل به ؟

- سأستأجر شقة صغيرة واهتم بتربية ابنائي .. ولافائدة من التفكير بأمري

لقد انتهت حياتي ، إني انسان ضائع !

ـ ستبقى حياتك مليئة بالكسل .. والكسل اصل جميع المغريات التي لا يعرفها الرجل العامل .

ـ مستحيل .. لم اعد اساوي شيئاً .. وحياتي كلها ألم .

ـ ولكن كيف يمكن ألا تشتغل؟.. كيف تطيق ان تحيا بلامهنة ولا عمل؟ دونك مخلوقات الله .. انظر اليها ! انه لكل شيء عمله وفائدته ، والحجارة نفسها ذات فائدة فكيف يمكن للانسان ان يعيش دون هـــدف او غاية وهو اذكى المخلوقات ؟

ـ واكني لن اكون عاطلاً عن العمل تماماً فتربية ابنائي ..

ـ كلا ياسيمون سيمونوفتش ، ان هذه المهمة اشق مهمة في العالم !وليستطيع الرجل تربية أطفاله يجب عليه ان يكون قد تربى هو نفسه ، ان التربية مستحيلة الا بالمثل الصـالح ، وحياتك ليست مثالاً للصلاح ! اجل ! ستعلم ابناءك اللعب بالورق في اوقات فراغهم . ياسيمون سيمونوفتش لتمهد الي بأبنائك ، فأنت بلا ريب مفسدهم اذا تكفلت بتربيتهم ! فكر في امرك جيداً ، لقد هدم الكسل حياتك كلها وعليك ان تتخلص منه . على الرجل الذي يحيا على الارض ان تكون له مهمة معينة وواجب واضح يقوم بتأديته ! .. ان العامل البسيط الذي يشتغل بالمياومة ذو فائدة عظيمة رغم ضآلته ، انه يأكل بكوبيك واحد،ولكن هذا الكوبيك يربحه من عمله وجهده فيشعر بأهمية العمل والمثابرة .

ـ اقسم لك يا افناسي فاسيليفتش اني حاولت السيطرة على هذا الكسل ، ولكن ما العمل ؟ لقد اصبحت عجوزاً مقعداً ... فكيف احصل ، مثلا ، على وظيفة ؟ اني في الخامسة والاربعين من عمري ، افتريد ان يكون زمـلائي من الشبان الصغار ؟ وعدا ذلك فانا لا استطيع ان اقبـل من احـــد رشوة او (إكرامية) ، وهكذا أؤذي نفسي واثقل على زملائي .. لا يا افناسي فاسيليفتش لقد فكرت وحاولت ولن استطيع البقاء في اي المكان الا في المستشفى .

– وفي المستشفى لا يقبلون غير العمال، واما غيرهم فيقولون لهم كما قالت النملة للصرصار: «اذهب وغن الآن!» ان العمل صعب في المشافي، فهناك لا يلعبون الويست وانت انما تخدع نفسك وتخدعني.

وحدق موزاروف في خلوبونيف طويلاً، ولكن هذا لم يجبه، فاشفق موزاروف عليه من جديد وقال له:

– اصغ الي يا سيمون سيونوفتش.. انك تصلي وتذهب الى الكنيسة دون انقطاع، بالرغم من ان الاستيقاظ باكراً يزعجك. اني أعلم هذا، ولكنك مع ذلك تذهب الى الكنيسة ولو لم تجد فيها احداً من الناس.

– هذا أمر آخر يا افناسي فاسيليفتش.. وانا افعل ذلك ليس من اجل الانسان، بل من اجل خالقنا. وانا على اعتقاد بانه رؤوف بي مهما كنت منحطاً ومضيعاً، ويستطيع العفو عني واستقبالي بترحاب في حين يطأني جميع الناس بنعالهم.. وفي حين يخدعني اخلص الاصدقاء ويخونونني ويبيعونني بابخس الاثمان ملتمسين أشرف الاعذار!

وارتسم في وجه خلوبونيف ظل المرارة، فقال موزاروف:

– إذن فاعمل لأرحم الراحمين، ان العمل من اجله لا يقل عن الصلاة قيمة. ابحث عن اي عمل وقم به في سبيله لا في سبيل الناس.. ضع قليلا من الاسمنت فوق حجر واصنع به ما تشاء، فان عملك إذ ذاك يكون مفيداً لانه يدع لك الوقت الكافي لتلعب بالورق وتقيم المآدب والحفلات.. انعرف ايفان بوتابتش؟

– اني اعرفه جيداً وأقدره وأجله.

– هو تاجر ممتاز، وقد جمع ثروة قدرها ربع مليون روبل. ولكنه ما إن رأى هذه الثروة بين يديه حتى بدأ يهمل كل شيء، فعهد بابنه الى مرب فرنسي وزوج ابنته من جنرال، ولم يعد يفكر إلا في قضاء وقته داخل الحانات مع الاصدقاء. وماذا كانت النتيجة؟ الخراب بالطبع! وها هو اليوم موظف عندي، لقد بدأ حياته من جديد، وها ذي اعماله تسير سيراً حسناً. وهو

باستطاعته ان يربح نصف مليون روبل مرة اخرى ولكنه يقول : « لا .. لا انا موظف وسأبقى كذلك الى أن اموت . ان صحتي جيدة الآن بينما كنت اعاني سابقاً الكثير من الآلام والامراض ! » وهو ايضاً يصلي كأصدق المصلين ويحسن الى جميع الفقراء .

ظهرت على خلوبونيف امارات التفكير العميق ، فأخـذ موزاروف يديه وقال :

– لو تعلم يا سيمون سيمونوفتش كم أرثي لك ! استمع الي . . أنا أعرف راهباً في الدير يستطيع ان يدلي اليك بنصائح ثمينة .. لقد حدثته عن صديق لي يعاني الكثير من المتاعب ، فأصغى الي طويلاً ثم قال : « الله اولاً ثم الانسان .. نريد بناء كنيسة ولكن المال ينقصنا ، وإذن علينا ان نجمع المال للكنيسة ! » ثم اغلق في وجهي الباب وتركني اتساءل عن معنى ما قال .. ومن الواضح ان الراهب لا يريد ان يمحضني النصح بشأنك فذهبت الى الارشمندريت وما إن بدأت الحديث معه حتى سألني عن شخص يجمع التبرعات للكنيسة سواء كان نبيلاً ام تاجراً ، فان هذا العمل يمكن ان يعتبر سبيلاً لخلاص النفس . فقلت في نفسي : « يا إلهي هذا شيء مدهش لسيمون سيمونوفتش ، فسيذهب الى الملاكين ومعه دفتر التبرعات ويطوف بالفلاحين واهـل المدن ، فيعرف حياة الناس وحاجاتهم ، كما انه يجول في بعض المقاطعات ويتعرف جيداً على البلاد .. نحن بحاجة الى اشخاص يعرفون حياة الناس الداخلية الصميمة . وقد قال لي نائب الحاكم بانه في أمس الحاجة الى موظف تعلم مهنته من الحياة نفسها لا من خلال الاوراق .. ان الاوراق تهدم الانسان !

فهتف خلوبونيف مذهولاً :

– انت واهم يا افناسي فاسيليفتش .. لا استطيع ان أصدق انك تقول مثل هذا الكلام .. ان هذه المهمة تقتضي رجلاً نشيطاً يستطيع ان يقوم بها .. ثم كيف أترك زوجتي واولادي وليس لديهم ما يتبلغون به ؟

ـ لا تهتم بهذا الامر .. إني أتعهدهم بنفسي وسيكون للأولاد اساتذة يعلمونهم .. وعوضاً عن ان تستجدي خبزك .. قم بالاستجداء من اجل الكنيسة! سأعطيك عربة بسيطة ، ولا تخش الاكواخ فهي صحية للغاية ، كما سأعطيك مالاً لتساعد من هم في حاجة الى المساعدة ، فتقوم بذلك بعمل الحسنى .. تعلم على ألا تخطيء ، وان تعطى من يستأهل المساعدة فعلاً .. وهكذا ستعرف الناس جيداً وسيحدثونك بحرية وصراحة اذا علموا انك تقوم بجمع التبرعات لأجل بناء الكنيسة .

ـ أخشى أن تكون هذه المهمة فوق ما استطيع !

ـ فهتف موزاروف :

ـ وما العمل الذي يناسب القوى البشرية ... ان كل شيء فوق الطاقة الانسانية ، ولا يستطيع المرء شيئاً دون مساعدة السماء الا ان الصلاة تمنح القوة اللازمة . ان البحار الذي يهتف : « يا آلهي كن معي ! » فانه يصل شاطيء الامن حتما ... ليس عليك ان تفكر طويلاً في هذا الموضوع فهو امر قدره الله سبحانه ، وهذا كل شيء ! .

ـ ان العربة معدة ، ويجب ان تمر في طريقك على الارشمندريت ليعطيك دفتر التبرعات ويباركك قبل السفر .

فقال خلوبونيف :

ـ اني اطيعك واقبل ما تأمر به كما لو كان ارادة آلهية !

ثم اضاف :

ـ « رب ... باركني ... » وتسربت الشجاعة والقوة الى قلبه ، وشعت نفسه بأمل الخلاص من الحالة المؤسية التي يعانيها .

ولكن لنترك الآن خلوبونيف ولنعد الى تشتشيكوف !

* * *

في هذه الاثناء كانت محاكم المقاطعة تتلقى الاحتجاج تلو الاحتجاج على

على وصية عمة خلوبونيف . لقد تركت هـــذه العمة اقارب لم يعرفهم احد ، وكانقضاض الطيور المفترسة على الفريسة البائسة ، انقض عـدد كبير جداً على ذلك الارث وادعى كل الحق بنصيب من تركة العجـــوز المليونيرة . وكان الجميع يتهمون تشتشيكوف بتزوير الوصية وسرقة كثير من الحوائج وتهريب مبالـغ كبيرة من ثروة المتوفاة . وظهرت من جديد قصة النفوس الميتة كابرز ماضيه ، عند ما كان في خدمة الجمارك ، حياً ، ولكن كيف يمكن اكتشاف وقائع نسيها الجميع منذ زمن ليس بالقصير ، ثم كيف تعـرف وقائع جرت ولكن لا يعلم بها احد ؟ .

لذلك كان بافل ايفانوفتش مقتنعاً بعدم معرفة احد لأعماله . ولم يكن يدري شيئاً عن الاتهامات التي أحاطها القضاء بستار من الكتمان . ولكن جاءته كلمة صغيرة من أحد المحامين نبهته الى ان الانفجار يوشك ان يقع قريباً . لقد كتب اليه ذلك المحامي يقول :

« اني أسرع باعلامك انـه ستحصل فضيحة . . . وأطلب اليك ألا تقلق ، فالمهم هو ان تحافظ على رباطة جأشك ونحن ندبر لك كل شيء ! » وأفرخ روع تشتشيكوف بعد هذه الرسالة وقال :

« ان هذا الانسان ملاكي الحارس ! » ووصـــل في تلك اللحظة بالذات الخياط . وكان بافل ايفانوفتش يريد ان يقيس بزته الجديـدة . لبس اول شيء السروال وقد ناسبه كثيراً فما ان شدت العقدة الخلفيةوبرز بطن تشتشيكوف كالطبل حتى هتف : « انك لجميل ! » وكان المعطف أحسن حالاً من السروال الا ان بافل ايفانوفتش لاحظ انه ضيـــق قليلاً تحت الابط الأيمن ، ولكن الخياط ابتسم وقال :

« لقد قدرت لكل شيء حسابه الدقيق ، اطمئن ! فالعمل ممتاز وأستطيع التأكيد لك بأن خياطـي بطرسبرج وحـــدهم فقط يستطيعون ان يصنعوا مثل هذا ! » وكان هذا الخياط نفسه قـــد جاء من العاصمة وافتتح دكاناً كتب

على بابها : « خياط من لندن وباريس » .

ودفع تشتشيكوف حسابه كله ، وماان بقي وحده حتى وقف امام المرآة فبدا له خداه اللذان كثيراً مافتناه اشد جمالاً من ذي قبل ، وكذلك بدت له ذقنه اكثر اغراء ، وكانت ياقة قميصه الابيض وربطة العنق الزرقاء وطيات قميصه تشكل مجموعة منسجمة يتوجها المعطف ، واستدار تشتشيكوف نحو اليمين .. جميل .. ثم استدار نحو اليسار .. عظيم .. ان له لقامة رجل بلاط يتصرف في كل شيء على الطريقة الفرنسية وحتى حين يحك جلده ؛ بل هو حين يغضب لايستعمل الالفاظ الروسية الغليظة بل يغضب باللغة الفرنسية ! واحنى تشتشيكوف رأسه الى اليسار قليلاً متخذاً وضع رجل يتوجه الى سيدة من الطبقة الممتازة ، فرأى نفسه جميلا يستحق التصوير .. وكان مبهوراً من نفسه الى حد جعله يصطدم بالمنضدة التي اهتزت بعنف فسقطت زجاجة من الكولونيا على الارض . ولكن بافل ايفانوفتش لم يرتبك بل اكتفى بأن نعت الزجاجة بالحمق ثم تساءل : « ترى اين اذهب » وفجأة فتح الباب ..

ـ عليك ان تتوجه الى الحاكم العام على الفور

ولبث تشتشيكوف مذهولاً مصعوقاً ؛ كان ينتصب أمامه مارد بشاربين طويلين يلبس عمرة ويتدلى من جنبه سيف طويل . وخيل الى تشتشيكوف انه يرى بندقية واشياء اخرى لايعرفها غير الشيطان وحده .. واخذ الدركي الذي امامه يتعدد ويتضاعف في نظره حتى اصبح فرقة كاملة .. حاول الاحتجاج والتمنع ولكن الرجل هتف به .

ـ ان الامر يقضي ان تذهب معنا على الفور !

وشاهد بافل ايفانوفتش دركياً آخر في الممشى ونظر من النافذة فرأى عربة .. لافائدة له من المقاومة ، فمشى كما هو ببزته الحديثة يتبعه الدركي ... ومان وصل الى القصر حتى قال له الموظف المناوب دون ان يدع له فرصة للراحة :

ـ اذهب الى الامير انه ينتظرك !

ولاحظ صديقنا رواقاً مليئاً بالسعاة ثم قاعة واسعة اجتازها وهو يقول في نفسه : « الآن سيلقى بي في السجن .. ثم انفى الى سيبريا دون محاكمة ! » واخذ قلبه يدق بشدة دقات اعنف من دقات العاشق الغيور . واخيراً فتح الباب . وشاهد بافل ايفانوفتش حقائب وخزائن وكتباً كما شاهد الامير وراء كل ذلك وكان يبدو تجسداً للغضب والحنق . وفكر في نفسه : « سيقتلني الذئب ويأكلني وكأنني حمل !.

صاح الامير :

— لقد اشفقت عليك وسمحت لك بالبقاء هنا في حين يجب ان تكون في السجن منذ زمن طويل . ولكنك تجردت من الشرف مجدداً بعملية احتيال دنيئة لم يقم بها انسان قط .

كانت شفتا الحاكم العام ترتعشان . فقال تشتشيكوف وركبتاه لاتكادان تقويان على حمله :

— ولكن اي احتيال ياصاحب السعادة ؟

فهتف الامير وهو يقترب من تشتشيكوف ويحدق فيه :

— المرأة .. المرأة التي كتبت وصيتها ووقعتها تحت سمعك وبصرك .. لقد اوقفت واعترفت بكل شيء وسنواجهك بها .

واختلط كل شيء في عيني تشتشيكوف فقال :

— ياصاحب السعادة .. سأقول لك كل شيء .. اني مجرم .. مجرم جداً... ولكني لست على القدر من الاجرام الذي يتهمني به اعدائي .

ـ كذب ونفاق ... لا يستطيع احد ان يلفق حولك شيئاً لان في نفسك من الحقارة والدناءة مالا يوجد الا عند أحط المجرمين... ان كل كوبيك تملكه مسروق ... هناك سرقات وجرائم يعاقب القانون عليها بالسجن والنفي الى سيبريا ... كفى ... ستلقى الآن في السجن ، وهناك تنتظر مصيرك

مع اللصوص والمجرمين ، وهذا اقل مما تستحق لانك أحط منهم جميعا انهم يرتدون ملابس الشعب ... اما انت ...

فصاح تشتشيكوف :

- الرحمة يا صاحب السعادة . . . انك رب عائلة . اشفق على أمي العجوز .

فصاح الامير :

- انك كاذب . لقد حدثتني طويلا عن زوجتك وأولادك الذين لاوجود لهم الا في رأسك ، وها انت الآن تحدثني عن امك .

- بلى يا صاحب السعادة ... اني وغد مجرم ... لقد كذبت فلا اولاد لي ولا اسرة . ولكن يشهد الله اني طالما كنت اريد ان اتزوج ، واقوم بواجبي كرجل وكمواطن لاكسب احترام الناس واحترام السلطات ، ولكن الظروف عاكستني ياصاحب السعادة وكان علي ان اربح خبزي بدمي ، وكانت تحيط بي المغريات في كل خطوة ، وكذلك الاعداء في كل سبيل .. . ان حياتي اشبه بزوبعة او زورق تتقاذفه الامواج وتبعث به الرياح ... اني رجل ياصاحب السعادة ! .

وانفجر تشتشيكوف باكياً ، وجثا على قدميه أمام الحاكم العام ناسياً بزته الجديدة الفاخرة وصدارته المخملية وربطة عنقه الزرقاء وشعره المعطر بالكولونيا ولامس الارض بجبينه ، فصاح الحاكم :

- الى الخلف . .. نادوا الجنود وقودوه الى السجن .

- يا صاحب السعادة .

وأمسك تشتشيكوف بحذاء الحاكم العام فارتعش هذا غضبا وصاح :

- قلت لك الى الخلف ! ..

وحاول ان يخلص رجله من يدي بافل ايفانوفتش .

وصاح تشتشيكوف وهم يجرونه على الارض ، وقد تعفرت بزته بالاقذار :

ـ لن اذهب يا صاحب السعادة قبل حصولي على العفو !

ـ قلت لك اخرج!

كان الامير يشعر بالاشمئزاز الذي يشعر به الانسان أمام حشرة يأنف من سحقها . فسحب ساقه من يدي تشتشيكوف بعنف ، فاصيب وجه الاخير بركلة محتدمة ، ولكن بافل ايفانوفتش لم يرد الاستسلام ، فجاء دركيان قويان وجراه بالقوة خلال غرف القصر . وكان تشتشيكوف شاحب اللون لا يشعر بشيء فبدا كأنه رجل يرى الموت الاسود الذي يهز فينا اعماقنا ..

وعند الباب المؤدي الى الدرج شاهد تشتشيكوف موزاروف فشع في عينه بارق أمل .. عند ذلك افلت من بين يدي الدركيين وارتمى على اقدام العجوز المذهول :

ـ ماذا اصابك يا بتيوشكا بافل ايفانوفتش ؟

ـ انقذني .. انهم يقودونني الى السجن .. الى الموت .

ولكن الدركيين جراه بقوة دون ان يسمحا له بمتابعة الحديث . ووضع بطلنا في زنزانة قذرة رطبة ملئت باحذية الفلاحين البالية ، وكان فيها اطلال طاولة مخلعة وخيال كرسيين ونافذة صغيرة ومدخنة تملأ الزنزانة بالدخان . ولم يستطع تشتشيكوف في عجلته ان يجلب معه الاشياء الضرورية التي تلزمه ولا الصندوق الذي يحتوي على نقوده . وليس من ريب في ان اوراقه وعقود بيع النفوس الميتة قد وقعت في ايدي الحكومة . وارتمى بافل ايفانوفتش على الارض وقد اعتراه قنوط هائل ، وكان واضحاً ان الموت سيدهمه اذا استمر على هذا الوضع يومين متواليين . ولكن هناك روحاً حارسه تسهر عليه ، فلم تنقض ساعة حتى فتح باب الزنزانة ودخل موزاروف .

ولو ان حاجاً احرقه الظمأ وفقد القوى ، ثم شعر بالماء البارد العذب يسيل في

فمه ، لما شعر بالفرح أو الغبطة التي شعر بها تشتشيكوف المسكين .

فصاح وهو يقفز :

– يامخلصي ليباركك الله على زيارتك لشقي بائس .

ثم امسك بيد العجوز وقبلها وضغط بها على صدره .. وانفجر باكياً . انظر اليه موزاروف متألماً وقال :

– آه يابافل ايفانوفتش .. يابافل ايفانوفتش ... ماذا فعلت ؟

– لم استطع المقاومة ، ولم أعرف كيف اقف عند حد .. لقد اغراني الشيطان الملعون وافقدني عقلي .. لقد اخطأت ولكن كيف يستطيعون ان يتصرفوا هكذا ؟ كيف يوقفون نبيلاً دون تحقيق أو محاكمة ويلقون به في السجن ؟ بلى نبيل يا افناسي سيليفتش .. كيف لا يعطونني المجال للعودة الى منزلي وجاب لوازمي .. لقد تركت كل شيء مفتوحاً بما فيه صندوقي الذي يحوي جميع ثروتي التي جمعتها خلال سنوات قاسية حرمت نفسي فيها من كل شيء . صندوقي يا افناسي فاسيليفتش ، انهم سيسرقونني .. آه يا رب .

ولم يعد ان يسيطر على اعصابه ، فانفجر باكياً من جديد .. ولكن بصوت عال جداً ، وانتزع ربطة عنقه وأمسك بطرف معطفه الفخم ومزق قطعة من القماش الأنيق .

– كيف اعمتك الثروة يا بافل ايفانوفتش ومنعتك من فهم الحالة الرهيبة التي انت فيها؟

فصاح بافل ايفانوفتش في يأس :

– انقذني يا مخلصي .. ان الامير يحبك ولا يرفض لك طلباً !

– لا يا بافل ايفانوفتش .. لا استطيع انقاذك ، حتى ولو اردت ذلك ! فأنت لست في قبضة رجل فرد بل تحت قبضة القانون !

– ان الشيطان اللعين قد افقدني عقلي !

وضرب تشتشيكوف رأسه بالجدار ثم ضرب الطاولة بقبضة يده فأدماها ،

ولكن يبدو انه لم يشعر باي ألم .

ـ هدىء روعك يا بافل ايفانوفتش ، وفكر ان تتصالح مع ربك لا مع الناس .. فكر في روحك التعسة !

ـ ما هذا الحظ يا افناسي فاسيليفتش .. لم يصادف انسان قط حظاً سيئاً كالحظ الذي لازمني .. تصور الصبر والجهد الذي ابديته حتى جمعت الكوبيك فوق الكوبيك بعرق الجبين ، فاني لم اسرق خزينة الدولة كما فعل الآخرون. ولماذا كنت ارغب بالمال ؟ لأحيا بطمأنينة بقية ايام الحياة ! لأتركه لزوجتي واولادي .. ولهذا السبب وحده ضللت سواء السبيل . بلى اني اعترف بذلك ولكني ما فعلت ذلك الا عندما ايقنت ان الطريق السواء لا يوصلني الى هدفي ، فانحرفت ، ولكني لم آخذ إلا من الاغنياء .. وماذا نقول عن هؤلاء الاشقياء الذين يسرقون في المحاكم ألوف الروبلات من الخزينة ويأخذون آخر كوبيك من الذين لا يملكون شيئاً ؟ .. ما هذا الحظ السيء ؟ في كل مرة أكاد احصد فيها ثمرة جهودي تهب في وجهي العاصفة فأفقد كل شيء . لقد كنت أملك ثلاثمائة ألف روبل وبيتاً بثلاثة طوابق وقرية اشتريتها مرتين .. آه ياأفناسي فاسيليفتش لماذا كل هذا الحظ السيء ؟ اني اجد نفسي دوماً في مهب العواصف .. فأين ، أين العدالة الآلهية ؟ أليس ثمة مكافأة للصبر والعمل المستمر . لقد كتب علي أن أعاود البناء ثلاث مرات بعد كل مرة أخسر فيها كل شيء !لقد بدأت بالكوبيك وفي الوقت الذي يصبح فيه غيري سكيراً خاملاً كنت أناضل وأتألم وأربح كل كوبيك بالجهد والعمل .. لقد جمع الآخرون ثرواتهم بسهولة.. اني وجدت، كما يقول المثل ، كل كوبيك مسمراً على الارض بمسمار ثمنه ثلاثة كوبيكات وكان علي أن أظهر إرادة حديدية كي أنتزع المسمار وأحصل على ذلك الكوبيك!

ومن جديد أخذ تشتشيكوف يجهش بالبكاء ، ثم تهالك على كرسي ومزق في حالة يأسه وألمه معطفه الفخم وقذفه على الارض ثم أخذ ينتزع شعره ناسياً الجهود التي كان يبذلها لتنميته وتصفيفه متمتعاً بألمه مؤملاً ان يدفن بذلك آلامه

النفسية . أخذ موزاروف يتأمل فيه طويلا ! لقد كانت المرة الاولى التي يرى فيها رجلا سحقته مثل هذه الظروف المؤسية ، وفقد سيطرته على نفسه... ولقد كان تشتشيكوف . ذلك الرجل الاجتماعي البشوش ، يزحف أمامه على الارض ممزق الثياب قذراً دامي القبضة لاعناً القوى المعادية للانسان !

– آه ياباقل ايفا نوفتش .. ياباقل ايفانوفتش اي رجل كان بمقدورك ان تصبحه لوسخرت كل هذا الصبر والقوة والدأب من اجل الخير .. ومن اجل الهدف الشريف ! يا آلهي كم كنت تستطيع ان تفعل من المبرات .. لوكان للذين يقومون بالاعمال الخيرة نفس الارادة التي تسخرها لكسب الكوبيكات ، ولو كان هؤلاء يعرفون كيف يضحون بكرامتهم وكبريائهم ، ويقسون على أنفسهم كما قسوت على نفسك لكسب الكوبيكات .. لو حصل ذلك بالفعل ، اذن لتغيرت الارض بمن عليها .. آه ياباقل ايفانوفتش ، لست متألماً لانك مجرم بحق الناس بقدر ماانا متألم لاجرامك في حق نفسك .. وفي حق المواهب التي تملكها .. ان لديك من هذه المواهب ماهو كفيل بجعلك رجلا عظيما ... ولكنك خسرت نفسك وان للنفس أسرارها الغامضة . قابل رجلا انحرف عن جادة الطريق واقترف اقسى الجرام وفقد وجدانه الاخلاقي ، قابل مثل هذا الرجل المنحط وجرب ان تلومه على ذنوبه ، واتهمه بأنه قضى على مواهبه وصفاته الطيبة .. افعل هذا « اذن لوجدت شيئا ما في اعماق نفس هذا المسكين الشقي قد تحرك واختلج :

وقال تشتشيكوف المسكين وهو يمسك بيدي موزاروف :

– آه ياأفناسي فاسيليفتش ، لو استطعت ان اعود حراً ، ولو ترد ثروتي الي .. واذن فأنا اقسم لك بأني سأعيش على صورة اخرى .. انقذني ايها المحسن . رحماك انقذني !

– وماذا بمقدوري ان افعل ؟ هل أناضل ضد القانون . وحتى ، لو أخذت ذلك على عاتقي ، فان القضية بيد رجل عادل لن يتراجع عن حكمه مطلقاً !

– ايها المحسن ! انك تستطيع ان تفعل كل شيء .. ان القانون لايخيفني فأني أجد وسائل أدافع بها عن نفسي أمام القانون ، ولكني ألقيت في السجن ظلما وسأموت كالكلب الحقير ... وثروتي .. واوراقي ... وصندوقي ... انقذني ايها المخلص !

وضم تشتشيكوف ركبتي العجوز وبللهما بالدموع .

فقال موزاروف وهو يهز رأسه أسفاً :

– آه يابافل ايفانوفتش .. يا بافــل ايفا نوفتش .. لقد أعماك المال وخنق صوت ضميرك ..

– سأفكر في ضميري فيما بعد .. ولكن انقذني الآن!

– ليس في مقدوري يابافل ايفانوفتش ان أنقذك وسأعمل كل ما أستطيع ليخففوا من عقابك وليطلقوا سراحك ، ولكن هل أنجح ؟ في الحق لا أدري ، الا اني سأسعى واذا نجحت فاني أطلب اليك ان تكافئني بالتخلي عن هــذه المناورات من أجل المال .. واني اقول لك إني لوفقدت ثروتي ، وهي اضعاف ثروتك ، فلن ابكي عليها .. وما اهمية الثروة التي يمكن ان تفقد في كل لحظة وتبذر ؟ .. هناك ثروة لايستطيع احدحرمانك منها ! لقدرأيت مايكفيك لتفهم الحياة ، وقد شبهت نفسك ، من تلقاء نفسك ، بمركب تتقاذفه الامواج وتبتعه اللجج ، ولديك من المال مايكفيك لقضاء بقية أيام حياتك . فاذهب الى بقعة هادئة نائية قرب كنيسة وعش مع أناس بسطاء أنقياء القلوب ، واذا أردت ان يكون لك اولاد فتزوج من فتاة طيبة ليس لديها ثروة ، ومعتادة على الحياة البسيطة المتواضعة . انس العالم ومغرياته فانه بدوره ينساك ، والعالم لا يقدرعلى منحك السلام إذ ان كل شيء فيه فاسد وقبيح و ...

– أجل .. اني أقسم لك ، .. لقــد كنت أريد .. كنت ارغب ان ابدل حياتي وأن أصبح ملاكاً صغيراً .. بسيطاً متواضعاً ، ولكن الشيطان اضلني ، لقد اغراني اللعين !

كانت مشاعر غامضة مجهولة تستيقظ في اعماق تشتشيكوف .. عميقة بعيدة الغور ، خنقتها منذ طفولتها التربية القاسية الفاسدة والافتقار الى الحب والعطف اللذين يحتاج اليها الاطفال ، وحجبها الفقر المدقع والانطباعات الشقية التاعسة الاولى ، والقدر القاسي الذي نفذ اليها وغشاها بظلمه .

وتنهد تشتشيكوف ، وتمتم وهو يغطي وجهه بيديه : « انها الحقيقة ، انها الحقيقة » ...

وتابع موزاروف :

ـ هكذا فان معرفتك بالناس وتجاربك العديدة لم تساعدك على الخروج عن الطريق السيء .. آه يا بافل ايفانوفتش .. لماذا أضعت حياتك ؟ استيقظ .. لم يفت الأوان بعد ، امامك الزمن ..

فتمتم بطلنا بلهجة مزقت قلب موزاروف :

ـ لا .. لقد فات الأوان .. فات الأوان .. لقد بدأت أفهم ! أشعر الان الآن باني لست على الطريق المستقيم .. لقد ضللته وأصبحت بعيداً جداً ، ولن استطيع النكول .. لقد ربيت تربية فاسدة جداً ، كان أبي يلقنني دروساً في الاخلاق ويضربني ويرغمني على نسخ الامثال والحكم وفي نفس الوقت كان يسرق أخشاب جيرانه ويجعلني شريكا له في سرقته .. لقد فسق بيتيمة كان هو نفسه وصياً عليها .. ان المثل السيء او الصالح أقوى من الكلام المنمق .. أجل يا افناسي فاسيليفتش ، ارى الآن وأحس بأني لا أحيا حياة مستقيمة ، ولكني لا أشمئز من الخطيئة ، فطبيعتي فاسدة ، وانا لا اعرف حب الخير ولا اشعر برغبة في الحياة الصالحة ، بل اركض وراء الثروة لا وراء الخير .. اني أقول الحق .. فما العمل ؟

فتنهد العجوز بعمق وقال :

ـ لديك يا بافل ايفانوفتش قدرة كبيرة على المثابرة .. ولديك إرادة من فولاذ .. ان الادوية مرة المذاق ولكن المريض يتناولها لان الشفاء يستحيل

بدونها .. انت لا تشعر بحب الخير .. أعمله دون حب ، وارغم نفسك على عمله إرغاماً ، واذا فعلت تكون اكثر فضلاً ، وستكون لديك الشجاعة التي تفوق شجاعة الرجل الفاضل بالطبع اضعافاً مضاعفة !. افعل ذلك مرات عديدة يدخل الحب قلبك .. صدقني انه لا شيء يدرك دون جهد . ويقول المثل : « يجب غزو التاج ولكن الجهد ضروري للوصول اليه .. » يجب إذن ان تناضل وتهاجم وتنافح .. ولديك قوتك الصميمية يا بافل ايفانوفتش ، تلك القوة التي لا يملكها الآخرون .. لديك الارادة والعزم ، فلماذا لا تربح هذه الجولة في صراعك مع نفسك ؟ ان لديك نفسية البطل ، ورجال اليوم ضعاف فاترو العزم.

اثرت هذه الكلمات في نفس تشتشيكوف تأثيراً عميقاً ، وكانت نظراته تعكس تصميما او شيئاً يشبه التصميم . وقال بصوت ثابت :

— إذا استطعت ان تنقذني يا افناسي فاسيليفتش ،واذا استطعت ان اغادر هذا البلد بثروة صغيرة فانا اعاهدك على اني سأبدأ حياة جديدة .. فأشتري قرية صغيرة واصبح ملاكاً متواضعاً ، واقتصد في مصروفي لا لأثري ولكن لأساعد أشباهي ، وسأعمل الخير بكل ما أملك من قوى ناسياً انانيتي ، هاجراً مباهج المدينة وحفلاتها ، واعيش بكل بساطة وتقى !

فهتف العجوز وقد تهلل وجهه بالسعادة :

— فليمدك الله بالقوة لتنفيذ ما صممت عليه .. سأسعى لدى الاميركي يطلق سراحك ، والله وحده يعلم عما اذا كنت سأنجح في مسعاي ام لا ، وعلى اي حال سيحسنون في معاملتك .. عانقني إذن ودعني اقبلك فكلماتك سرتني .. وليكن الله معنا ، سأذهب الى الامير لتوي .

وظل تشتشيكوف وحده مع نفسه .

ان البلاتين ، وهو اصلب المعادن ، يلين آخر امره تحت تأثير النار القوية فيبياض ثم يصبح سائلاً . وهكذا فان اكثر الناس تصلباً يلين ويميع امام لهب المحن القوية التي تحرق طبيعته المتحجرة.

وقال تشتشيكوف في نفسه : « اني انسان عاجـز . . . عديم الحس ... ولكني سأستعمل كامل قواي كي أدل الآخرين على الخير ... اني سيء وشقي ولكني سأستخدم كل جهودي لأجنب امثالي الشر . . ما أنا بالمسيحي الصالح ولكني سأساعد قريبي كي لا يسقط في التجربة ... سأشتغل بعـرق جبيني في قريتي وسأكون شريفاً في معاملاتي ، لاحدث التأثير الحسن على من حولي ... ولماذا لا أكون عضواً نافعاً ؟ لدي كثير مـن المعلومات في أمور الزراعة ، وانا نشيط وحريص ، عاقـــل ومثـــابر ولكن يجب أن أتسلح بالادارة والحـــزم ! »

هكذا كان يفكر تشتشيكوف . .. وأضاء وجهه نورعـذب ، وبدا أن روحه قد بدأت تدرك ان هناك واجباً على الانسان أن يقـوم به ... وانه بالامكان تأديته في جميع وحتى في العزلة ... ومهما كانت الشروط والعقبات والفوضى والاختلال في مجتمعه الذي يعيش فيه ...

وحلم بافل ايفانوفتش بحياة العمل بعيداً عن ضجيـج المـدن الكبرى وعن مغرياتها الحمقاء التي خلقها الانسان بابتعاده عـن قانون الواجب ... وارتسمت هذه الحياة في مخيلته بقوة حتى لقد نسي تشتشيكوف هـول الحالة التي يعانيها وكان مستعداً لأن يشكر العنايه الالهية على هذه المحنة القاسية شرط ان يستعيد حريته ويحصل على قسم من ثروته .

وفتح باب الزنزانة ودخل موظف يدعى ساموسفيستوف وهورجل ابيقوري عريض الكتفين قوي طيب المعشر و « حيـوان لطيف ماكر » كما يسميه أصدقاؤه .

ورجل من نوعه يمكن أن يقوم ايام الحروب بالمعجزات فهـو يستطيع ان يدخل اي مكان مهما كان خطراً او منيعاً ، بل ان يسرق مدفعاً تحت سمـع العدو وبصره .

ولكن عدم وجود ساحـة قتال يمكنـه العيش كجندي شريف جعل منه

وغداً في الحياة المدنية . والغريب انه ذو مبادئ اذ هو طيب مع اصدقائه ... لايخون احداً منهم ويفي بجميع وعوده ولكنه كان يعتبر رؤساءه كمعسكر معاد تجب مهاجمته وتشويه سمعته والاستفادة من أبسط أخطائه . وما إن اغلق الباب حتى قال لتشتشيكوف :

ــ نحن نعلم الحال الذي انت عليه ... وهـذا لا يعـد شيئاً . . . لا تفقد شجاعتك فسندبر كل شيء ، سنعمل من اجلك ومن أجـل خدمك ولن نطلب منك أكثر من ثلاثين الف روبل فقط دون زيادة كوبيك واحد .

فهتف تشتشيكوف :

ــ أحقاً ... وهل أخرج بريئاً ؟

ــ تماماً وستدفع لك تعويضات !

ــ والثمن ؟

ــ ثلاثون الف روبل عن كل شـــيء ... ويدخـــل فيهـم مساعدو الحاكم والسكرتير .

ــ ولكن اسمح لي . . كيف أستطيع ؟ ان حوائجي ... وصندوقي كلها مصادرة ومختومة ...

ــ ستحصل عليها كلها بعد ساعة واحدة ... هل اتفقنا ؟

وصافح تشتشيكوفساموسفيستوف وكان قلبه يخفق بشدة إذ لم يستطع أن يصدق أن كل هذا ممكن .

ــ الى اللقاء اذن ... ان صديقنا الذي يشترك معنا في هذا العمل يوصي بالصمت التام وحضور البديهة .

فقال تشتشيكوف :

ــ دا ... لقد فهمت ... انه المحامي

واختفى ساموسفيستوف وعندما أصبح تشتشيكوف وحيداً خيل اليه انه يحلم ، ولكن لم تمر ساعة حتي حملت اليه حوائجه بما فيها الصندوق والاوراق ولم

ينقص منها اي شيء

لقد حرص ساموسفيستوف على الذهاب بنفسه الى منزل تشتشيكوف وأخذ الصندوق واستولى على الاوراق التي يمكن ان يدان بها بافل ايفا نوفيتش، ولفها في حزمة ثم طلب من جندي ان يحملها اليه قائلاً له :

« انها حاجات ضرورية للسجين في الليل » .

وهكذا حصل تشيتشيكوف على حوائجه كلها وأصبح لديه لباس دافيء يقيه برد السجن ... وشعر بالفرح يغمره، وعادت تهاجمه الاحلام من جديد، وبهتت في مخيلته صورة القرى والهدوء والانعزال لتحل محلها صورة المسارح والاعياد والحفلات وضجيج المدن .

وفي تلك الاثناء كانت قضية تشيتشيكوف تأخذ دوراً كبيراً في المحاكم وجميع المكاتب الادارية . اذ اخذت الاقلام تحدث صريراً عن احتكاكها بالورق في حين ينفق التبغ بكميات وافرة بين انوف الموظفين المساكين تتعب وتشتغل . وكانت الفصول الطويلة تنضم الى بعضها في مسودة الورق وتنفصل . . . وكان المحامي كسحابة غير منظورة يهيمن على جميع هذه التدابير ويخلط بين جميع الخيوط فيزيد بذلك الارتباك والغموض .

واما سامو سيفيستوف فقد كان جريئاً وقحاً . لقد علم اين وضعت المرأة شريكة تشتشيكوف فذهب بجرأة اليها وعرف كيف يتحدث الى الحارس كسيد آمر مما جعل يبدي له جميع ضروب الاحترام .

– هل انت هنا منذ زمن طويل ؟

- منذ هذا الصباح ياصاحب السعادة

– انا في حاجة اليك وسأطلب الى الضابط ان يستبدل بك آخر سواك .

– كما تشاء ياصاحب السعادة

وعاد سامو سفيستوف الى بيته وبما انه لم يكن يريد ان يشرك احداً في

هذه العملية فقد تنكر بشكل دركي ووضع شاربين طويلين وسالفين مسترسلين .. فلم يعد الشيطان نفسه بقادر على تمييزه .. وعاد بعد ذلك الى السجن وحل مكان حارس شريكة تشتشيكوف مدعيـــا انه بديله . ثم اعتقل اول امرأة شاهدها في الطريق . وبعد لحظات معدودة هربت الشريكة ولم يعلم انسان قط اين اختفت ، بينما كانت الفلاحة المسكينة تأخذ مكانها في الزنزانة دون ان تفهم شيئاً من القصة .

وفي الوقت الذي كان سامو سفيستوف يمثل فيه دور الدركي ، كان المحامي يحقق معجزات اخرى ، فقد ذهب الى الحاكم العام وقال له ان المدعي العـــام قد أرسل تقريراً ضده الى بطرسبرج ، ثم سارع الى قائد الدرك وقال له ان موظفا مجهولاً يتهمه في كتاب سري بأخطاء جسيمة . وقد قام المحامي بمهارة حتى جن الجميع خوفاً وأخذوا يطلبون معونتـــه ونصحه . عند ذلك بلغت الفوضى ذروتها وانهالت الوشايات واكتشفت فضائح لايستطيع عقل بشري ان يتصورها كما اخترعت الى جانبها فضائح أخرى .. ففلان ولدغير شرعي والآخر له عشيقة .. وهذه المرأة تخدع زوجها ، وامتزجت الفضائح والقبائح مع قضية تشتشيكوف والنفوس الميتة الى حد انه لم يعد في مقدور انسان ان يعرف او يحكم على أهمية كل من هذه القصص .. واخيراً وعندما وصلت جميع الوثائق ألى الحاكم العام ، اصبح الامير المسكين غير قادر على فهم شيء واحد . وكاد أذكى موظف عنده ، كلف بتلخيص الوثائق ، ان يفقد عقله ، اذ كان من المستحيل اكتشاف خيط واحد من الزور .

وكان الحاكم العام علاوة على ذلك يرزح تحت ثقل هموم اخرى فقد كانت المجاعة منتشرة في قسم من حكومته ، وكان الموظفون الذين ارسلهم لتوزيع القمح قد ارتكبوا اخطاء جسيمة .. وفي بعض المقاطعات كان بعض الانفصاليين ثائرين اذ انتشرت بينهم شائعة مفادها ان عدو المسيح قد ولد على الارض وانه يزعج الموتى بشرائه النفوس الميتة وبيعها . واخيراً فقـــد قام قسم آخر من

الفلاحين في مقاطعة اخرى بثـــورة وعـــلى أسيادهم وعلى البوليس ، اذ ان بعض المتشردين استطاعوا اقنـــاعهم بأن لهم الحق في ان يصبحوا ملاكين يلبسون الفرو ويجعلون السادة يزرعون الارض بدورهم . وكذلـــك رفضت منطقة اخرى ان تدفع الضرائب وهددت باستعمال السلاح فكان يجب اللجوء الى الجيش . . وهكذا كان الامير بائساً .

وفي ذلك الصباح أعلن له عن مجيء موزاروف فأمر بادخاله . وما إن دخل العجوز حتى هتف الحاكم :

ـ انه جميل .. صاحبك تشتشيكوف .. وتجرؤ أيضاً على الدفاع عنه .. هو لص لا مثيل له .

ـ اسمح يا صاحب السعادة ، اني لا أفهم القضية جيداً .

ـ هو متهم بتزوير وصية .

ـ لست أدافع عن بافل ايفانوفتش يا صاحب السعادة ، ولكن التحقيق لم يستكمل شروطه بعد .

ـ عندنا الادلة اللازمة .. انتظر قليلاً سأدعو المرأة التي شاركته في جريمته وسأستجوبها امامك !

وقرع الاخير الجرس وامر باستدعاء المرأة فصمت موزاروف .

وهتف الامير :

ـ هذا فظيع .. وأشد من ذلك فظاعة أن جميع الموظفين الكبار بما فيهم الحاكم المدني نفسه ، لهم علاقة بالقضية .. هل لاحظت ..ان الحاكم المدني نفسه شريك اللصوص والمزيفين ؟

ـ ان للحاكم حقاً في الارث .. أما بالنسبة للآخرين فهذا طبيعي . هناك امرأة غنية تموت دون ان تترك وصية معقولة .. لقد طالب الكثيرون بحقوق في الارث ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة للنفس الانسانية .

فصاح الامير مغتاظاً :

– ولكن لماذا يرتكبون هذه الدناءات ؟.. ان جميع موظفي لصوص .

– أتعرف يا صاحب السعادة رجلاً واحداً خالياً من الخطيئة ؟ ان لموظفي مدينتنا مزاياهم ، فهم يقومون بواجبهم ، ولكننا جميعاً غير معصومين عن الخطأ !

– اسمع لي يا افناسي فاسيليفتش .. انك الشريف الوحيد هنا ، ولكن قل لي لماذا تصر دوماً على الدفاع عن المجرمين ؟

فأجاب موزاروف :

– مهما يكن الانسان الذي تدعوه مجرماً ، يا صاحب السعادة ، فانه مع ذلك انسان . وكيف لا ندافع عن الانسان عندما نعلم ان نصف الذنوب والاخطاء التي يرتكبها تعود الى جهله .. نحن نرتكب اخطاء في كل خطوة من خطواتنا ، ونكون في كل لحظة سبباً في شقاء احد اشباهنا ، وحتى عندما تكون نيتنا سليمة .. وانت نفسك يا صاحب السعادة لقد كنت ظالماً في يوم من الايام :

فهتف الامير مذهولاً :

– وكيف ذلك ؟

وقال موزاروف بعد لحظة تفكير :

– تذكر قضية در بنيكوف ..

– ان الخروج عن القوانين الاساسية للامبراطورية معناه الخيانة .

– أنا لا ألتمس له الاعذار ، ولكن أمن العدل ان نحكم على شاب جر الى الجريمة جراً ، بنفس القسوة التي نحكم فيها على المجرم نفسه ؟ ..ان الحكم على دربنيكوف كان يجب ان يكون غير الحكم على فورون ، إذ ان الذنب ليس واحداً .

فهتف الامير وقد ظهر عليه التأثر :

– يا لله ! ولكن أتعرف شيئاً عن هذه القضية .. لقد كتبت الى بطرسبرج طالباً تخفيف العقوبة :

– لا يا صاحب السعادة ، فانا لا أعلم شيئاً تجهله ، ولكن هناك ظرفاً كان يمكن ان يكون من صالح دربنيكوف لم تفتني ملاحظته .. ولكن هـــذا الأخير كان سيرفض استعمال هذا الظرف خوفاً من ان يسبب الحكم على شخص آخر .. واني أسمح لنفسي بان اقول لك انك تسرعت اكثر مما ينبغي .. اعذرني يا صاحب السعادة ، فأنا احكم على الامور ببساطة من خلال ذكائي .. وانت نفسك كثيراً ما رجوتني ان اتحدث اليك بصراحة .. اني رئيس ،ولدي كثير من العمال وفيهم الطيب والشرير ، فعلينا دوماً ان نتفحص ماضي الانسان ... لأنه اذا أهمل بحث الامور بهدوء أو إذا غضب فانه يخيف المتهم فلا يحصل منه على اعتراف صحيح . ولكن اذا توجهنا اليه بلطف وأخوة فانه سيسارع الى الوثوق بنا ولن يطلب منا اذ ذاك اي تخفيف لعقوبته ، لانه يعلم ان القانون هو الذي يعاقبه لا قريبه .

وفكر الامير قليلاً ثم قال :

– قل لي بنفسك ياافناسي فاسيليفتش . أيجب ان أطمس القضية ، وهل من العدل العفو عن هؤلاء المجرمين جميعاً .

– العفو ... ولكن هنـاك بين الموظفين ، ياصاحب السعادة ، من هم آهل للاحترام والتقدير ... ان ظروف الحياة كثيراً ماتقسو على الانسان ياصاحب السعادة ، .. وهنـــاك حالات يبدو فيها الانسان مجرماً ولكن اذا درسنا القضية بعمق نرى انه لاجريمة هناك .

– ولـــكن ماذا يصنعون اذا تركتهم وشأنهم ؟ سيصبح بعضهم اكثر غروراً ، وسيقولون بأني خفت منهم ولن يحترموا بعد ذلك شيئاً !

– اسمح لي ياصاحب السعادة ان أدلي اليك برأيي : اجمعهم كلهم هنا وافهمهم بأنك تعرف جميع اخطائهم وجرائمهم ، وصف لهم الحالة التي تجد نفسك فيها ، واطلب منهم ان يقولوا لك ماذا سيفعلون لوكانوا في مثل موقفك !

– ولكن أتعتقد أنهم قادرون على فهم مثل هذا الشعور ، وهم الذين اعتادوا

على الكذب والتآمر ... انهم سيسخرون مني .

– لا اعتقد ذلك ياصاحب السعادة ، ان الانسان مهما كان منحطاً ، فانه يحتفظ بشيء من العدالة ... وربما شذ عن ذلك اليهودي المتصلب ، ولكن الروسي لا يفعل ذلك ... لا ياصاحب السعادة ، لافائدة من اخفاء شيء عنهم ... بل هم يعتبرونك اذ ذاك كرجل متكبر طموح واثق من نفسه يحتقر من هم دونه .

فأجاب الأمير حالماً :

– سأفكر ياافناسي فاسيليفتش واني شاكر لك نصحك !

– وتشتشيكوف ياصاحب السعادة ... اتطلق سراحه ؟

– قل لتشتشيكوف هذا أن يغادر المدينة دون تأخر الى ابعد مكان ممكن . وغادر موزاروف الامير وذهب تواً الى تشتشيكوف فوجد بافل ايفانوفتش في حالة جيده وقد انتهى من تناول وقعة طعام فاخرة أرسل من يشتريها له من المطعم المجاور . ومنذ الكلمات الاولى فهم موزاروف ان بافل ايفانوفتش استقبل موظفاً صديقاً وان المحامي الذي تعرفه المدينة باسرها يهتم بأمره فقال له :

– اصغ الي ياباقل ايفانوفيتش ... لقد جئت لأعلمك بانه قد أطلق سراحك شريطة ان تغادر المدينة فوراً ، فاحزم حقائبك بأسرع ما يمكن ولا تضيع دقيقة واحدة لئلا يفسد الامر ... لقد استقبلت رجلًا أحدث في نفسك تأثيراً . انا عالم بذلك ولكني انذرك بأن قضية رهيبة ستهيأ وان يستطيع شيء ان ينقذ هذا الرجل ... انه شقي يسر بتضليل أشباهه وهو يلهو ، ولكنه سيدفع بلا ريب ثمن خطيئاته ... لقد تركتك منذ ساعات في حالة نفسية غير تلك التي اجدك الآن عليها ... اني امر لك نصيحتي الاخيرة فاستمعها ، لست مازحاً ، يجب ان تنسى الثروات العديمة الجدوى التي يختصم عليها الناس ويقتتلون معتقدين انهم يستطيعون تكوين سعادتهم في هذه الدنيا دون الاستعداد للحياة الابدية ... ومهما كنت تعتقد فان الجسد متعلق بالروح دوماً . . انس ياباقل

ايفانوفتش نفوسك الميتة ولو مرة واحدة ، ولكن اعمل . من اجل نفسك الحية وليساعدك الله على اتباع النهج الويم وانا أنذرك الآن باني ذاهب وانت هنا بدوني ستهلك لامحالة .

وخرج العجوز بعد هذه الكلمات وبقي تشتشيكوف يفكر . . . واخذ من جديد يتأمل في المعنى العميق للحياة وقال : « ان موزاروف على حق ، وقد آن لي ان اغير مجرى حياتي ! »

وبعد لحظات غادر بافل ايفانوفتش السجن يتبعه جندي يحمل له صندوقه وحاجاته ، وكم كان فـــرح سليفان وبتروشكا عظيما باطلاق سراح سيدهم الذي قال لهما :

– هيا ياصديقي الصغيرين . . . أعد كل شيء وبسرعة كي نرحل من هنا .

فهتف سليفان :

– ستكون رحلتنا جيدة ، فالطريق جميل ولاسيما بعدان غطته الثلوج . . . لقد آن لنا ان نهرب من هذه المدينة اللعينة ، وانا شخصياً لم أعد استطيع حتى مجرد النظر اليها ، أجل لقد سئمتها كثيراً .

وقرر تشتشيكوف ان يرحل دون ان يودع احداً ، ذلك انه لم يعد يستطيع ان يشاهد أيا كان بعد الشائعات التي دارت حوله . فاجتنب كل لقاء ممكن ، وذهب بسرعة الى التاجر الذي اشترى قماش بزته الفاخرة التي مزقها في السجن . واشترى منه قماشاً مماثلا ثم هرع الى الخياط وناوله الاجر مضاعفاً كي يسرع له في العمل . فاشتغل عماله طيلة الليل على ضوء الشموع وانتهوا من عملهم في الصباح الباكر ، وكانت العربة معدة وكل شيء ينتظر .

واراد تشتشيكوف مع ذلك ان يجرب البزة ؛ كان المعطف جيداً كالمعطف السابق ، ولكن لسوء الحظ لاحظ تشتشيكوف وهو يتأمل نفسه في المرآة ان رأسه قد صلع قليلاً . . . ففكر : « لماذا يئست البارحة . . . ولماذا اقتلعت شعري .

وأخيراً رحل !

ولكن تشتشيكوف الذي كنا نعرفه قد زال من الوجود ، وبافل ايفانوفتش الذي نعرفه الآن ليس الا خرائب واطلال كالمنزل المتداعي ، ولكن المواد الاولية مازالت موجودة لاعادة بنائه ، الا ان المهندس غير موجود ولذلك فان العمال ينتظرون قبل مباشرة العمل .

وكان موزاروف قد غادر المدينة قبل تشتشيكوف بساعة واحدة ، وبعد ان رحل بافل ايفانوفتش بساعة واحدة ايضاً استدعى الامير جميع موظفي المدينة الى اجتماع فوق العادة لانه يريد ان يراهم قبل ان يذهب الى بطرسبورج .

* * *

اجتمع الموظفون في قاعة قصر الامير الكبرى من الحاكم العام الى الحاكم المدني الى اصغر موظف في السلك . وكان الى جانب هؤلاء رؤساء المصالح والدوائر والمستشارون وكسيلوادوف وساموسفيستون وكراستونوف . . . وكان ايضاً جميع الذين يقبلون الرشاوي ويرفضونها ويطلبونها والذين يعلمون دوماً ضد ضميرهم دون أي تردد . .

وكان الجميع قلقين ينتظرون الحاكم العام ... ووصل أخيراً الامير وكان يبدو عليه البرود ، وكانت نظرته ثابتة كمشيته ، فحياه جميع الموظفين وانحنى بعضهم كثيراً جداً ، فأجاب عليهم بحركة خفيفة من رأسه ثم بدأ كلامه فقال :

— اني ذاهب الى بطرسبورج ... وقد رأيت من واجبي ان ادعوكم جميعاً قبل ارتحالي ... وسبب هذا الاجتماع لايخفى عليكم دون ريب ... لقد حصلت قضية شائنة وأدى التحقيق فيها الى اكتشاف فضائح أخرى لاتقل عنها نذالة ، يدان فيها اشخاص كنت اعتقد انهم شرفاء . وقد علمت بالاهداف السرية التي يعمل لها بعضكم ، اذ يخلطون الامور ويتآمرون كي يجعلوا حكم السلطة في

هذه القضايا مستحيلا ... وأنا اعرف المسؤول الرئيسي عن هذه الاعمال بالرغم من انه بذل أقصى الجهود لاخفاء تصرفاته ... واخيراً وكي لاأضيع الوقت سدي ، سأوقف التحقيق وسأحيل هذه القضايا الى المجالس العرفية لحلها بعد ان اعلن حالة الحصار التي أرجو ان يوافقني القيصر عليها . فعندماتعجز العدالة المدنية وعندما تتراكم الأكاذيب وتحترق الملفات العامرة بالوثائق ... وعندما يحاول الجميع ان يوقعوا الارتباك في قضايا غامضة بحد ذاتها ... عند ذلك كله لا اجد طريق للسلام الا المحكمة العسكرية . وقد جئت لآخذ رأيكم .

وسكت الامير كما لوكان ينتظر جو بينما احتفظ ابأ الموظفون بالصمت خاشعي الابصار شاحبي الوجوه ... وتابع الامير :

– ومع ذلك فقد نجحت في اكتشاف مؤامرة من نوع خاص بالرغم من ان مرتكبيها لايزالون يعتقدون حتى اليوم بأن احداً لايعرفها . ولن يتم التحقيق في المكاتب بعد الآن لاني سأقوم بهذا التحقيق بنفسى وسأقدم الادلة بنفسى ايضاً لأدانة الاشخاص

ارتعش موظف اثناء الاجتماع واضطرب عدة موظفين .

فتابع الامير :

– من الطبيعي ان يفقد المجرمون مكانتهم الاجتماعية واملاكهم ووظائفهم وسيضرب اسوء الحظ بعض الابرياء ولكن ماالعمل ? .

لقد استشرى الشر ويجب ان تأخذ العدالة مجراها ... انا اعلم ان سقوطكم من يفيد كامثولة لمن سيأتون بعدكم ... فأشرف الموظفين يصبحون أدنياء ، وسيخدعني الذي أثق بهم ومع ذلك يجب ان أتصرف بقسوة لان العدالة يجب ان تسير في مجراها ، ولذا سأجعل من نفسي آلة صماء تطيح بالرؤوس تحت راية العدالة .

وارتجف جميع الموظفين .

اما الامير فقد كان هادئاً ولم يعبروجهه لاعن الغضب ولا عن الحنق ، ثم تابع :

- والآن لتعلموا هذا ... ان الذي في يده جميع مصائركم في هذه المقاطعة، وان الذي لايلين امام توسلاتكم.. انه بنفسه يتوسل اليكم ان تتحدثوا اليه ... ان كل شيء سينسى وسأدافع عنكم اذا وافقتم على اجابتي الى ما أريد ... اما هذا الرجاء فهو :

اني اعلم انه لايوجد قصاص او تهديد قادر على محو الظلم في الارض. ان جذوره عميقة جداً وجميع الموظفين يقبلون الرشوة .. لقد اصبحت الرشوة عادة حتى بالنسبة للذين ولدوا شرفاء .. ومن المحـال ان يقاوم الانسان تيارها .. ولكن بما ان المواطن مطالب في الساعات الحرجة الفاصلة ان ينقذ وطنه ولو رأى نفسه مرغماً على التضحية بكل شيء . بما ان الامر كذلك فأنا أتوجه الى الذين في صدورهم قلب روسي صحيح ، والى الذين يفهمون معنى الشرف . ماذا يفيدنا ان نتسائل من الاكثر جرماً بيننا؟ وانا ربما ارتكبت من الاخطاء اكثر مما ارتكبتموه ، وربما استقبلتكم بالرهبة والبرود في اول عهدكم بالعمـل ، وربما جعل موقفي هذا ، بعض الذين يريدون خدمتي ان يتراجعوا .. ومـع ذلك فلو أنهم ارادوا بالفعل ان يخدموا العدالة ويعملوا لسعادة وطنهم ... لو انهم ارادوا ذلك لخنقوا كرامتهم الفردية . وعند ذلك لابد ان يؤثر في عنادهم فأستمع في يوم ما الى نصائحهم المخلصة العاقلة . اني اعتقد بان المرؤوس هو الذي يجب ان يكبح جماح شعوره . وليس الرئيس مرغماً على الخضوع لحـالات مرؤوسيه النفسية، وهذا شيء مشروع لان الرئيس واحـد فرد بينما مرؤوسيه عديدون .

ولكن لندع التساؤل عن اكثرنا ذنباً ، فان الامر يتعلق بانقاذ وطننا... ان هذا الوطن لايتلقى الضربات من عشرين شعب عدو ولكنه يموت تحت وطأة ضربات ابنائه ... ان رجل الدولة مهما كان عاقلاً ماهراً فـأنه لايستطيع ان يستأصل الشر حتى ولو راقب ابسط الموظفين . لقد اصبح هؤلاء قوة يؤبه لها

... لقد اصبحوا دولة ضمن دولة ، وحكومة داخل حكومة الامبراطورية .. وسيبقى كل مجهود باطلا اذا لم يفكر كل منا كما فكر ايام الغزوات الكبرى ، فأن عليه المناضلة ضد الفساد .

اني اتوجه اليكم كما يتوجه الروسي الصميمي الى الروس . اتوجه الى جميع الذين يعرفون معنى نبل القلب والفكرة . وادعوكم جميعاً الى تذكر الواجب المقدس الذي يقع على عاتق كل انسان فوق ظهر البسيطة .



دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

اصدرت من

سلسلة عيون الأدب العالمي

١ – الأم ، لمكسيم جوركي
٢ – المؤلفات الكاملة ، لأنطون تشيخوف
٣ – تولستوي ، لستفان زفايج
٤ – روائع من ألادب الألماني
٥ – نيتوتشكا ، لفيدور دوستويفسكي
٦ – قوي كالموت ، لجي ده موباسان
٧ – الأخوة كرامازوف ، لفيدور دستويفسكي
٨ – الساقطون ، لمكسيم جوركي
٩ – عقل وعاطفة ، لجين أستن
١٠ – بين جوركي وتشيخوف
١١ – إبنة الضابط ، لألكسندر بوشكين
١٢ – حياة صاخبة ، لجي ده موباسان
١٣ – حب وحرب ، لرومان رولان
١٤ – الجريمة والعقاب ، لفيدور دستو يفسكي
١٥ – بين الناس ، لمكسيم جوركي
١٦ – الساعة الخامسة والعشرون ، لكونستانتان جيورجيو
١٧ – النفوس الميتة ، لنيقولا جوجول
١٨ – مرتفعات ويذرينج ، لاميلي برونتي